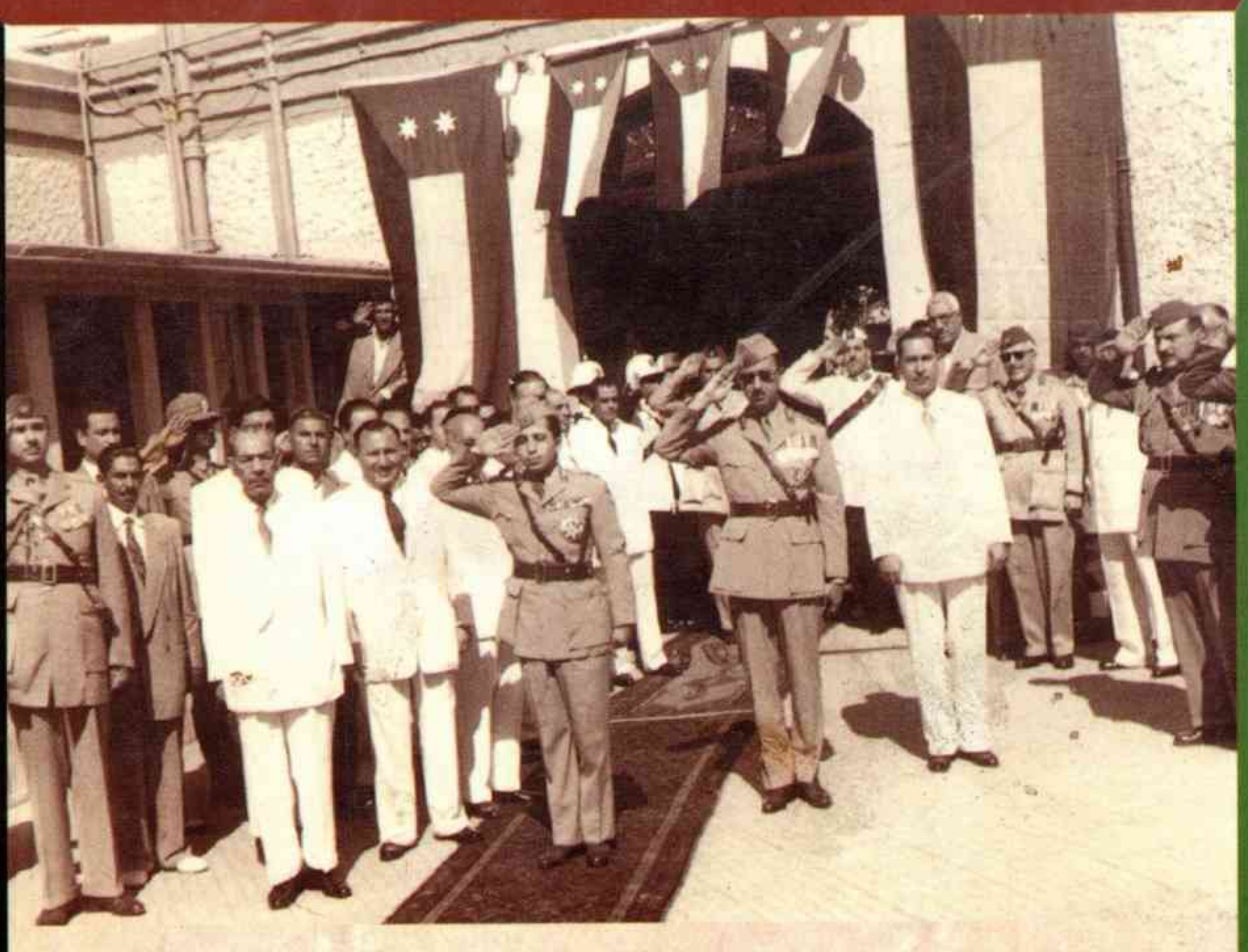


مذكرات

عبد المجيد محمود

الوزير في العهد الملكي بالعراق

أعدها وعلق عليها وقدم لها

د. عماد عبد السلام رؤوف

دار الحكمة

لندن

اشتريته من شارع المتنبي ببغداد
فـــي 26 / ذو الحجة / 1444 هـ
الموافق 14 / 07 / 2023 م

سرمد حاتم شكر السامرائــي



مذكرات عبد المجيد محمود

الوزير في العهد الملكي في العراق

أعدها وعلق عليها وقدم لها

الدكتور عماد عبد السلام رؤوف

Twitter: @sarmed74 Sarmed- المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي
Telegram: https://t.me/Tihama_books قناتنا على التليجرام: كتب التراث العربي والاسلامي

دار الحكمة
لندن

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

كاتب هذه المذكرات هو المرحوم عبد المجيد محمود القرغولي، عضو المجلس النيابي، ووزير الاقتصاد والمالية والإعمار في أواخر العهد الملكي في العراق. ولد في محلة الهيتاويين ببغداد سنة ١٩٠٩ من أسرة بغدادية عربية النِجار، وتلقى تعليمه في بعض كتاتيب محلته، ثم التحق بالمدرسة الجعفرية حيث نال تعليمه الأول، وانتقل منها، مع زملاء له إلى المدرسة الثانوية (الإعدادية المركزية) حيث تخرج فيها بتفوق سنة ١٩٢٧، وقاده طموحه العملي إلى الالتحاق بالبعثة الدراسية لوزارة المعارف (التربية فيما بعد) فواصل دراسته في الجامعة الأمريكية في بيروت، وحاز فيها على شهادة الـ Fresh Man) وكانت تمنح للمتخرجين من الصف الأول العلمي، وعاد بعد تخرجه ذلك إلى بغداد، ولكنه لم يلبث أن التحق، مرة أخرى، بالبعثة، فسافر إلى بيروت ومنها أبحر إلى الولايات المتحدة الأمريكية حيث التحق بجامعة كاليفورنيا في بيركلي، وهناك شرع بدراسة الزراعة في كلية الزراعة التابعة للجامعة والكائنة قرب مزرعة تجريبية في ديفز، ثم انتقل منها إلى جامعة كاليفورنيا نفسها حيث اختص بالاقتصاد الزراعي، وتخرج فيها حاصلاً على شهادة بكالوريوس علوم. وكان من المفترض أن يعود إلى وطنه بعدها، إلا أنه فضل إقناع وزارة المعارف بمواصلته التعلم، فكان أن التحق بجامعة كورنيل، إحدى أفضل الجامعات الأمريكية آنذاك، ليحصل بعدها على شهادة M. Sc، أي أستاذ علوم في علم التربة وعلم الاقتصاد الزراعي، سنة ١٩٣٢.

عاد عبد المجيد محمود إلى وطنه، وعُين بعد ستة أشهر مديراً لمشروع المدرسة الريفية التي كان عليه أن يؤسسها على هيئة مزرعة تجريبية في بعض نواحي لواء (محافظة) الحلة، ولكن ما أن بشرت هذه التجربة الوليدة بالنجاح، حتى أخذت أيدي بعض الملاكين من الشيوخ الإقطاعيين بالعمل على إحباطها، فكان أن نقل منها بعد سنة واحدة ليعين مديراً لمعارف لواء المنتفك (لواء الناصرية فمحافظة ذي قار فيما بعد). وعلى الرغم من الجهود المضنية التي بذلها في سبيل تطوير التعليم في اللواء، فقد اتهم ظلماً بالتحريض على بعض الحركات العشائرية التي حدثت في المنطقة، فأحيل إلى المجلس العرفي الذي برأه مما نسب إليه، ولكنه لم يلبث أن حوكم مرة أخرى بسبب التهمة نفسها، فصدر الحكم بإعدامه، ثم خفف إلى السجن مع الأشغال الشاقة لمدة عشر سنوات وذلك بعد توسط ياسين الهاشمي والحاج جعفر أبو التمن.

وشاء القدر أن يجد عبد المجيد في الزعيم الوطني جعفر أبي التمن، الذي عين آنذاك وزيراً للمالية في وزارة حكمت سليمان سنة ١٩٣٦، سنداً له إذ عينه هذا في وزارته ملاحظاً لشعبة الموظفين الأجانب في مديرية المحاسبات العامة[١]، فمديراً للخدمة والملاك والذاتية والعقود، ثم تدرج في الوظائف فصار مفتشاً لضريبة الدخل سنة ١٩٤٠ ثم سكرتيراً لوزارة الاقتصاد سنة ١٩٤٢ فمعاوناً لمدير المحاسبات العام، فنال بذلك درجة مرموقة، ولكنه فوجئ سنة ١٩٤٣ بالاستغناء عن وظيفته، بسبب منافسة بعض الرؤساء له، ولم يعد إليها إلا بعد أن كسب دعوى أقامها على وزير المالية لذلك السبب. وفي أوائل سنة ١٩٤٥ اختير مديراً عاماً ورئيساً لمجلس إدارة البنك الزراعي

---

[١] وزارة المالية، دائرة التقاعد، الإضبارة التقاعدية ذات العدد ٣١٠/٩٦٠٠.

الصناعي، ثم رئيساً لمجلس البنك الزراعي بعد الفصل بين البنكين، فكان شغله لهذا المنصب فرصة له لتطبيق جانب من طموحاته السابقة في تطوير واقع الزراعة في العراق، من ذلك وضع الخطط "لمجاراة البلدان الزراعية الأخرى في نهضتها باتخاذها أساليب الزراعة الحديثة بعد أن صار استيراد المكائن والآلات ميسورا، وبعد أن حصل المصرف على تجارب هامة في هذه الناحية"، ومن ناحية أخرى فقد اهتم البنك بزراعة القطن العراقي، وعمد إلى حمل المزارعين على تخصيص مساحات معينة من أراضيهم الزراعية له، ومكافحة الآفات التي تودي بمنتوجه مكافحة فعالة، فادى ذلك الاهتمام إلى إمكان العراق تصدير كميات من القطن العراقي إلى بعض الأسواق الخارجية، كما قام البنك بإنشاء عدد من المشاريع النافعة، منها مصلحة حلج الأقطان في العزيزية، ومشروع إنارة قصبة العزيزية بالكهرباء. وفتح عدد من فروع البنك في أنحاء مختلفة من العراق، هذا فضلاً عن الزيادة المطردة في تقديم السلف العديدة للمزارعين[٢].

وعلى الصعيد القومي، مثَّل عبد المجيد محمود العراق، من موقعه ذلك، في اللجنة الاقتصادية للجامعة العربية في القاهرة، ومنها سافر إلى فلسطين حيث اتصل بأعضاء اللجنة العربية العليا، وبحث معهم موضوع المقاطعة، ثم اتصل بالمكتب العربي، وبغرفة تجارة القدس، وانتقل إلى يافا حيث اتصل بغرفة تجارتها، وبعض النوادي القومية، وانتهز فرصة وجوده في هذه المدينة فزار المناطق الصناعية الصهيونية، وبعض المصانع العربية، ثم انتقل من هناك إلى عمان حيث التقى الأمير عبد الله، ورئيس الوزراء ووزرائه، وبحث معهم شؤون الاقتصاد الأردني وعلاقته بالمقاطعة، وسافر بعدها إلى دمشق، حيث

---

[٢] المصرف الزراعي العراقي: التقرير السنوي الثاني عشر لسنة ١٩٤٧-١٩٤٨، بغداد ١٩٤٩، ص٣-٨.

اجتمع بغرف التجارة السورية. وانتدب من الجامعة العربية لدراسة سير المقاطعة العربية للكيان الصهيوني في شرق الأردن[٣]، واختير عضواً منتدبا من الجامعة في اللجنة الدائمة لمقاطعة البضائع الصهيونية في سوريا، حيث وضعت أسس المقاطعة الاقتصادية والشعبية للكيان المذكور[٤]، وأعد دراسة موسعة تضمنت مقترحات عملية حول أفضل الطرق الواجب اتباعها في مقاطعة الكيان الصهيوني اقتصادياً[٥].

ولبث يتولى إدارة البنك الزراعي حتى اختير وزيراً للاقتصاد في وزارة نوري السعيد الحادية عشرة[٦] التي تألفت في ٢٥ كانون الأول سنة ١٩٥٠

---

[٣] جريدة فلسطين، فلسطين العدد ٢٩٧- ٦٢٤٧ في ١٨ شباط سنة ١٩٤٦.

[٤] أوصت اللجنة بفتح باب التصدير لجميع المصنوعات السورية لتموين البلدان المجاورة والاستعاضة عن المواد التي فقدتها بسبب المقاطعة، كما بحثت في كيفية تنظيم المقاطعة الشعبية. جريدة ألف باء، دمشق العدد ٨٧٢ في ٢٠ شباط ١٩٤٦.

[٥] تقرير غير مؤرخ عن رحلته حول مقاطعة (إسرائيل). محفوظ في مجموعة أوراقه الشخصية.

[٦] ذكرت السيدة أم الحارث، زوجة عبد المجيد محمود، في مقابلة معها بتاريخ ١٤ آذار سنة ٢٠٠٠، الظروف التي أدت إلى استيزار زوجها فقالت: قدم إلى بغداد وفد مالي بريطاني، فأقيمت له دعوة في بهو الأمانة حضرها نوري السعيد رئيس الوزراء وعدد من الوزراء والمسؤولين، ولما سأل بعض أعضاء الوفد السعيد عن شؤون مالية دقيقة، نادى على عبد المجيد ذلك في حديث طويل دام نحو ثلاث ساعات، مما أدى إلى امتنان رئيس الوزراء، وفي اليوم التالي أخبر السعيد الأمير عبد الإله برغبته في ضمه وزيراً للمالية للإفادة من خبرته في شؤون المفاوضات، وفي الساعة الثانية عشرة من ذلك اليوم رن جرس التلفون في بيت عبد المجيد، وكان رئيس مجلس النواب عبد الوهاب مرجان يطلب الحضور بناء على موافقة الأمير على اختياره وزيراً للاقتصاد، ولما كان عبد المجيد عضواً مؤسساً في (نادي البعث) وهو تنظيم قومي تأسس سنة ١٩٤٩، فقد طلب من محدثه مهلة لاستئذان أعضاء النادي في الأمر، وفي عصر ذلك اليوم نفسه اجتمع بأعضائه، وهم كل من السادة عبد الرحمن البزاز وحسن الدجيلي وعبد الغني الدلي وعبد الكريم كنونة وسلمان الصفواني وجابر عمر، وحسن جواد، ومتى عقراوي وعبد الحميد كاظم، وعبد المجيد عباس، وطلب موافقتهم على استيزاره، فأجابه البزاز قائلاً: نتشرف أن تكون وزيراً لأنك قومي وشريف. وفي اليوم التالي توفيت الملكة عالية فاستدعي

واستمرت حتى ١٠ تموز سنة ١٩٥٢، وقد برز دوره في أثناء المفاوضات التي دارت بين حكومة العراق من جهة ووفد شركة النفط العاملة في العراق عهد ذلك، فكان بصفته وزيراً للاقتصاد عضواً في الوفد العراقي الذي قرر مجلس الوزراء تشكيله في ٤ نيسان ١٩٥١ لمفاوضة الشركة، برآسة توفيق السويدي نائب رئيس الوزراء، وكان عضواه الآخران: ضياء جعفر وزير المواصلات والأشغال، وعبد الوهاب مرجان وزير المالية. وبدأت المفاوضات بالفعل في ديوان وزارة الخارجية في ٥ نيسان ١٩٥١ وسعى الوفد من اجل تطبيق مبدأ مناصفة الأرباح بين الشركات والعراق، وهو أمر من شأنه أن يرفع قيمة ما يحصل عليه العراق من عائدات نفطه أضعافاً مضاعفة، ولكن الشركة أصرت على موقفها الرافض لهذا المبدأ، مما أدى إلى تعثر سير المفاوضات وانقطاعها مدة.

وفي ١٦ أيلول من السنة نفسها، قرر مجلس الوزراء تأليف وفد برئاسة نوري السعيد، وعضويه كل من عبد المجيد محمود وزير الاقتصاد، ونديم الباجه جي مدير الاقتصاد العام لمتابعة الاتصال بالشركة في لندن، وبالفعل بدأت المفاوضات في العاصمة البريطانية، ولكن نوري السعيد عاد إلى بغداد في ٦ تشرين الأول سنة ١٩٥١ تاركاً عبد المجيد محمود والباجه جي لمواصلة التفاوض. وبعد عدة جلسات شاقة توصل الجانبان في ٢٥ كانون الأول إلى اتفاق يقضي بامتلاك العراق شركتي نفط خانقين والرافدين، وقعه عن الجانب العراقي عبد المجيد محمود وزير الاقتصاد وعن جانب شركتي النفط المذكورتين أل سي رايس نيابة عن شركة نفط خانقين، وآر. اج. آرنولد نيابة

=عبد المجيد لحضور تشييع الجنازة بصفته وزيراً، وقام هو بإلقاء كلمة تأبينية على قبر الملكة الراحلة.

عن شركة نفط الرافدين[٧]، بما عد خطوة مهمة نحو تأميم العراق جانباً من موارده النفطية. وفي نيسان قرر مجلس الوزراء تأليف (هيئة مفاوضة) برئاسة نائب رئيس الوزراء توفيق السويدي وعضوية ضياء جعفر وزير المواصلات والأشغال وعبد الوهاب مرجان وزير المالية[٨]، وقد خاضت هذه الهيئة جولات صعبة من المفاوضات حتى توصلت إلى اتفاق بشان مناصفة الأرباح[٩]. وفي ٢٥ كانون الثاني من السنة التالية سافر عبد المجيد محمود، للتوقيع على الصيغة النهائية لاتفاقية مناصفة الأرباح بين الحكومة العراقية من جهة، والشركات النفطية الثلاث العاملة في العراق. وفي ٣ شباط من السنة نفسها وقعها ممثلا لحكومته، والسر كِبسن H.S. Gibson رئيس الشركة ممثلاً للشركات، وقد صادق مجلس الوزراء على الاتفاقية في ٥ شباط، ثم صادق عليها المجلس النيابي في ١٧ منه[١٠]، وبذا حصل العراق على مبالغ من واردات نفطه تبلغ ٥٩ مليوناً من الدنانير[١١]، وهو مبلغ كان سبباً في قيام جميع المشاريع الضخمة في ذات الأمد البعيد التي اضطلع بها مجلس الإعمار فيما بعد[١٢].

---

[٧] ينظر نص الاتفاق في قاسم احمد العباس، وثائق النفط في العراق، بغداد سنة ١٩٧٥، ج٢، ص٣٦٥.

[٨] المصدر نفسه، ص١٣٤.

[٩] يذكر الدكتور ضياء جعفر في مذكراته عن هذه المفاوضات أن عبد المجيد "كان مرتاباً من هذه المفاوضات لأنها تشبه مفاوضات لمعاهدة بل اصعب منها، لأنك وان أممت النفط فهناك مشاكل في قضايا الأرض والطلب ونوعية النفط". ينظر كتابنا: ضياء جعفر، سيرة ومذكرات ص٢١١.

[١٠] نوري عبد الحميد خليل، التاريخ السياسي لامتيازات النفط في العراق، بغداد ١٩٨٠، ص٤١٢.

[١١] وثائق النفط في العراق ج٢، ص١٣٦.

[١٢] ذكر عبد المجيد محمود، في دفاعه عن اتفاقية المناصفة، في مجلس الأعيان، بأن نسبة ما يحصل عليه العراق من عائدات نفطه "ليست فقط لا تقل عن أعلى نسبة حصلت عليها البلاد المجاورة بل هي أعلى بكثير من ذلك"، ووضح قوله بعدد من المقارنات التي عقدها مع ما تحصل عليه فنزويلا والسعودية والكويت. تنظر جريدة الاتحاد الدستوري العدد ٥٦٩ في ٢٢ شباط ١٩٥٢.

ولم تقتصر جهود عبد المجيد محمود في مدة شغله وزارة الاقتصاد في شؤون النفط فحسب، وإنما شملت جوانب اقتصادية أخرى، منها استصدار قانون تأسيس شركة استيراد وصناعة السكر في أوائل شباط سنة ١٩٥١، وكان اهتمامه هذا يقوم على أساس "إن لهذا المشروع علاقة وثقى باعمار المناطق التي تكون فيها معامل السكر، وهو بالإضافة إلى ذلك يؤدي إلى ظهور صناعات نافعة مهمة تفتقر إليها البلاد"[١٣].

ولذا فانه خصص أراضٍ واسعة للمزارعين، مع سلف سخية لغرض تشجيعهم على زراعة هذا المُنتج المهم، ومن ناحية أخرى فإنه سعى، منذ أول أيام توليه الوزارة إلى تأسيس شركة تأمين وطنية في العراق، ولم تكن تعمل في هذا الحقل عهد ذاك إلاّ شركات أجنبية فحسب فكان أن بدأ اتصالات مع شركة التأمين العربية المحدودة (ومقرها في بيروت) في أواخر سنة ١٩٥٠ للعمل على تأسيس الشركة الوطنية المنشودة، وجرت اتصالات مع شركة لويدز في لندن لعقد وترتيب "معاهدات تأمين تحويلي" والحصول على الخبرة الفنية في هذا الموضوع[١٤]، فكانت هذه أولى الخطوات التي اتخذت لتأسيس أول شركة تأمين وطنية في العراق، وذلك بموجب القانون رقم ٥٦ سنة ١٩٥٠ المعدل، وقد أخذت هذه الشركة على عاتقها القيام بجميع أعمال التأمين فضلاً عن إعادة التأمين[١٥].

ونظراً لخبرته في شؤون النفط، فقد اختير عضواً في مجلس إدارة مصافي النفط، ولم تمض إلاّ سنتان حتى اختير وزيراً للمالية في وزارة ارشد العمري

---

[١٣] ينظر تصريحه في جريدة الاتحاد الدستوري، بغداد العدد ٢٥٣ في ٨ شباط ١٩٥١.

[١٤] كتاب من شركة التأمين العربية في بيروت إلى عبد المجيد محمود وزير الاقتصاد في ٢٨ كانون أول ١٩٥٠ محفوظ في مجموعة أوراقه الشخصية.

[١٥] عدنان أحمد ولي: عقد إعادة التأمين دراسة قانونية مقارنة، بغداد ١٩٨٢، ص٦٣.

الثانية[16]، وهي التي تألفت في ٢٩ نيسان ١٩٥٤ واستمرت حتى ٣ آب سنة ١٩٥٤، ولكنه لم يلبث أن اختير وزيراً للإعمار في وزارة نوري السعيد الثانية عشرة، المؤلفة في يوم استقالة سابقتها، فكانت مدة وزارته من أكثر أيام حياته العامة نشاطاً وحركة، من ذلك أنه استحصل موافقة مجلس الاعمار على تبليط طريق كربلاء- النجف، وتصريف المياه الجوفية في مدينة كربلاء، وتبليط طريق سكرين- مطار بامرني، وطريق بغداد- الكوت وإنشاء القناطر الجديدة في القسم الثاني منه، وأجراء المسح الجوي لهور الحمار وأرض العمارة، وتوسيع زراعة البنجر، وغير ذلك من مشاريع[17]. فضلاً عن إنشاء عدد كبير من الدور السكنية لعمال هذه المشاريع في منطقة الطوبجي (السلام فيما بعد). واستقدم لغرض إنشائها المهندس اليوناني دوكسيادس.

وبموجب التنقلات الوزارية في ٧ أيار ١٩٥٥ أصبح وزيراً بلا وزارة، وشغل منصب وزير الاقتصاد، وكالة في أثناء سفر ذلك الوزير غير مرة[18]، وسعى بعض خصومه السياسيين لبث إشاعات مختلفة للنيل من نزاهته، ولكن لجنة رسمية حققت في الأمر فأظهرت عدم صحة تلك الإشاعات[19]، ومع ذلك فإنه فضّل تقديم استقالته في ١٧ كانون الأول سنة ١٩٥٥ لكن تلك الاستقالة لم تُقبل[20] حتى استقالت الوزارة نفسها في ١٧ كانون الأول سنة

---

[16] عبد الرزاق الحسني، تاريخ الوزارت العراقية، ط٧، صيدا ١٩٦٨، ج٩، ص٩٨.

[17] وزارة الاعمار، منهاج جلسة اللجنة التوجيهية بتاريخ ١٩٥٤/١٢/٢٦.

[18] الحسني: المصدر السابق، ج٩، ص١٧٢ و١٧٤.

[19] قيل أن معدل النماذج من السمنت الذي استورده العراق في بريطانيا لا يطابق المواصفات، وقد عرض الأمر على مجلس الإعمار، وبعد أخذ ورد حضر ممثل الشركة من لندن، وأكد بأنه لا يمكن ان تكون المواصفات أقل من مواصفات السمنت البريطاني، وتم تكليف شركة حيادية لفحص السمنت في مختبرات بغداد ولندن فظهر ان بعض تلك النماذج أقل من المواصفات وبعضها أكثر، إلا أن المعدل من حيث العموم كان أعلى من المواصفات المطلوبة. جريدة الشعب، بغداد في ١٠ كانون الثاني ١٩٥٦.

[20] الحسني: المصدر السابق، ج٩، ص١٥٧.

١٩٥٥. وفي كانون الثاني سنة ١٩٥٧ اختير عضواً في الوفد الذي مثل العراق آنذاك في هيئة الأمم المتحدة[٢١].

رشح عبد المجيد محمود نفسه في المجلس النيابي نائباً في المنطقة الرابعة الانتخابية في بغداد ١٩٥٤، ثم رشح نفسه نائباً في المجلس المذكور عن لواء المنتفك، وهو اللواء الذي خدمه بإخلاص في أثناء توليه منصب مدير المعارف فيه، فلبث عضواً فيه لدورات متعاقبة، استمرت حتى سنة ١٩٥٨. وفي أيار من تلك السنة انتخبه المجلس نائباً عن لواء المنتفك في مجلس الاتحاد العربي الذي تقرر تأليفه بموجب دستور الاتحاد العربي الهاشمي، المعقود بين العراق والأردن، في آذار سنة ١٩٥٨[٢٢]، فسافر إلى عمان حيث انتخب رئيساً للجنة المالية، ألقى في تلك المناسبة كلمة مطولة عن الشؤون المالية للاتحاد، وكان هذه الكلمة قد نال استحسان أعضاء المجلس فقلده الملك حسين وساماً أردنياً رفيعاً وأقيمت له دعوة ملكية بالمناسبة.

وإثر قيام ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ جرى توقيفه في معسكر أبي غريب لمدة ثلاثة أشهر، ولكن أطلق سراحه بعد أن ثبتت نزاهته ولم يجد المحققون شيئاً ضده، فلبث في بيته، عازفاً عن المشاركة في الحياة السياسية منشغلاً بتربية أولاده تربية قومية إسلامية صحيحة. ثم قضى سني حياته التالية بهدوء ودعه حتى توفاه الله تعالى في سنة ١٩٩٢.

كان عبد المجيد محمود مؤمناً بالقومية العربية إيماناً راسخاً، وقد أدرك ضرورة تعاون النخبة القومية المثقفة في تحقيق أهداف الأمة، وهي الوحدة العربية، والاستقلال الناجز، وتحقيق الرفاهية، وتحديث المجتمع،

---

[٢١] جريدة الشعب، بغداد العدد ٣٧٣٠ في ٢٤ كانون الثاني سنة ١٩٥٧.

[٢٢] محاضر جلسات مجلس النواب، الدورة الانتخابية ١٦، الاجتماع غير الاعتيادي لسنة ١٩٥٨، ص٢٢.

ولذا فإنه عمد، وهو مازال طالباً في جامعة (كورنيل)، إلى إنشاء أول تنظيم قومي عربي في تلك الجامعة، ضم أعضاء من أقطار عربية مختلفة. وزادته هذه التجربة إدراكاً لأهمية العمل المنظم، فلما عاد إلى وطنه سعى إلى حث جهود عدد من الشبان المتحمسين للقومية العربية من اجل تأسيس ناد قومي في بغداد، وقد وافقت جهوده جهوداً أخرى كان يقوم بها آخرون ممن يؤمنون بالفكرة نفسها، فكانت ثمرة ذلك تأسيس (نادي المثنى بن حارثة الشيباني) في شباط سنة ١٩٣٥ "يضم الجمع ويلم الشمل ويوحد الجهود ويؤلف القلوب للعمل وراء إنماء والأخذ بأسباب الحضارة العصرية"[٢٣] وباستثناء مدة قصيرة، فانه شغل موقع سكرتير النادي، وفاز بعضوية الهيئة الإدارية للنادي لسنوات عدة.

وبعد أن ألغت السلطات إجازة هذا النادي شرع عبد المجيد محمود، وعدد من زملائه، بالتفكير في إنشاء تجمع قومي جديد، فكان أن تقدم ونفر من القوميين، في ١٧ آب سنة ١٩٤٩ بطلب إلى وزارة الداخلية لتأسيس ناد جديد باسم (نادي البعث العربي)، بهدف "بث الفكرة القومية وإنماء الشعور الوطني الصادق وتشجيع البحث العلمي للقضايا العربية العامة، والتأليف بين جهود المفكرين العاملين في خدمة الوطن العربي، والقيام بكل ما من شأنه رفع المستوى الثقافي والاجتماعي في البلاد"[٢٤]، وما أن أجيز هذا النادي حتى شرع في نشاطات ثقافية قومية متنوعة منها إصداره مجلة باسم (البعث

---

[٢٣] نادي المثنى، النظام الداخلي، بغداد، مطبعة الفرات ١٩٣٥، ص٣.

[٢٤] من نظامه الأساسي، ينظر جعفر حميدي، من وثائق النوادي القومية في العراق، المثنى والبعث العربي، بغداد، ١٩٩٨، ص٩٣.

العربي)، ولكن السلطات أغلقته هو الآخر سنة ١٩٥٧، بحجة تدخل بعض أعضائه في الشؤون السياسية"[٢٥].

وانتمى، في أواسط الثلاثينات، إلى نادي القلم العراقي، وهو ناد ثقافي ضم مجموعة بارزة من الكتاب عهد ذاك، وشارك في نشاطاته الثقافية، ومنها أنه ألقى محاضرة مطولة بعنوان (النزاع الحبشي الإيطالي) تناولت أبعاد هذا الصراع من الجوانب التاريخية والسياسية، وقد نشرت هذه المحاضرة في المجموعة الأولى للنادي سنة[٢٦] ١٩٣٨. كما ساهم، على نحو ملحوظ، في النشاطات الثقافية المستمرة التي كانت تجري في نادي المثنى بن حارثة الشيباني، وفي نادي البعث، بوصفه عضواً فيهما. وكانت له صلات عمل مشترك وتعاون مع عدد من الشخصيات والجمعيات العربية ذات المبادئ القومية، منها مثلا نادي العروبة، الذي تأسس في البحرين سنة ١٩٥١ مستهدفاً توجيه الأفكار في ضوء مبادئ القومية العربية[٢٧]، وحزب النداء القومي في لبنان وشخصيات وتنظيمات فلسطينية عدة[٢٨]، وغير ذلك.

---

[٢٥] كتاب وزارة الداخلية، مديرية الحقوق، حول حل نادي البعث العربي، في ١٩٥٦/١٢/٢٧، في المصدر نفسه، ص١٢٥.

[٢٦] بغداد، مطبعة الجزيرة ١٩٣٨، الصفحات ١٨١-٢٢٥.

[٢٧] نادي العروبة، القانون الأساسي، بيروت ١٩٥١، ص٢، وكان هذا النادي قد وجه دعوة إليه لحضور مؤتمره التأسيسي فما كان منه إلا أن سافر إلى البحرين حيث حضر ذلك المؤتمر وأقام هناك مدة أسبوع ضيفاً على النادي المذكور واستمرت المراسلات بينه وبين النادي حتى ثورة تموز ١٩٥٨، ونقرأ على الصفحة الأولى من نسخة من هذا القانون أهداها النادي إلى عبد المجيد محمود ما يأتي "إلى حضرة صاحب المعالي الأستاذ الجليل عبد المجيد محمود مشفوعاً بخالص ودنا وتقديرنا للجهود الكبيرة التي تبذلونها في حقل القومية العربية".

[٢٨] نقرأ في رسالة أرسلها ناصر عيسى الرامي وهو أحد القوميين الفلسطينيين في عكا، إلى عبد المجيد محمود ما يشير إلى دوره، بل دور العراق، في إسناد حركة الجهاد العربي في فلسطين عهد ذاك، يقول:

وبلغ من اهتمامه بالنشاطات الثقافية العامة، أنه اتخذ من داره سنة ١٩٤٠ مقراً لمجلس ثقافي أسبوعي، ينعقد في كل يوم جمعة، يرتاده مثقفون وأدباء ومفكرون، كل منهم: الشيخ محمد رضا، الشيخ علي الشرقي، وجابر عمر، ومتي عقراوي، وعبد الحميد كاظم، وعبد الكريم كنونه، وخليل كنه وأخوه وعبد الكريم كنه وبابا علي، وحسن الجواد والشاعر أحمد الصافي النجفي وغيرهم، واغلبهم من الشباب القومي، وقد استمر هذا المجلس في الانعقاد حتى سنة ١٩٥٨.

ومن ناحية أخرى، فقد عُني عبد المجيد محمود بتشجيع النشاطات الرياضية، فرعى الكثير من الحفلات والنزالات الرياضية المختلفة، كما رعى اللاعبين أنفسهم، حتى أطلق عليه لقب (وزير الرياضة)[٢٩]، و(وزير الشباب)، واختاره اتحاد رفع الأثقال العراقي رئيساً فخرياً له في ٥ تشرين الثاني سنة ١٩٥١ مخاطباً إياه بأن اختياره هذا جاء "بوحي من المساعدة القيمة التي أبديتموها للوسط الرياضي.. بوحي من الروح السامية التي تحملها تجاه الحركة الرياضية في العراق"[٣٠].

شغف عبد المجيد محمود، منذ صباه بالمطالعة، فقرأ الكثير من الكتب، ووسعت أسفاره ودراسته في الخارج من دائرة اهتماماته الثقافية، فتنوعت قراءاته وأخذت طابعاً جدياً. وما أن اكمل دراسته العليا في أوائل العقد الثالث

=تذكار إلفتنا، ذكر صداقتنا — ذكر اتحاد بني الأعراب تحيينا
عبد المجيد مجيد في مناقبه — فاحت محاسنه ورداً ونسرينا
إن العراق أميرُ العرب قائدها — يضم بالعطف والحسنى فلسطينا

[٢٩] جميل الطائي، الزورخانات البغدادية، بغداد ١٩٨٦، ص١٧٥.

[٣٠] من اتحاد رفع الأثقال العراقي إلى الأستاذ عبد المجيد محمود في ١٩٥١/١٢/٥. رسالة مودعة بين أوراقه الشخصية.

من القرن العشرين، حتى شرع يكتب المقالات والدراسات، وينشرها في صحف عراقية عدة، أهمها: البلاد، والعالم العربي، والزمان. ولم يكتف بالنشر، وانما ولج عالم الصحافة، فأصدر مجلة مهمة سماها (عالم الغد) في أواخر سنة ١٩٤١، مستهدفاً فيها "شرح العقيدة القومية التي حاول الشعوبيون والانتهازيون تشويهها والدس عليها"[٣١]. وقد بلغ من اهتمامه بالمجلة أنه كان يحرر أكثر من ٩٥ بالمائة من افتتاحياتها، على حد قوله. والملاحظ أن معظم كتاباته كان يدور حول القضية القومية، والوحدة العربية، فدعا إلى أن تكون حركة القومية العربية شعبية في اتجاهاتها ومراميها وسعيها لخدمة الشعب العربي كله، وبذا فإنه كان من أوائل الداعين إلى ربط الفكر القومي بالمفهوم الاجتماعي. ومن ناحية أخرى فإنه سعى إلى التبصير بمخاطر التآمر الصهيوني- الغربي على فلسطين، وآثار ذلك على المستقبل العربي، وقدم أفكاراً وآراءً عملية ومنطقية لمجابهة ذلك المخطط، فكانت القومية العربية- في نظره- دعوة إلى:

مكافحة الاستعمار

مكافحة الاستغلال

بلاد عربية حرة مستقلة متحدة

إقامة نظام ديمقراطي صحيح تكون فيه السلطة بيد الشعب، وأن تكون الحكومة من الشعب وإلى الشعب.

إطلاق الحريات الأساسية التي يجب أن يتمتع بها كل مواطن إلاّ إذا كان عدوا للحرية.

القضاء على الاحتكار والإقطاع

---

[٣١] المذكرات.

إيجاد مستويات معينة من التعليم والصحة.

إيجاد مستوى معيشة يتمتع بها كل مواطن دون أن ينخفض دونها

الاشتراكية المعتدلة

تدخل الدولة في تصنيع البلاد والقيام بالمشاريع الكبرى

نشر الملكية الصغيرة في الزراعة وتحديد الحد الأعلى لهذه الملكية.

إن القومية ليست اعتدائية ولا عنصرية فلا تعتدي على غيرها من القوميات.

تحترم القومية الكردية ولكنها لا تقبل بالانفصال.

إقامة المجتمع التقدمي الحديث، المجتمع الديناميي المتطور المتحرك النامي الذي لا يعرف الركود ولا الرجعية.. الخ[٣٢].

وفي الواقع فانه كان واقعياً تماماً في أفكاره الوحدوية، أراد أن يقدم الوحدة العربية أسسها الاقتصادية التي تنبني عليها، ولعله من أوائل الذين دعو إلى تحقيق "وحدة اقتصادية في الأقطار العربية على الرغم من وجود الحواجز السياسية الاصطناعية بينها" فقال" الوحدة الاقتصادية تستهدف بطبيعة الحال تنسيق الخط الاقتصادية لاستثمار خيرات البلاد وكنوزها ومرافق الزراعة فيها، والقيام بتصنيع البلاد بصناعات مناسبة لكل قطر من أقطار العروبة بحسب ما يتوافر لديه من مواد أولية ويد عاملة، وربط هذه البلاد بعضها مع بعض بشبكة من خطوط السكك الحديد، ومن وسائط النقل الأخرى برية كانت أو بحرية، والاستفادة من ذلك كله في تنظيم التجارة الداخلية وفسح المجال لحركة البضائع والحاجيات داخل بلاد العرب كوحدة اقتصادية وليست بلاداً مجزأة لا تربط بين الواحدة والأخرى إلا

---

[٣٢] المذكرات.

أضعف الروابط وأوهنها، والوحدة الاقتصادية يجب أن تستهدف أيضاً تنظيم سياسة التصدير إلى الخارج وسياسة الاستيراد ومحاولة الاقتصار على استيراد ما هو ضروري فقط، وتنسيق سياسة النقد والبنوك والكمارك وما إلى ذلك من مرافق الدولة الاقتصادية"[٣٢].

وحذّر من "أن وجود (إسرائيل) في فلسطين العربية كوجود جرثومة فتاكة في أي جسم، فالجرثومة هذه ليست فقط ستمنع الجسم من أن ينمو ويتطور، بل ستكون السبب في علته ومرضه"[٣٣].

وقد لفتت جهود عبد المجيد محمود انتباه بعض الجهات الدولية المعنية بتوثيق سير المشاهير، فكان أن اختارته حكومة الجمهورية الصينية واحداً من "الزعماء والأشخاص البارزين وذوي المكانة والأثر في المجتمع من رجال الدين والعلم والفضل والسياسة والاقتصاد والأدب في الشرق، ومن ضمنه الشرق العربي والعراق"، وأنه من "الشخصيات التي تحتل الصدارة في المجتمع العراقي"[٣٤].

هذه المذكرات

كتب عبد المجيد محمود هذه المذكرات ليسجل فيها تفاصيل ما سمعه ورآه وشارك به من أحداث خلال حقبة مهمة من تاريخ وطنه، تمتد منذ مولده سنة ١٩٠٩ وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية، وإذا كان قد توقف عن التسجيل عند سنة ١٩٤٥، ولم يستمر ليغطي الجزء الأكثر احتداماً بالأحداث من حياته السياسية – وهي المدة التي شغل فيها مناصبه الوزارية

---

[٣٣] جريدة الزمان، بغداد في ٣ أيار سنة ١٩٥٠.

[٣٤] من القائم بأعمال المفوضية الصينية في بغداد إلى عبد المجيد محمود، رسالة غير مؤرخة في أوراقه الشخصية.

– فإن هذا التوقف لا يقلل من أهمية المذكرات في شيء، ذلك أنها ليست من النوع التي يكتبه السياسيون المحترفون عادة، فلا يدرجون فيها غير ذكرياتهم السياسية فحسب، وإنما هي تمثل نوعاً آخر، يتضمن تفاصيل الحياة الاجتماعية والثقافية أيضاً، فالحياة – كما تبدو من خلالها – نسيج واحد، تمتزج فيه مختلف التفاصيل لتؤلف لوحة خلابة واحدة، ولا عجب في ذلك فعبد المجيد محمود كان كاتباً باحثاً، له العديد من البحوث والمقالات، ومن ثم فهو يمتلك القدرة على تصوير أدق جزئيات الحياة على نحو يحمل قارئه على أن يشاركه إياها بحلوها ومرها، وكأنما يعيشها معه يوماً فيوم.

وموطن الأهمية في هذه المذكرات، من الجوانب غير السياسية، أنها قدمت صوراً متتابعة لتطور المفاهيم الاجتماعية في العراق خلال تلك الحقبة التي شهدت قيام حربين عالميتين، فوصفت المفاهيم التي كان يرثها ابن المحلة البغدادية عن آبائه، وصورت تلك المحلة، بعلاقاتها وصراعاتها وعصبياتها، ومواقفها من أبناء المحلات الأخرى، ولم تهمل الحديث عن لعب الصبيان فيها و(كِسارهم) أي صراعهم مع غيرهم من الصبيان في المحلات المجاورة، كما تناولت بشيء من التفصيل الحياة في (الزورخانه البغدادية) وهي المحل المخصص لمزاولة ألعاب القوى، وقدمت رصداً لمزايا هذه الأمكنة وما عليها من مآخذ، وأهم النزالات التي جرت فيها في العشرينات والثلاثينات من القرن العشرين، مما يلقي الضوء على جانب من تاريخ الحركة الرياضية في العراق إبان ذلك العهد.

ومن ناحية أخرى فإنها تناولت لمحات مهمة من تاريخ التعليم في العراق، من خلال المدرستين اللتين انخرط صاحب هذه المذكرات في سلكهما،

وهما المدرسة الجعفرية، والمدرسة الثانوية (الثانوية المركزية فيما بعد)، ففصلت القول في مدرسي هاتين المدرستين الرائدتين، ووصفت أزياءهم وثقافاتهم وطرقهم في التدريس والأثر الذي أحدثوه في طلبتهم بتقديمهم مفاهيم ثقافية- اجتماعية جديدة لم تكن مألوفة من قبل.

ونجحت المذكرات إلى حد بعيد في تصوير ما كان يجري داخل ذهن الشاب العراقي، بل العربي، من احتدام للمشاعر ودهشة وانبهار، وهو يغادر وطنه الأول مرة في حياته، ملتحقاً بالجامعات الغربية لمواصلة دراسته فيها، فيفاجأ بتغير كبير ليس في نوع ما يتلقاه من علم ومعرفة، وانما في النمط المختلف للحياة في بيئات تلك الجامعات، بما في ذلك الجوانب الإيجابية والسلبية معاً، مثل استعمال منجزات العصر الجديدة، والنظرة الواقعية للأمور، واطلاق الحرية الفردية، وسفور المرأة، والاختلاط الواسع بين الجنسين.

وفي الواقع فإن وصف صاحب المذكرات للحياة الجامعية في الجامعة الأمريكية في بيروت، ثم سفره للدراسة في جامعتي كورنيل وبيركلي في الولايات المتحدة، في أواخر العقد الثاني وأوائل العقد الثالث من القرن العشرين يمثل وثيقة هامة في هذا المجال، تذكرنا- في جانب منها في الأقل- بما كتبه المثقفون العرب الرواد الذين زاروا الدول الأوربية وسجلوا لنا انطباعاتهم عن نظمها السياسية والاجتماعية والثقافية في القرن التاسع عشر. فعلى الرغم من انبهار الطالب عبد المجيد محمود بكل ما رآه مختلفاً عما عرفه في وطنه، فإنه لم يُخفِ استنكاره لأمور رآها مثل التمييز العنصري ضد السود والملونين، والوسائل التي كانت تتبعها الحركة الصهيونية في الولايات المتحدة للتأثير على الرأي العام الأمريكي بغية تحقيق أهدافها في دعم الكيان

الصهيوني ومده بأسباب البقاء. وقد جاهد هو، على قدر ما وسعه الجهد والوقت، في التعريف بقضية أمته العربية، وبخاصة قضية فلسطين منها، في محاضرات ألقاها هنا أو هناك، وفي تأسيسه أولى التنظيمات الطلابية العربية في الجامعات التي درس فيها، ولم يكن فيما أسسه قطرياً ضيقاً، وإنما قومياً مؤمناً بوحدة أمته وتاريخها المشترك المجيد.

ولم تقتصر هذه المذكرات على تلك الجوانب فحسب، وانما ألقت بعض الضوء على العلاقات الاجتماعية التي كانت سائدة في الريف العراقي، من خلال التجربة الرائدة التي عاشها صاحبها مؤسساً ومديراً للمدرسة الريفية الأولى في ريف الحلة، وهي تجربة أريد بها تطوير الريف بنشر المعرفة بين أبنائه إلاّ أن قوة الإقطاع ورجعيته آنذاك وأدتها في مهدها. فضلاً عن تجربته الغنية مديراً للمعارف في لواء المنتفك (ذي قار حالياً) متنقلاً بين قراه وأهواره، ساعياً لإيصال المعرفة إلى آخر ناحية فيه بكل سبيل.

أما الأهمية السياسية للمذكرات، فهي تتمثل في رصدها بدايات نمو الوعي الوطني القومي لدى الطلبة عهد ذاك، وهو الوعي الذي سنجده متأججاً، ومؤثراً في الأحداث السياسية في المراحل التالية. ولقد وصفت بتفصيل واضح تلك المظاهرات الصاخبة التي قام بها الطلبة احتجاجاً على قرار لوزارة المعارف (التربية فيما بعد) بفصل أحد المدرسين السوريين، كان قد ألف كتاباً تاريخياً أثار به جانباً من الرأي العام، وبينت بجلاء أن خروج تلك المظاهرات لم يكن للتعاطف مع ما أورد ذلك المدرس من آراء، وانما دفاعا عما سمي في حينه بقضية حرية الفكر في العراق. وتطرقت إلى الحديث عن بعض النوادي الطلابية الرائدة، مثل نادي الإصلاح الاجتماعي ونادي التضامن، وهي نواد قل من تكلم عليها بين الباحثين.

وفضلاً عن ذلك، فأن المذكرات تناولت جانباً من تاريخ نادي المثنى بن حارثة الشيباني في العراق، بوصف كاتبها أحد مؤسسيه وأعضاء هيأته الإدارية، وكان هذا النادي قد أصبح المرتكز الأول للحركة القومية العربية في بغداد، بما كان يلقى فيه من محاضرات وما يعقد فيه من اجتماعات، وبفضل احتضانه للقوميين الذين كانوا ممتلئين حماسة للعمل القومي وإسناد قضية فلسطين.

وشاءت الأقدار أن يكون صاحب هذه المذكرات الشاهد الأكثر قرباً من أشد الحوادث مثارا للجدل، وبخاصة مصرع جعفر العسكري مؤسس الجيش العراقي، ومصرع الآمر بقتله بكر صدقي قائد انقلاب سنة ١٩٣٦، ومصرع وزير المالية رستم حيدر، وغير ذلك من أحداث، فساق رواية متميزة ومهمة عن مقتل العسكري، سمعها من أحد منفذي قتله، وسجل تفاصيل مصرع الثاني بوصفه كان أول من هرع إليه بعد إطلاق النار عليه. ولما كان عبد المجيد محمود قد عاش، بحكم كونه مديراً لمعارف المنتفك، قريباً من الحركات العشائرية التي قامت فيها عشائر المنطقة، ثم أصابه من شررها ما أصابه حينما أتهم بالمشاركة بهذه الحركات فكان نصيبه التوقيف والمحاكمة والسجن، فإنه سجل شهادته عن تلك الحركات وما رافقها من ملابسات سياسية في فصل من أكثر الفصول إثارة ودقة.

وإضافة إلى ما تقدم، ففي المذكرات معلومات ووجهات نظر لا يستهان بها عن تاريخ العراق السياسي، كما أنها تحفل بمعلومات متفاوتة كما ونوعاً عن مئات من أعلام السياسة في العراق عهد ذاك، وعن أحداث سياسية بارزة.

وتقديراً للجهد البناء الذي أداه صاحب هذه المذكرات، ولصلة الاخوة والمحبة والرحمة التي ربطت بين أسرتينا منذ أكثر من نصف قرن، وإعجابي الشخصي به، فقد اتصلت بولده السيد علي مستأذناً إياه في نشر مذكرات أبيه، فكان أن وافق على الفور، ووفر لي نسخة مستنسخة منها، وهي التي اعتمدتها في العمل.

ومن المهم القول أن صاحب المذكرات لم يكتب ما كتب لإطلاع عامة القراء، وإنما كتبها لنفسه بالدرجة الأولى، أو لأسرته الصغيرة في أبعد تقدير، ولذا فقد اقتضى مني إعدادها لتغدو كتاباً مطبوعاً جهداً خاصاً، فالخط الذي كتبت به سريع غير واضح في صفحات عديدة، ويخلو من الفواصل والنقاط، ولا حدود بين الفقرات. وفي تضاعيف النص تفاصيل شخصية خاصة، وعبارات مكررة، وصياغات تحتاج إلى إصلاح، ولا عجب في ذلك، فإنه لو كان يقصد نشرها لأعمل فيها قلمه بالضبط والتصحيح والمراجعة ولكنه لم يقصد ذلك على ما ذكرنا.

وكان لزاماً عليّ أن أتولى هذه المهمة، فقمت بإصلاح شأن هذه المذكرات، دون أي تغيير في ألفاظها التي اختارها كاتبها، وهي مهمة لم تكن يسيرة بأية حال. كما فصلت بين الفقرات، ووضعت فواصل بين كل عبارة وأخرى لتكون مفهومة، ووضعت عنوانات جانبية بين كل موضوع وآخر تسهيلاً للقارئ، ولم أحذف من النص شيئاً إلاَّ ما كان ذا سمة عائلية بحتة، وبطلب من أسرته، وهي على أية حال عبارات قليلة لا تؤثر على القيمة التاريخية للمذكرات شيئاً.

ورأيت أن مؤلفها قد أشار في سياق كلامه إلى عدد كبير من الأعلام والشخصيات المشهورة والمغمورة التي مرت في حياته، فضلاً عن حوادث

مهمة رآها، وأقوال وروايات سمعها، فوجدت أن من المفيد التعريف، باختصار، بما هو ضروري من ذلك كله بتعليقات مناسبة أثبتها في مواضعها من هوامش المذكرات، وهكذا فإن جميع تلك التعليقات هي لي وأنا أتحمل مسؤوليتها وحدي. كما أني زودت الكتاب بعدد من الصور التأريخية انتقيتها من مجموعة كبيرة من الصور التي تحتفظ بها أسرته.

فإلى الباحثين والمؤرخين وعامة القراء المعنيين بتاريخ العراق المعاصر أقدم هذا الكتاب، داعياً الله تعالى أن يوفقهم إلى خدمة تاريخ وطنهم وأمتهم، وأن يغدق على عبد المجيد محمود شآبيب رحمته، أنه هو السميع المجيب.

الدكتور عماد عبد السلام رؤوف

١١ ذي الحجة ١٤٢٠هـ/ ١٦ آذار ٢٠٠٥م



عبد المجيد محمود طالباً في جامعة كورنيل سنة ١٩٣٢

أولى الذكريات

كانت الحياة عهد ذاك بسيطة[٣٥]، فقد كان والدي يخرج إلى عمله في خان الدجاج[٣٦]، بوصفه ملاَّكاً، كل صباح، وقد لا يرجع إلى البيت حتى

---

[٣٥] وقفنا على أوراق بخط صاحب هذه المذكرات تناول فيها شيئا من طفولته الأولى وأسرته مما يزيد على ما ذكره هنا، جاء فيها ما نصه "في ١٦ آب ١٩٠٩ أو سنة ١٩١٠، ولد للحاج محمود مولود ذكر سماه مجيد أو عبد المجيد. والحاج محمود هو ابن أمين ابن مصطفى بن أحمد بن شاكر بن محمد بن حسين بن الحاج علي القره غولي، وهو الجد الأعلى لعائلة القره غولي ذات الثراء الطائل، المعروفة في بغداد. نزح آباء الحاج علي من لواء (محافظة) الناصرية (ذي قار) من عشائر القره غول الساكنة في جهات مدينة الشطرة الواقعة على الغراف، وتمكنت هذه العائلة – بعد أن سكنت بغداد– ولا سيما الحاج علي من تكوين ثروة طائلة حتى بالقياس إلى ثروات هذا الزمن، ولو أنك قرأت ما أوقفه الحاج علي من أملاك ومسقفات وأسواق وخانات وبساتين لأخذك العجب، وما زالت هذه الوقفية محفوظة لدينا، ولو لم يصف هذا الوقف ويباع لأصبح اليوم ما قيمته الملايين الملايين من الدنانير. لقد صفي هذا الوقف في ظروف حرجة ووزع على المستحقين من الورثة ولم يصب الواحد منهم إلا القليل، فكان نصيب والدتي الدار التي كنا نسكنها في محلة القشلة. تزوج والدتي الحجية هيبت وهي آخر من تزوج وكانت قريبة له من جهة الأم فقد كانت أمها قره غولية ومن مرتزقة الوقف. وأما أبوها فهو الحاج سلمان من بيت آل الشعر باف، وهي عائلة بغدادية قديمة كانت تتمتع بشيء غير قليل من الوجاهة والثروة.. ولدت في محلة الهيتاويين، ولا أدري لماذا سميت بهذا الاسم ولم يكن يسكنها ولا هيتاوي واحد".

[٣٦] خان قديم في سوق العطارين بمحلة سوق الغزل. وفي وقفية محمد آغا بن الحاج سعد الله بن الحاج شاهين المؤرخة في ١٠ رجب سنة ١٢١٩هـ أنه وقف على ذريته" ثلاث أرباع الخان الواقع في سوق العطارين المعروف بخان الصرافين من الجانب الشرقي من بغداد المحدود بالحدود الأربعة، الأول شارع السوق، الثاني دار الحاج حسين بن الحاج كاظم العطار، والثالث دار السيد مهدي الشماع، الرابع دار الحاج عبد الله القشطيني وبعضاً دار مصطفى بن جغال"، وبموجب الإعلام الشرعي الصادر عن محكمة بداءة بغداد في ٢٢ كانون الثاني سنة ١٩٢٠ أن الوقف المذكور آلت التولية عليه إلى الحاج عبد الغني بن الحاج محمود، وهو الأخ غير الشقيق لعبد المجيد محمود صاحب هذه المذكرات، ويفهم من هذا الإعلام أن خان الصرافين هذا هو الذي عرف فيما بعد بخان الدجاج.

العصر، ولم يكن يجلس في المقهى، على عادة الكثيرين من أهل زمانه، بل يؤثر البقاء في البيت مع أهله وأولاده، في حياة تميل الى الدعة والهدوء. وشاء القدر أن تتعرض أسرتنا الى أول حادثة هزتها هزاً، فقد حدث أن كنا، نحن أطفال المحلة، نلعب في "الطَرَف" على عادتنا، فإذا بأحد الأولاد، ويدعى (كاظم أبو كُرْوَة) يرمي بعصا بيده ذات رأس مدبب، إذا بها تصيب عين أخي (رشيد)[٣٧] اليسرى، فيفقد النظر بها تماماً، ولكم أثرّت هذه الحادثة المؤلمة في مجرى حياة أخي، وإن كانت لم تُنقص من ذكائه وخِفّة دمّه وسرعة بديهته، ولكن والدي لم يشأ أن يشكو الفاعل في المحاكم، رغم علمه بسوء خلقه، وذلك لأنه جيراننا و"ابن طَرَف" ولأن الإصابة كانت قضاءً وقدراً.

بعد وفاة والدي، أدخلتني والدتي المدرسة الجعفرية، فقد كانت حريصة على أن انتظم في سِلك المدارس. ولهذه المدرسة فضل كبير على العراق. فقد أُسِّست في وقت يمانع فيه كثير من المتنفذين، ولا سيما بعض رجال الدين، في إدخال أبنائهم الى المدارس، وكانت ثمة رأي يقول أن المدرسة الحكومية تُفسد عقيدة الوَلَد الدينية، أو في الأقل لا تهتم بتَنشِئته نشأة دينية صالحة، وهكذا قاطع كثير من الناس هذه المدارس. ثم أن بعض المعنيين بمستقبل هذه الأمة تداركوا الأمر، فأسسوا هذه المدرسة سنة ١٣٢٦هـ[٣٨] على أن تُعهد إدارتها الى أحد رجال الدين، وكان لآل أبي التمن

---

[37] ولد سنة ١٩١٠ وعمل موظفاً في البنك الزراعي.

[٣٨] أسس هذه المدرسة المرحوم علي آل بازركان سنة ١٩٠٨(١٣٢٦هـ) وكانت باسم (مكتب الترقي الجعفري العثماني) وتولى هو إدارتها بصفته معاونا لمديرها الشيخ شكر، ثم أصبح مديرا لها منذ سنة ١٩١٥ حتى يوم احتلال البريطانيين بغداد سنة ١٩١٧وذلك بسبب مغادرة الشيخ شكر بغداد إلى النجف تخلصاً من إلزام أولاده بالخدمة العسكرية في أثناء الحرب.

فضل خاص في تأسيسها[39]، وأول مدير لها هو رجل الدين الفاضل الشيخ شُكُر[40]، وكان هذا رجلاً حر التفكير، نيِّر العقل، نافذ البصيرة، حريصاً على أمور الدين والدنيا. ولم يُسعِفني الحظ أن أكون تلميذاً في زمن هذا المدير، بل دخلتُ المدرسة في عهد مديرها التالي الحاج كمال، وكان هذا رجلاً مسلماً فاضلاً، سبق أن درس في استانبول ثم تقاعد، وكنا نلمح فيه الشدة والضبط العسكريين. بيد أن المدير الفعلي هو كاظم أفندي الذي كان يشغل وظيفة "مُبصر المدرسة". وأتذكر من المعلمين الأوائل: محمد رضا معلم القرآن والعربية، وعبد الستار معلم الحساب، والشيخ جواد الزِّنجاني[41] معلم الدين، ثم تقلب في التدريس معلمون آخرون، أمثال سعد صالح[42]، ومحمد باقر الحلي، وناصر عوني معلم الرسم، ونوري ثابت (الذي عرف بحَبَزبُون)[43]، وعبد الله الحاج، اللبناني الجنسية والمتخرج من احدى جامعات أمريكا. واني ما زلت أتذكر الأستاذين سعد صالح ومحمد باقر الحلي بلباسهما المحلي، الذي يتألف من الزبون والعباءة والسيدية (وكان لباس الرأس عبارة عن عمامة سوداء). ولابد هنا من الحديث عن كاظم مُبَصِّر المدرسة، فقد كان

---

[39] أشار علي البازركان إلى دور سلمان بن داود أبي التمن في دعم مشروع المدرسة في كتابيه (فصول من تاريخ التربية والتعليم في العراق، بغداد ١٩٩٢ ص٤١ و(بين الناس والكتب، بغداد ١٩٩٥، ٥٨).

[40] كان الشيخ شكر مدرسا للدروس الدينية في مسجد الحاج داود أبي التمن، وقد تولى إدارة المدرسة منذ تأسيسها حتى سنة ١٩١٥.

[41] هو جواد بن أحمد الزنجاني، باحث، لغوي، له مؤلفات منها (التمهيد في بيان قواعد العلوم العربية) و(الكلم الطيب)، توفي سنة ١٩٢٩.

[42] هو الزعيم الوطني المعروف، وقد اختير فيما بعد وزيرا للداخلية، وترأس حزب (الأحرار)، وتوفي سنة ١٩٥٠.

[43] صحفي، عرف بنزعته الوطنية،مؤسس جريدة (حبزبون) وبها تلقب، ولد سنة ١٨٩٧ وتوفي سنة ١٩٣٨.

هذا شديداً قاسياً، لا عِلم له بشيء من أصول التربية الحديثة، وإنما كان يدير المدرسة بالعصا، يوقفنا في الاصطفاف بالعصا، ويدخلنا الى الدرس بالعصا. وحتى الصلاة كان يدفعنا اليها بالعصا، وأذكر أنه ضربني ذات مرة ضرباً مبرحاً. أصبت على إثره بالحمى، وتورمت أجزاء من جسمي، ورغم ذلك لم يشأ أخي غني أن يتدخل، حتى ولا معاتباً، قائلا: إننا نسير على قاعدة "اللحم للمعلم والعظم لنا" فما كان مني إلاّ أن كظمت غيظي.

ولا أنكر أني كنت أشاكس معلم الإنكليزية السيد عزيز، مع أنه كان ذا شخصية هادئة ومؤدبة، وذلك لأنه كان يدرس لغة لم نكن نحب أهلها. وثمة معلم تسببت في مشاكسته أيضا هو السيد عبد القادر البندنيجي[٤٤]، وقد شاركني بعض الطلبة منهم حميد مرهون صنوفا من ذلك العبث الصبياني.

ومما أتذكره أن الأستاذ نوري ثابت، الملقب حبزبوز، عين في المدرسة الجعفرية في نحو سنة ١٩٢٣[٤٥]، فحاول إصلاح نظامها وتحويلها الى مدرسة عصرية، من ذلك أنه أجبر الطلاب على لبس السترة والبنطلون، وكون فرقة لكرة القدم، وأخرى للنشيد، وثالثة للكشافة.

وكانت المدرسة تقع في محلها الحالي، الكائن في "عقد النصارى" بالقرب من القاطرخانه[٤٦]، وحينما دخلتها كنت في التاسعة من عمري أو العاشرة، فوجدتها تضم أشتاتا من الناس، وتضم أبناء مختلف الطبقات، وكان الطلاب يرتدون مختلف الأزياء، فبعضهم يرتدي الدشداشة والنعل

---

[٤٤] منسوب إلى بندنيجين (مندلي الحالية)، أديب، كان ينشر بعض آثاره بتوقيع مستعار،له (الذكرى المصورة لمصرع حفيد الحسين غازي الأول، بغداد١٩٣٩) طبعه بتوقيع (عربي).

[٤٥] عين نائبا لمدير المدرسة سنة ١٩٢٢، وكان قبل ذلك ضابطا في الجيش العثماني.

[٤٦] محلة تقع بين محلات صبابيغ الآل والحاج فتحي والمربعة وسبع أبكار، ومعنى اسمها (خان، أو مربط، البغال).

و(الجرَّاوية)[٤٧]، ومنهم من يرتدي فوق الدشداشة (زُبُون)[٤٨] وسِترة، وقليل من الناس من كان يرتدي البنطلون و(القُندَرة)[٤٩] الجوارب. أما غطاء الرأس فكان أنموذجا للفوضى، فثمة من يرتدي (الكلاو)[٥٠]، أو يرتدي (اليَشماغ)، وإن كان ارتداء الأول لا يدل على الرجولة كالجرَّاوية.

وكانت المدرسة مسرحاً لـ (بطولة) الطلاب، وكل طالب يتوجب عليه أن يبرهن على أنه "سبع" وقوي، فكنت أتصارع مع المصارعين، و"أتلاوى" مع "المُتلاوين" حتى هابني الطلاب فلم يجرؤ أحد على الإشتباك معي، وفي الواقع فإن صنعة (العِراك) كانت هي الصنعة السائدة بين الاطفال والشبان، سواء بين أبناء المدارس أو أبناء الطرف. وكانت الخصومة تقليدية بين طرفي باب الشيخ وبني سعيد، أما طرفنا فكان يعارك مستقلاً، أو منضماً إلى طرف باب الشيخ ضد بني سعيد. وأتذكر أني حضرت مع أخي المرحوم عبد الغني بعض هذه المعارك التي تسمى عادة معارك (الكِسار)، وطريقتها أن نخرج إلى الجول(الفضاء) فنتقابل هناك، ويرشق بعضنا بعضا بالحجارة، أو بواسطة (المِعْجان)[٥١]، وتستمر المعركة بعض الوقت على هذا النحو، وقد يصيب بعضنا بعضاً، ثم تتوقف المعركة ويعود كل طرف الى طرفه. ومن المحتمل أن تتطور المعركة أحيانا فيبرز الشجعان من المحلتين، ويقترب بعضهم من بعض وهم يرمون الحجارة، ثم تلتحم الصفوف، وتُستعمل (الجماغ) أي الهراوات،

---

[٤٧] غطاء للرأس قوامه أن يلف اليشماغ (من التركية: ياشماق، ويعني في العراق نوع خاص من الكوفيات الملونة) لفة واحدة أو أكثر على العرقجين (العرقية) الذي يغطي الرأس.

[٤٨] ثوب طويل مفتوح من الأمام، يشد عليه الحزام.

[٤٩] الحذاء للرجال.

[٥٠] ضرب من القلانس.

[٥١] أصلها معقال، بلفظ القاف جيما مخففة وابدال اللام ميما، ومعقال مقلوب مقلاع، وهو آلة يرمى بها الحجر.

و(المِكوار)، وحينما ينكسر أحد الطرفين يطارده الآخر حتى يضطره الى الدخول في البيوت، وفي هذه الحالة تكون (الكَسْرة) عاراً يلحق بالطرف، ولا يهنأ له بال إلاّ بالإنتقام. ولَمَ تتوقف هذه المعارك إلاّ بعد تدخل الشرطة لفضّها.

وعلى أية حال، فقد تفوقت في المدرسة الجعفرية، حتى صرت دائما بين الثلاثة الأوائل، وعرفت بأني أحد خطباء المدرسة، وحينما أنهيت الصف الأول قفزت الى الصف الثالث، ومنه الى الخامس، تقديرا لتفوقي في الدرس.

وإذا كنت قد نلت كثيراً من التقديرات، فأني نلت ذات مرة "تكديراً" لسبب هو من الصغر بحيث لا أتذكره الآن، ولكني أتذكر أني استعظمت هذه العقوبة واستهجنتها، فأضربت عن الدوام وانقطعت عن المدرسة، وأخبرت الإدارة بأني لن أعود اليها إلاّ إذا رُفِعت العقوبة عني. وبعد انقطاع دام ثلاثة أيام استدعتني الإدارة، وتولى مدير المدرسة الحاج كمال تطييب خاطري وطلب مني أن أداوم فعدت الى المدرسة.

وتعرضت مرة أخرى الى العقوبة، وسبب ذلك أني تركت المدرسة ذات يوم مع زمرة من الطلاب وشاركنا المتظاهرين الذي كانوا يحتجون على بعض ما كان يدور في المجلس التأسيسي، ولعل المجلس كان يبحث آنذاك في الدستور أو المعاهدة. وقد استدعتنا الإدارة وأنبتنا لأننا تركنا المدرسة والدروس وتدخلنا في أمور ليس من شأننا التدخل فيها، ولما أرادت أن توقع بنا العقاب

تدخَّل الزعيم الوطني المغفور له جعفر أبي التمن[52] راجياً من المدير أن يعفو عنا لأن ما فعلناه كان بحسن نية، وانه كان بدافع من الشعور الوطني.

الزورخانة

وفضلا عن ذلك فأني كنت شغوفاً باللعب، حتى ما كان خشناً منه، ومارست السباحة ولعبة كرة القدم، ولم تكن الأخيرة قد انتشرت بعد في بغداد، فقد كانت المصارعة هي اللعبة الأولى فيها، وكانت نوادي المصارعة، أو ما تسمى بالزورخانه[53]، منتشرة في كثير من محلات بغداد، مثل محلة صبابيغ الآل والدَّهانة والفضل وقنبرعلي وباب الشيخ وغيرها[54]. ويمكن وصف الزورخانه بأنها بناية تتوسط داخلها ساحة دائرية منخفضة ينزل اليها اللاعبون، ويجلس المتفرجون حول هذه الساحة على حُصُر مُدَّت على

---

[52] سياسي وطني، له دور بارز في تأسيس (مكتب الترقي الجعفري العثماني)، ولد سنة ١٨٨١ وشارك في الجهاد ضد الاحتلال البريطاني، ثم انضم إلى حزب حرس الاستقلال وشارك في نشاطاته الوطنية أبان ثورة ١٩٢٠، وأسس سنة ١٩٢٢ الحزب الوطني العراقي، واختير وزيرا في وزارة عبد الرحمن النقيب الثانية سنة ١٩٢٢ ولكنه استقال احتجاجا على المعاهدة العراقية البريطانية، ونفي آلي جزيرة (هنجام)، وعند عودته انضم وحزبه إلى صف المعارضة، ثم اختاره حكمت سليمان سنة ١٩٣٦ وزيرا للمالية، وسيتحدث المؤلف عن أسباب قبوله هذا المنصب فيما يلي من هذه المذكرات.

[53] لفظة مركبة من مقطعين فارسيين (زور: القوة) و(خانه: المكان والموضع) فيكون معناها الحرفي: مكان إظهار القوة. واصطلاحاً مكان مخصص لمزاولة بعض ضروب الرياضة كما سيذكر صاحب المذكرات.

[54] يذكر الباحث جميل الطائي أن أولى (الزورخانات) التي عرفتها بغداد هي التي أسسها السيد درويش علي في الكاظمية، والسيد رميض الهاشمي في محلة الدهانة، والسيد مصطفى الدوري في محلة باب الآغا، وقد جرى ذلك في السنوات الأولى بعد منتصف القرن التاسع عشر (الزورخانات البغدادية، بغداد ١٩٨٦، ص١٧). وفي وقفية الحاجة محبوبة خاتون زوجة سليمان باشا أنها وقفت على ذريتها، ثم على جامع حسين باشا، منشآت عدة، من بينها (زورخانه) في محلة قنبر علي، وكان ذلك في ذي الحجة سنة ١٢٥٧هـ (١٨٤١م).

الأرض، ومقابل باب الزورخانه موضع مرتفع يجلس عليه (المُرشِد) وقد تدلّى بقربه ناقوس صغير. ومهمة المُرشد أن يضرب على الدُنْبُك (الطَبلة) بإيقاع يؤدي اللاعبون عليه فنون ألعابهم، كما يقوم بإنشاد بعض المقطوعات. ومما كانوا يؤدونه (الشناو)[٥٥]، وهو أن يضع كل لاعب خشبته أمامه، ثم يضع يديه على طرفيها، ويأخذ برفع جسمه ثم الهبوط به مرات عدة ربما بلغت الخمسين مرة. أما لعبة (الكبركة) فهي أن يمسك اللاعب بخشبتين مخروطيتين ثقيلتين[٥٦] ويحركهما، ثم يدورهما من على صدره وكتفه وظهره عدة مرات حتى يبلغ المائة وأكثر، كل هذا على إيقاع (الدُنبُك) وإنشاد المرشد. وثمة لعبة تدعى (السنك)[٥٧] لا يلعبها إلاّ القليل من المبارزين، والسنك خشبة مستطيلة وثقيلة، يستلقي تحتها اللاعب ويرفع اثنين منها، كل واحدة بيد، ويكرر هذه الحركة مرات عدة أيضاً. وهناك لعبة أخرى لا يقوم بها إلاّ بعض أبطال الزورخانه، وهي أن يقوم اللاعب برفع سلسلة ثقيلة من الحديد بكلتا يديه، وفيها حلقات وأجراس، بحيث يسمع لها صوت عند رفعها، ثم يحملها وهو يمشي طولا وعرضا في الزورخانه حتى يكل ويتعب.

كنت أذهب بصحبة أخي غني[٥٨]الى زورخانه صبابيغ الآل، أو زورخانه الدهانة، حيث كانت هذه الأماكن مدفأة في الشتاء، وكنا نجدها في أوقات المصارعة وقد إمتلأت بالناس. وحينما كان أخي غني يشق طريقه الى صدر الزورخانه كنت أتبعه حيث أجد محلاً واسعاً لي. إن المصارعين واللاعبين

---

[٥٥] من الفارسية، فعل أمر من شنيدن، وتعني: السمع والطاعة.

[٥٦] تسمى هذه الخشبة (ميلا).

[٥٧] من الفارسية، وتعني: حجر، وزن، قدر.

[٥٨] هو المصارع المعروف الحاج غني القره غولي، ولد سنة ١٨٩٠ وتوفي سنة ١٩٥٠، ترجم له جميل الطائي في كتابه (الزورخانات البغدادية) ص١٧١– ١٧٧ بوصفه من أشهر أبطال الزورخانة في بغداد.

وقد خلعوا ملابسهم واكتسوا بالكسوة، لا ينـزلون حلبة الزورخانه إلاّ إذا نزلها قبلهم الأُسطى، وإذا ما نزل أخي الحلبة يقبل الارض قبل كل شيء وهو يواجه المرشد، ثم يعقبه بالنـزول بقية اللاعبين، وقد ينـزل بعضهم وراء بعض حسب القِدَم، ثم تبتدئ الألعاب الرياضية المختلفة حتى تنتهي، فإذا ما انتهت يقوم بعض المصارعين بالمصارعة مع بعضهم. كنت أشاهد أخي يدرب المصارعين اذ كان يتصارع مع عدد منهم بنفس واحد أي دون انقطاع او استراحة، ولم يشتهر بقوة جسمه فحسب بل بفنه ايضاً، فقد كان فناناً يعرض فن المصارعة على نحو يفضل أي مصارع أخر على الاطلاق، فهو لا يشق له غبار، ولا يضاهيه أحد في هذا الفن. وعلى الرغم من أنه لم يكن من الوزن الثقيل، واعتقد انه كان في الوزن المتوسط أو الوزن دون الثقيل، فقد كان يصارع الأوزان كافة ولاسيما المصارعين في الوزن الثقيل فلقد تغلب عليهم ومنهم الحاج عباس[٥٩]، وكان أحدهما قريباً في مستواه من الآخر، وإن كان ثمة من يشهد بتفوقه على الحاج عباس بفنه حيث أنه كان يعرف كل "اشغال" المصارعة وجولاتها.

لقد شاهدت أخي يبرز بين اخوانه ويتفوق على اقرانه إذ كان يتدرب على المصارعة ويتمرن على فنونها والعابها على يد اكابر المصارعين في زمانه، ولاسيما الحاج ابراهيم ابو بريسم[٦٠] والحاج حسن كرد[٦١]، وفي الحقيقة فإنه كرس كل فنه لهذه الهواية، ولم يكن ليهتم بامور الدنيا ولم يضطر على العمل

---

[٥٩] يريد المصارع المعروف(الحاج عباس الديك) وهو من أعلام الزورخانة أيضا، ولد سنة ١٩٠٢ وتوفي سنة ١٩٧٤، وله ترجمة في (الزورخانات البغدادية ص١٧٩-١٨٩) وفيها أنه شغل رئاسة أول اتحاد للمصارعة عام ١٩٥٠.

[٦٠] هو المصارع الحاج محمد بن أسطه بريسم العزاوي، ولد سنة ١٨٥٤ وتوفي سنة ١٩٤٨.

[٦١] هو الحاج حسن علي بن عبد الله العبدي، ولد سنة ١٨٦٥ وتوفي سنة١٩٦٢.

من اجل لقمة العيش حيث اصبح بعد وفاة والدي ناظراً على ملك جدنا علي القرغولي[٦٢] وهو خان الدجاج، وكان يعيش من وراء هذه الواردات. ولم يكن بروزه بالامر الهين فلقد اقتضى ذلك منه جهداً متواصلاً واتعابا مضنية. وكنت أرى كيف يتصارع مع المصارعين حتى صار يصرع الواحد تلو الآخر إلى أن وصل القمة.

وفي ذات مرة تصارع مع البطل عبد الستار، وكان قد سبقه على مضمار المصارعة كما انه قد سبقه الى عالم الشهرة حتى انه لم ير البطل عبد الستار قبل ذلك الحين، وادرك انه غير قادر على المصارعة في احدى الزورخانات لأنه لابد أن تضيق الزورخانة بالمتفرجين فتقرر اجراء المباريات في احدى الساحات، وكان يوم النزال يوماً مشهوداً تقابل فيه البَطَلان فارتفعت الأيدي بالتصفيق السعيد المتواصل. وكنت اشاهد هذه المصارعة مع المشاهدين وكان اخواني واقاربي قد حضروا المباراة برمتهم وبعضهم حمل سلاحه للدفاع عن اخي اذا ما وقع اعتداء عليه من جماعة عبد الستار. ذلك ان عبد الستار كان يسكن في محلة الفضل وكان بطلها، واشتهرت هذه المحلة بأشقيائها، وهم لا يتحملون الخسارة بروح طيبة، وقد تحدث حوادث لا تحمد عقباها إذ لا يقبل هؤلاء الأشقياء من أقاربه وأبناء محلته بالنتيجة والفشل، وقد يعِدُّون الخسارة عاراً ولابد من محو العار بضرب المكوار اوباشهار الخناجر واطلاق الرصاص.

وحينما بدأ البطلان بالصراع، كان الجو حماسيا متوتراً، والأعصاب متهيجة ثائرة، وكل فريق يصفق لصاحبه ويتحمس له ويقوم بتشجيعه واثارة

---

[٦٢] هو الحاج علي القره غولي أحد سراة بغداد وتجارها في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، وقف عددا من الخانات والعقارات على ذريته في وقفية تاريخها ٢٥ ذي القعدة سنة ١٢٢٣هـ (١٨٠٨م).

الحماسة فيه. وكان صراعاً عنيفاً مريراً وكانت كفة أخي غني هي الراجحة اذ كان قوياً وفناناً، أما عبد الستار فهو قوي ضخم، بل هو كتلة بشرية هائلة ولكن يعوزه الفن إذ لم يرتفع بفنه إلى المستوى الذي ارتفع اليه أخي. ولم تمض إلاّ مدة محدودة حتى بدأت ضحكات الزوار تتوالى ولم تمر إلاّ بضعة دقائق حتى كان أخي قد (بهذله) او لعب به (طوبه). كان يدفعه الى آخر الزورخانة مرات ومرات، وكان يهاجمه بشدة وعنف وقوة حتى تركه في حالة دفاع. وكنتَ ترى عبد الستار وكأنه يريد الفرار من أخي والاحتماء بملجأ، حتى كانت الواقعة فاذا به يصرعه صرعه كاملة، واذا بأخي يمدده على الارض وقد لامست كتفاه الأرض بل ولصقت بها وكانت صرعة كاملة اعلنها الحكم بصوت جهوري، فارتفعت الأصوات، وشق التصفيق عنان السماء، واتجهنا نحو أخي بحجة التهنئة، ولكنها كانت في الحقيقة مظاهرة نكشف بها عن عددنا وقوتنا وعن استعدادنا للطوارئ، فأحطنا به وأخذنا بيديه وأنزلناه من على المسرح وأدخلناه الغرفة ولم يلبث أن غيَّر ملابسه حتى أخذناه.

ولابد من القول ان عبد الستار، وان كان قد تألم لخذلانه وبدت على وجهه امارات الغضب، فان اخي قبَّل جبينه، وتُعد هذه القبلة راية السلام البيضاء، فبان للحاضرين بأن المعركة انتهت من دون ذيول، وإن كنا سمعنا من البعض قارص القول وبذيء الكلام لكننا لم نعبأ به فنحن المنتصرون. كان يوماً مشهوداً لنا فرحنا به واحتفينا به إحتفاءً رائعاً، غير أن هذا اليوم كان لأخي أعمق دلالة من هذا وأهم منه بكثير، فهو يوم فاصل في تاريخ حياته إذ اشتهر اسمه ولمع نجمه حتى أصبح ثاني اثنين في العراق هو والحاج عباس الديك. ولم يعد غني هو الرجل الأول الذي يعرف فنون المصارعة وخباياها بل

أصبح مصارعاً قوياً فذاً، فلقد أبدى من ضروب الفن الجسمانية مع خصمه عبد الستار ما جعله مضرب الامثال.

لقد نازل أخي بعد هذه المنازلة كافة الابطال العراقيين الذين أبوا أن يروا البطل في القمة، لكنه بقي عالياً صامداً في مكانه. وكم صارع في منازلات رائعة ففاز بها على المصارعين الأجانب كالايرانيين وكان النصر حليفه. كان بعض ابطال المصارعة في إيران يزورون الزورخانات. ويتصارعون مع ابطالها ولكنهم لا يستطيعون فوزا، كما اني لم اجد عباس إلاّ في حفلات عامة. كان بعض رَيْع هذه الحفلات تذهب اليهم. وأني اتذكر حفلة من هذه الحفلات صارع بها أخي أحد المصارعين الهنود، وكانت حفلة رائعة، والصراع عنيفاً استغرق مدة طويلة. لقد اشتهر الهندي بخفة جسمه وقوة عضلاته وباجادته لفن المصارعة وبالتنقل السريع، ومع هذه المزايا تغلب عليه اخي. وأني اتذكر أن أخي كان يزور بعض الزورخانات في أوقات مختلفة ومناسبات دينية مثل زورخانة الدهانة والفضل، ويزور في أوقات خاصة الكاظمية وكربلاء وكان يُقابل بالترحيب.

وصادف أن دُعي إلى منازلة يظهر فيها أحد المصارعين الإيرانيين[٦٣] في كربلاء، ولم يكن ليعلم أن هناك خطة مدبرة لأخذه على حين غرة. ولم يكن أخي عندما قبل دعوة الحضور ينوي اللعب، فلما حضر ألح بهلوانية كربلاء على ضرورة اللعب، فما كان منه إلاّ أن استجاب لهذا الالحاح. وبعد الانتهاء من اللعب طلب إليه الايراني الذي كان على ما يظهر قد أعد لهذه المناسبة اعداداً محكماً، المصارعة. تردد أخي باديء الأمر محتجاً بابتعاده عن حلبة المصارعة مدة معينة من الزمن لمرضه وإنه لم يكن يتمرّن التمرين المطلوب طوال

---

[٦٣] هو المصارع مرزا جعفر الكرمنشاهي.

هذه المدة، ولم يعد القوم هذا العذر مقنعاً وهم مصممون على اجراء المصارعة مندفعون لكسر شوكة أخي بأي شكل كان. فما كان من أخي بعد هذا إلاّ أن استجاب لمصارعه وكانت المبارزة شرسة، عنيفة قوية، ولما انتهت بعد مدة غير قصيرة كان النصر حليف أخي. لقد صرع الايراني وجندله، وقبل ان ينهض من على صدره إذا بنا نسمع صوت طلقتين ناريتيين لم يُعرف مصدرهما، وتكربس المتفرجون بعضهم فوق بعض وولوا هاربين لا يلوون على شيء. أحاط بنا بعض أصدقاء أخي وشهر بعضهم مسدساتهم وأنا بينهم، وعلمنا فيما بعد أن ما حدث كان مؤامرة دبرها الحاسدون والحاقدون من بهلوانية كربلاء وبغداد وفي مقدمتهم صديق أخي اللاعب الحاج عباس.

لقد شاهدت صداقة الحاج عباس مع أخي كيف تنمو وتترعرع، وشاهدتهما كيف يشقان كتفاً لكتف طريقهما في سلم المجد الرياضي، وكيف يصعدان الى الذروة. شاهدت كيف يرعى أخي الحاج عباس ويعطف عليه ويقربه منه ويصطحبه كأقرب صديق. وشاهدت الحاج عباس كيف كان يرد عليه بأخي وهو لايفارقه إلا نزولاً عندما يستعين به على أمور دنياه. كان نادراً ما نجده في غير دار أخي، كان يتغدى عنده كل يوم تقريبا ويتعشى، وكانا يذهبان كل يوم إلى المقهى ويرجعان سوية إلى البيت. كانا صديقين في الطريق والسفر، وما كان أخي يسافر إلاّ والحاج عباس معه. كانا يسافران سوية الى كربلاء والنجف وإلى إيران، بل لا يذهب أحدهما إلى قصبة الكاظم إلاّ إذا ذهب الآخر معه.

وقد التقيا في مناسبات عديدة، أولها في حفلة كبيرة حضرها الملك فيصل الأول. وكان برنامج الحفلة طويلاً ومتنوعاً، وفي إحدى فقراته المصارعة بين الحاج عباس وغني. تصارع البطلان، وبالرغم من اختلاف الوزن فقد كان

الصراع مخيفاً ومميزاً، وكانت نتيجة المصارعة أن تعادلا، ولم يصرع أحدهما الآخر، فوُزعت الجوائز من قبل الملك على الطرفين. ولقد شاهدتُ البطلين وهما يتصارعان في محلٍ بالقرب من محطة الكهرباء في (العبّاخانة). لقد تصارعا ثلاث ليال متتالية ولم يصرع أحدهما الآخر. وشاهدتهما يتصارعان في إحدى دور السينما وكانا أن اتفقا على أن لا يصرع أحدهما الآخر، وأن تكون المصارعة (أخوية)، ولذا فانهما تصارعا لمدة طويلة. وكنا نحس بأن المصارعة غير (أخوية) وان الحاج يتحين الفرصة للغدر بصديقه. لقد توهم الحاج بأنه (مَسَك) غني مَسْكَةَ لا يمكن إلاّ أن يصرعه بها، فجمع كل قواه وبذل كل جهده وضيَّق الخناق، فظهر للناس أن غنياً مصروع لا محالة، وإذا به يتخلَّص في آخر لحظة من صرعة محتومة. ولقد صفق الناس طويلاً فظن الحاج أن التصفيق لانتصاره ولكنه لم يكن إلاّ تصفيقاً لغني لبراعته ومهاراته في التخلص من (الشُّغل) الذي كان لابد أن يصرعه ومن مؤامرة مدبرة وجناية مقصودة. لقد تجمهرنا نحن الأخوة والأصدقاء بالقرب من أخي فهمس غني في اذني: إن اللعين أراد الغدر فلا تدعوه يفلت، وأحس الحاج بافتضاح جنايته كما انه أدرك أن لابد من العقاب فأسرع بالهرب وفَلَت من ايدينا.

لقد كان الحاج عباس بطل العراق في الوزن الثقيل بلا منازع، بينما كان أخي بطل العراق في الوزن المتوسط أو دون الثقيل بلا منازع أيضاً، وكانا نِدَّين لا يمكن لأحدهما أن يصرع الآخر إذا ما التقيا. ولم يحصل الحاج عباس على بطولة العراق عن طريق هيِّن بل كافح وناضل طوال حياته الرياضية. وأذكر أني شاهدته في زورخانه صبابيغ الآل[٦٤] وهو في طريقه إلى الذروة ينازل المنازلين ويصارع المصارعين وينتصر عليهم الواحد تلو الآخر، كما شاهدته في

---

[٦٤] أسسها المصارع عيسى الصباغ.

احدى منازلاته الحاسمة يصارع مصارعاً نسيت اسمه الاّ أنه أطول من الحاج عباس قامة وأضخم جثة وكانت صنعته أنه بياع (باجه) وكباب، وكنت أشاهده في دكان بالقرب من مدخل الجسر القريب من جهة الرصافة، وقد رأيتهما يتصارعان في كل يوم معاً لثلاثة اسابيع. وكانت زورخانه صبابيغ الآل تزدحم بالمتفرجين حتى يتجمهر الناس في باحتها، وبعد أن تنتهي الزورخانه من اللعب تبتدئ المصارعة، وما أن تنتهي المصارعة حتى يسود السكون ويخيِّم الصمت فلا تسمع إلاّ أنفاس الناس تصعد وتنزل. كان صراعاً شرساً عنيفاً تسوده القوة الخارقة ويعوزه الفن. ولقد تمكن الحاج بعد جهد من صرع غريمه. ولم يقبل "الغريم" بالخسارة، وطلب إعطائه آخر فرصة فتحددت الجمعة الثانية يوماً للصراع. ولما جاء الموعد استعد احدهما للآخر استعداداً كاملاً. وبعد صرّاع عنيف مستمر استطاع الحاج الفوز مرة أخرى، ومع هذا فقد تحدد صباح الجمعة الثالثة موعدا للنزال بناءً على طلب الغريم، وما أن جاء صباح الجمعة حتى ازدحمت الزورخانه بالمتفرجين، وأخذ البطلان يتنازعان، وكان تفوق الحاج على غريمه هذه المرة تفوقا ساحقاً.

وأذكر أني شاهدت الحاج عباس مرة أخرى في معركة ضارية مع (خِلاّوي) وهو بهلوان كردي من فَيليَّة الصدرية يمتهن الحمالة في الكمرك، وقد اشتهر بقوة جسمه وبسواعده المفتولة وعضلاته البارزة المقسمة. ولقد شاهدت خلاوي يلعب في زورخانه صبابيغ الآل اكثر من مرة فأعجبتني هيأة جسمه ورشاقته، ولكنه كان مصاباً بمرض في صدره وضمور في خصره، ولم يكن ضخم الجثة بسمنة أو طويل القامة بإفراط بل كان معتدلاً في هذه وذاك، وقد سبق الحاج بمراحل في عالم المصارعة، وكان معروفاً ومشهوراً يتمتع بسمعة عالية بوصفه بطلاً نظيفاً في الصراع، وكم صرع الآخرين من المصارعين

وتغلب على البارزين منهم حتى انفرد في مقامه. ثم بدأ نجم الحاج يسطع شيئاً فشيئاً إلى أن وصل مرحلة لابد ان تتوج بمصارعة خلاوي، فتصارع النجمان في صباح يوم من ايام الجمع وكانت الزورخانة مزدحمة بالعرب والأكراد كعادتها في مثل هذه المناسبات. وكان الصراع عنيفاً وقوياً ومقيماً وسجالاً بين الطرفين، وقد انتهت المصارعة بعد مدة طويلة دون ان ينتصر احدهما على الآخر وان كان قد بانت كفة الحاج هي الراجحة. لم تكن الغلبة قد تحددت بالنقاط في ذلك الزمن، ولو كان، لكان النصر بجانب الحاج واعتبر الفائز، ولم تكن الغَلَبة تُحسب إلاّ إذا كانت الصرعة كاملة.

ولقد شاهدت الحاج عباس يدرِّب في زورخانه الدهانة[٦٥] أحد المصارعين الناشئين وهو موسى الحاج طُبَر[٦٦] الذي قُتل فيما بعد. كان موسى ضخم الجثة، طويل القامة، عريض المنكبين، واسع الصدر ضامر البطن، مفتول الساعدين، مقسم العضلات، خارقاً في القوة. لقد شاهدت هذا الشاب كيف ينمو في عالم المصارعة وكيف يتسلق سلمها بقفزات وقفزات. وكان الحاج يدرِّبه ولم يحاول اخفاء ما يقاسيه في اثناء تدريبه، فلم يكن من السهل عليه مصارعته ولم يكن من الهين صرعه. كان يدربه والناس تحيط بهما تتفرج. وكان كل هذا يؤذي الحاج وينال من هيبته ويقلل من قيمته حتى سمع الهمس بين الناس يفيد بأن موسى أقوى من الحاج وإن كان يعوزه التدريب اللازم، وأن قوته سوف تقهر الحاج إن عاجلاً ام آجلاً. كان الحاج يسمع هذا الهمس الذي تطور إلى لغط، بيد أن الحياة لم تطل بموسى إذ قتله رجلان يحترفان القتل، ولم يكن قتلهما إياه بسبب عداء شخص ام انتقام او أخذ

---

[٦٥] وتعود هذه الزورخانه إلى الحاج عباس الديك نفسه.

[٦٦] هو المصارع موسى بن محمد مهدي الدوري، المعروف بابن (أبو طبره)، ولد سنة١٩٠٤ وتوفي سنة ١٩٣١.

بالثأر أو لابتزاز الأموال أو لأي سبب آخر لأنهما كانا يقتلان مقابل أجرة. انهما جزّاران ارتكبا عدة جرائم وقد أبديا مهارة فائقة في اخفاء علائم الجريمة وأثارها، بل وقعت جرائم قتل كثيرة ولم يعرف من الفاعل حتى بدأ الناس يهمسون باسمهما بل اصبح اسماهما معروفين على كل لسان وشفة حتى أمسكت بهما الحكومة هذه المرة وحوكما وثبتت الجريمة عليهما فأعدما وتخلص الناس من شرهما[٦٧].

وإذا كان عليَّ أن اتكلم عن أخي والحاج، فلا بد لي من أن أتكلم عن الفارس الثالث، وهو المرحوم صبرى الخطاط[٦٨] إذ كان صديق الاثنين وكان معهما على الأغلب وقلَّ أن يفارقهما. كان يلعب ويتمرن بنفس الزورخانه، وقد شوهدوا سوية ولمع نجمهم معاً. كان المرحوم صبري مرفوع القامة وأقصر من أخي غني بقليل، وكان من الوزن المتوسط أو دون الثقيل بقليل، ويتمتع بجسم غاية في الجمال والكمال، ولو أجريت في حينه مسابقة في جمال الجسم لحاز الدرجة الأولى بلا منازع. كان ضامر البطن واسع الصدر عريض المنكبين كبير الكتفين مفتول الساقين والفخذين. لم يشتهر بقوة جسمه كزميليه، ولم يرتفع بفنه إلى مستوى أخي غني ولكنه كان في المقدمة مبرزاً، ولم تكن حياته الرياضية شائكة او حافلة بالصعوبات والمثيرات فلم يشأ ان يتسلق السلم بطريق النضال والصراع ولكنه قد تسلَّقه بدماثة الخُلق وجمال الجسم وباللعب النظيف الرياضي المُتقن وبشيء غير قليل من قوة الجسم وفن المصارعة. لقد شاهدت صبري وقد بدأت علاقته تفتر بزميليه ولم أعد أشاهده معهما كالسابق، إذ بدأ ينقطع فلا يأتي إلى دار أخي باستمرار لتناول طعام الغداء أو

---

[٦٧] تنظر تفاصيل هذا الحادث في جميل الطائي، مصدر سابق ص٢١٣.

[٦٨] هو المصارع محمد صبري بن مهدي بن علي بن محمد بن علي الهلالي الخطاط، ولد في سنة ١٩٠٠ وتوفي سنة ١٩٥٣.

العشاء، ثم بدأنا لا نراه في الزورخانه بانتظام إذ لم يشأ أن يستمر في السير معهما على الطريق، فقد تَخلّف عنهما عندما شعر بأن هذه الصداقة قد تبدلت وتغيرت.

لقد التقيت بالمرحوم صبري قبل أن يتوفى أخي بمدة قصيرة فطلب مني بطاقتي، ولما رآها قال: دعها لديَّ فإنني سأكتب لك واحدة. لقد كان أشهر خطاط أنجبه العراق وفي ومقدمة الخطاطين المشهورين في البلاد العربية، وقد التحق بالجيش وأُعطي رُتبة فيه[٦٩]. وإلتقيت به عند وفاة أخي في دارنا، إذ كان يأتي لقراءة الفاتحة أكثر من مرة، وفي كل مرة يبكي ويسكب الدمع غزيراً ولم تمهله الحياة طويلاً، فقد توفي بعد أخي ببضعة أشهر. وأذكر أني بحثت عن داره -وكنت آنذاك وزيراً- فذهبت اليها وقرأت الفاتحة أكثر من مرة وبكيت بكاء مراً. لقد كان رحمة الله عليه صديقاً وفياً وخلوقاً طيباً. لقد مات أخي قبل أوانه، وكذلك مات صبري قبل أوانه لم يبلغا الستين من العمر أو أقل من هذا بقليل، فهل أن رياضة الزورخانه كانت مرهقة ومجهدة للجسم والقلب؟ وهل كانت تجري في محل لا تتوفر فيه الشروط الصحية، ولاسيما الهواء الطلق النقي؟ هل يصح أن تكون الزورخانه محلاً تجري فيه رياضة من أشد الرياضات وأشقها؟ والزورخانه محل مسدود لا توجد فيه إلاّ باب ضيقة واطئة ولا يوجد أي منفذ آخر للهواء لا فتحة ولا شباك ولا أي منفذ آخر، وكان لابد من فتحها لأن اللاعبين فيها يخلعون ملابسهم (الكسوة)، ولاتُدفأ إلاّ بمناقل الفحم وهذه غنية بثاني أوكسيد الكاربون، كما أنها كانت في الأكثر مزدحمة بالناس، وعليه فليست الزورخانه محلا صحياً

---

[٦٩] تنظر ترجمته بوصفه من كبار خطاطي بغداد المحدثين في الخطاط وليد الأعظمي: تراجم خطاطي بغداد المعاصرين (بيروت ١٩٧٧) ص٢٠٧-٢٢٦.

للمصارعة. وكان كثير من الرياضيين يريدون تطويرها لاسيما من الوجهة الصحية، كما أنها كانت لا تُمارس فيها إلاّ لعبة المصارعة. وقد أراد أخي غني مدفوعاً بروح التجدد فتح نادٍ لممارسة كافة الالعاب الرياضية من مصارعة وملاكمة إلى ألعاب حديدية والجمناستيك وما إلى ذلك فانضم إلى جماعة الحاج عباس وفتح النادي، ولا اتذكر اسمه، واشترك فيه الرياضيون والناشئون من مختلف الناس، ولكنه لم يعمّر طويلاً بالرغم من التكاليف الكثيرة التي تكلّفها والتي تحمّل أخي القسم الأكبر فيها، وعلى أية حال فإن النادي كان يمثل حركة جديدة في التأريخ الرياضي في العراق.

قدم العراق مصارع ألماني هو الهر كريمر، وكان مصارعاً من الوزن الثقيل، قوي الجسم، عارفاً بالمصارعة وفنونها خير معرفة. قدم العراق وهو بحاجة الى المال فأراد أحياء بعض الحفلات الرياضية والمصارعة مع المصارعين العراقيين ليكسب مالاً واسماً. ولكن المصارعة في العراق كانت حين قدومه في أفولها وعصر ازدهارها قد انتهى أو كاد. ولم يكن في الميدان مصارعون بارزون فلقد كَبر أخي غني في السن، وكذلك كبر الحاج عباس وتركا ممارسة المصارعة منذ زمن طويل، ولم يأخذ أحدٌ محلهما، ومع هذا كله فان الهر كريمر يريد المصارعة. وبعد مداولات ومشاورات استغرقت مدة غير قصيرة اتفق على أن يتصارع الديك مع الهر، في ساحة الكشافة، وعلى أن يكون الحَكَم أخي غني. وفي يوم السباق أتى الساحة جمهور كبير بحيث ضاقت بهم على رحابها، وبيعت أعداد كبيرة من البطاقات، وفي اثناء المصارعة تماسك الطرفان وكان كل واحد منهما يبدو عليه أنه في غاية الحذر والحيطة من صاحبه بل ويبدو، لاسيما الحاج، وكأن الخوف قد سيطر عليه. وما أن مرت مدة طويلة بين التشابك والتدافع واذا بالهر يسقط على الأرض،

وإذا ببعض الناس القريبين من المنصة التي أعدت للمصارعة يصعدون عليها، واذا بها تسقط بهم واذا بالحكم يعلن فوز الحاج. كنت أحد الحاضرين ولكنني لا اعرف حتى هذه اللحظة كيف تغلب الديك على الهر، ولماذا عُدَّ الهر خاسراً؟ هل عد مجرد السقوط صرعة، أم أن الديك قد صرع الهر بعد أن سقط؟ لم يكن ذلك ظاهراً ولم يكن ليعرفه الناس. لقد تجمهر الناس وصعدوا فوق المنصة ولا ندري ما حدث، فلقد أختلط الحابل بالنابل، ولم يرض الكثيرون على هذه المصارعة، وعدوا أنفسهم قد غُبنوا، دفعوا الفلوس ولكنهمْ لم يتفرجوا على شيء يستحق الذكر. لم تكن مصارعة بالمعنى المعروف ولم يشاهد المتفرجون أي فن من فنونها. لقد خابت آمالهم بعد ان كانوا يأملون أن يشاهدوا مصارعة على المستوى العالمي تظهر فيها القوة خارقة والفن بمستواه الرفيع. وبعد السباق بمدة صرنا نسمع همساً هنا وهناك بأن المصارعة كانت تنطوي على مؤامرة، وأنها كانت مدبرة حسب خطة متفق عليها، وأن ما وقع كان تمثيلاً، وأن صعود الناس على المنصة قبل أن يعرف الجمهور ماجرى وحملوا الحاج على الأكتاف محتفلين بنصره كان أمراً متفقاً عليه، وأن الحَكَم لم يعلن النتيجة إلاّ وفقاً للخطة المبيتة. ولم أشأ أن أصدِّق كل هذا وإن كنت شعرت في حينه اثناء حفلة المصارعة أن الأمر لا يخلو من "لعبة"، وأن هناك شيئاً مبيتاً حتى سمعت القصة كلها من أخي غني. كان الهر كريمر يريد الفلوس بأي ثمن كان، ولا يهمه إن خسر أم ربح، وأن الحاج لم يرض أن يتصارع معه إلاّ بشرط الخسارة، وأن الهر قد قبل بذلك. وبعد سنوات وسنوات رجا مني بعض الرياضيين، ولاسيما محمود ابن أخي المرحوم غني، أن اتوسط لدى وزير المعارف لتعيينه مدرباً للمصارعة. لقد كلمت وزير المعارف بالأمر فوعد خيراً، وما أن مرت مدة طويلة على هذا

الرجاء حتى سقطت الوزارة، وعينت وزيراً للمالية ثم وكيلاً لوزير المعارف. فاقترحت تعيين الهر كريمر بوصفي وكيل وزير المعارف، ثم وافقت على تعيينه بوصفي وزيراً للمالية ورفعت الأمر إلى مجلس الوزراء الذي صادق بدوره على هذا التعيين. لقد عيناه براتب قليل نسبياً إلاّ أن هذا التعيين كان كسباً للمصارعة في العراق فقد قام بتدريب الكثير من النشيء الجديد ومنهم ولدي حارث الذي أصبح بطل وزنه في العراق.

كنت منذ الصغر أحب الرياضة مولعاً بها، وكان يعجبني أن أرفع الأشياء الثقيلة في البيت او أحملها على ظهري من مكان إلى آخر. وكانت والدتي لا ترضى بذلك وتمانع لأنها تخشى علي من السقوط تحت الحمل أو أن "يفك" الحمل صدري او يؤذي ظهري. وكنت لا أنام اثناء النهار ولاسيما في الصيف لاعلى فراش بل على الأرض، ولا أختار من الارض إلاّ القسم غير المستوي، وكنت أنام في (المَجان) على الطابوق الذي فيه ارتفاعات وانخفاضات، وكنت أحس بأنه غير مريح وانه يؤذي ظهري ولكن هذا ما كنت أريده لأني أحببت أن اتخوشن. وكنت لا أغسل رأسي اثناء الشتاء إلاّ بالماء البارد، ولا آخذ الماء إلاّ من كاسة الحِب أو (التُنكه) لأن الماء المحفوظ فيها يكون أبرد من غيره. ولم يكن ذلك ليرضي والدتي وكانت تمانع بشدة وهي تصب الماء فوق رأسي وتحذرني من أن هذا الماء سيسبب لي وجعاً في الرأس او زكاماً مزمناً.

لقد حضرت مع أخي الزورخانه، وتفرجت على العابها وعلى المصارعة فيها، ولكني لم ألعب الزورخانه ولم انزل (الجُفرة) وألبس (الكسوة)، وإن كان قد لعبت بعض العابها وأنا في البيت، فقد كنت (أفْتَر) أي أدور على نفسي، وكنتُ العب (الشناو) و(الكبركه). ولازلت حتى هذه اللحظة العب

الكبركه بصورة منتظمة ومستمرة قبل الفطور، فلا أفطر إلاّ بعد أن أؤدي حركاتها، ولا انقطع عنها إلاّ بسبب السفر او المرض، وقد تصارعت خارج الزورخانه مع الأولاد في الطرق أو على الشاطئ ومع اخواني في البيت إذ كنا نذهب في الصيف للسباحة في نهر دجلة ولاسيما في شريعة (السيد سلطان علي)، او كنا نخلع ثيابنا في محلات تعرف (بالجراديغ)[٧٠] معمولة من الحصيرة والخشب المعروف (بالقَوَغ)، وكنا لا نسبح في أغلب الأحيان إلاّ إذا تصارعنا. كنت اتصارع مع عدد من المصارعين ولم يكن ليصرعني أحد أو حتى يعادلني فيقف ويقاوم ومن دون أن يصرع. لم أصادف شخصاً يستطيع ذلك طوال حياتي، ولا اريد أن اقول أن الباري لم يخلق شخصاً آخر بقوة جسمي تلك القوة التي صانني بها وفضّلني على أقراني، ولكن أقول أني لم أصادف شخصاً كهذا فقد يكون موجوداً ولكن لم ألتق به ولم اصادفه. تصارعت مع أخواني لأبي لاسيما حسين[٧١] ومحمد[٧٢] لأتمرن واتمرّس بفن المصارعة على أيديهما. وقد كان كل منهما بطلاً من الأبطال فازا في أغلب النـزالات التي خاضاها ولم يصلا إلى المركز الذي أحتله أخي غني. وكانت لهما سمعة طيبة في عالم المصارعة فلقد تدربا مع أخي غني ونشآ معه، ولكنهما كانا دونه بمراحل. لا أشك في أننا ورثنا القوة الجـسمية عن والدي رحمه الله فقد كان قوي البنيـة متين التركيب اشتهر بين أخوانه بما حباه الله به. وكان أيضاً ولوعاً بالرياضة ولاسـيما المصارعة ورياضة الزورخـانه، حتى أنه أنشأ له زورخانه خاصة في خانه المعروف بخان الدجاج يتريّض بها

---

[70] كلمة مركبة من (جر) المخففة من (جهـار) الفارسـية، وتعـني (أربعـة)، و(طـاق) وتعـني: القـوس، والعقد، والخيمة.

[71] توفي في ٢٣ شباط سنة ١٩٥٩.

[72] توفي سنة ١٩٨٣.

هو وبعض أصحابه. لقد ورثنا عنه ما نتمتع به من قوة، وقد ورث القوة عنا ابناؤنا، فولدي حارث بطل وزنه في المصارعة، وأما قيس[73] فانه بطل وزنه في الملاكمة، وأما علي فقد كان من بين الثلاثة الاوائل في السباحة، وإبراهيم واسماعيل ولدا غني بطلا وزنيهما في المصارعة، وكذلك فيصل بن محمد فانه بطل وزنه في المصارعة، فالعائلة بحكم عامل الوراثة تتوارث القوة وكذلك الميل الى الرياضة.

كنت اتدرب على يدي أخي حسين، وإن كنت أبدو وكأني أريد المصارعة معه بالرغم من اختلاف السن والوزن، فقد كنت طفلاً او أكاد، وكان هو شاباً في عنفوان شبابه. تصارعت معه مرة و"عصيت" إلى حد أراد ان يبعد عني أخي غني بان شد شغل (الكفتر بند)[74] غير انني لم اعط نفسي بسهولة فقاومت، وهو يشد عني زندي الى الأعلى وانا اشد بهما الى الأسفل حتى شعرت ان شيئاً آلمني في صدري في قفص الصدر بالقرب من وسطه، وقد سمعت والدتي تنادي بوقف المصارعة والاّ فإن صدري "سيَنفَك". لقد غضبت علي أخي المرحوم حسين ولا أدري كيف كانت النتيجة، وكيف طمعت وأنا في تلك السن في المقاومة حتى النهاية، ولكنني أعلم شيئاً واحداً وهو ان صدري قد (إنْفَك) وقد بقيت مدة طويلة لا اتنفس بسهولة ولا استطيع التنفس عميقا، وكنت (أنْهَت) وأقع بين حين وآخر، وحاولت أن أعالج صدري

---

[73] ولد في ٣٠ تموز ١٩٤٠، وتخرج في الكلية الطبية سنة ١٩٤٦، وواصل دراسته العليا في بريطانيا حيث نال الاختصاص سنة ١٩٧١، ثم عاد إلى وطنه ليعمل طبيباً جراحاً في مستشفيات بغداد والكوت والعمارة والبصرة، وكان له دور مجيد في معالجة الجرحى في أثناء الحرب العراقية الإيرانية، واستشهد جراء القصف الإيراني على مستشفى البصرة الجمهوري، حيث كان يقوم بواجبه، في ٢٠ كانون الثاني سنة ١٩٨٧ رحمه الله رحمة واسعة.

[74] مَسْكَة يقوم بها المصارع، إذ يمرر يديه من تحت إبطي الخصم والضغط عليها بشدة، ثم يقوم بثني الأرجل في محاولة قلب خصمه على ظهره.

بمختلف الطرق حتى مررت ذات يوم في شارع الرشيد ودخلت عيادة أحد الأطباء، وكان سورى الأصل، ففحصني ولا أدري ما وصف لي من دواء، غير أنه أخذ مني كل ما عندي من فلوس وهي قليلة، ولم يقبل أخذ جزء منها أجرة المعاينة بل تقاضى الأجرة بكاملها، وقد حمدت الله أنني كنت املك تلك الساعة أجرته التي أتت على ما عندي من فلوس قد جمعتها شيئاً فشيئاً من بعض "اليوميات" التي كنت أحصل عليها بين حين وآخر. وعلى أية حال لم يفدني دواء الطبيب فذهبت ووالدتي معي الى "المُجبِّر" في شارع امام طه[٧٥]. لم استفد من هذا "المجبر" وظل الألم يعاودني بين حين وآخر، ثم وصفوا لنا أن نذهب الى المجبر الشهير في سوق الصفافير. لقد بنى هذا المجبر صدري ولاسيما المحل الذي كان يؤلمني، وأتذكر أنه وضع مع مواد البناء قيراً على صدري، وطلب مني أن أُبقيه مدة طويلة لا تقل عن أربعين يوماً على كل حال. كانت أشبه شيء (باللَّصقة). لقد ضايقتني وقيَّدت حركتي ولاسيما وان الموسم كان صيفاً. وكنت أشعر بثقلها ولزوجتها بل وحرارتها. كان المجبر مشهوراً، وكنا كلنا ثقة بأنني سأشفى. لقد شفيت بعد المدة المعروفة وشكرت الباري على ذلك لأن ألم الصدر أزعجني وأخافني كثيراً واقلق أهلي ولاسيما والدتي قلقاً شديداً.

ولقد تلاكمت أيضاً وكنت صغيراً ولم تكن ملاكمة بأي معنى من المعاني، وإنما كانت ضربات و(سَطرات) أو لكمات من قبيل الخبط العشوائي، ثم تلاكمت مع أخواني في البيت ولاسيما مع أخي محمد الذي يكبرني سناً ويزيدني وزناً، ولم تكن الملاكمة معه على اساس الغلبة أو الفوز لأنه يغلب بلا شك لكن على أساس التدريب، ولم نكن نلبس كفوف الملاكمة لأننا لم

[٧٥] محلة كان أغلبها يحتل الأرض التي أصبحت فيما بعد ساحة الأمين (حيث تمثال الرصافي اليوم).

نكن نملكها، وإنما نلعب بايدينا المجردة؛ واللعب بالأيدي المجردة أصعب وأخطر من اللعب بالكفوف.

كنت مرة أتلاكم مع أخي محمد قبيل أن نذهب الى دعوة مولد النبي صلى الله عليه وسلم، دعانا اليها الملاّ سلمان أخو خديجة زوجة أخي حسين، وكنت قد مانعت من اللعب ولاسيما ونحن على وشك الذهاب الى الدعوة، ولكن محمد أصر على اللعب واذا بضربة مني لم يستطع محمد من ردِّها تستقر بالقرب من عينه اليمنى، وإذا بها تنتفخ فما العمل؟ وهل يستطيع محمد بعد هذا من الذهاب إلى سهرة وأنا حريص على حضورها. وبعد اللتي واللتيّا تشجع أخي محمد بالرغم من ورم عينيه وذهبنا إلى دعوة الملا سلمان في جانب الكرخ. كانت الدعوة للمولد في بيت أحد الموسرين، وقد حضرها خلق كبير، فكثيراً ما يسبق العشاء مثل هذه الحفلة، وهو عشاء يحرص على تناوله عدد غير قليل من الناس، فضلاً عنه ان مثل هذه الحفلات تكون غنية بالقارئين المبرزين وبالضاربين على الدف المشهورين، وهي بعدُ حفلة سيقدم الملا سلمان[٧٦] المشهور بصوته القوى الرخيم وبقصائده الشعرية الفاخرة، وقد تكون بعض هذه القصائد من نظمه هو بنفسه. ولقد اشتهر الملا سلمان بأنه كان يملك حنجرة من أقوى الحناجر وصوتاً من أعذب الأصوات وأرقها، وكان يمتاز بأنه يحفظ من الشعر في مدح النبي وآل البيت أحسنه وبأي صورة. ولم نكن ندري أن محمد القُبّانجي[٧٧] سيحضر أيضاً، إلاّ أنه حضرها وقرأ، فأجاد وابدع. وإني لأتذكر كيف تنافس الأثنان محمد القبانجي والملا سلمان، وكيف كان يقرأ أحدهما ويعقبه الأخر حتى ساعة

---

[٧٦] هو الملا سلمان بن السيد بكر، وكان من مشاهير قراء المقام العراقي توفي سنة ١٩٣٠.

[77] أبرز رواد المقام العراقي، ولد سنة ١٩٠٤ وتوفي سنة ١٩٨٩.

متأخرة من الليل، وكيف كان يتغنى كل منهما بدوره ويعرض أحسن ما عنده من شعر وانشاد، وكيف كان يتعصب بعض الناس لواحد دون الآخر فترتفع أصوات التشجيع والتصفيق للملا تارة وللقبانجي تارة اخرى. كنت أشاهد هذا التنافس وأنا مأخوذ به مأسور بنشوته، وكنت أحس في نفسي أن الملا سلمان هو الذي انتصر، فإن حنجرته أقوى، وإن كان صوته أنعم وانه يستطيع السيطرة على التصرف به، وان للقبانجي صوتًا قويًا جهورياً أخشن من صوت الملا، وان لم يستطع أن يرتفع به في العلو بقدر ما كان يرتفع الملا بصوته. لم يُعمِّر الملا كثيراً فقد قتله شرب (العَرَق) على الرغم من أنه "ملاّ" يقرأ على الحسين في التعازي وفي عشرة محرم. أما القبانجي فقد استمر به الطرب وتطور صوته ولمع نجمه وذاع صيته وأصبح أشهر مغني في العراق على الاطلاق.

كانت زمرتنا، يتقدمها حِفظي عزيز الطيار[٧٨]، هي التي أوجدت حركة الملاكمة في المدرسة الثانوية المركزية، وكان أعضاء هذه الزمرة إبراهيم شوكت[٧٩] وعبد الرزاق الظاهر[٨٠] والدكتور سلمان فايق[٨١] وآخرون لا أتذكرهم. كنت أتلاكم مع أثنين على الأخص، هما الظاهر وسلمان فايق، وكثيراً ما تلاكمنا في بعض الحفلات الرياضية أو التمثيلية التي كانت تقيمها المدرسة على قاعتها. كنا نَحشر في المنهج، حتى وإن كان تمثيلاً، بعض فقرات

---

[٧٨] المحارع، عقيد الجو، له مؤلفات عديدة منها (تاريخ القوة الجوية العراقية) و(تعبئة القصف والقتال الجوي) و(تعبئة الملاكمة) و(الملاكمة العلمية والعملية) و(فن الملاكمة وأصول الدفاع عن النفس) و(رياضة السيدات) وغيرها.

[٧٩] جغرافي نابه، باحث في تاريخ الجغرافية وتراثها، من مؤلفاته (الجغرافية الاقتصادية) و(جغرافية الوطن العربي) و(خرائط كتاب الأقاليم للإصطخري) وغيرها.

[٨٠] باحث، مؤلف، من مؤلفاته (الإقطاع والديوان في العراق) و(صور من العراق) و(عذارى بابل) وغيرها.

[٨١] طبيب نابه، أسس مستشفى باسمه في محلة العلوية ببغداد.

رياضية، وكانت فقرة الملاكمة من أبرزها. فكنا أنا وسلمان فايق نصعد منصة التمثيل ونتلاكم امام المتفرجين. وكانت لعبة الملاكمة، على حداثتها، تستهوي الناس وتثير فيهم الحماس.

استمر حفظي عزيز على ممارسة هذه الهواية، ولاسيما عندما ذهب لدراسة الطيران، وكان أن برز فيها وقد قاد هذه الحركة الرياضية في العراق مدة طويلة فدرَّب عدداً غير قليل على هذه اللعبة، كما أنه ألَّف كتاباً أو كتابين فيها أهداهما إليَّ. كنت أنا وحِفظي وبقية الزمرة في صف واحد في المدرسة الثانوية، فطلبت وزارة الدفاع من المتخرجين في الثانوية أو الذين في الصف المنتهي الانتساب الى الجيش ودخول دورة مدتها ستة اشهر والتخرج برتبة ملازم ثان، كان العرض مغرياً أقبل عليه كثير من الطلاب، ومن بينهم حفظي عزيز الذي تخرج طياراً. واني لأتذكر كيف فكرت في الأمر ملياً وانتهيت بتفضيل البقاء في المدرسة واكمالها.

بقيت مولعاً بالمصارعة والملاكمة حتى أنني عندما ذهبت الى جامعة كالفورنيا أخذت أربعة دروس في الرياضة والسباحة، وقد حصلت فيها على شهادة "منقذ حياة live – save" مع وسام، ودرساً في التنس وآخر في المصارعة، ودرساً في الملاكمة. ولقد تدربت وتلاكمت مع الكثيرين ومع أنني برزت فيها فقد اكتشفت بأنني لا أستطيع ان أكون ملاكماً من الدرجة الأولى كما كنت في المصارعة، ولعل السبب الأول في هذا هو عدم تمتعي بقامة طويلة إذ أن طولي نحو أقل من خمسة أقدام وخمسة بوصات، وهو طول ليس بالفارع لاسيما اذا ما قيس بطول قامات الشباب الامريكي. إن الملاكم مهما كان فناناً وقوياً فإنه بحاجة الى قامة طويلة وأيدي طويلة لكي يستطيع ايصال اللكمة بها إلى أية نقطة يشاء في جسم الخصم. لقد تلاكمت مع الأمريكان

سواء كان في محل التدريب او محلات السباحة في جامعتي كاليفورنيا وكورنيل أو في (رِيفر سايد)، بالقرب من مدينة لوس انجلس حيث دخلنا دورة صيفية. وكنت وأنا أتدرب لوحدي على الملاكمة في هذه الكلية إذا بامريكي يفوقني طولاً ووزناً أراد الملاكمة معي فلم أُمانِع. تلاكمنا بل تلاحمنا وكانت معركة من أشد المعارك ضراوة بل أشدها على الاطلاق، كان ملاكماً ماهراً وكان قوياً فناناً، ومع أنه لم يستطع ان يدحرني بالضربة القاضية غير أنه قد تفوق علي بالنِّقاط، وقد شعرت وأنا أُلاكمه أن الشاب يتمتع بقوة هائلة وأن ضرباته لجبارة، وكنت كلما راوغت ضربني في محل من المحلات من رأسي أو جسمي، وكنت كلما رَدَدْتُ لكماته شعرت، ولاسيما في الجولات الأخيرة، أن يدي غير قادرة على الرد. ولا أدري كيف انقضت الجولات وعددها خمسة، ولكن هل يفرح المرء بخسارته؟ لقد فرحت بهذه الخسارة بالنُّقَط لأول مرة في حياتي، إذ كنت أدرك أن الرجل قاتلي لا محالة وأني نجوت منه بأعجوبة.

كان معي في هذه الدورة من العراقيين جعفر خياط[٨٢] وممتاز عارف وعبد الجبار بكر[٨٣] وناظم سرسم[٨٤] وعزرا هندي اليهودي الذي درس على نفقة الحكومة وترك العراق فيما بعد والتحق بـ (إسرائيل). وكنا نأكل سوية على مائدة واحدة. ولقد تأخرت عن وجبة العشاء ولحقت بهم وهم على وشك

---

[٨٢] سيورد المؤلف أشياء من ذكرياته عنه في هذا الكتاب، عمل خياط موظفا في وزارة التربية، فمديرا للتعليم الثانوي فيها، وهو مترجم حاذق،له أعمال كثيرة في الترجمة، منها (أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث) و(أيام فلبي في العراق) و(التعليم الصناعي في العراق) و(التعليم المهني في العراق) و(حوادث العراق في سنة ١٩٤١) وغيرها.

[٨٣] له أخبار ستأتي في هذا الكتاب، له دراسة عن (التمور العراقية وأنواعها) وتقارير عن زراعة النخيل في بعض الأقطار العربية.

[٨٤] ولد في الموصل سنة ١٩٠٦، له مؤلفات منها (إنتاج اللبن الصحي) طبع ببغداد سنة ١٩٤٤.

الانتهاء منها، وما أن وصلت حتى سرت هَمهَمة بينهم وعلى وجوههم الابتسامة وكأنهم كانوا ينتظرونني. كنت منهوك القوى تبدو آثار الضرب على وجهي والورم على أنفي، وما أن جلست بينهم حتى تضاحك القوم ثم أخذوا يسألونني وكأنهم لا يعلمون عن الأمر شيئاً، لماذا تأخرت على موعد العشاء؟ ولماذا أبدو تَعِباً؟ وما الذي حدث بوجهي؟ وما هذه الآثار في أنفي؟ ولماذا لا أشتهي العشاء ولا يعجبني الأكل؟ ولماذا... ولماذا؟ قلت: قفوا وكُفّوا. أنها معركة نجوت منها بأعجوبة وقد حضرها جعفر خياط وأنه أخبركم بها وانتم تعلمون بكل ما حدث فلماذا كل هذه الأسئلة "البايخة" فانفجر جعفر بالضحك. قلت: ولماذا الضحك؟ قال كدت أقع فيها أنا لولا لطف الباري ولولا وجودك أنت في ساحة التمرين. قلت: ما القصة؟ قال أراد هذا الأمريكي "الفضيع" الملاكمة معي فقلت له: انا لست بملاكم وأشرتُ باصبعي اليك، وقلت له: هذا هو الملاكم، وأنه ينتظر من يلاكمه، وهكذا تعرَّف عليك وأتى للملاكمة اليك! قلت: بارك الله فيك! هكذا يكون جزاء الاحسان بالاحسان يوم صرعت (اوجلا) الهندي وطلبت مني انقاذك وأنت منبطح تحته ترفس برجليك. وقصة هذا الهندي هي أن جعفراً قد تصارع مع هندي اسمه (أوجلا) ممشوق القامة نحيف الجسم قوي العضلات، ولم تطل المصارعة فيها حتى رمى الهندي جعفر على الأرض رمية قوى، ثم صرعه صرعة كاملة ثم جثم على صدره، وأنا اتفرج على هذه المصارعة، حتى سمعت جعفر يصرخ بأعلى صوته مستنجداً بي قائلاً مجيد مجيد أترضي بي مصروعاً؟؟ أتقبل أن أكون تحت هذا الهندي. كيف لا تغضب وأنت تراه جاثماً على صدري. قلت له: ياجعفر! إن القضية ليست قضية(عَركة) في صبابيغ الآل، أنها مصارعة وقد فاز عليك بحق وجدارة ومع هذا فسأثأر لك. قلت للهندي أتتصارع معي؟

قال: غداً. وفي الموعد المضروب تصارعنا مدة ليست بالقصيرة حتى رفعت الهندي الى الأعلى وضربت به الأرض كما فعل بجعفر تماماً، وجثمت على صدره بعد أن صرعته صرعة كاملة.

اهتمامات وهوايات

لقد نَمَت فيَّ مَلَكَة حب القراءة، وانا أحمد الله عليها، ولولاها لشعرت بطول الوقت وثقله ووطأة البطالة وقوتها، ولتبرمت بالحياة وضقت بها. ولقد قرأت فيما بعد الكثير من الروايات ولاسيما البوليسية، كما قرأت روايات المنفلوطي وبعض الروايات لكتاب آخرين، ثم قرأت بعض القصص لبعض كبار الكتّاب من الغرب باللغة الانكليزية. ولابد لي من القول أن قراءتي القصص كانت تفيدني من نواح متعددة.

وكنت كغيري من الأطفال أُحب القصص وأعشق الاستماع اليها. ولم يكن لدينا آنذاك قصص للأطفال إذ كانت المكتبة العربية فقيرة كل الفقر في مثل هذا الانتاج الفني الرائع، ولم يكن للطفل أي محل فيها، كما لم تكن للأطفال مناهج خاصة في الراديو او التلفزيون بل لم يكن العالم ليعرف بعد ما هو الراديو وماهو التلفزيون، وإذا كان العالم قد عرف هذا أو ذاك فيما بعد فأن العالم العربي وبخاصة العراق قد تخلف في هذا المضمار كثيراً. كنت استمع إلى والدتي تقص علي بعض القَصَص، وإن كانت قصصاً قصيرة وأغلبها تافه وهزيل، ووالدتي، على كل حال، لا يتعدى علمها بالقصص إلاّ عدداً قليلاً منها، ولا أتذكر أن هذا العدد قد تجاوز الأربع قصص أو الخمس. وكنت أستمع إلى القصص من بعض العجائز في المحلة، وكانت هناك عجوز في محلة بني سعيد – وهي محلة قريبة منا – أقصدها مع والدتي من أجل

سماع قصصها فقط، وكنت أترقب مجيء "خالة زهرة" إلى دارنا، وزهرة هي أخت فطومة زوجة أبي. كانت زهرة تزور أختها بين حين وآخر وتبقى لديها في دارنا مدة من الزمن، ولم تكن متزوجة ليهمها أمد البقاء أن طال او قصر. وكم كنت أُسَر لرؤياها لأنها تأتي لي بشيئين القصة والنبق، وكلاهما محبوب لدي. وكانت تحكى القصة على مَهَل "بحلَق فاهي" تجر الكلمات وتمط بها وتمد بأولها وآخرها، ولعل ذلك كان مما يروق لي ويحبب زهرة إليَّ، وكانت تأتي لي بالنبق من نبقة في دارها، وهو نبق مشهور من النوع الجيد، فإذا ما تأخرت شددت الرحال اليها، فأذهب الى دارها في جانب الكرخ. ولا أجيئ الى الدار إلاّ بعد أن أقطع سيراً على الاقدام كثيراً من الأزقة والدرابين والأسواق، ثم أعبر الجسر المعروف بالجسر "العتيق"، والذي كان عائماً على طوافات وقريباً من سطح الماء وتهزه العربة اذا ما سارت عليه او السيارة، أو إذا هبّ الهواء بشدة ولو قليلاً[85]. وكان اكثر ما يعجبني بعض مقاهي الشط التي أمرّ بجانبها، وكأنها معلقة فوق سطح الماء، أو مقاصير داخلة في الماء. وكان يعجبني منها شبابيكها الزجاجية التي كان كثير من زجاجها مكسوراً، وكنت وأنا أمر بالقرب منها أسمع جلبة وضوضاء الناس وأصواتهم وهي تختلط بأصوات (الطاولي) و(الدومنة) و(المنقلة) وأصوات الحاكي ومختلف الأغاني من مقامات بدوية وأصوات طالبي الشاي والماء. وكنت أصل الى دارها في زقاق من أزقة الكرخ وأنا بين متعب من كثرة المشي، ومستمتع بما وقعت عليه عيناي وسمعته أذناي. وهناك أرى شجرة النبق البدينة الضخمة ذات الأوراق الدائمة والداكنة الخضرة، الوارفة الظل الكثيرة الفروع والأغصان،

---

[85] كان هذا الجسر في الموضع الذي أقيم عليه جسر المأمون (جسر الشهداء فيما بعد)، وعرف بالعتيق لأنه كان الوحيد ببغداد طيلة القرون الخمسة الأخيرة.

ذات الساق الضخم الهائل تعلوه قشرة خشنة سمراء ضاربة إلى الحمرة. كنت أرى هذه الشجرة الجميلة فتستهويني وتأسر قلبي فلا أتمالك نفسي حتى أتسلق عليها دون استئذان من خالتي زهرة، ولكن لا أتسلق إلاّ الى أقرب غصنٍ محمل بالنبق أعدّه أشهى ثمراً. وهناك أرى خالتي زهرة وقد أحضرت لي كمية من النبق تبلغ اوقيتين او أكثر. ولا أتذكر انني نمت في دارها ولعلني قد بتُ إلا أني لا أتذكر متى كان ذلك، ثم أرجع الى دارنا قبل الغروب.

وكان يسّرني أن تزورنا جدتي لوالدتي (بيبيتي) "الحجية زينب". وهي امرأة مرفوعة القامة مهيبة الطلعة ذات وجه لطيف التقاسيم، وشخصية قوية فيها شيء من الصرامة ولكنها محبوبة. كانت "تزعل" بين حين وآخر مع أحد ولدي خالاتي وهيب (هُوبي) والحاج حسني، وإذا ما زعلت فأنها تأتي الى دارنا، دار إبنتها، اي والدتي. وكان يضايقني أنها تحتل منه غرفتنا وهو المحل القريب من الشباك المطل على الطريق، وهو المحل الذي كنت أفضله على غيره والعب فيه وأطل منه لأتفرج على الدرب وعلى المارين فيه من الناس. ومع هذا كان يسّرني مجيئها ليس لأنها كانت تقص علي القصص بل لأنها تتحفني بكثير من العطايا، وبكثير من الفواكه واللوز والفستق وما شابه، مما كان يأتيها به خالي هوبي. وكنت أراه كيف يتودد اليها وكيف يتملقها وكيف يتكلف "بلسانه الأرْتَل" حكاية القصص لاضحاكها ولاقناعها بالرجوع الى البيت. وكنت أراها تتمنع وتتعزز وتهاجم خالي "السيد حسين" وهذا أصغر منه سناً، ولم تكن تزعل على خالي إلاّ نادراً، وأكثر زعلها مع ابنها الآخر حسين الذي كان يصغره سناً، بل هو أصغر من بناتها الباقيات حياة وماهية والدتي وتاخي، وكانت تحبه وتعزه وتخصه دون غيره من أولادها بجعبتها من واردات وقف جدنا الأعلى الحاج علي القرغولي، وكانت حصته

كبيرة تبلغ بضعة آلاف من الروبيات ولاسيما في السنوات الاخيرة من حياتها، حينما انحصرت بها وبعجوز أخرى هي "الحِجِّية حبيبة" واردات الوقف برمته.

عندما تركت بغداد في ١٩٢٧ إلى بيروت للدراسة في الجامعة الامريكية، ثم الى أمريكا في ١٩٢٨ كانت "بيبي" في صحة جيدة بالرغم من كبر سنها والذي جاوز الثمانين عاماً بل وقارب التسعين عاماً، غير أنها توفت في ١٩٣٠ أي قبل رجوعي إلى بغداد ببضعة أشهر. لم تترك وراءها تركة كبيرة إنما تركت بعض النقود والأثاث وداراً واحدة أو دارين، غير أن هذه التركة قد ذهبت إلى الحاج حسين بعد أن ذهبت إلى كل واردات الوقف في حياتها. وهكذا حُرمت (بيبي) بناتها كافة من الإرث ولا أدري كيف تم ذلك.

وإذا كنا قد حُرمنا في الطفولة من القصص وكتب قصص الأطفال وما شابه ذلك، فقد حُرمنا أيضاً من لعب (ملاعيب) الأطفال وألعاب الأطفال، كما حرمنا من رياض الأطفال وحدائق الأطفال، وكل شيء تقدمه المدنية الجميلة لعالم الطفل. أردنا ان نستعيض عن هذه بما كانت تقدمه المحلة لنا من ألعاب، فكنا نلعب مختلف ألعاب الطرق كالدُّعبل والكِعاب والحرامية والطوط لي والزيتون وغير ذلك. كما أنني كنت أقضي الوقت بتطيير طائرات الورق التي اقوم بصنع بعضها واشتري البعض الآخر، وكنت (أشيرِس) خيط الطائرة بالشِّريس[٨٦] والزجاج (المسحون) لكي أحارب بها الغير وأقطع عليهم خيوط طائراتهم. وكم طيرت الطائرة المعروفة "بأم السناطير" وكانت طائرة كبيرة يعلق فيها هذا السنطور الذي يشبه "الكمان" المصغر ولكنها مقوسة، وتصدر أصواتا باستمرار لتماسها بالهواء، وربما علقت فيها قنديلا صغيراً. كنا

---

[86] ضرب من الأصماغ يستخرج من أقماع الباميا.

ننظرالى هذه الطائرة ليلاً ونستمع الى أصوات السناطير، ونسهر مع قنديلها حتى ساعة متأخرة من الليل، بل حتى الصبح في بعض الاحيان، وكان خيط الطائرة ينقطع ليلاً ونحن قد غلبنا الناس وغفونا. واني لأتذكر كيف أصعد على سطح بيت الفراش لأطير الطائرة عندما لايهب الهواء قوياً؛ وبيت الفراش محل صغير لا يتجاوز طوله ثلاثة أمتار أوأقل وعرضه المتر أو المترين او أقل. وكنت أصعد عليه وأركض وبيدي طرف الطائرة الى آخر السطح على نحو معاكس لاتجاه هبوب الريح. لقد كانت مجازفة ومخاطرة أن اركض على هذا السطح الصغير وعيوني مُسَمَّرة في الطائرة أو معلقة في السماء لا أنظر الى الهُوَّة السحيقة حولي، وإني كلما تذكرت هذه الهوة ارتجف منها وارتجف من هول العاقبة فيما لو سقطت، ولا أذكر كيف أغدق الباري على لطفه وعنايته.

في المدرسة الثانويــة

كان قراراً حكيماً ذلك القرار الذي اتخذته الهيئة الادارية للمدرسة الجعفرية بإلغاء القسم الثانوي والحاقه بالمدرسة الثانوية الوحيدة الموجودة في بغداد آنذاك وهي المدرسة الثانوية المركزية. لم يكن من السهل على المدرسة الجعفرية أن تحتفظ بقسمها الثانوي، فالثانوية تحتاج إلى المختبرات والى البناية والى الهيئة التدريسية الكُفء وإلى غير ذلك من الأمور الكثيرة، وأن هذه الحاجات لتتطلب مبالغ كثيرة ونفقات باهضة. لقد كانت موارد المدرسة الجعفرية محدودة ولم يكن بوسعها تلافي هذه النفقات، وكان لابد من عمل شيء بالنسبة لقسمها الثانوي وإلاّ فإن مستوى الطلاب سيكون ضعيفاً ولا تضمن نجاحهم في امتحانات البكلوريا.

إن المدرسة الجعفرية وان كانت ابوابها مفتوحة لكل طلابها من مختلف الأديان والمذاهب وإن عدداً غير قليل من مدرسيها لم يكونوا من الشيعة، غير أنها إنما وجدت لأبناء الشيعة، وأن أكثرية طلابها هم من الشيعة، وليس من الصحيح وجود مثل هذه المدارس، وإذا كان هنالك ما يبرر تأسيسها في بداية الأمر فليس هناك ما يبرر استمرارها فليس من الصحيح ان يشعر أبناء الشيعة أو أية طائفة أخرى أنهم أبناء طائفة معينة تضمهم جدران مدرسة معينة وانهم بمعزل عن أبناء الوطن الاخرين. إن أبناء الشيعة هم أبناء العراق، هم العرب الذين يكونون الاكثرية العربية في عرب العراق بل الأكثرية من نفوس العراق، هم الذين يجب ان يؤمنوا ان العرب أمة واحدة وأن البلاد العربية على اختلاف أقطارها وأمصارها بلاد واحدة، وأن العراق جزء لا يتجزأ من البلاد العربية، وأن أبناءه جزء لا يتجزأ من أبناء الأمة العربية جمعاء. فلماذا هذه المدرسة الخاصة باسمهم، ولماذا يشعرون أنهم بمعزل عن أخوانهم الباقين من ابناء العراق؟...

انتقلنا إلى المدرسة الثانوية. وكنا في الصف الثامن فانتقلنا الى الصف الثالث وهو الصف الذي نستحق الالتحاق به، وانتقل معنا الى الصف نفسه طلاب الصف التاسع، وأتذكر منهم عبود الشالجي[٨٧] وعبود زَلزَلة[٨٨]، فإنهم أُنزلوا صفاً واحداً وخسروا سنة واحدة. لقد شعرنا وقد انتقلنا إلى هذه المدرسة

---

[87] محامي، ولد سنة ١٩١١، وتلقى تعليمه الابتدائي والمتوسط في المدرسة الجعفرية، وأنهى الدراسة الثانوية في المدرسة الثانوية على ما يذكر المؤلف هنا، وتخرج في كلية الحقوق سنة ١٩٣١، وعمل بعد ذلك محامياً، ثم انتقل إلى لبنان سنة ١٩٦٩ حيث عكف على تحقيق عيون التراث العربي، منها(نشوار المحاضرة) للتنوخي و(الفرج بعد الشدة) للتنوخي أيضاً و(الرسالة البغدادية) للتوحيدي، توفي سنة ١٩٩٦.

[88] تاجر عرف بورعه ووجاهته.

أن طلاب المدرسة أو الصف الذي فيه كانوا ينظرون إلينا وكأننا غرباء، بل شعرنا أنهم تضايقوا منا في بادئ الأمر، ولعل سبب ذلك أننا أتينا من مدرسة غريبة عنهم بعدد كبير، فلو انتقل منا واحد او أثنين لما شعر طلاب الثانوية بهذا النقل، ولكنا كنا كتلة كبيرة انتقلنا مرة واحدة ودخلنا الصف وشغلنا المقاعد التي لم تكن مهيأة بعد لهذا العدد الكبير.

كدنا أن نضيع في هذا الوسط الجديد، فلقد تغير علينا كل شيء، تغيرت علينا المدرسة وبنايتها، وهيئة التدريس وطريقة التدريس، والامتحانات ونمطها وكثرتها، وتحضير الدروس وكثرتها، واعطاؤنا الواجبات المدرسية وما شابه ذلك. كما أن المدرسة أصبحت بعيدة عن بيوتنا ومحلاتنا، وشعرنا أننا انتقلنا إلى حياة أخرى وإلى جو علمي آخر. ووجدنا المدرسة الثانوية آنذاك، بالرغم من نواقصها، عالماً آخر بالنسبة الينا، ففيها شاهدنا لأول مرة مدرساً إنكليزياً يدرس الانكليزية، ومدرسين آخرين يدرسون باللهجة اللبنانية، كما شاهدنا المختبر وأجرينا بعض التجارب الكيمياوية. كان (كوراول) يدرس الانكليزية ويدرب فريق الكرة على اللعب في الوقت نفسه، وفي الحقيقة فإني لم أتعلم منه شيئاً من اللعب، كما لم يتعلم منه أكثر الطلاب الآخرين. وأظن انه لم يكن يعرف الشيء الكثير عن لغة بلاده لأن اهتمامه بالكرة اكثر من اهتمامه بتدريس اللغة.

ولم تكن نفسي تطاوعني بسهولة على تعلم لغة المستعمرين، هذا ما كان يدور في خَلَدي وخلد بعض الطلاب المتطرفين في وطنيتهم وقوميتهم. لم نكن ندري اننا كنا على خطأ وان تعلم لغة المستعمرين قوة تساعد على دحرهم وطردهم من بلادنا، ولم نكن نأخذ بالحكمة العربية القائلة كل لسان بإنسان. كم يخطئ الشاب إذا كان من دون توجيه صحيح. كان الأستاذ وديع أسعد

يدرِّس الجغرافية، وهو لبناني طويل القامة ضخم الهامة، قد تزوج اخت مفتش المعارف العام المستر سمرفيل، ولعل هذا الزواج كان خير شفيع له لتعيينه مدرساً في الثانوية. وإذا كان قد ألم بعض الالمام بتدريس الجغرافية فانه كان كسولاً نوعاً ما في تحضير دروسه، ولم يكن جذاباً في طريقة تدريسه. وكان الاستاذ وديع عبد الكريم يدرس علم النبات والحيوان. كان طويل القامة يميل إلى السُّمرة في سحنته، رياضياً يحب الرياضة ويهوى ركوب الخيل، جذاباً في تدريس مادته، محبوباً من الطلاب، وكم مرة حضر الدرس وهو بلباس ركوب الخيل وفي يديه عصاه الصغيرة التي تشبه (القُرباج) يؤشر بها كمادة من مواد الايضاح. وكان يحب الاختلاط بالطلاب؛ وكنت أعلم أنه رغب في دعوة البعض إلى داره، واذا كان مثل هذا الأمر يعد الآن منسجماً مع أصول التربية الحديثة فقد كان آنذاك يسبب بعض الهمس ويثير بعض التقولات. وكان الأستاذ علي مظلوم[٨٩] يدرس الرياضيات، وبالرغم من انه كان خريج المدارس التركية فقد كان معلماً قديراً محبوباً ومحترماً من قبل طلابه الذين لا يزالون وانا منهم يُطرون علمه ويثنون على سيرته. كان يدرس الرياضيات، ومع أنها أكثر الدروس صعوبة بالنسبة لأكثرية الطلاب غير أنه استطاع بمقدرته أن يُفَهِّمهم. وإني اكتب هذه الكلمات وكأنني اراه واستمع اليه وأنا جالس على عادتي على مقاعد الصف، وأشعر وكأن صوته الجهوري يرن في اذني، وبلكنته المحببة التي يخالطها شيء من التركية، وحين ينتقل من مكان الى آخر من السبورة، كان حريصاً على ايضاح كل صغيرة وكبيرة من الدروس، حريصاً على ان يدخل هذه المادة في رأس كل تلميذ من تلامذته.

---

[٨٩] مدرس من رواد تدريس الرياضيات في العراق، ولد سنة ١٨٧٧ وتوفي سنة ١٩٦٣، ترجم بالمشاركة كتاب(الهندسة المستوية).

واني لأتذكر مرة أنه سَرَت همسة بين الطلاب بأن الملك فيصل الأول سيزور المدرسة الثانوية، وإذ كنا في الصف وكان الاستاذ على مظلوم يدرسنا، وإذا بالملك يدخل علينا الصف فسارع بنقل تدريسه من اللغة العامية إلى اللغة الفصحى وآثار الارتباك بادية عليه. ولم ندر كيف يعلم الأستاذ بالفصحى وهو لا يكاد يجيد حتى العامية، ولم نستطع أن نتمالك أنفسنا بسهولة فابتسمنا ابتسامات عريضة وكادت الضحكة تفلت منا، ولولا وجود الملك لأنقلب الصف الى شيء آخر. خرج الملك وضحكنا بصوت واحد قائلين: أستاذ نرجوك ان تستمر على تدريسنا بهذه اللغة. أدرك الأستاذ خبثنا فضحك وقال: اجلسوا يا أولاد انني أدرسكم الرياضيات ولا أدرسكم اللغة العربية، ثم أردف قائلاً: نحن لم ندرس في زماننا باللغة العربية بل كانت دراستنا كلها باللغة التركية. كنا نحب الأستاذ وكنا نحترمه، وهل هناك شيء جميل أكثر من أن يكون الأستاذ محبوباً ومحترماً بسبب خلقه الطيب ومادته الغزيرة. وحينما تقاعد، كان أول أستاذ أنعمت عليه وزارة المعارف بوسام، وإن كان من الدرجة الرابعة او الخامسة فهو لا يتناسب أبداً وما أداه هذا الرجل الفاضل من خدمات الى الجيل والى البلاد. لقد تقاعد وبقى طلابه الأوفياء على اتصال به يزورونه بين حين وآخر وفي كل مناسبة من المناسبات، ولقد زرته اكثر من مرة، وفي إحدى المرات وجدته وقد فقد النظر من الكبر وكانت زيارته وهو على الحال هذه تبعث الحزن والألم. لقد توفى رحمه الله عن عمر ناهز الثمانين عاماً، وحضرت مجلس الفاتحة مرتين في كل يوم من أيام المجلس الثلاثة.

كان أستاذ اللغة العربية والدين معا هو الأستاذ المرحوم السيد طه الراوي[٩٠]. وكان يَعتَم بعمامة بيضاء مكونة من طربوش (فينة) وقد لف حولها قطعة من قماش أبيض، ويرتدي السترة والبنطلون، ولكنها مغطاة بجبة ويرتدي القميص دون الرباط. وهو مهيب الطلعة وإن كان كريم العين اليمنى ولكنها قد ركبت عليها عين اصطناعية بدت وكأنها عين طبيعية، مرفوع القامة أميل الى الطول، مليء الجسم دون إفراط، حنطي اللون، رزيناً وقوراً لا يضحك بل لا يبتسم إلاّ بمقدار. وكان الطلاب يحبونه ويحترمونه لعلمه الجم وأدبه الغزير وخلقه العالي بينما كان هو رفيقاً بالطلاب محباً لهم. ولا أتذكر انه أخشن القول مع أحد أو قسا على أحد. بل كانت له طريقته الخاصة في زجر من يستحق الزجر، فإذا ما رأيناه توقف قليلاً عن الإسترسال في المحاضرة أو نظر شزراً الى جهة من الجهات عرفنا أنه يؤنب تلميذاً او يؤاخذه على أمر. كان وهو أستاذنا الفاضل في الأدب العربي والدين تلميذاً في كلية الحقوق ولعله في الصف المنتهي منها[٩١]، ولذلك كان – وهو استاذ وتلميذ في آن واحد – اكثر المعلمين تفهما لمشاكل الطلاب وأقربهم الى قلوبهم، ولا أظنني مبالغاً إن قلت أن طه الراوي كان أكثر المعلمين تأثيراً في نفوس الطلاب وأوسعهم قدرة على إرشادهم وابلغهم نفوذاً في تثقيفهم وتربيتهم، وهو بالرغم من جديته ووقاره، بل وصرامته، محترم ومحبوب، يحاضر عن علم ومقدرة، فيأسر الطلاب ويخلب لُبّهم، بل كان الوحيد بين المعلمين الذي طبق مع الطلاب بعض الأصول المتبعة مع طلبة الكليات، إذ يعطينا واجبات منزلية

---

[٩٠] من رواد التربية والتعليم في العراق، ولد سنة ١٨٩٠ وعين معلما في دار المعلمين سنة ١٩١٨ثم أستاذا في دار المعلمين العالية، فسكرتيرا لمجلس الأعيان، واختير عضوا في المجمع العلمي العربي في سوريا، توفي سنة ١٩٤٦. وله مؤلفات وبحوث منشورة.

[٩١] تخرج في كلية الحقوق سنة ١٩٢٥.

ويرشدنا لمطالعة بعض امهات المصادر ويطلب منا أن نحضر دراسة عن شاعر أو أديب، ثم نقدم ملخصاً لهذه الدراسة كتابة، وكثيراً ما كنا نقرأها على الطلاب للاستماع والمناقشة. لقد ولّدت هذه الطريقة فينا رغبة في البحث والاطلاع، وانني اتذكر بأنني حاضرت عن عنترة بن شداد، كما أمضيت كثيراً من الوقت في عطلة الصيف في المكتبة العامة أقرأ مختلف الدواوين الشعرية مقتبسا منها مختارات غير قليلة جمعتها في دفتر ضخم يبدو كأنه كتاب، وعنيت بكتابتها وتبويبها، وقد أصبح هذا الدفتر او الكتاب مرجعاً من مراجع الأستاذ بحيث كان كثيراً ما يأخذه مني ليملي على الطلاب بعض محتوياته وكثيراً ما كان يشير إلي بوصفي نموذجاً للدرس والبحث وكم كنت أفرح بهذه الاشارة وأعتز بهذه الإلتفاتة.

كان توفيق الشيخ أحمد الداود مدرساً للرياضة، وهو طويل القامة ضعيف البنية اسمر اللون كثيف شعر الرأس مجعد. ولا أظنه يعرف الشيء الكثير من الرياضة ومع هذا فقد كان محبوباً من قبل الطلاب. بينما كنا نخلق له الكثير من المشاكل، فحينما يطلب منا أن نلبس البنطلون القصير في الرياضة نرفض لبسه لأنه لا يتناسب ووقار الطلاب وحشمتهم. واضطر الى استعمال كل الطرق معنا لكي يحملنا على لبسه، واستعملنا معه كل الطرق الشيطانية لنتفادى ارتداء هذه الملابس.

ومن مدرسينا أيضاً الاستاذ رِزق الله أغسطين[٩٢]، وقد درّسنا الرياضيات والفلك ودرساً آخر هو الاقتصاد. وقيل عنه أنه ذكي ولكنه كان فيه شيء يعبر عنه بالعامية "لاحِك"، فلم نشعر أنه كان يحاضر عن علم غزير بل كان

---

92 فلسطيني، استقدمته وزارة المعارف للتدريس في المدارس العراقية، من آثاره كتاب (العرب في خمسين عاماً).

سطحياً في المعلومات ولذلك لم يتمكن من السيطرة على الطلاب، وقد اعتنق الاسلام فيما بعد، وسمى نفسه محمد رزق الله المسلين، وعلمت أنه أدمن مدة طويلة على الشرب وأصبح مريضاً بمرض الإدمان ولكنه شفي منه بعد ذلك.

عندما دخلت المدرسة الثانوية كان مدير المدرسة السيد نظيف الشاوي[٩٣]، وهو إن كان من رجال الجيش إلاّ أنه كان ضعيفاً في إدارته للمدرسة، وعلى أية حال فإنه كان موضع تقدير من قبل الطلاب، يحبونه ولاسيما عادته في اللعب بأصابع يده اليمنى في شاربه. كان بعض الطلاب ولاسيما إبراهيم شوكت يقلده في هذه العادة. ثم يقلده في وقفته وطريقة كلامه ومشيته وما شابه ذلك.

وكان السيد عز الدين الناصري[٩٤] الذي أصبح فيما بعد مديراً عاماً للمعارف قد أخلف السيد نظيف الشاوي في ادارة المدرسة، وهو وإن كان لم يختلط في الطلاب كثيراً فإنه عُرف بدماثة خلقه ولين عريكته وحبه للتسامح. واذا كان السيد الناصري لم يعرف بالقوة والشدة في الادارة ولكنه لم يكن ضعيفاً ولعل صفاته الطيبة كانت تساعده على ضبط المدرسة دون اللجوء الى استعمال العنف والقوة.

---

[93] ولد سنة ١٨٨٨، وكان أول مدير للمدرسة الثانوية (الإعدادية المركزية) في العهد الملكي، تخرج في كلية الأركان في استانبول، وتقلب في المناصب العسكرية في العراق فصار آمراً للكلية العسكرية وكلية الأركان، ومعاوناً لرئيس أركان الجيش، ووزيراً للدفاع في وزارة جميل المدفعي الخامسة (٢ حزيران ١٩٤١- ٧ تشرين الأول سنة ١٩٤١) وانتخب نائباً في المجلس النيابي، توفي سنة ١٩٧٥.

[٩٤] من رواد التربية والتعليم في العراق، له من الكتب المؤلفة والمترجمة (التاريخ العثماني) و(تجويد القرآن) و(الجغرافية العثمانية) وغيرها.

وكان السيد هاشم الالوسي يساعد المدير في الأدارة. وكان قديراً وحازماً وكثير الحركة والنشاط المدرسي؛ وهوالمدير الفعلي لإدارة المدرسة.

لم تكن المدرسة الجعفرية ببعيدة عن دارنا، ولم يكن يكلفني الوصول اليها إلاّ قليلاً من الوقت والمشي مسافة قصيرة. وكنت أقطع طرف القشل ثم محلة صبابيغ الآل فأصل المدرسة ولم يكن ذلك كله يأخذ من وقتي اكثر من عدة دقائق او أكثر من ذلك بقليل. أما المدرسة الثانوية فأنها تقع بالقرب من محلة الميدان، وكان على حتى أبلغها ان أقطع محلات وأن اسير مسافات. كان على أن أجتاز محلة القِشَل والدهّانة وسوق الغَزِل والشورجة ثم سوق الجوبة، ثم أخرج الى شارع الرشيد لأجتاز فتحته الضيقة ولأدخل مرة أخرى ممرات الأسواق الضيقة كسوق خان دَلَّه والبزازين ثم الأسواق الأخرى المجاورة حتى أصل الى سوق السراي وهو سوق الكتب والمكتبات، ثم أمر في الشارع المبلط الوحيد آنذاك أعني شارع سوق السراي، وأجتاز السراي حتى أصل المدرسة الثانوية. إن هذه المحلات والاسواق وإن كان بعضها يتصل ببعض إلاّ أنها تستنفذ مني جهداً وتستغرق وقتاً حتى أصل المدرسة. فهي كلها غير مبلطة وفي كثير من أجزائها ضيقة وقذرة ووسخة لا يدخلها نور الشمس إلاّ قليلاً، وكثيراً ما كنت أمر بها وبعض الكناسين يكنسونها فيملأ الغبار عيني وأنفي ويسدّ عليّ دربي، وكانت ثيابي أحياناً بالرغم من احتراسي تبتل بالماء الذي يرشه الكناس قبل البدء بعملية الكنس تخفيفاً لشدة الغبار. كان عليّ ان أقطع هذه الطرقات والدروب أربع مرات في اليوم، إذ أذهب إلى المدرسة في الصباح وأرجع الى البيت وقت الغداء ثم أعود اليها بعد الغداء وأرجع الى البيت عند العصر. وكم وجدت مشقة كبرى في ابتعاد المدرسة عن دارنا، ووجدت مشقة كبرى في اجتياز هذه الطرقات والدروب،

والمرور على أكوام الزبالة الملقاة هنا وهناك أمام البيوت، وعلى قاذورات الأطفال الذين يجلسون بالقرب من بيوتهم، ولم يكن من السهل التزاحم في بعض هذه الطرقات الضيقة مع الحمير التي كانت تحمل الطابوق او الزبالة او ما شابه ذلك، او مع الحمالين الذين كانوا واسطة التنقل الرئيسية لنقل المؤن والحاجيات الى بيوت الناس. لم تكن الطرق واسعة لمرور غيرهم من وسائط النقل. ولم يكن من السهل اجتياز هذه الطرقات الضيقة والدروب الوسخة لا في الصيف ولا في الشتاء وان كانت بعض هذه الاسواق تُظلّل في الصيف وتُرش بالماء بحيث يشعر المرء تحت هذا الظل ببعض الراحة طالما كان بعيدا عن لفحة الشمس وهجيرها. وان أنسى لا أنسى موسم الأمطار في الشتاء. كانت السماء إذا مطرت فلابد من انسداد البالوعات في بعض الطرقات ولا بد أن تتجمع المياه فيها، ولامنفذ لها، فكيف للأنسان ان يقطع الطريق وينتقل من محلة الى اخرى. وكان علينا– ولاسيما في محلات الدهانة وسوق الغزل والشورجة – أن نسير في بعض طرقاتها ونحن محمولون علي ظهور الحمّالين، فكم من مرة حُملت، وكم من مرة كانت تعوزني الأجرة، وربما اضطررت الى التسلق على بعض الدكاكين متنقلاً من واحد الى آخر. ولا تنتهي المشقة بانتهاء انهمار المطر فالطرق كلها تنقلب بعدئذ الى طرق طينية يصعب السير فيها من جهة ولابد من ان يتسخ الحذاء و(الهدوم) من جهة اخرى. وكنت أحس بضيق الوقت، ولاسيما في فترة الظهيرة، فعليّ أن أصل البيت بسرعة وأن أتناول طعام الغذاء بسرعة وان أرجع الى المدرسة دون تأخير؛ ولم يكن غداء البيت إن أسرعت أم لم أسرع يؤخرني كثيراً، إذ كان في اكثر الأحيان غداءً بسيطاً للغاية، لا يتجاوز "التشريباية"، وهي عبارة عن خبز يابس مثرود بماء حار فيه قليل من الدهن، او لا يتجاوز الخبز والدبس وقد

يكون فيه شيء قليل من الدهن أيضاً. وكنت أتضايق من هذه الأكلات ولكني كنت أصبر عليها ولا أظهر كثيراً من التبرم لأنني كنت أعلم ما كانت تمر به والدتي من عسر وضيق، وكنت لا أريد أن أزيدها احراجاً وألماً، وإن كنت احس مما أقرأه في عينيها وما يرتسم على محياها أنها كانت تخفي تعاستها وتكظم حزنها.

ولم أجد عسراً في الأكل فقط بل وجدته في الملبس أيضاً، وانا لا اتذكر ما كان عندي من اللباس ولكنني كنت أشعر بالضيق. ولربما لم يكن عندي أكثر من (قاط) شِتوي واحد وآخر صيفي، ولم يكن عندي سوى حذاء واحد، وقليل جداً من ثياب الفانيلة. وأتذكر جيدا أنني لم استطع أن أرمي الجواريب إلاّ بعد أن تتمزق ولاسيما من جهة كعب القدم، بحيث لا يمكن لبسها بأي شكل من الأشكال. وأتذكر أنني لم استطع أن أصبغ (القندرة) إلا نادراً، حتى (يَجْرَب) شكلها، وكان بودي أن أصبغها كما يصبغها الغير، وأتذكر ان أحد الطلاب كان قد اعترضني مرة متسائلاً: لماذا لا أصبغ الحذاء! واذا كنت أجد صعوبة في صبغ الحذاء فمن باب أولى ان أجد صعوبة في شرائه. وكان أن حدث مرةً أن بلى الحذاء وكان لدى أخي الكبير غني (بوتين) يشكو منه ضيقاً بالنسبة لقدمه فلم يكن يستعمله إلاّ نادراً، وما كان مني إلاّ أن تجرأت فلبسته لأني لم أعد أقوى على لبس حذائي كما إن الحذاء لم يعد يقوى على حملي. وقد فعلت ذلك قبل ان استأذن أخي وكانت فيه (جَزَّة) فكنت إذا ما قدمت البيت مشيت على أطراف أصابعي لئلا تسمع جزة البوتين ويفتضح أمري، وكنت حريصاً على أن لا يفتضح هذا الأمر.

واذا ما شكت العائلة الضيق المادي فلا يمكن ان يقتصر هذا الضيق على ناحية دون أخرى من نواحي الحياة، فاذا ما شكوت العسر في المأكل او

الملبس فلابد من معاناته في النواحي الأخرى أيضاً. لم يكن من السهل عليّ اقتناء الكتب المدرسية المقررة، فكنت أطالب والدتي وألح عليها في الطلب لتمنحني بالمال لشراء هذه الكتب أو بعضها في الأقل، وكنت كثيراً ما أقول لها أنني سأرسب أذا لم أشتر الكتاب الفلاني، ومع هذا كله فلم يكن بمقدوري أن اشتري كل الكتب وكنت كثيراً ما أدخل الامتحان ولم يكن باستطاعتي مراجعة الكتاب المقرر وأعتمد في ذلك على ذاكرتي وما أسجله من ملاحظات.

أرادت والدتي أن تُسرِّي عني بعض الشيء وأن ترفه عن بعض الترفيه، فقالت لي ذات يوم: إن خالك الحاج حسين قد خصص لك "يومية" قدرها (قران) ولما كان دكان خالك في الشورجة، اي في طريقك إلى المدرسة، فما عليك إلاّ أن تمر عليه وأنت ذاهب الى المدرسة في الصباح. لا أتذكر كم مرة مررت على خالي غير أنني أتذكر انه كان يمنحني اليومية في البداية دون أن ألحظ عليه شيئاً، واتذكر أنني لم استمر طويلاً الوقوف على باب دكانه. ثم شعرت أن خالي بعد ايام قليلة من ذهابي اليه لتسلم اليومية بدأ يتثاقل في منحي إياها، ثم بدأ يتشاغل عني كلما مررت به ووقفت قليلاً على دكانه. ولم يستمر الحال طويلاً فمنعت نفسي من الذهاب اليه مرة أخرى مع انه لم يكن ليدفع هذه اليومية الزهيدة من ماله الخاص بل من مال جدتي لوالدتي، فإنه يستحوذ على كل ما يردها من وقف جدنا الأعلى الحاج علي القرغولي ويبلغ عدة آلاف من الروبيات في ذلك الزمن الذي كانت فيه للفلوس قيمة. لا أتذكر ان هذا "الخال" قد ساعدني بشيء حتى عندما سافرت للدراسة الى أمريكا وكنت بحاجة الى المساعدة. كان دون أخيه واخوانه الأربعة يستأثر بوالدته حية وميتة، فقد حرمت جدتي البنات من أي إرث، وأوصت بما

تركته من دار ونقود واثاث لولديها الحاج حسين والحاج وهيب. وانا لا احمل - وانا أذكر هذه الأمور - أي سخط على خالي الحاج حسين أو بغض، بل كنت على العكس أظهر له ما أُبطنه من وِد غير قليل، ولم اكن أعزي مثل هذا التصرف إلاّ للتربية الناقصة والمحيط الضيق فإن الايثار وحب الغير والتضحية وعمل الخير في نظري من صفات المجتمع الراقي وميزات المجتمع الذي تنتشر فيه المقاييس الخُلقية وتسوده النزعة الروحية.

لا أريد أن أقول أننا عشنا بعد وفاة والدنا عيشة الفقراء والكفاف، كلا. وفي الواقع أنني لم أحس بضيق في العيش عندما كنت صغيراً، وقد بدأت أحس بهذا الضيق المادي عندما كبرت وأصبحت تلميذاً في الثانوية، وان كنا نأكل في كثير من الأحيان من الأكل أوسطه، فإنا كنا أيضاً نأكل في بعض الأحيان من الأكل أحسنه، كنا نأكل بين حين وآخر التمن والمرق، وفي بعض الأحيان السمك والدجاج. ولم تدخر والدتي وسعاً إلاّ وبذلته للعناية بنا والترفيه عنا، فكانت تنفق علينا مما يردها من إيجارات البيوت التي تركها والدي، وتنفق علينا مما ادخرته من مال وذهب. فقد كانت المرأة في الزمن السابق تدخر ما استطاعت ادخاره بشكل مصوغات. فكان لوالدتي من الذهب قلادة وحِجِل ومَلاوي وحَصِيري وما شابه ذلك، إلا انها اضطرت الى بيع كل هذه المصوغات وانفاقه علينا بكرم نفس وطيب خاطر. كانت تبيع هذه المذهبات الواحد تلو الآخر وتقول أن أولادي هم "ذهبي"، وتقول بفخر واعتزاز: ما الذهب، ما قيمته، ما فائدته. أليس هو مُدَّخَر لوقت الحاجة؟ وهل هنالك سبيل للإستفادة من الذهب اكثر من أنفاقه في سبيل تربية اولادي. إنهم هم ذهبي وانهم سيأتوني لي بهذا الذهب وبأكثر منه. ولا بد لي من أن أذكر أن والدتي كانت تختلف معه في بعض الأحيان حول

ايجارات الدور، إذ تمانع من صرف بعض المبالغ على التعميرات التي تقتضيها الدور. كانت تتصور انه ينفق اكثر من اللازم، بينما كان هو يرى أن لابد من مثل هذا الصرف، ولا أدري ما اذا كان في بعض الأحيان يتعمد الصرف اكثر من اللازم ليغيضها ويقلل شيئاً من كبريائها أم لا، فقد كانت عزيزة النفس، شامخة الأنف، لا تنـزل رأسها لأحد.

ولا أدري اذا كان لهذا الضيق دخل في إقبالي على الدراسة. غير أنني كنت معروفاً في البيت وفي المدرسة وبين زملائي بأنني تلميذ ذكي مجتهد. كنت أحرص على الدرس بالرغم من ضيقي المادي وقلة ما هو موجود لدي من كتب وحالتي الدراسية غير المريحة في البيت، وكنت متقدماً في الإمتحانات وأعد بين الأوائل الثلاثة.

لم يكن البيت مريحاً، فقد كان بيتاً قديماً مبنياً على الطراز القديم وان كان يعد في حينه من اكبر البيوت وأضخمها في المحلة، وكان خاصاً بالصغار والكبار، حيث يضم العائلة برمتها: نساء أبي وأولادهن، ونساء اخوتي الكبار وصغارهم، فكان البيت يعج بهم وبصغارهم. وكنت، انا ووالدتي وأخواني رشيد وصاحب في غرفة واحدة، وهذه الغرفة أقرب إلى الصغر. ولم يكن في البيت كهرباء فكنت أدرس على على ضوء "اللمبة" الخافت، وكنت أضع حول شيشة هذه اللمبة ورقة من المقوى استعملها كظل لكي لايتجه الضياء رأساً الى عيني. وكثيراً ما تحكي لي والدتي بأنني كنت تلميذاً مجتهداً أقوم بتحضير الدروس ولاسيما وقت الإمتحانات كل ليلة، وكثيراً ما كنت أسهر حتى ساعة متأخرة من الليل، وكانت والدتي كثيراً ما تجدني بعد رجوعها من بيت والدتها متكئاً على الحائط وراء الباب نائماً وفي يدي الكتاب. والحقيقة هي أنني كنت أدرس ولاسيما قبيل واثناء الامتحانات

دراسة متعبة مضيئة اما اثناء السنة فلم يكن الدرس مستمراً ولا منتظماً، وهذا عيب كبير من عيوب الدراسة عندنا. ان المدرسة لم تكن لتشغل التلميذ بالواجبات اليومية كما ينبغي ولم يجد التلميذ ما يعمله زيادة على التحضير اليومي. ولا أدري إذا كان العسر سبباً قوياً من أسباب إقبالي على الدراسة وتفوقي في المدرسة فأنا لا أظن انني كنت أحس بهذا حسا واعياً، وقد يكون هذا العامل يفعل مفعوله في اللاوعي. وليس من شك أن الغِنى قد يُبطر صاحبه وقد يصرفه عنه إلى أن يهتم بنفسه وبضرورة تسلحيها بأسلحة أخرى غير أن الغنى من أسلحة الحياة والتي لا شك أنها أهم من سلاح المال بكثير. وليس من شك أيضاً ان الفقر، ولاسيما إذا جاوز حّده، قد لا يشحذ الهمم بل قد يجعل الإنسان هزيلاً في عزمه وحزمه، ضعيفاً في تنمية مواهبه وقابلياته، ان لم يكن في كثير من الأحيان عاملاً أساسياً في القضاء على نشاط الانسان وقتل مواهبه. والحقيقة التي أراها هي ان الفقر كالغنى سلاح ذو حدين قد يكون حافزاً على العمل والانتاج، وقد يكون باعثاً على القياس والقنوط، غير أن الإنسان عل كل حال في حالة الغنى أحسن منه في حالة الفقر، فالجاهل مع المال أحسن منه وهو بدونه، والمريض مع المال أحسن منه وهو لا يملكه، والصحيح مع المال أفضل منه وهو لا يجده. والعالم مع المال أفضل منه وهو يعوزه وهكذا. فالمال مع الأسف في هذه الحياة أصبح النعمة الأولى عند الكثيرين.

نادي الإصلاح

كانت ثمة دار تقع في شارع (العبَّخانه) قد رُفعت على واجهتها لافتة كتب عليها نادي الاصلاح. ولا أدري كيف أسس هذا النادي ولماذا، ومن هم

المؤسسون، ولكني كنت اعرف أن الشخص الذي كاد أن يكون المسؤول الوحيد هو جعفر الشبيبي[٩٥]. كان هذا النادي ملتقى لشباب المحلة وكل هؤلاء الشباب او جلُّهم من ابناء الشيعة وإن لم أفطن إلى هذا إلاّ فيما بعد. كنا نجتمع في هذا النادي لتحضير دروسنا ولمطالعة بعض الجرائد والمجلات إذ كان نادياً ادبياً أجتماعياً، ولم يكن يتطلب الاشتراك في هذا النادي من أي شخص شروطاً معينة، ولم يكن يطالبنا حتى بدفع أي اشتراك، وكان – والحق يُقال – قد سد فراغاً كبيراً في حياتنا. وأهم ما فيه أننا نستطيع أن نجد الكرسي والطاولة والكهرباء والهدوء للدراسة، لاسيما أيام الأمتحانات. كان يتردد عليه كثير من شباب السويدان وصبابيغ الآل والهيتاويين، ثم كنا نتردد عليه ولاسيما في السنة الاخيرة من حياتنا في الثانوية أنا ومحمد سلمان[٩٦] وأحمد سهيل[٩٧] وخالد أمين[٩٨]. وقد التقيت وانا استعد لامتحان البكلوريا للثانوية سنة ٩٢٦ – ٩٢٧ بالسيد سليم الحريري وهو يستعد لامتحان التخرج في كلية الحقوق. كان النادي يضمنا وبعض الأصدقاء، وكنا نقضي الساعات الطوال والايام الطويلة والليالي المضنية، نتهيأ فيها لخوض المعركة، وكثيراً ما كنا نشترك في الأكل وقت الظهيرة او عند الغروب. كان السيد الحريري معلم الأشغال اليدوية في المدرسة الجعفرية، وقد اكتشفت انه لم يكن يعطيني درجات عالية في هذا الدرس، وإن هذا الدرس كان في بعض

---

[٩٥] هو أخو الشيخ محمد رضا الشبيبي، وزير المعارف فيما بعد.

[96] هو محمد حسن سلمان، الطبيب فيما بعد، توفي سنة ١٩٨٦، وسترد أخباره تباعاً في هذه المذكرات.

[97] طبيب بارز، ولد سنة ١٩٠٩، وتخرج في الكلية الطبية ببغداد سنة ١٩٣٣، ثم تخصص في أمراض العيون حتى صار أستاذاً فيها في الكلية الطبية، وطبيباً في قسم أمراض العيون، توفي سنة ١٩٦٧.

[98] هو خالد أمين الحشمة، وكان من أخلص أصدقاء صاحب المذكرات، عين مديراً لضريبة الدخل، وتوفي في لندن في ١٤ تموز ١٩٥٩.

الأحيان السبب في حرماني من الأولية في الصف. لقد كان السيد الحريري شخصاً وديعاً، هادئاً، يحب الخير ويؤثر الغير، التقيت به بعد ان قطعنا شوطاً في معركة الحياة في الناصرية هو محام وأنا مدير معارف، ثم عُيِّن حاكماً فيها، ثم افترقنا ولم نعد نتلاقى إلاّ نادراً وقد انقطعت هذه العلاقة أخيراً.

كنت ذات مرة وأنا أدرس في هذا النادي وقد تأخر بي الوقت كثيراً ولم أشعر ان الساعات تمض سراعا بالنسبة لي، وانها كانت تمضي بالنسبة لوالدتي في البيت بطيئة، ثقيلة، مكدورة، متعبة. فما ان انتبهت الى الوقت، وغادرت النادي في طريقي الى البيت إلاّ وأرى من بعيد والدتي تحمل الفانوس يتقدمها أخي غني ببضعة خطوات. قلت لها: ما الذي أخرجك في هذه الساعة المتأخرة من الليل، ألم تعلمي أنني أسهر في هذا النادي كل ليلة لقرب معركة الامتحانات؟ قالت: بلى والله انني لأعلم ذلك ولكنني جزعت وقلب الوالدة، ابتسم أخي غني وقال: لم أستطع اقناعها.

حادثة النصولي

وكان السيد أنيس النصولي[٩٩] أستاذا للتأريخ في مدرسة الموصل الثانوية ثم نقل إلى الثانوية المركزية في بغداد تقديراً لكفاءته، والحقيقة هي أن السيد النصولي كان استاذاً قديراً، يستهوي الطلاب ويجتمع بهم، وكانت له طريقته الخاصة في القاء المحاضرة. كان يلخصها بشكل رؤوس أقلام على

---

[٩٩] هو أنيس زكريا النصولي،ابن أحد تجار بيروت، تخرج في الجامعة الأمريكية عام ١٩٢٤، وعني بدراسة التاريخ، فكتب بحوثا نشرها في مجلات(الهلال) و(المقتطف) و(الزهراء)، وألف كتابا عن النهضة العربية في القرن التاسع عشر، انتدبته حكومة العراق للتدريس في مدارسها. ينظر: خيري العمري: حكايات سياسية من تاريخ العراق الحديث، بغداد، ص١٤٦-١٧٢.

السبورة، ويؤشر بالتباشير الأحمر على النقاط المهمة مما يسهل على الطلاب تحضير الدرس وضبط مادته. كان يدرسنا التاريخ العام، ويحاضرنا عن تاريخ اوربا الحديث ويحاضرنا عن التأريخ الإسلامي ولاسيما تاريخ الخلفاء الراشدين والأمويين. كان السيد النصولي من بيروت وكنا نظن في حينه أنه من الشام، وقد درس على ما أظن في الجامعة الأمريكية غير أنه على ما يظهر قد تأثر وهو القريب من الشام بنظرة خاصة لتأريخ الخلفاء الراشدين فقد هاجم الإمام علي في عدة مجالات من محاضراته التي جمعها في كتاب[100]، ولم يكن مُحقاً أو منصفاً في هذا الهجوم، مما أثار شعور الأكثرية العربية في العراق، وقد احتجت هذه الأكثرية احتجاجات شديدة لدى المراجع العليا ولاسيما وزارة المعارف. وكان وزير المعارف آنذاك (١٩٢٦-١٩٢٧) السيد عبد المهدي[101]، وكان يشغل الوزارة لاول مرة، رجلا يلبس الكَفية والعِقال من قرية (أبى هاوَن) بالقرب من الشطرة في لواء الناصرية. قد تثقف ثقافة عربية إسلامية على الطريقة المعروفة آنذاك في مدارس النجف أو ما شابهها، ولا أظنه درس دراسة أصولية او دخل مدرسة رسمية. غير أن السيد عبد المهدي تمتع بشخصية قوية محبوبة وتميز بشيء غير قليل من الذكاء وسعة الاطلاع. ولقد اشتهر خطيباً سواء في مجلس النواب أو في مجلس الاعيان الذي قلما كان يخلو منه، كان نائباً او عينا في كل، أو جُل، دورات المجلس. وكم اشتهر بخطبه الوطنية إذ كان أحد قادة المعارضة في المجلس. لقد عرف في

---

[100] كتاب (الدولة الأموية في الشام)، مطبعة دار السلام ببغداد سنة ١٩٢٧.

[101] هو السيد عبد المهدي بن السيد حسن آل شبر المنتفكي، ولد سنة ١٨٨٩، وشارك في الثورة العراقية سنة ١٩٢٠، عين وزيرا للمعرف في وزارة جعفر العسكري الثانية سنة ١٩٢٦ وفي وزارة رشيد عالي الكيلاني سنة ١٩٣٣ووزيرا للاقتصاد في وزارة نوري السعيد السادسة سنة ١٩٤١ ووزيرا للمواصلات والأشغال في وزارة نوري السعيد السابعة سنة ١٩٤٢.

بعض ادوار حياته كمناوئ للسياسة البريطانية، وخدم هذه الامة خدمات جليلة باخلاص وكفاءة ونزاهة. حيث أشغل وزارات المعارف والإقتصاد والمواصلات عدة مرات.

وتحت ضغط الاحتجاجات الشديدة على كتاب النصولي اضطرت وزارة المعارف التي كان يرأسها السيد عبد المهدي وزيراً، والسيد ساطع الحصري المربي العربي المعروف[١٠٢] مديراً عاماً لها، الى الاستغناء عن خدمات السيد النصولي لإخماد الفتنة التي بدأت تتململ وترفع رأسها. وقد احتج على هذا الإستغناء الأستاذان جلال زُرَيق[١٠٣] وكان يدرس في الثانوية، والسيد عبد الله مشنوق[١٠٤]، وكان يدرس في دار المعلمين الإبتدائية والذي أصبح مؤخرا وزيراً في الحكومة اللبنانية، وقدما استقالتهما تضامناً مع زميلهما وقُبلت الاستقالة[١٠٥].

كان السيد يوسف زينل[١٠٦] قد تخرج من الجامعة الأمريكية ببيروت وعين مدرساً في الثانوية المركزية، ولا أتذكر ما كان يدرس، كما أنني لا اتذكر ما اذا كانت هذه هي سنته الأولى في التدريس بعد التخرج أم سنته الثانية، ولكنني أتذكر ان السيد زينل قد ابدى نشاطاً اجتماعياً حيث كان كثير

---

[١٠٢] عالم تربوي مؤرخ، من أبرز دعاة الوحدة العربية، عمل معاونا لوزير المعارف، فمديرا للمعارف، فأستاذا في دار المعلمين العالية، ثم رئيسا لكلية الحقوق، فمديرا للآثار القديمة، ثم أبعد عن العراق سنة ١٩٤١، وقام بتأسيس معهد الدراسات العربية في القاهرة، وتوفي سنة ١٩٧٠.

[١٠٣] مدرس سوري، من اللاذقية، استقدمته وزارة المعارف للتدريس في المدارس الثانوية ودار المعلمين في بغداد.

[١٠٤] مدرس لبناني، من أهل بيروت، استقدمته وزارة المعارف في العراق للغرض نفسه.

[١٠٥] ينظر ساطع الحصري: مذكراتي في العراق، بيروت ١٩٦٧، ج١ص ٥٦٨.

[106] توفي في تشرين الثاني سنة ١٩٨٩.

الأتصال بالطلبة كثير الأجتماع بهم ويرغب في تنظيمهم وتكتيلهم، كما كان يرغب في تزعمهم.

أسس السيد زينل نادٍ عُرف باسم نادي التضامن، وكاد يقتصر هذا النادي على الطلبة فقط، ولا أتذكر تماماً ما اذا كان يجوز لغير الطلاب الانتماء اليه. وقد انتميت الى النادي وتوضح لي من وضع الطلاب وما يدور بينهم من أحاديث وما يتسرب في بعضهم من كلمات وآراء ان هذا الوضع لا يؤدي إلى الانسجام والتضامن الذي كان السيد زينل يزعم أن النادي يدعو اليه. لقد أحسست بروحية لم تعجبني من قبل بعض الطلاب، ولاسيما عندما رشحني بعض الأصدقاء الى عضوية الهيئة الادارية للنادي.

أدى السيد يوسف زينل مع جماعته من الطلاب المنتمين إلى نادي التضامن دوراً كبيراً في تهيئة المظاهرة التي قام بها طلاب المدرسة الثانوية وطلاب دار المعلمين الابتدائية احتجاجاً على إنهاء خدمات السيد النصولي بحجة ان ماوقع كان اجراءا متعسفاً منافياً لحرية الرأي[١٠٧]، ومَن مِن الطلاب لا ينتصر لحرية الرأي ومن منا لا يثيره أي أجراء تعسفي؟ لقد تظاهر طلاب المدرستين بالمئات وبالألوف وأنا بينهم، ومشينا بينهم متظاهرين نطالب بضمان حرية الرأي وبإرجاع النصولي وزميليه الى التدريس، فاجتزنا شارع الرشيد ثم تجمعنا حول بناية وزارة المعارف التي تشغلها الآن دائرة الآثار[١٠٨] نصيح بأعلى أصواتنا وننادي بضرورة مواجهة الوزير وضرورة استحصال تصريح فوري منه بالموافقة على مطالبنا. لقد منعتنا الشرطة من دخول البناية ولكننا بقينا نصيح ونصرخ وننادي بالويل والثبور، ونطالب بخروج الوزير

---

[١٠٧] فصل يوسف زينل من وظيفته بوصفه محرضا على المظاهرة.

[١٠٨] ويشغل هذه البناية في الوقت الحاضر المتحف البغدادي.

ومواجهتنا والتكلم معنا وإجابة مطالبنا. ولا أدري كيف يكون للوزير، أي وزير، ان يخرج من دائرته لمواجهة المئات والألوف من الطلاب وهم في أشد حالات الهياج وأعنفها. خرج علينا أحد موظفي الوزارة وقال أن الوزير مستعد لمواجهة عدد منكم يمثلونكم. ولا أدري كيف استطاع هذا البحر المتلاطم من الطلاب تسمية عشرة طلاب، خمسة منهم من الثانوية المركزية، وخمسة أخرى من دار المعلمين الأبتدائية. وكيف تمت هذه التسمية وبهذه السرعة وهل كان الأمر مبيتاً أم لا؟ لا أتذكر اسماء هذه العشرة المسماة ولكنني كنت أنا واحداً منهم، وكان أيضاً عبد القادر اسماعيل[١٠٩] وفائق السامرائي[١١٠] وحسين جميل وآخرون، وسمح لنا بالدخول الى بناية الوزارة، وأتذكر اننا واجهنا اولاً السيد ساطع الحصري مدير المعارف العام، ثم دخلنا وهو معنا على الوزير، ولم نكن قد رأيناه من قبل، وقد وجدناه قد انتصب في جلوسه وراء منضدة كبيرة. وكان يلبس العباءة والكفية وكان يظهر في اللباس العربي أخَّاذاً وامارات الجد والعبوس والحزم بادية على وجهه.

---

109 محام، اشتغل بالسياسة، فكان من جماعة الأهالي سنة ١٩٣٣، ومن مؤسسي جمعية الإصلاح الشعبي سنة ١٩٣٧، وانتخب نائباً في المجلس النيابي. أسقطت عنه الجنسية العراقية فعاش مدة في لبنان، وانتمى إلى الحزب الشيوعي هناك، ثم عاد إلى العراق بعد ثورة ١٩٥٨ حيث أصبح عضواً في الحزب الشيوعي العراقي، ترأس جريدة (اتحاد الشعب) التي كان يصدرها الحزب المذكور سنة ١٩٥٩.

110 سياسي قومي الاتجاه، ولد سنة ١٩٠٨، ودرس في المدرسة الثانوية حيث زامل صاحب هذه المذكرات، وتخرج في كلية الحقوق سنة ١٩٣٢، وترأس تحرير جريدة (الاستقلال) وشارك في العمل السياسي، وتقلب في الوظائف القانونية، واعتقل إثر إحباط ثورة مايس ١٩٤١ وأطلق سراحه سنة ١٩٤٥، وشارك في تأسيس حزب حرس الاستقلال، واختير أميناً لسره، ثم نائباً لرئيسه، وانتخب عضواً في المجلس النيابي، وعين بعد قيام ثورة ١٩٥٨ سفيراً في القاهرة، ولكنه استقال بعد مدة احتجاجاً على سياسة عبد الكريم قاسم، وتوفي سنة ١٩٧٩.

لم يخرج الحديث الذي جرى بيننا وبين الوزير عما جرى بيننا وبين ساطع الحصري. كان رأيهما يتلخص بأننا ندرس مطالبكم وأن الإجابة عليها غير ممكنة إلاّ بعد درسها وقد تستغرق مدة الزمن، ولابد من رجوع الطلاب إلى صفوفهم واستئناف دراساتهم، وانتم تكونون همزة الوصل بينهم وبين الوزارة، أنتم أيها الوفد المفاوض، قد وضع الطلاب ثقتهم فيكم فانتم الذين تتحملون عني المفاوضة ولم يبق للطلاب واجب آخر غير الرجوع الى المدرسة والمحافظة على النظام، ولابد من أن يفهم الطلاب أنه لا يمكن اجراء أية مفاوضات والتوصل الى أية نتائج في جو مضطرب تسوده الفوضى، لابد من النظام ولابد من تفرق الطلاب والرجوع الى مدارسهم. لقد جادلنا كثيراً وتكلمنا طويلا، وضربنا على وتر حرية الرأي وشجبنا التصرف وطرد الأستاذ بسبب من حرية الرأي هذه، وأصررنا على ضرورة ارجاع الأستاذ وعدم قبول استقالة زميليه. إلاّ أن شيئاً لم يتم في هذه المقابلة، ولم تقبل الوزارة بوجهة نظرنا، ولم تستجب لمطالبنا وأجلّت كل شيء للدراسة وطلبت منا أن نخرج إلى الطلاب ونخبرهم بما تم بيننا. خرجنا من لدن معالي الوزير وبينما كنا ننزل السلم وإذا بالسيد جعفر الشبيبي يصعده بسرعة وقد التقى بنا في منتصفه، وما أن رآنا حتى التفت إليَّ غاضباً كثيراً والشرر يتطاير من عينيه وقال: أهذا أنت تشترك مع هؤلاء المشتركين. أهذا أنت الذي تتزعم الطلاب في نادي الإصلاح وتطالب بتنظيمه وإصلاحه!؟

خرجنا على الطلاب ولا أدري من منا كان يخاطبهم ولكني كنت آخر المتكلمين. لم نعمل أكثرمن أننا نقلنا صورة ما جرى في مكتب الوزير، ومع هذا فقد تصاعدت الأصوات من هنا وهناك أن انزلوا - انزلوا. خونة... لقد خنتم الحركة وخرجتم على إرادة الطلاب. وأنني أتذكر إن أول الأصوات

التي ارتفعت ضدي من هذه النداءات كانت من الأخوين خالد وعبد الرحمن الشوربجي[111]. وعلى أية حال اضطربت الحالة وساد الهرج والمرج، وفيما كان قسم من الطلاب يهمّ بالهجوم على مبنى الوزارة واذا بسيارات الأطفائية تشق صفوف الطلاب تحيط بها عدد غير قليل من الشرطة وهم مسلحون وقد وجهت خراطيم المياه على الطلاب، وانني لأتذكر أنني كنت الوحيد من الطلاب الذي تقدم إلى فريق الأطفاء والشرطة رافع الرأس بارز الصدر يمشي بخطى واسعة ثابتة، وطلبت من رئيسهم أن يمتنع عن توجيه الماء على الطلاب، وأن لا تقوم الشرطة بأي عمل وإلاّ فإن الحالة ستزداد سوءاً، وقد وعدتهم بأنني سأحاول التفاهم مع زملائي الطلاب وإرجاعهم الى المدرسة. ثم أني رجعت مسرعاً الى صفوف الطلاب واعتليت سلم المدخل لوزارة المعارف وما ان بدأت بالكلام، حتى رأيت السيد زينل مقبلاً بسرعة وقد بدا الهياج واضحاً على وجهه، لقد تقدم السيد زينل وكأنه على موعد ليأتي في اللحظة الحاسمة. لا أدري من أين أتى؟ هل كان قريباً من ساحة المظاهرة؟ هل كان قريباً يراقب سير المعركة؟ هل رأى ان الحالة قد تأزمت وقد ترددت ولابد من التدخل في الوقت المناسب؟ لقد تدخل السيد زينل وتكلم الى الطلاب وطلب منهم الرجوع الى المدرسة واستئناف الدراسة وانتظار النتائج مع وفد المفاوضة. لم تنتج المفاوضات شيئاً وقد أصرت الوزارة على رأيها واستغنت عن السيد النصولي وقبلت استقالة زميليه. غير أن هذه الأزمة لم تنته بالاستغناء وقبول الاستقالة فقد تطورت في ملابساتها وتركت آثاراً سيئة في نفوس الطلاب وفي علاقة بعضهم ببعض.

---

[111] طبيب، ولد سنة ١٩١٢ وتلقى تعليمه في المدرسة الثانوية حيث زامل صاحب المذكرات، وتخرج في الكلية الطبية سنة ١٩٣٤، وواصل دراسته في بريطانيا، ثم عاد إلى وطنه ليعمل أستاذاً في الكلية الطبية، وتقلب في المناصب الطبية، حتى أصبح نائباً لرئيس مؤسسة مدينة الطب والمدير الطبي.

لقد أثارت هذه الأزمة النعرات الطائفية المقيتة التي تفرّق بين أبناء الأمة الواحدة وتباعد ما بينهم وهم في أشد الحاجة الى تناسي الماضي ودفنه وإلى توحيد الصف وجمع الكلمة، هذه النعرات التي يغذّيها المستعمر من جهة، ويشجعها من يصطاد في الماء العكر من رجال السياسة ولاسيما الفاشلين منهم الذين يريدون الحكم والتربع على كراسيه الوثيرة وإن كانت لا تتوفر بينهم المؤهلات العلمية والخلقية. وإذا كان العراق يشكو من بعض الأمراض، فليس هناك شيء أخطر عليه وعلى كيانه من مرض الطائفية، أنه أخبث الأمراض وأفتكها. واذا كان العراق يشكو من التقسيم المدني والعشائري أو كان يشكو من النعرات القومية الجامحة التي لا تروق لها وحدة العراق وتطالب بالإنفصال، وإذا كان العراق يشكو من أمراض الرجعية وعوامل التأخر ومن الأمية والمرض كما يشكو من مرض الاقليمية والانعزال، وإذا كان يشكو من هذا ومن غير هذا فليس هناك شيء أفظع من هذا كله وأكثر فتكاً وخطراً على حياته وكيانه من مرض الطائفية. إن كل مخلص لوطنه وكل غيور على عروبته مدعو لمحاربة هذا الوباء بدون هوادة ولا شفقة، وإن من الخيانة أن نفكر تفكيراً طائفياً وان نسلك في الحكم وسياسته سبلها الوعرة المظلمة و(درابينها) الموبوءة. لقد كانت هذه الأزمة بداية لسوء فهم استفحل أمره بين الوزير والمدير العام، وأظن انها انتهت باستقالة الوزير واخراج المدير من المعارف مدة من الزمن. ولقد انعكست هذه الأزمة على حياة الطلاب هنا وهناك كما انعكست علينا ونحن في نادي الاصلاح. ولما أخذ بعض الشبان بالتكتل على مثل هذه الأفكارالضيقة، ناضلنا بعنف ضد هذه الأفكار وكافحنا لخنقها في مهدها. وكانت المعركة على أشدها عند انتخاب هيئة النادي الإدارية من الطلاب، ولقد فزنا بعد معركة دامية، ولكني لا أدري ما إذا كان

السيد الشبيبي يؤازر حركة المنشقين ضدي لعدم رضاه عما قمت به في المظاهرة ضد السيد عبد المهدي الذي يمت له بصلة النسب فضلاً عن روابط الصداقة الوثيقة التي تربط بينه وبين وآل الشبيبي. لقد رأيت في هذه الأزمة السيد عبد المهدي لأول مرة في حياتي ولكنني رأيته فيما بعد مرات ومرات، وفي أزمات وغير أزمات.

كان السيد زينل كما قلت كثير الحركة والنشاط وكثير الأتصال بالطلاب، ويبدو عليه انه يريد أن يتزعمهم، ولعله قد استعجل كثيراً من الامور، ومن يستعجل الأمور قبل أوانها يعاقب بحرمانها، فلقد انتقل من المعارف الى السلك الخارجي، ثم رجع الى الوظيفة وهو يشغل الآن وظيفة مفتش بوزارة المعارف. وقد أعاد تأسيس نادي التضامن.

وكان قد دعا قسماً من طلاب المدرسة الثانوية المركزية، وأنا منهم، إلى بستانه أو بستان عمه الواقع في (الفحّامة). وكانت سفرة جميلة ممتعة والأولى من نوعها، ذهبنا الى البستان مشياً على الاقدام وهي تبعد عن بغداد نحواً من ١٥ كيلومتراً، وكانت المسيرة طويلة متعبة وشاقة ولاسيما ونحن لم نعتد على مثل هذه المسيرات الطويلة من قبل. قطعنا الطريق ونحن جماعات وجماعات نلهو ونسمر ونضحك ونصفق وننشد ونتوقف بين حين وآخر. تغدينا في البستان الذي يطل على النهر تحت أشجار البرتقال وكان الوقت ربيعاً والهواء منعشاً عليلاً والشمس رائعة لذيذة.

معاناة الدرس

انتقل الصفّان المنتهيان الثامن والتاسع من القسم الثانوي من المدرسة الجعفرية بطلابها كافة الى المدرسة الثانوية، وعند الامتحان النهائي رسبنا أو رَسَّبتنا الادارة في صفنا عدا طلاب الصف التاسع الذين لم يكن عددهم يتجاوز أصابع اليد الواحدة فانهم نجحوا الى الصف المنتهي وهو الصف الرابع. لقد رسبنا نحن طلاب الصف الثامن من المدرسة الجعفرية مع من رسب من طلاب المدرسة الثانوية ولم يكن عددهم قليلاً. كانت درجاتي كلها عالية ومُعدَّلي عال عدا درسين رسبت فيهما أحدهما اللغة الإنكليزية، ولا أتذكر بالمرة الدرس الثاني. كان الرسوب تجربة قاسية وصدمة عنيفة وكان كذلك بالنسبة لوالدتي التي كانت ترى فيَّ الولد المجتهد المتفوق والتي كانت تنتظر تخرجي وتحسب مدته يوماً فيوماً. لقد كان الرسوب درساً قاسياً وعبرة عظيمة، إذ شعرت بألم مرير وامتعاض شديد، وشعرت أنني ظُلِمت، وان الادارة تقصدت اسقاطي في الامتحان وتقصدت كذلك مع الكثيرين من زملائي، وكان بينهم من كان يتفوق في الأمتحانات عندما كنا في المدرسة الجعفرية.. لقد اتعظت بالأزمة واعتبرت بالمحنة، وبدلاً من أن تكون باعثاً عن اليأس والتخاذل كانت حافزاً على العمل المنظم، وقد خرجت منها ظافراً منتصراً. لقد أعدت السنة ولكنني كنت الأول في الصف طوال السنة، ثم نجحت الى الصف الرابع وكنت الأول فيه حتى امتحان البكلوريا النهائي، بل كنت بين الثلاثة الأوائل، ولم أحافظ على الأولية المطلقة لغلطة بسيطة أرتكبتها في درس المثلثات، أو أنني حللت بعض المسائل بوجهين الصحيح منها والمغلوط ونسيت أن أشطب على المغلوط قبل تسليم دفتر الأمتحان، وكانت النتيجة أن عَدَّ المصحح المغلوط ولم يأخذ بالصحيح، وكانت علاماتي

في هذا الدرس قد انخفضت من المائة الى الخمسين او أكثر من ذلك بقليل، ومع هذا فقد بقي الفارق بيني وبين الأول والثاني فرقاً بسيطاً. لقد انقسمت المدرسة الثانوية لأول مرة في حياتها الى قسمين علمي وأدبي. اخترتُ الأدبي دون العلمي فتخرجت من القسم الأدبي، وإن كان الفرق بين القسمين في الدراسة سطحياً بسبب أن التقسيم كان في بدايته.

لقد أنهيت الدراسة بأربع سنوات بدلاً من خمس سنوات كما هي الحالة الآن، وإني قد عوضت عن السنة التي رسبت فيها بالسنة التي قفزت فيها من الصف السادس الى الثامن دون أن أترفع إلى الصف السابع. كما أنني كنت قد أنهيت قبلاً الدراسة الأبتدائية بأربع سنوات بدلاً من ست سنوات، أي يكون مجموع ما أمضيته من سنوات في الدراستين الأبتدائية والثانوية هو ٨ سنوات، ولما كنت قد دخلت المدرسة الجعفرية وكان عمري آنذاك ثماني أو تسع سنوات فاني قد تخرجت في الثانوية بعمر ١٦ أو ١٧ سنة.

وكم فرحت بتخرجي، ولكنه كان فرحاً يخالطه شيء كثير من الألم، إذ لم أكن الأول في الامتحان وإن حافظت على الأولوية طوال السنتين الثالثة والرابعة في كافة امتحاناتهما الشهرية والفصلية والسنوية، وقد فرحت بذلك والدتي فرحاً شديداً لأنني أنهيت هذه الرحلة المهمة من الدراسة والتي كانت تعَد في حينه المرحلة الهامة في حياة المرء الدراسية، ولأنني على وشك التوظف، فها هي الشجرة قد أثمرت وستأتي أكلها الحلو. لقد تخرجت من الثانوية بعد مرور نحو من ٧ او ٨ سنوات على وفاة والدي قاست فيها والدتي الأمرّين وتحملت خلالها من قسوة العيش ومشاكل ادارة البيت وتربية الأولاد وكل ما يتعلق بالحياة من صعود وهبوط ومن صعوبات وعقبات.

كانت والدتي تنتظر أن يصدر أمر التعيين معلماً في إحدى المدارس الإبتدائية بين حين وآخر، وكانت تنتظر أن أقوم بتحضير الأوراق اللازمة لهذا التعيين، فهي ترقبني عن كثب وتنتظر مني هذا وغير هذا، ولكنني كنت مشغولاً بشيء آخر، لقد صممت على الدراسة العالية إذ كنت قد عزمت على ان أدرس الطب أو الحقوق، وقد تأسست كلية الطب في نفس السنة التي تخرجت بها في الثانوية، أما الحقوق فمؤسسة قديمة ولم يكن في العراق غيرها على مستوى الدراسة العالية. وبينما أنا أفكر في أمري واذا بوزارة المعارف تعلن عن رغبتها في ارسال الطلاب المتفوقين على حسابها للدراسة في الخارج، ولكن ليس لدراسة الطب او الحقوق، فترددت في تقديم الطلب، وكان أن اعترضني مرة السيد أحمد زكي الخياط[١١٢]، وكان يشغل وظيفة سكرتير في الوزارة، قائلاً: ولماذا ياهذا لم تتقدم الى البعثة؟ فاوضحت له السبب، قال: لا بأس من أن تتقدم بطلب، ففعلت ولم يمض على الطلب مدة طويلة حتى ظهرت النتيجة بالقبول في البعثة.

أتيت الى والدتي مبتسماً قائلاً: ما رأيك يا أماه لو أنني قبلت بالبعثة وسافرت الى الخارج للدراسة العالية على نفقة الحكومة؟ قالت: وكيف يمكن ذلك وأنني أنتظر هذا اليوم يوم تعيينك دقيقة دقيقة؟ أما سمعت أن ابن فلانة (ولاتعرف الشباب إلاّ بامهاتهم) قد تعين بالمدرسة الفلانية براتب كذا روبية. (وكان الراتب لخريج المدرسة الثانوية على ما أتذكر ١٧٠ روبية) وأن ابن فلانة الآخر قد تعيَّن في لواء كربلاء بالقرب من ضريح الامام الحسين، وابن فلانة قد تعين في النجف الأشرف بالقرب من ضريح الامام علي ابن ابي

---

[١١٢] هو أخو جعفر خياط، تخرج في كلية الحقوق سنة ١٩٢٠، وعين (متصرفا) بالعمارة والكوت والحلة وكربلاء، وتقلب في الوظائف حتى أصبح مديرا للإدارة القانونية في جامعة الدول العربية، ووزيرا مفوضا في وزارة الخارجية.

طالب. هنيئاً لهؤلاء فهم يأخذون معهم أمهاتهم للسكن معهم، فيصبحن بهذا قريبات من الحضرة. أوما سمعت بصديقك خالد أمين[113] الذي تعين في (الهندية) براتب ضخم يكفيه ويكفي عائلته؟ قلت: سمعت بهذا يا أماه وعرفت بغير هذا أيضاً، ولكنك ألا توافقينني بأن مستقبلي سيكون أفضل من هذا وذاك إذا ما ذهبت الى الخارج ودرست مدة لا تتجاوز الأربع سنوات لأرجع براتب قدره ٤٠٠ روبية وبشهادة عالية لم يحصل عليها إلاّ القليل من العراقيين. إن من يتعين براتب ١٧٠ روبية الآن يا أماه لا يمكن ان يصل بعد أربع سنوات إلا إلى راتب ٢٠٠ او ١٥٠ روبية، فمن هو الأفضل، الذي يتعين الآن أم الذي يتخرج من كلية عالية بعد اربع سنوات؟ ثم قلت لها: يا أماه أنت قد صبرت على الحلو والمرّ وأنك قد اقتحمت كثيراً من المصاعب والشدائد، وأنك ناضلت في سبيل لقمتنا وتربيتنا فهل لكي أن تصبري أكثر وتنتظري مدة أطول لكي أنهي دراستي العالية وأرجع من بلاد "الغربة" رافع الرأس، معززاً مكرماً. إننا يا أماه في المرحلة النهائية من سفرة الحياة، ومن صَبَر ظَفَر. سكتت والدتي وأطرقت برأسها تفكر ثم رفعت رأسها وقد ارتسم على وجهها الحلو ابتسامة لم تكن بالصافية بل يخالطها شيء غير قليل من ألم غير فصيح، يتكون عادة بسبب صدمة لم يكن صاحبها يتوقعها. ولم تكن والدتي تتوقع هذه الصدمة غير المنتظرة إذ قد رسمت لها خطاً وصورت لها صورة لحياتنا بعد التخرج من الثانوية، والآن لقد تغير كل شيء. لقد رفعت والدتي رأسها الجميل وقالت والابتسامة على شفتيها وبريق يشع من عينيها: لك ما أردت يا بني فسافر على بركة الله وأذهب وارجع سالماً

[113] هو خالد أمين الحشمة، وقد تقدمت الإشارة إلى زمالته لصاحب المذكرات في المدرسة الثانوية.

غانماً. قفزت على الفور وضممتها الى صدري وطبعت قبلات عدة على وجهها ويديها.

إن لهذه المرأة الفاضلة الكريمة والسيدة الجليلة المحترمة مواقف حاسمة في حياتي، ولولا هذه المواقف المشرفة التي تنم عن طيبة سريرتها وحلو شمائلها والتي تعكس تفكيرها العميق وصحة تقديرها للأمور وارادتها الحازمة لما علمت، ولما علم أحد غير الباري عز وجل، ما كان مصيري في هذه الحياة، وأي مستقبل كان يخبؤه لي الغد. لقد وقفت هذه الوالدة مدفوعة بغريزة الأمومة، وبفطرتها الحنونة الرحيمة، موقفاً حاسماً يوم أصرَّت على ضرورة ادخالي المدرسة ولم يعجبها أن أتنقل من مكان الى آخر بحجة المحافظة عليَّ من الطريق، أو بحجة ضرورة تعلم مهنة ما، بل أصرت أن أتعلم القرآن لدى الملا نعيمة، ثم أصرت أن أدخل مدرسة "ابن هجول" في جامع الحادي بادي[١١٤]، ثم أصرَّت، ولما يمض على وفاة والدي غير مدة قصيرة من الزمن، أن أدخل المدرسة الجعفرية، وكنت قد كبرت آنذاك وكان عمري ثمان أو تسع سنوات. لولا موقف هذه الوالدة الشفيقة ذات القلب الكبير والنفس السموح الكريمة، ولولا موقفها الحاسم القاطع، موقفها الصحيح السليم يوم تخرجي من الثانوية ويوم وافقت فيه على الذهاب الى

---

[114] كانت هذه المدرسة في الأصل كتاباً يتولى تعليم الأطفال فيه الملا هجول، وابنه الملا رؤوف، ويقع في مسجد قديم يرجح أنه يرقى إلى العصر العباسي، ينسب إلى من يدعى (حادي بادي)، وعند قدوم فيصل بن الحسين إلى العراق وتتويجه ملكاً عليه في آب سنة ١٩٢١، تحول كتاب مسجد حادي بادي إلى مدرسة ابتدائية سميت (الهاشمية)، ومن الذين زاملهم عبد المجيد محمود في هذه المدرسة ضياء جعفر، الذي كان في نفس سنه، وقد أصبح وزيراً — مثله — في وزارات المواصلات والمالية والاقتصاد والاعمار، وتوفي بعد أشهر معدودة من تاريخ وفاته. ينظر كتابنا: ضياء جعفر، سيرة ومذكرات، ص ١٠.

الخارج لما أكملت تحصيلي ولما درست دراسة عالية، ولما تفتحت أمامي آفاق خدمت فيها الأمة خدمة صادقة سليمة لا تشوبها شائبة.

الجامعة الأمريكية في بيروت

ذهبت إلى وزارة المعارف وقابلت مدير المعارف العام السيد ساطع الحصري، وكنت قد واجهته من قبل ولم أشر إلى تلك المواجهة يوم مظاهرة النصولي، ولا أظنه يتذكر ذلك، ولكنني قد واجهته بعد ظهور نتائج البكلوريا، وبعد أن وجدت نفسي الأول بل من الأوائل الثلاث واجهته محتجاً بأن العلامات التي حصلت عليها ولاسيما في بعض الدروس وعلى الأخص درس المثلثات هي علامات ملعوب فيها. أو أن خطأ قد حصل بنقلها من الدفاتر الى السجل ولايمكن ان تكون هذه هي علاماتي وأنا الذي قد برزت في الدروس طوال الإمتحانات المختلفة، وأن سجل الأمتحانات ليشهد على تفوقي وأنا الأول في الصف. ولقد أخبرت السيد ساطع الحصري بما تم في أجوبتي في درس المثلثات، وكيف أني أجبت على بعض المسائل بشكليها الصحيح والخطأ، وأني قد نسيت أن أشطب على الخطأ عند تسليم الدفتر. كان نقاشاً شديداً وجدلاً عنيفاً قد دار بيني وبين السيد الحصري، وواضح أنه لم يتصور من قبل ان يسمع مثل هذا النقاش ولاسيما من تلميذ. وقيل أن الحصري قد أُعجِب بك ولكن بامتعاض. لم يفد النقاش مع الحصري ولم يوافق على إعادة النظر في دفاتر الأمتحانات ولم تغير مواجهته واقع الأمر شيئاً، وبقيت النتائج على ماهي عليه. ذهبت هذه المرة الى وزارة المعارف ودخلت على السيد الحصري فيها، وعندما رآني تحال مبتسماً أهذا أنت!؟ قلت نعم، قال: طيب أجلس وماذا تريد أن تدرس؟ قلت: الطب أو الحقوق،

قال: وكيف ذلك وليس من علاقة بين الدراستين، فالطب لا يدرسه إلاّ من يميل إليه؟ أجبته بما أقنعه برغبتي المُلِحّة في مواصلة الدراسة، فما كان منه الاّ أن وافق على إلحاقي بالبعثة، وهكذا كان.

شرعت بالإستعداد للسفر، وتوديع الأقارب والأصدقاء، وحينما أزِفَ موعد السفر، ذهبت الى حيث تقف السيارات الذاهبة الى الشام، وكان أهلي معي مودعين، ومن هناك ركبت السيارة التي ستقلني إلى تلك البلاد، ولم تمض إلاّ مدة قليلة حتى تحركت السيارة بمن عليها من المسافرين، وأنا من بينهم، لتسلك طريقا صحراوية شاقة، وكنت أخفي عيني وراء نظارة لتحجب عني أشعة الشمس. أما السيارة فهي من النوع الصغير المكشوف، ولم تكن صالوناً نستطيع ستر زجاج ابوابها. كانت الريح اللاهفة تدخل علينا بغبارها ورمالها وحرارتها تلفح وجوهنا وتيبس ريقنا، وكم نالنا من العطش وكان "جود" الماء الذي أخذناه ذا فائدة كبيرة، ولم نكن نشعر بشهية للأكل كبيرة.

وبينما نحن نطوي الفَلاة ونقطع الصحراء، واذا بالسيارة تتوقف لعطل يصيبها واذا بهذا العطل يستغرق تصليحه ساعات قضيناها تارة في السيارة قاعدين وأخرى خارجها نستظل بظلها، ولم تمر بنا سيارة أخرى. لا أتذكر تماماً كم من الوقت أمضيناه حتى وصلنا الى الشام، ولكن اتذكر اننا تركنا بغداد في الصباح الباكر وأننا نمنا ليلتين في الصحراء، ووصلنا الشام ظهراً في اليوم الثالث من السفرة حيث نمنا ليلة زائدة بسبب العَطَل. كانت الصحراء جميلة للغاية في الليل وكان الفرق هائلاً بين ليلها ونهارها. لقد تلطف الجو وطاب الهواء وتلألأت النجوم في زرقة السماء، وكنت أشعر ان النجوم فيها

تسطع واضحة وانها كبيرة، وكأنها قريبة منا، ولولا تلطف الجو في الليل لما استطعنا تحمل حرّ النهار وغباره.

وصلنا الشام، ولم تبهرني كثيراً في بادئ الأمر، ولكنها أعجبتني إذ تجولت فيها، وخرجت إلى (دُمّر)[115] ووقفت على مياهها وخضرتها، وما كنتُ أريد أن أبقى في الشام طويلاً فقد كانت بيروت مبتغاي. وبحسب ما أخبرنا به بعض طلاب البعثة الأولى والثانية، فإن سفرتي على طولها ومشقتها لم تكن لتقارن بما وجدوه عندما سافروا الى بيروت، إذ لم يكن طريق الصحراء معروفاً ولا مطروقاً، لذا فقد سافر هؤلاء بطريق البحر، حيث ذهبوا إلى البصرة ثم الخليج العربي ثم البحر العربي ثم كراجي، ثم البحر الأحمر ثم قناة السويس والبحر الأبيض ثم بيروت. ولا أدري كم تستغرق هذه السفرة، ولربما شهراً او أكثر. وقد أخبرني آخرون انهم سافروا في الصحراء على الجمال وان سفرتهم استغرقت نحواً من ٤٠ يوماً حتى وصلوا الشام. لقد كنا بالقياس الى هذا محظوظين إذ أن سفرتنا في السيارة لم تستغرق إلاّ يومين أو ثلاثة.

وصلت بيروت فبهرتني شوارعها المبلّطة وإن لم تكن واسعة، وابنيتها الضخمة وعماراتها الشاهقة، وبهرتني حركة الناس وكثرة الغادين والرائحين وكثرة السيارات. ولقد شاهدت (الترام) لأول مرة في حياتي، ثم أخذتني بيروت بمنظرها الجميل وهي ممددة على سطح الجبل، ثم بمنظر شوارعها وهي صاعدة نازلة مرتفعة ومنخفضة وقد تلتوي هنا وهناك بحسب ماتفرضه طبيعتها الجبلية. نزلت في (أوتيل اللِّنْبي) في شارع اللنبي حيث ينزل الطلبة العراقيون.

---

[115] بلدة في غوطة دمشق، وتعد من أجمل متنزهاتها.

ذهبت الى الجامعة وركبت (الترام) الموصل إليها لأول مرة ودخلتها، وأول ما بهرني فيها منظر شجرة السَرو الذي لم أكن رأيته في حياتي من قبل، كان منظر هذه الشجرة لي أخاذاً بالنسبة لي. لقد أعجبني شكلها المخروطي ونوع أوراقها الرفيعة وخضرتها الدكناء. ولم أتفرج على الجامعة وعلى ابنيتها ولم اتعرف بعد على موقعها بل كان كل ما يهمني أن أسأل عن العراقيين أين هم وأين أجدهم، وقد وصلت الجامعة قبل بداية الدراسة بنحو اسبوعين. سألت الادارة فقالت مَن مِن العراقيين تريد؟ قلت: لا على التعيين. قالت: إن بعضهم يصطاف في (ظُهور الشُّوَير). ذهبت الى هذا المصيف الجميل الذي هو عبارة عن حديقة غناء كبيرة فشعرت باختلاف الجو الهائل، لقد انتقلت من حرّ بغداد، بل من حر بيروت أيضاً، إلى جو آخرعليل بارد ارتحت فيه فلم يعد جسمي يتصبب عرقاً، لقد شعرت بنشوة وانتعاش، وبعد أن كان جسمي تعباناً منهوكاً فإذا بالحياة تعود اليه ويدب النشاط في كل مفصل من مفاصلي. نزلت في أحد الأوتيلات وسألت صاحبه أول ما سألت: اين أجد العراقيين؟ فقال لي أن بعضهم يصطاف في هذه الدار القريبة منا، وما هي إلاّ بضعة دقائق إلاّ وأحدهم صديقي كمال عارف[116] الذي أعرفه من المدرسة الثانوية يأتيني الى الأوتيل ولم يمهلني، بعد ان تصافحنا وقبّل أحد منا الأخر، إلاّ وأعاد غلق الشنطة التي لم أكد أفتحها لتبديل ملابسي، وقال: هيا! قلت: الى أين؟ قال: الى البيت؟ أوَهل يجوز أن تبقى وحدك في الأوتيل ونحن عندنا بيت؟ حَرَمْنا صاحب الأوتيل من زبون وذهبت مع صديقي إلى الدار، ولا أتذكر من كان يسكن معه، غير أن عددهم لم يتجاوز الإثنين أو الثلاثة. شاركتهم مسكنهم ومأكلهم ودفعت ما ترتب علي

---

[116] طبيب، تخصص بالطب الباطني.

من نفقات عن المدة التي بقيت فيها معهم. لقد أنِستُ بهذه الرِّفقة وارتحت إليها، وكنا كثيراً ما نتعاون على تحضير بعض "الأكلات العراقية"، ونتعاون على ادارة البيت وتنظيفه. لقد تلذذت ببعض أصناف الطعام اللبناني، وأقبلت بشهية مفتوحة على اللبن والجبن والخبز بنوعيه ولاسيما (الرِّقاق) منه. وكان يعجبني أن أرُشّ عليه قليلاً من الماء لِيَلين. لا أتذكر كم أمضينا من الوقت سوية وقد تكون المدة نحواً من أسبوعين، كانت تلك الأيام متعة فائقة لا أزال اذكرها ولاتزال تبعث البهجة في قلبي. كان كل شيء قد ساعد على أن أنعم بهذه النعمة: الجو الجميل والمناظر الجبلية الخلابة والغابات الصغيرة المتناثرة والرفقة الحسنة، ثم شعوري بأنني أصطاف لأول مرة وفي جبل لبنان الأشَم. لقد بقيت ذكريات مصيف ظهور الشُّوَير عزيزة عليّ، ولقد وفيت هذا الذكريات حقَّها فيما بعد، حين اخترت هذا المصيف دون غيره بعد نحو ١٢ سنة لقضاء شهر العسل فيه، فكان هذا المصيف مركزاً لأبهج أيام حياتي وأسعدها.

رجعتُ إلى بيروت والجامعة على وشك أن تستقبل العام الدراسي الجديد، والحركة قائمة على قدمٍ وساق لتسجيل الطلاب الجُدد الذين يَقدِمون إليها من مختلف الأقطار، ولاسيما البلاد العربية وإيران. سُجِّلت في الصف الأول العلمي (الفرِشمَن) من الجامعة، وكان المتخرج فيه آنذاك يمنح شهادة، وقد منحت واحدة منها وهي موجودة لدي الآن، ثم أقلعت الجامعة عن هذه العادة فيما بعد. وكنت قد أخذت من الدروس: الكيمياء والتاريخ والعربي والإنكليزي والرسم الميكانيكي.

كان علينا أن نسكن في القسم الداخلي من الجامعة، فسكنت لبضعة أيام في أحد الأقسام الداخلية في ردهة كبيرة من الردهات مع عدد غير قليل من

الطلاب قد يبلغ العشرين أو أكثر، ثم رأيت أنه ليس من السهل علي أن أبقى في هذه الردهة فاتفقت مع أحد العراقيين وهو السيد حميد جواد على استئجار غرفة في بناية (فِيسْك) بعد أن ندفع ايجاراً إضافياً عنها.

قضيت هناك سنة دراسية كاملة، وبالرغم من ذكرياتي المريرة فيها فإنها بقيت عزيزة عليّ، أقوم بزيارتها كلما ذهبت الى بيروت. وكان السيد حميد نعم الرفيق الهاديء والصديق الذي لا يتدخل بشؤون صديقه وكان بطبيعته منكمشاً، منطوياً على نفسه، ولكنه لم يكن ثقيلاً مزعجاً. لقد نظّمنا حياتنا في الغرفة الواحدة تنظيماً مفيداً لم يؤد الى حدوث احتكاك بيننا. كنا مرةً قد نزلنا إلى المدينة وكان معي على ما اتذكر السيد صالح، وهو ابن صفي وقد تخرجنا سوياً في الثانوية، وذهبنا الى السينما، ثم تأخرنا قليلاً فقفلنا راجعين مسرعين دون أن نأكل، ودخلنا باب الجامعة وهي على وشك أن تُغلق، ولم يكن الدخول سهلاً، و(تصايحنا) وتدافعنا مع الحارس قليلاً مع الوعود القاطعة بأننا سوف لا نتأخر. وإذ كان لابد لنا من لقمة تسد جوعنا، فقد ذهبنا الى حانوت الجامعة وطلبنا نوعاً من السندويج أكلناه وكان لذيذاً، وما أن رجعت الى غرفتي وما كدت استلقي على سريري واذا بالباب تُطرق طرقاً شديداً، قلت: من هذا؟ قال الطارق: أنا زكي! أفتح الباب. ففتحت الباب، فدخل زكي عصبياً شارد العينين، قال: ما عندك من الخبر؟ قلت ما الخبر؟ قال: أتدري ماذا أكلنا؟ قلت: لا والله ولكنه كان شيئاً لذيذاً. قال: إنه لحم خنزير!! وكان ينتظر مني أن أقفز من سريري وأصيح بأعلى صوتي، ولكني أجبته ببرودة أثارته وزادت في عصبيته: ولكن ما ذنبنا ونحن لاندري ما أكلنا؟ وإن الله سيغفر لنا، وإنما الأعمال بالنيّات. كان السيد زكي خريج الشريعة في الأعظمية، وكان أكثر مني إطلاعاً على مثل هذه القضايا

واتصالاً بها فلم يأخذ القضية مثلما أخذتها ولم تفد كلماتي معه كثيراً، إذ لم يهدأ بهذا، بل خرج غاضباً بذهول مثلما دخل تقريباً، ولا أظن أن السيد زكي دخل مرّة أخرى حانوت الجامعة وأكل منه.

متاعب الغربة

كانت السنة التي قضيتها في بيروت سنة لايمكن أن أنساها في حياتي، إذ كانت شديدة قاسية لم أذق فيها غير المُر، فلم أحبها ولم تحبني. لقد شكوت من بيروت وشكت مني، وضقت بها ذُرعاً حيث لم أرتح بها مطلقاً، بل كان كل شيء فيها يزعجني أو يكاد. كنت فيها أشعر بالغربة، فهذه أول مرة في حياتي أسافر فيها وأترك بغداد، وأول مرة أعيش فيها بعيداً عن أهلي وأصدقائي. لقد تغير الأكل فإن أكل الكافيتريا لا يُطاق حيث لا تقدم هذه الكافيتريا إلاّ بعض الاكل اللبناني البسيط الذي لم أتذوقه ولم استطعمه، واعتقد أن عدم تناولي الطعام بالقدر الكافي والنوعية اللازمة قد أثّر في صحتي تأثيراً سيئاً للغاية فكنت أشعر بالمرض، بل مرضت بالفعل، ولقد أثرَّ هذا المرض على حيويتي ونشاطي، وكنت أشعر بأنني أفقد بسرعة كثيراً من هذه الحيوية وذاك النشاط حتى صرت لا أتمكن من السهر بل لابد لي من النوم على أثر غروب الشمس. وكنت أشعر في بعض الأحيان أنني نائم وانا لا أزال آكل طعام العشاء وقت الغروب، وكم فزعت من هذه الظاهرة حتى خطر ببالي انني أصبت بداء النوم الذي انتشر في بعض مناطق أفريقيا. لقد ذهبت إلى طبيب الجامعة استفسر منه واستنجد به ففحصني وفحص عيني، وقال: إن السبب في كسلك ونومك المبكر هو عينك فانها تحتاج الى عُوَينات. وقد لبستُ العوينات منذ ذلك الحين ولم أكن قد لبستها من قبل، ولم أكن أتصور

انني سألبسها. كنت معتزاً بقوتي وقوة عيني حتى أني ضحكت على زوج أخي عندما حذَّرني وأنا أقرأ على ضوء القمر في إحدى ليالي الصيف، واستخففت بكلامه عندما قال: إن عينك ستضعف إذا ما قرأتَ على ضوءٍ ضعيف، وانك ستضطر إلى استعمال العُوينات بصورة مبكرة. لقد تحقَّق قوله تماماً وطرأ عليَّ الشعور بالضعف والخمول والنوم المبكر.

لم يكن سوء التغذية وحده هو المسؤول على ما اعتقد عن هذه الظاهرة، وانما لم أكن آخذ من النوم كفايتي بالرغم من نومي المبكر بسبب من رطوبة المناخ. كنت أحسّ بهذه الرطوبة تكاد تخنقني، ثم كان هنالك عامل آخر أهم من عامل الرطوبة ينغِّص عليّ نومي ويقلق راحتي هو البَق، ولم أكن قد شاهدت في حياتي بَقاً شرساً قوياً عنوداً مثل هذا الذي تعرفت عليه في الجامعة، والذي كان يزورني دون انقطاع في غرفتي. ولم أكن أدري كيف أكافحه وكيف أصدّه، وكنت أسدُّ الشبابيك والأبواب لأحول دون دخوله ولكن لا أعرف كيف ينفذ من الشبابيك والأبواب، ولعله كان ينفذ حتى من الجدار. لم أستطع ان أكافحه بأي أسلوب آخر إذ لم نكن نعرف (الفِلِت) أو (الإمْشي) بعدُ من مبيدات البَق، ولذا فإن هذا الزائر النحس الشرير كان يزورني في أي وقت يشاء، بل كان يزورني في الليل باستمرار ودون إنقطاع فيهجم عليّ من كل جانب ويعضني ويلدغني في أية نقطة يشاء. كان يزعجني ويؤلمني ويطيِّر النوم من جفوني، وإذا ما استيقظت في الصباح أشعر كأنني مصاب بِخَدَر فقد حُرمت النوم من جهة، وبَلَّلت الرطوبة جسمي من جهة أخرى، فسوء التغذية والرطوبة والبق تآمرت علي كلها لتخمد فيَّ نشاطي أو تَحِد من حيويتي.

وحينما كنت أذهب إلي السينما مع زملائي، كنت أوكل إلى بعضهم واجب إيقاظي كلما رآني نائماً. وقد قال لي أحدهم مرة أنه لم يشاهد الفلم مثلي، قلت: لماذا؟ قال: لأنني كنت مشغولاً بك طوال الوقت فلم يكن لدي من الوقت ما أتفرج به على الشاشة، كنت دائماً مشغولاً بقَرصِك وتنبيهك وإيقاظك ثم التحدث إليك، فإذا ما استيقظتَ عدتَ إلى النوم ثانية وأنت لم تكن بعد قد فتحت عينيك!! أردتُ أن أنفي عن فكري وساوسه، وأفلتُ من قيوده، فاتخذت لنفسي عادة وهي أن أذهب قبل العشاء إلى الميدان الرياضي الذي فُتح حديثاً بالقرب من ساحل البحر، فأركض فيه، واستنشق هواء البحر عميقاً إلى أن اشعر أنني تريَّضتُ وانتعشت، ثم أرجع لتناول العشاء، ولكني ما أكاد أنتهي منه إلاّ وقد غِبتُ في نوم عميق.

لا أدري كيف كنت أجد الوقت للدراسة، ولكنني درست وعاركت اللغة وكافحت النوم وناضلت البق وتحديت الرطوبة وصبرت وثابرت حتى صرت أحس بأنني أتقدم في اللغة، وبدأت أفهم المحاضر بعض الفهم وأدرك معاني الكتاب بعض الإدراك. وفي أول امتحان فصلي رسبت في اللغة الإنكليزية وبت على وشك الرسوب في علم النبات، ولكني نجحت في بقية الدروس، وهي: الكيمياء والتاريخ واللغة العربية والرسم الميكانيكي والرياضة.

وكانت الرياضة درسا نظرياً وعملياً معاً، وكان من يرسب فيها مع درس آخر يعد راسباً في تلك السنة. وعلى أية حال فقد داومت على الكفاح واستمرت الامتحانات الأسبوعية والشهرية والفصلية، واستمر النجاح في كل درس من هذه الدروس إلاّ اللغة الإنكليزية فقد كنت أحصل فيها على علامة الرسوب في كل امتحان من هذه الامتحانات اليومية أو الأسبوعية أو الشهرية أو الفصلية. وكان مدرس اللغة أمريكياً اسمه على ما أتذكر (تومسين) فيه عَرَج

في رِجله اليمنى، وكنت أشعر أنه وإن كان يرسبني في الامتحان إلاّ أنه كان يعطف علي ويرعاني، وكان يحملني من الوظائف والواجبات اكثر مما يحمله لغيري من الطلاب، ولم أكن أرتح لهذه الوظائف والواجبات الزائدات فقد كنت أخاف هذا الرسوب المتلاحق المتواصل في هذا الدرس المهم.

كانت في جامعة بيروت عدة جمعيات ثقافية واجتماعية، ولكنني لم أساهم في أكثرها بسبب من وضعي الذي قدمته في الجامعة، إلاّ أني انتميت على ما أتذكر الى الجمعية الثقافية. ثم كنت عضوا طبيعياً في الجمعية العراقية، وهي الجمعية التي تضم الطلاب العراقيين الموجودين في الجامعة في الصف المنتهي في المدرسة الامريكية الاعدادية. وإني لأتذكر اني حضرت اجتماعات هذه الجمعية التي كانت تناقش فيها مشاكل الطلاب وما يتعلق بحياتهم الدراسية، وما شابه ذلك من الأمور، كما انني ناقشت لأول مرة شاباً يكاد يكون من عمري هو السيد خليل كنَّه[١١٧]، وكانت المناقشة اعتيادية، ولم تكن حادة، غير انها كانت بداية لعلاقة طويلة، خضعت لكثير من العوامل والمؤثرات، وكانت الصلة تزداد قوة تارة، وتضعف مرات ومرات.

كان من تقاليد الجامعة أنها تطلب من الطلاب الاختيار: أما الذهاب الى الكنيسة للصلاة وسماع المواعظ، أو لحضور اجتماعات خصصت للاستماع الى محاضرات يلقيها كبار الاساتذة أو المشهورون من رجال العلم والادب والسياسة الذين يزورون الجامعة في بعض المناسبات. ولقد اخترت الحضور الى

[١١٧] ولد في مدينة الفلوجة سنة١٩١٠ ودرس الثانوية في الجامعة الأمريكية في بيروت، ثم دخل كلية الحقوق في بغداد، وتخرج فيها سنة ١٩٣٢،واعتقل إثر فشل انتفاضة مايس سنة ١٩٤١، وشارك في تأسيس حزب الاستقلال،ثم عين وزيرا للمعارف فوزيرا للمالية، وغادر العراق بعد ثورة تموز١٩٥٨، توفي سنة١٩٩٥.

تلك الاجتماعات، فإن مثل هذه الاجتماعات كانت مفيدة، لأنها تزيد في اتساع أفق الطالب وتُقرِّبه من أحدث المعلومات وأغزرها. ولا أظن أن الجامعة تُلام إذا ما طلبت من بعض الطلاب الذهاب الى الكنيسة فإن الطلب اختياري ولا يُلزَم أي طالب بالأخذ به. ولم اشعر أن هنالك أي ضغط بأي شكل كان للتأثير علينا في الاختيار، وأنا لا اريد أن ادافع عن الجامعة فهي جامعة تبشيرية وقد تأسست على هذا الأساس، بيد ان هذا التبشير لم يكن يأخذ شكلاً سافراً في أكثر الاحيان، بل كان يلبس لَبُوساً آخر قد يكون ثخيناً في بعضها وقد يكون شفافاً في بعضها الآخر، غير أن الجامعة تطورت تغيرت على مر السنين، وأنها مهما قيل عنها كانت ولا تزال مركزاً رئيسياً من مراكز الاشعاع الفكري والثقافي في الشرق العربي.

وكنت أتريض وأذهب إلى المحل المُعد لذلك، كما كنت اتمرن على الملاكمة، وقد عرفت بأنني ألاكم جيداً فلذلك لم يكن يتلاكم أحد معي من الاخوان العراقيين. وكنتُ أشاهد بعضهم يتلاكم وكنت أُحَكِّم بينهم، وقد تلاكم مرة السيد زكي صالح[118] والسيد هاشم العطار وكنت الحكم بينهما، فالتحم الصديقان وضرب كل منهما الآخر ضربا قويا مبرحا، وسرعان ما تطورت الملاكمة الى "عركة" او ما يشبهها، مما اضطرني - بصفتي حَكَماً - الى إيقاف المعركة ولكن ذلك لم يجد نفعاً.

وكنا نستحم في الشتاء مرة أو مرتين في الأسبوع، ولم يكن الماء الحار متوفراً في الجامعة آنذاك بحيث نستطيع أن نستحم من الدوش رأساً. بل كان

---

[118] هو المؤرخ العراقي النابه الدكتور (فيما بعد)، ولد سنة ١٩٠٨، وتخرج في الجامعة الأمريكية ببيروت سنة ١٩٣٠، ثم التحق بالبعثة العراقية الدراسة إلى جامعة كولومبيا في الولايات المتحدة حيث نال الماجستير سنة ١٩٣٩، والدكتوراه سنة ١٩٤١، وعاد ليعين أستاذا للتاريخ الحديث في دار المعلمين العالية ثم في جامعة بغداد، توفي سنة ١٩٨٦.

لابد من تسخين الماء في خزان ثم نستحم على وجبات. وكان كل منا يحمل معه "تَنَكَه" أي صفيحة يملأها ماءً ساخناً ثم ينتقل الى حمام الغسل بالقرب من محل الخزان. وكانت تجربة من التجارب ومتعة من المتع إذ يسود الهرج والمرج البناية برمتها، وتختلط اصوات الطلاب بعضها ببعض، كما تلتحم اصوات الطاسات والتَنَكات، ولم يخلو الأمر كله من تسلية نتسلى بها.

ولعل من الأشياء الحلوة التي مازالت عالقة في ذهني هو السباحة في البحر، وكنا حين ذهبنا الى شاطئ البحر لأول مرة، لم نكن نعرف ماء البحر من قبل. كان الماء مالحاً لم نستذوقه في بادئ الأمر، ولكن أدهشني موج البحر كيف كان يتلاطم وكيف يعلو ويهبط، وكيف كان يتكسر على الصخور ويتناثر من حولها. وكنت أرى الموج يتعاظم ويتلاطم ويندفع نحو الشاطئ بقوة ثم يتراجع مدحورا محسوراً. وربما وقفت على بعض الصخور المرتفعة لأرى البحر من خلال الهوة العميقة التي تفصل بينه وبين أعالي الصخور، وكثيرا ما جال بخاطري خيال فزعت منه، اذ تصورت لو أن شخصاً سقط من أعالي هذه الصخور فماذا يكون مصيره؟

كنت معتاداً على السباحة في نهر دجلة وكنت أُعَد من السباحين الجيدين، وكثيراً ما عبرت النهر سباحة، وغالباً ما سبحت ضد تيار الماء مسافات، غير أن السباحة في البحر تختلف عنها في النهر. فكنت أحذره على غير ما كنت عليه في النهر. وكنت اشعر انني في البحر أخف مني في النهر، وأنني أطفو على سطح الماء بسهولة وأسبح وأشق تياره بيُسر. كنا زمرة من الطلاب نلهو ونلعب لوحدنا ولم يكن بيننا أحد من الجنس اللطيف إذ لم تكن بيروت بعد قد عرفت هذا النوع من الحياة أو قبلت به.

تراسلت وأنا في بيروت مع بعض الأصدقاء ولاسيما مع محمد حسن سلمان الذي تخرج معي في نفس السنة من القسم العلمي وذهب في البعثة الى انكلترا لدراسة الهندسة[119]، او مع أحمد محمد الذي اضاف فيما بعد اسم "سهيل" الى اسم ابيه، فصار يعرف باسم أحمد محمد سهيل، أو بأحمد سهيل[120]. لقد كان أحمد صديقي وتخرج معنا في السنة نفسها ولكنه لم يكن من المتقدمين فلم ترسله المعارف في البعثة على نفقتها، فتعين معلماً في إحدى المدارس الابتدائية، وأمضى سنة فيها، ثم دخل الكلية الطبية وتخرج منها، ثم ذهب الى إنكلترا واختص بأمراض العيون، وهو اليوم طبيب عيون اختصاصي ناجح فقد وفق في مهنته وجمع ثروة طيبة منها، وهو إذ إمتهن مهنة حرة فلا يحتاج الى وظيفة الحكومة. وكنت أشعر من خلال كتبه انه غير مرتاح. وما أن مرّت مدة غير طويلة حتى أدركت أنه كان متضايقاً إذ لم تعجبه إنكلترا ولا مناخها ولا أكلها، وكان قَلِقاً قد استصعب اللغة والدروس. ثم كتب لي أنه يشعر بمرض، ثم كتب أنه مريض مرضاً شديداً، وأنه طريح الفراش، وأن الألم موجود في ظهره، وانه لا يكاد يتحرك من شدة المرض ولا يستطيع أن ينام من الآلام المبرحة. ثم انقطعت الرسائل وإذا برسالة صغيرة موقعة من محمد حسن مصدرها بيروت تنبؤني أنه في أحد اوتيلاتها طريح الفراش ويريد مواجهتي. ولكن كيف أخرج من الكلية ونحن لسنا في نهاية

---

[119] ذكر محمد حسن سلمان نفسه في ذكريات نشرها محمد حسين الزبيدي (جريدة الاتحاد، بغداد، العدد ٢٤ في ١ حزيران ١٩٨٦) انه دخل أولاً كلية الحقوق، ثم تركها وانتسب إلى الكلية الطبية، وأرسل إلى إنكلترا فتخصص هناك في الأمراض السارية والصحة المدرسية، وعاد إلى وطنه حيث كلف بتأليف (مديرية الصحة المدرسية) في وزارة المعارف، وسيتناول المؤلف بعض أخباره فيما يأتي من هذه المذكرات.

[120] تقدم التعريف به.

الأسبوع. حاولت كل المحاولات لاستحصال اذن بالخروج حتى حصلت عليه. ولما واجهت محمد حسن وجدته مريضا طريح الفراش، وكان منظره يعصر النفس ويدمي القلب. قال: مجيد اني أكاد اموت، وإن الأطباء نصحوني أن أرجع الى بلادي. إن جو انكلترا لا يلائمني ولذا فقد كتبت الى أهلي، ولكن والدي لم يوافق على الرجوع. لقد رجعت وأنا بأشد الحاجة إلى الفلوس، فأعطني ما عندك. قلت: هي لك. وأتذكر انني أعطيته كل ماعندي وما أملك. قال: سأعيدها لك عند وصولي بغداد، قلت: لا تقلق إذ ليس ثمة فرق بين فلوسك وفلوسي، واني أحمد الله على أني أملك شيئاً، واني أستطيع ان أؤدي هذه الخدمة. لقد تألمت كثيرا لمرضه وتركه البعثة وقد كان قبل بضعة اسابيع محسوداً من كثير من زملائه ورفاقه. بيد أنه شفي في بغداد ودخل كلية الطب وتخرج منها بتفوق وامتياز بنفس السنة التي تخرج فيها أحمد. لقد ضاعت سنة في المرض وفي كلية الحقوق، كما أن أحمد قضى سنة مدرساً في إحدى المدارس الابتدائية، وعندما أنهيت دراستي في أمريكا وحصلت على شهادة استاذ علوم، ورجعت إلى العراق في أوائل سنة ١٩٣٢، كان كل من محمد حسن وأحمد في الصف المنتهي من الكلية الطبية.

وكم أقام أحمد الدنيا واقعدها عندما قررت وزارة المعارف ارسال بعثتها، ولا سيما ارسال صديقيه انا ومحمد حسن سلمان، وكم لعن الظروف ولعن الحظ ولعن كل شيء لأن الفرصة لم توافقه، ولانه لم يذهب الى الخارج. ولكن أحمد لم يدر ما كان يخبؤه له القدر، إذ لم يعلم أن حظه الذي ندبه كان أحسن بكثير من حظوظ الذين سافروا في البعثة، ولم يدر أن التفوق المدرسي في حينه، وهو السبب في ضم صاحبيه الى البعثة، كان نعمة في الظاهر ولكنه جلب الوبال فيما بعد على أصحابه أو على بعضهم في الاقل. فما الذي

حصلت عليه أنا وقد كنت متفوقاً في دراستي الابتدائية، ومتفوقاً في دراستي الثانوية، وفي امتحان البكلوريا، ومتفوقاً طوال دراستي في الجامعة، ومكافحاً ومناضلاً ومتفوقاً طوال حياتي العملية، حتى استطعت أن أشق طريقي لوحدي بخُلقي وعلمي وحبي لهذه البلاد حتى اصبحت وزيراً، ولكن ما الذي حصلت عليه بعد هذا كله؟ لم أحصل الاّ على الحسرة والندم. ولم أجد إلاّ الضيق والحرمان[١٢١].

في دمشق

كان امتحان عيد الفصح امتحاناً حاسماً في حياة الطلاب، فأما الاستمرار حتى نهاية السنة وأما الطرد من الكلية، فالطالب يستمر إذا نجح ويُطرد إذا تكرر رسوبه في هذا الامتحان بعد رسوبه في امتحان عيد الميلاد. لقد أدّينا الامتحان ولم ننتظر النتائج، بل اتفق قسم منا على الذهاب إلى دمشق وقضاء العطلة هناك ومدتها نحو عشرة أيام. وذهبنا الى دمشق، زمرة من العراقيين لا أتذكرهم كلهم، غير أنني اتذكر البعض منهم وهم عبد الرزاق الظاهر[١٢٢] وقاسم صبري[١٢٣] وعبد الجبار[١٢٤] وقاسم بازركان[١٢٥] وزكي صالح[١٢٦] وآخرون، وكنا

---

121 كتب هذا وهو رهين بيته، بعيد عن أصدقائه، منقطع عن نشاطاته الاجتماعية، سنة١٩٦١.

122 تقدم التعريف به.

123 شارك قاسم صبري صاحب المذكرات في معظم نشاطه السياسي والثقافي، فكان عضواً في نادي البعث، ونادي المثنى، ونادي القلم، وتوفي في أوائل السبعينات.

124 الراجح أنه جبار عمران الذي ستأتي الإشارة إليه بعد قليل.

١٢٥ رائد جراحة الأذن والحنجرة في العراق، ولد سنة ١٩٠٩و تخرج في الكلية الطبية سنة ١٩٣٤، وتخصص في بريطانيا، وعاد ليعمل أستاذا في الكلية الطبية ورئيسا لقسم الأنف والأذن والحنجرة فيها، وفي عدد من المؤسسات الصحية، وتوفي سنة ١٩٧٧.

126 تقدم التعريف به.

نمرح ونلهو ونتجول في ميادينها ونأكل في مختلف مطاعمها ولا سيما مطعم الحميدية في سوق الحميدية. كانت فرصة لنا ان نأكل ما شاء لنا الأكل ونُسرف فيه ما شاء لنا الاسراف فقد كنا نعاني جوعاً عتيقاً حملناه معنا من أيامنا ولياليناا التي أكلنا فيها في كافتريا الجامعة، ذلك الأكل الذي لا لون له ولا طعم ولا رائحة ! !

تجولنا في بساتين دمشق الغناء المشهورة، ومتَّعنا النظر في مياهها الغزيرة وأنهرها السبعة. إن هذه الأنهر وإن كانت صغيرة وضيقة ولكنها عديدة وتحمل مياها غزيرة. ولقد رأينا بَرَدَى الذي سمعنا عنه الشيء الكثير، وإن كان قد خيَّب ظننا بالقياس إلى نهر دجلة، فهو نهر ضيق لا يُعَد شيئاً بالنسبة إلى ما اعتدنا على رؤياه في نهر دجلة من مياه غزيرة متدفقة ومن اتساع بين شاطئيه يبهر العيون ويستهوى الأفئدة. إن بردى لا يمكن ان يعد إلاَ ساقية صغيرة من سواقي دجلة الكثيرة التي تتفرع من جانبيه منسابة في أراضيه الخصبة.

تجولنا في مقاهي دمشق، بل غشينا بعض أنديتها الليلية حيث محلات اللهو والرقص فيها، منها – على ما أذكر– ملهى يسمى ملهى العباسية رأينا فيه الرقص الشرقي والغربي. كانت هذه اول مرة أرتاد فيها ملهى من الملاهي، ولم أكن قد شاهدت من قبل مثل هذه الحياة. وانني لأتذكَر أننا عندما تخرجنا من الثانوية، وأخذنا نستعد للسفر الى الخارج، أردنا ان نبرهن باننا قد اجتزنا دور (الصغار)، وأننا أصبحنا شباباً بل رجالاً، فنتعرف على حياة الليل في بغداد، ونؤم بعض ملاهيها قبل أن نتركها. ذهبت أنا ومحمد حسن وأحمد[١٢٧] وخالد أمين الى ملهى من الملاهي في محلة الميدان التي كانت

---

[١٢٧] يريد أحمد سهيل.

تقع فيها كل الملاهي آنذاك. فدخلنا الملهى ودفعنا (الدخولية) وما أن أخذنا مقاعدنا حتى توجه إلينا شرطيان وقالا: أفندية ممنوع. قلنا: ولماذا؟ قال: لأنكم صغار. قلنا: ولكننا كلنا قد تخرجنا من الثانوية ونحن على وشك أن نسافر إلى الخارج لوحدنا ومع هذا فنحن لانزال في عيونكما صغار. قالا: تفضلوا ولا يمكنكم الجلوس هنا. خرجنا وقررنا أن نذهب إلى ملهى آخر تغني فيه المغنية المعروفة آنذاك بجليلة العراقية[١٢٨]، فذهبنا الى الملهى وجلسنا فيه بعض الوقت واستمعنا إلى أغنية أو أغنيتين، وإذا بنا نحس أن الشرطة تتوجه نحونا. فقلنا: هذه المرة أيضاً!، ولم نكد ننهي كلامنا حتى أومئ إلينا بالخروج، وقلنا: لا نخرج وقد دفعنا الفلوس، ونحن كبار ولسنا صغار. قال أحدهم وقد أومأ إلى اثنين منا وهما خالد أمين ومحمد حسن: يمكنكما البقاء فأنتما كبار، أما أنتما - وقد أشار إليّ وإلى أحمد - فلابد من خروجكما لأنكما صغار. لقد احتججنا كلنا احتجاجا شديدا لفت نظر كثير من الرواد وقلنا لا نخرج. قال لا يمكن لهذين الاثنين البقاء إلاّ برخصة خاصة من مأمور المركز. قلنا: وأين هو؟ قال: هو هنا في المركز قريب منا. فأردنا أن نثأر لكرامتنا وأردنا أن نثبت شخصيتنا فذهبنا مع الشرطي الى المركز لاستحصال الاذن ولكننا رجعنا بخُفَّي حنين، إذ لم يوافق مأمور المركز إلاّ على اثنين فقط هما محمد حسن وخالد أمين. وكثيراً ما بقينا نتندَّر بهذه النادرة، ونأتي بها على أنها الدليل القاطع والبرهان الساطع على أن محمد حسن وخالد أمين أكبر مني ومن أحمد سناً.

---

[128] مغنية، انحدرت من الموصل إلى بغداد، حيث عملت في مقهى (زكي بن عزاوي) سنة ١٩٢١، وطارت شهرتها في الغناء حتى اعتزلته سنة ١٩٣٢، وسجلت لها شركات تسجيل الأغاني بعض الأسطوانات.

العودة إلى بيروت

رجعنا الى بيروت لِنَجد أسماء الطلبة الناجحين والراسبين قد عُلِّقت على مبنى الجامعة، وظهر أني مُكمِل بدرس واحد هو الإنكليزية، بينما كانت علاماتي ببقية الدروس حسنة. وعندما أرسلت النتائج الى اهلي استقبلوها بأحسن مما استقبلوا به نتائج امتحانات عيد الميلاد الذي كنت راسباً فيها في اللغة الإنكليزية وعلى وشك الرسوب في النبات، وكان ذلك قد اقلق أهلي قلقا شديداً وحملهم على الكتابة اليَّ كتباً عدة. لقد رسب بعض الاخوان وتقرر طردهم بالفعل من الجامعة فجمعوا حقائبهم، فمنهم من رجع الى بغداد، ومنهم من ذهب الى الشام لاكمال الدراسة، ومنهم من سافر إلى اوروبا. وكانت الشام على ما أتذكر من حصة قاسم البازركان وقاسم حرب، وأوروبا من حصة جبار عمران، وبغداد من حصة عبد الرزاق الظاهر وآخرين لا أتذكرهم. وعلى أية حال رجع عبد الرزاق الظاهر إلى بغداد وبدأ بهجوم عنيف في المقالات التي نشرها في إحدى الصحف العراقية على الجامعة وعلى أهدافها التبشيرية وتعاملها مع الطلاب المسلمين وضعف مستواها العلمي وما شابه ذلك من الأمور. وفي الواقع فإن عبد الرزاق لم يختلف في موقفه هذا عن كثيرين غيره في مثل هذا الموقف. ألم ينخذل عبد الرزاق ويندحر؟ الم يرسب في الامتحانات ويفشل في حياته الدراسية؟ فمن هو الملوم؟ هل يقع اللوم عليه ام على الجامعة. ومَن مِن الناس إلاّ القليل من يعترف بفشله ويحمل نفسه تبعته؟ إن الانسان لا يريد بفطرته وغريزته أن يعزي الفشل إلى نفسه ويعترف بتقصيره، وإنما يحاول ان يختلق المبررات ويفتعل الأعذار لكي يرفع عن كاهله المسؤولية وعبء التقصير.

كان الامتحان السنوي النهائي على الأبواب، وكان آخر مرحلة من مراحل حياتي في هذه الجامعة، ولم يكن بعده إلاّ السفر الى جامعة كالفورنيا لاتمام دراستي. وكانت وطأة المرض قد اشتدت علي كلما اقتربت من الامتحان، ولم تكن صحتي قد تحسنت كثيراً، وإذا ما شفيت بعض الوقت فقد كنت أشعر بأنني عليل اكثر الوقت إذ أشكو الضعف في جسمي وأشكو النوم المبكر، وبقيت في معركة عنيفة مع رطوبة الجو والبق. وعلى الرغم من كُرهي للرطوبة قد كنت اتمتع بمنظر بيروت وقت المطر في الشتاء، فهي تمطر بشدة يختلف مطرها في شدته وسرعته وكبر حجمه عن مطر بغداد. ولكم كان يعجبني أن أشاهد السماء وقد تلبدت بالغيوم حتى تبدو في بعض الأحيان كأنها جبال داكنة اضطجع بعضها فوق بعض. وكم كان يعجبني في بعض الأحيان ويفزعني في أحيان أخرى أن أستمع الى هزيم الرعد ودَوِيِّه وإلى سَنا البرق الخاطف ولمعانه. وكم كان يعجبني أن أرى المطر الغزير الوافر يهطل مدراراً كأنَّ قِرَباً فُتِحت في السماء لتغسل البيوت والعمارات والشوارع، وهل تجد منظراً أبهى من منظر المطر وهو يتساقط على رؤوس الجبال وعلى الأخص على رأس جبل (صِنّين) الذي تكسوه حلة بيضاء ساطعة من الثلج طوال الشتاء كله. وإذا أمطرت في بيروت فسرعان ما تنقشع الغيوم وتتبدد الجبال الدكناء وتسطع الشمس ثانية.

لقد قَرُب الامتحان النهائي، ولابد لي من خوض المعركة، ولا يمكنني بالرغم من مرضي تأجيله أو تأجيل بعض الدروس حتى امتحانات الاكمال فهذه الامتحانات لا تجري إلاّ في ايلول. وأين أنا من ايلول والجامعة في كالفورنيا تفتح في ١٦ آب. لقد خضت معركة الامتحانات وأنا مريض، ونصحني طبيب الجامعة كما نصحني كثير من أصدقائي أن لا أدخل

المعترك، فصِحَّتي هي أثمن شيء، إلاّ اني خضت المعركة وكثيراً ما كنت استند على بعض رفاقي في مشيتي حتى قاعة الامتحان إذ لم أكن أقوى على السير بمفردي، وكنت أشعر انني اؤدي الامتحان بصورة جيدة، وأن الباري عز وجل قد ألهمني القوة والعزم بالرغم من هزال جسمي ومرضي. وأخيرا انهيت معركة الامتحانات بعد أن كِدت أنتهي أنا، ثم مرَّت علينا فترة ننتظر فيها نتائج الامتحان من أشق الفترات على النفس وأصعبها وأقساها على القلب.

وبينما كنت أسير في ساحة الجامعة واذا بصوت يناديني باللغة الإنكليزية: مستر محمود، فالتفت الى جهة الصوت، وإذا بأستاذ اللغة الإنكليزية المستر تومسن يعرج بمشيته وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة حلوة رقيقة، وهو يقول: لقد نجحت يا مستر محمود، لقد نجحت وانت تستحق هذا النجاح وإنك لجدير به. لم أتمالك نفسي من شدة الفرح، ولا أدري كيف أصف شعوري في تلك اللحظة فقد كانت من أسعد اللحظات وأشدها فرحاً في حياتي. اقبلت عليه وصافحته بشدة وبسرعة، وقلت له: أشكرك، أشكرك. قال: أتدري إنك كنت تستحق النجاح حتى في بعض امتحانات ما قبل الامتحان النهائي ولكني عمدت على أن لا أنجِّحك وعمدت إلى أن أُتعبك في الواجبات، وكنت أراقبك عن كثب وانت تسعى في تحضير الواجبات وتجتهد في تهيئة الدرس، لقد اعجبني فيك حرصك عليها مثابرتك على سعيك واجتهادك.

أُعلِنت النتائج وكانت حسنة بالنسبة لي إذ كنت ناجحاً، وكان معدلي عالياً، وكدت أحصل على معدل (شرف) لولا درس اللغة الإنكليزية. ولا أتذكر تماماً كم حصلت في درس الرياضة البدنية التي رسب فيها عدد غير

قليل من الطلاب حتى أن السيد رشيد سلبي عُد راسباً في تلك السنة لتقصيره بدرسين هما النبات والرياضة البدنية، ولولا قرار الادارة الذي اتخذ مؤخراً بعدم ادخال الرياضة في المعدل لأعاد السيد رشيد تلك السنة – ولكنه عُد مكملاً بعد هذا القرار ونجح في امتحان الاكمال.

من بيروت إلى بغداد

لم يكد ينتهي الامتحان ونحصل على النتائج إلاّ وشددنا الرحال الى بغداد. وقد اتفقت مع عدد من الأصدقاء اتذكر منهم هاشم العطار وزكي صالح ورشيد وآخرون على استئجار سيارة خاصة، واشترينا ما نحتاج اليه في الطريق، ولم ننس ان نشتري (دُنبك) يُلهينا ويُرفِّه عنا ونحن نشق طريق الصحراء. كنا فرحين ومبتهجين بأننا أنهينا السنة ونجحنا وها نحن نعود الى وطننا. وكان يزيد في فرحي دون غيري انني سأسافر إلى امريكا بعد مدة قصيرة، كنا فرحين إلاّ واحدا فينا هو السيد رشيد سلبي إذ كان راسباً في درسَي النبات والرياضة، وكان حزيناً والكآبة تبدو عليه، غير أنه كان يجاملنا في بعض الأحيان ويشترك معنا في أهازيجنا وأغانينا، وكنا نجامله في أحيان أخر فنشترك معه في صمته وسكونه.

وصلنا بغداد فاستقبلنا الأهل والأصدقاء، ونُحِرت بعض الخراف فرحاً بقدومنا. كانت فرحة الأهل كبيرة، وفرحة الوالدة على الأخص لا يمكن أن توصف، ولكنني ما أن نزلت من السيارة حتى شاهدت والدتي آثار ضعف بدني وهزال، فاضطربت لذلك، وقالت: ما بالك يا بني هل أنت مريض؟ قلت: كنت مريضاً أما الآن وقد نجحت في الامتحان فكلي صحة وعافية. وكنت قد جلبت معي صندوقا كبيرا من الخشب ضمنته كل ما عندي من

أمتعة وكتب، وعندما فتحته سلطات الكمارك للتفتيش قالت: ما هذا؟ فلقد أتيت بكل شيء حتى قبقاب الحمام، وقد حملته عربة في الكُمرك حتى محلة الهيتاويين ثم نقله حمّال الى البيت. كان الصندوق ثقيلاً، وكنت قد حذّرتُ الحمّال منه، وهو كريم إحدى العينين، ولكن الحمال لم يلتفت الى هذا التحذير، ولربما قد تصور انه كان من قبيل التحدي. لقد تألمت على الحمال وهو يكاد ينكفئ على وجهه وهو يكاد (يَفحَط) من ثقل الصندوق وكبره. لقد وضعت فيه كل شيء، حتى انني وضعت فيه سكيناً وشوكاً عليها علامة الجامعة من مطعم الكلية، فلقد (قَشْمَرنا) بعض الطلاب وحرضنا البعض الآخر على سرقة مثل هذه الأدوات بحجة أنها للذكرى.

لم أبقَ في بغداد إلاّ مدة قصيرة، وكان لابد من السفر بسرعة إلى جامعة كالفورنيا في بيركلي التي تفتح أبوابها ويبدأ موسم الدراسة فيها في ١٦ آب. وكان عليَّ أن أتهيأ للسفر بما يمكن من السرعة. زرت كثيراً من الأهل والأصدقاء، وكان لابد من زيارة كربلاء والنجف قبل السفر، ولابد من اجراء الفحوص الطبية والنجاح فيها لأن امريكا لاتقبل مصاباً بمرض مُعدٍ، فضلاً عن أن الحكومة تطلب من طالب بعثتها أن يكون سالماً من الأمراض. ذهبت الى طبيب العيون الدكتور جلال عزاوي[١٢٩] ففحصني وقال: انت ناجح، هكذا يجب ان تكون عيون من يريد السفر إلى أمريكا وليست كعيون جعفر خياط. إنها مبتلاة بالتراخوما ولابد من اجراء عملية له ولا نضمن مع هذا شفاءها تماماً بحيث تصبح لائقة ومقبولة حسب المقاييس الامريكية. وكانت وزارة المعارف قد قررت ارسال جعفر خياط في بعثتها الى اميركا، وهو الذي درس في جامعة بيروت ويتقدمني بصف واحد، ولكن جعفر رسب في الفحص الطبي

---

[129] طبيب عيون، تخرج في الكلية الطبية باستانبول سنة ١٩١٤، توفي في حدود سنة ١٩٥٠.

لعيونه، وكنا قد قررنا السفر سوية غير انه اضطر الى التأخر عني في بيروت لاجراء عملية التراخوما. واردف الدكتور جلال يسألني لماذا تريد السفر الى امريكا؟ لماذا لا تدرس في غيرها من الجامعات؟ إن امريكا بلد راق وإن من يدرس في جامعاتها لا يستطيع بعد رجوعه منها أن يعيش في بلاده بسهولة، إن الحياة في أمريكا ستبقى دوما تذكرها وتتذكر الفرق الهائل بينها وبين عيشك في وطنك، وستبقى هذه الذكرى دوما مصدر قلق وتذمر وشكوى. لم أُدرك في حينه كل الإدراك ما كان يقصده الدكتور جلال وما كان مغزى كلامه، ولم ادر انه كان على حق في قوله ام على باطل، ولم أدر لماذا كان يكلمني بهذه الصورة. والدكتور جلال ليس من شك كونه على حق إلى حدٍ ما في نظرته الى الدراسة في الخارج، ولاسيما امريكا، إلاّ أن المثقف يكون عادة اكثر ادراكاً وأعمق نظرة من غيره بالنسبة الى بلاده، والى التخلف الذي تعيش فيه، والى عوامل التأخر والى عوامل العِلل والأمراض التي تفتك بها. وإن المثقف يكون عادة اكثر وعياً وأرهف حساً بالواجبات الملقاة على عاتقه لأنه يشعر أكثر من غيره بان الواجب يناديه لتحمل المسؤولية والنهوض بالعبء. إن للوطن حقاً عليه يدعى لخدمته، وان للمثقف رسالة يجب ان يخدمها هي رسالة الإصلاح والتجديد. ومن من المثقفين لم يشعر بثقل المسؤولية وهو ينهض بها ومشقة الخدمة الصافية وهو يؤديها، ومن منهم لم تصادفه في حياته أنواع المشاكل والعقبات وهو يحاول الاصلاح والتجديد، ألا يكون هذا وغير هذا سبباً للقلق والشكوى.

ومن حسن حظ بعض المثقفين أن يكون شعورهم بالنواقص وتحسسهم بالصعوبات والعقبات سبباً للقلق والشكوى وليس مصدراً لليأس والخنوع،

فالقلق قد يدفع صاحبه الى العمل الايجابي والى الانتاج والإصلاح، وقد يحمله على الكسل والخمول، وعلى التراجع والخضوع.

وليس من شأن المثقف أن لا يؤدي رسالة، وأن لا يكون له هدف سام في الخدمة، وأن لا يحس بمشاكل الناس والأمة، ولا يعمل على خدمتهم وإنقاذهم. وليس من شأن المثقف القدير أن ينحرف مع التيار، ويضيع من بين الناس، بل أن دافِع رسالته يقضي عليه أن يقف دائماً على رابية وأن يمد يده إلى الأسفل، أي إلى الناس، يواسي جروحهم ويخفف آلامهم ويرفع مستوى معيشتهم، وأن لا يسمح لنفسه أن ينزل من هذا المرتفع الى الاسفل، أو يسمح للناس أن يجرُّوه من علٍ، فإذا ما انسحب الى الأسفل فسينجرف مع التيار ويضيع بين الناس وقد تدوسه الاقدام. يجب أن يرفع الناس إلى مستواه لا أن ينزل هو او يخفض مستواه الى مستوى الناس، مستوى الجهل والفقر والمرض، ومستوى التخلف والتأخر.

إلى الولايات المتحدة

أعدَّت شركة توماس كوك لي كل ما يلزم للسفر، وهي شركة إنكليزية سياحية لها فروع في أكثر انحاء العالم، وكانت الوحيدة في العراق، وخدماتها لا بأس بها، ولا ادري كيف وضعها الآن وقد تعددت مثل هذه الشركات وتنوعت. سافرت الى بيروت، وكانت السفرة أكثر راحة بكثير من سابقتها، حيث كانت شركة توماس كوك قد حجزت لي مكانا لدى شركة تسمى (فاير لاين) وهي شركة لم يعد لها وجود الآن. ولم يكن في هذه الباخرة إلاّ درجتان للركاب، أولى وثالثة. ولما كانت وزارة المعارف تُسَفِّر طلابها في الدرجة الثانية فقد حصل اشكال ثم انتهى بان وافقت الوزارة على سفري بالدرجة الأولى.

ودَّعَني على ظهر الباخرة بعض أصدقائي ومن بينهم جعفر خياط الذي كان مقرراً أن يسافر معي، ولكنه تأخر بسبب اجراء عمليه له في عينيه. كان وداعي لجعفر وداعا مؤثرا، فقد تألمت لانه قد تأخر عن السفر، وتأثرت لأنني سأبقى وحيدا في هذه السفرة الطويلة وأُحرم من رفقته، وما أشد الحاجة إلى الرفقة في سفرة طويلة. ركبت الباخرة لأول مرة في حياتي فأدهشتني الباخرة، بالرغم من صغر حجمها بالنسبة الى البواخر الاخرى ولا سيما "الملكة اليزابيث" أو "الملكة ماري" التي ركبتها فيما بعد. ولقد سهرت تلك الليلة على خلاف عادتي حتى مررنا بالمضيق، ولكم شعرت ونحن نجتاز المضيق بالزهو والفخر يخالطه شعور حزن وألم. ها أنذا العربي من أحفاد أولئك العرب الشُّوس الذين روَّضوا الدنيا وفتحوا العالم، والذين أعطوا إلى الدنيا والعالم ديناً وحضارة من أحسن الاديان وأزهى الحضارات. لقد تذكرت كيف زحف العرب من العراق ومصر بقيادة قوادهم الميامين على الشمال الأفريقي وكيف وطدوا مدنية الإسلام وثقافة العرب. ثم تذكرت طارق بن زياد مفخرة العرب والإسلام في تلك الحملة، وكيف انتقل من نصر إلى نصر، ثم كيف وقف على شاطئ البحر من جهة أفريقيا مقابل الشاطئ الإسباني وقادة جيشه من العرب الشوس، وقد عقد العزم على عبور البحر وفتح إسبانيا، فشعرت بأنني اسبح في الخيال واحلق فيه، وأن نشوة النصر والظفر تأخذ على نفسي من كل مكان. لقد أحسست بعظمة الآباء والأجداد. وأحسست بحِس غريب يهز كياني ويكهرب وجداني عندما تصورت أن طارق قد عبر البحر بهمة المؤمن الذي لا يريد إلا خدمة العرب والإسلام، وها هو يقاتل قتال الأبطال الذين باعوا أنفسهم في سبيل الله والوطن، وهاهو ينتقل بإذن الله منتصراً من معركة إلى أخرى حتى يفتح إسبانيا برمتها أو يكاد. لقد أحسست بزهو

واعتداد كيف أن عرب الصحراء الذين لم يعرفوا البحر من قبل ولم يركبوه استطاعوا ركوبه وإخضاعه. أوَ ليست معجزة من المعجزات أن يكون ابن الصحراء سيدا للبحر أيضا؟ وإذ كان في استطاعة ابن الصحراء معرفتها والوقوف على أسرارها والتغلب عليها أفليس من المدهش المذهل ان يكون ايضا ممن يعرف البحر ويعرف دواخله وبواطنه، وأن يكون في مقدوره التحكم به والسيطرة عليه ولم يكن العرب وهم الذين خرجوا من الصحراء انهم أُمة بحر في هذه المعركة الكبرى فحسب، بل لقد برهنوا طوال تاريخهم أنهم دوَّخوا البحر وأنهم أسياده، ولقد كانت اساطيلهم تجوب البحار وكانت تجارتهم دوما في ازدهار. لقد اتصل العرب بحرا بالهند وفي كثير من بلاد الشرق الاقصى، واتصلوا بافريقيا، بل وهناك من يقول انهم توغلوا في البحر حتى انهم كانوا من أول من عرف أمريكا الجنوبية، ولقد نافس العرب البرتغال فيما بعد وأن للعرب عليهم فضل كبير في معرفة البحر وأسراره. إن هذا الجانب من التاريخ العربي لم يدرس بعد الدراسة الكافية ولم ينصفه الكتاب ولا الباحثون.

مِللنا من كثرة الموانئ، وضجرنا من كثرة الوقوف، وهل يجوز أن نسير ليلاً ونهاراً نستقبل عاصفة ونودع اخرى ولا يابسة نقف عندها للراحة والاستجمام. ولا اتذكر كم قضينا في البحر الأبيض كما انني لا اتذكر تماما كم قضينا في المحيط، ولكنني أتذكر ان السفرة بأجمعها استغرقت نحوا من ٢١ يوماً. ولربما قد قضينا منها اكثر من ١٢ يوما في المحيط فقط.

كنت مرة وأنا اقف على سطح الباخرة أشاهد طفلين لا يتجاوز عمر كل منهما العشر سنوات احدهما انكليزي والآخر فرنسي يتحدثان باللغة العربية، بلهجتها البيروتية، فأحببت الوقوف عندهما والانصات لهما. لقد كانا

مولودين في بيروت، والإنكليزي لا يعرف الفرنسية والفرنسي لا يعرف الإنكليزية، فكانت اللغة العربية أداة التفاهم بينهما.

وعندما سافرت في صيف ١٩٢٧ من بغداد الى بيروت لم تكن الفتاة العراقية سافرة ولم نكن نشاهدها في المدارس أو السينما أو الشارع او المحلات العامة الاخرى. أما في بيروت فقد شاهدت الفتاة العربية وهي في رشاقتها وجمالها، وهندامها، وهي لا تختلف كثيرا عن الأوروبية. ولشد ما عجبت بها ولشد ما أغراني بالنظر إليها وأنا أقف بالقرب منها استمع اليها تتجاذب أطراف الحديث مع رفيقاتها بمنظرها الأوربي هذا وباللغة العربية. لقد زهوت باللغة العربية وزهوت بالفتاة التي تتكلمها. بيد أني شعرت شعوراً غريباً، قد يكون منبثقاً من العادة، إذ استغربت أن أرى مثل هذه الفتاة بسفورها بجمالها وبزيها الاوربي، تتكلم اللغة العربية، وشعرت كأن هذه الفتاة ليست عربية وأنها غريبة عن اللغة. وشعرت وكأن هذه اللغة لا يتكلم بها إلاّ أهلها، ولقد اعتدت أن أرى أهلها من يلبس العباءة ولا يقف في الطريق ويتكلم مع غيره في المحلات العامة وامام الناس. ولا يسمح لأجنبي، إذا كان رجلا، أن يقف بقربه ويستمع الى حديثه وينظر إلى عيونه ووجهه ويعجب بـ(مودة) ثيابه ورشاقة جسمه.

كنت مرة وقد استلقيت على احد الكراسي على سطح الباخرة بجانب أمريكي وأمريكية بلغ بهما العمر عتيا إذ تجاوزا الستين ولربما بلغا السبعين، وكانا يطوفان حول العالم. سألني الرجل من أين أنت؟ فأجبته. ثم سألني وماذا أعمل؟ قلت له: أذهب الى جامعة كاليفورنيا في أمريكا لدراسة الزراعة فيها. كنت اتفاهم معه بصعوبة حيث لم أعتد على اللهجة الامريكية. وقد قال لي أنه مزارع يعيش هو وزوجته في مزرعة في إحدى الولايات التي لا

اتذكر اسمها، وانه لا ذرية له، وطلب مني أن اكون بمثابة ولدهما وأن أشتغل وأسكن معهما. وذكر انه ثري وانني سأستفيد من هذه الثروة. قلت: ولكن كيف وأنا هنا ادرس على نفقة الحكومة ولي أهل ووطن لابد من الرجوع اليهم. فابتسم وقال: لقد أحببتك وظننت انك ستوافق على هذا العرض الذي لم أعرضه على أحد، والذي لو عرضته لقبله الكثيرون. قلت: ألا يمكن أن اجمع بين الاثنين يعني الدراسة والعمل عندكم وقت الصيف فقط؟ فابتسم وقال: ليس هذا ما عرضته، كما انه ليس من الهيِّن الاشتغال معنا في الصيف. إن مئات الاميال تفصل بيننا وبين جامعتك. ولا ادري ماذا كان سيحدث لو قبلت العرض، ولا ادري ماذا سيكون مصيري إن فعلت ذلك.

لقد كانت سفرة الأطلنطي مزعجة مضنية، سئمت منها وتضايقت بها. فهي مملة وتمضي على وتيرة واحدة. أين هذه السفرة من السفرات التي قمت بها فيما بعد؟ وأين هذه الباخرة التي تشبه أن تكون كرة وحمولتها لاتتجاوز الـ ٢٠ ألف طن، وظننت انني أركب جملا بالنسبة الى الباخرة (بريمن) التي ركبتها بعد الانتهاء من دراستي ورجوعي الى الوطن وكانت حمولتها ٥٦ الف طن، ومن الباخرة الملكة اليزابيث التي سافرت عليها اكثر من مرة في ذهابي او ايابي الـى هيئة الأمم في نيويورك وكانت حمولتها نحوا من ٨٠ الف طن.

الدنيا الجديدة

حمدنا الله لأننا انتهينا من البحر والمحيط وإننا وصلنا (بروفيدانس)[١٣٠]، فبدت هذه المحطة وكأنها عالم صغير، وفيها بدأت أصافح المشقة والاقي الصعوبات، حيث نزلت من المحيط فلم أعرف أحداً ولم يستقبلني أحد وإن

---

[130] Providence عاصمة ولاية رود آيلند الأمريكية.

كنت قد شاهدت كثيرا من المستقبلين. وما كنت انتظر في الحقيقة أن يستقبلني أحد من اصدقائي ومعارفي وأنا أعرف أين أنا وفي أي بقعة من العالم، ولكن كنت انتظر ان يستقبلني احد موظفي شركة توماس كوك فقد اخبرتني الشركة في دائرتها في بغداد، وفي دائرتها في بيروت، أن موظفيها سيستقبلونني في كل مكان، وسيذللون لي كل صعوبة ولا يتركونني وحيدا اشعر بالغربة أو بالضياع. انتظرت قليلاً والتفت الى كل جانب لعلني أعثر على أحدهم، وكنت أعرف أنه يضع قبعة على رأسه كتب عليها شركة توماس كوك. ولما انتظرت ولم أُوفَّق إلى أحد منهم حانت مني التفاتة فرأيت (بوت) داخله فتاة جميلة كتب على واجهته (للاستعلام) فتقدمت من الفتاة وسألتها بلغة مغلوطة "اريد رجلا من توماس كوك" I want a man from thomas Coock co. فابتسمت الفتاة الى فتاة اخرى بجانبها وقالت لها: هل تريدين رجلاً من توماس كوك؟ فأدركت غلطي في الحال إذ كان عليَّ أن اقول بدل هذا I want to see a man from thomas Coock co. أريد أن أرى رجلاً من توماس كوك. ولا أدري إن كانت الفتاة قاسية أو قليلة الأدب أو انها كانت خفيفة الدم مرحة، إذ ما كان يليق بها على كل حال أن تُحرجني هكذا وهي تعلم انني أجنبي لا أعرف لغتها، وما أن مرَّت لحظات حتى أومأت الي إحداهن قائلة: هذا هو أحد موظفي الشركة، فشكرتها كثيراً، ثم اصطحبني الرجل وخرجنا من المحطة إلى وجه الارض، تسير بنا السيارة التاكسي الى مركز الشركة. وما أن خرجت على سطح الارض إلاّ وهالني ما رأيت، رأيت نيويورك بشوارعها العريضة والطويلة وبعماراتها وبناطحات سحابها وببشرها الكثير المزدحم من كلا الجنسين يروح ويغدو بسرعة ونشاط. ولأول مرة شعرت أن لا فائدة من السيارة لأنها تسير ببطء

مُمِل، وأنها تتوقف كلما سرنا قليلاً وقفات مزعجة. ولقد شعرت لأول مرة ان السير على الاقدام في مثل هذه الشوارع المزدحمة بوسائط النقل والمكتظة بالناس خير من الركوب في السيارة.

نزلت في أحد الاوتيلات الذي عينت الشركة لي النزول فيه مدة ثلاثة أيام قبل أن اسافر في القطار إلى بيركلي كاليفورنيا. أدهشني الاوتيل، وأدهشتني الغرفة التي نزلت فيها فقد كانت رحبة وذات سريرين وحمام، وكان ثمة تلفون بجنب السرير وضوء فوق رأسي. وكانت ثمة أشياء أخرى في الغرفة والحمام لم أعرف آنذاك ما هي ولا كيف تستعمل، إذ بدت كلها اشياء غريبة علي لم أرها من قبل ولم آلفها ولم استعملها. ارتميت على السرير وأنا منهك خائر القوى من طول السفر ومشقته، وشعرت كأنني لا ازال في الباخرة، وكأن الموج لا يزال يهزها ويصعد بها وينزل، وشعرت كانني دايخ والغرفة تدور في راسي ورأسي يدور في كل جهة وفي كل جانب. نمت ولم ادرك كم نمت غير انني استفقت وشعرت بالجوع، ورأيت أن أنادي أحد الخدم ليأتي لي بالطعام، ولكنني لم أجد الجرس، واكتشفت فيما بعد أن الاوتيل في امريكا يختلف عنه في اوروبا، وانك إن أردت قضاء حاجة في اوتيلات اوروبا فما عليك الاّ ان تدق الجرس فيحضر الخادم وتطلب منه ما شئت. أما في امريكا فلا جرس ولا خادم ولابد من استعمال التلفون لطلب الحاجة التي تريدها والتي يحضرها لك الخادم الذي يأتي دوره عند ذاك فقط. رأيت التلفون ولكنني لم استعمله من قبل ولا أعرف كيف استعمله إذ تركت بغداد ولا يوجد تلفون في دارنا ولم اتعلم كيفية استعماله، بل لم تعرف بغداد التلفون على مقياس واسع ولم ينتشر فيها بعد، ولا يوجد إلاّ في قليل من الدور وفي بعض الدوائر الحكومية. ومهما يكن من أمر فقد عضني الجوع

ولابد من استعمال التلفون، فتجرأت ورفعت السماعة وسمعت صوتاً وما عرفت السبب فأرجعت السماعة الى محلها، ثم رفعتها ثانية وإذا نفس الصوت فأدركت ان الصوت يجب أن يكون صوت عاملة البدَّالة، فأردت التفاهم معها فلم استطع، ثم أعدت السماعة الى محلها وأنا مضطرب ألعن التلفون وألعن عاملة البدالة. ثم رأيت ورقة من المقوى قد علقت في قبضة الباب وقد كتب عليها do not disturb (لا تقلقني) فظننت أن الادارة قد علقتها في باب غرفتي لتعلمني بأني قد أقلقها بعدم معرفتي استعمال التلفون، وأنها تنبهني بعدم اقلاقها ثانية فخجلت وتألمت، ولم أدر أن هذه الورقة معلقة في الباب من الداخل بصورة دائمية، وأن صاحب الغرفة إذا أراد أن لا يقلقه أحد فما عليه إلاّ ان يضعها في قبضة الباب من الخارج.

تركت الأوتيل، وأردت أن أكسر القيد الذي ضربتُه على نفسي، أردت أن أرى نيويورك، أن اسير في شوارعها واتفرج على مخازنها، وانظر الى أهلها اتنزه في متنزهاتها. بيد أني لم أكن أعرف محلاً من هذه المحلات ولا طريقاً من هذه الطرقات، ومع هذا فقد أخذت عنوان الأوتيل ووضعت إشارة في رأسي كيلا أضيعه إذا ما ابتعدت عنه، ثم سرت في بعض الشوارع، ودخلت مطعما من المطاعم، ولم يكن من السهل اختيار الأكل وقائمة الطعام محشوة بأسماء الأكلات الغربية التي لا أعرف ماهيتها، ولم اسمع بها من قبل. رجعت إلى الاوتيل ولم اشعر أنني تنزهت بل شعرت أنني ازددت انقباضاً. إن العالم الذي رأيته غريب عني في كل نبضه او ضجة فيه فلا اعرف الشوارع ولا المطاعم، ولا اعرف كيف اسير في الشارع، او أجتازه، او كيف آكل في المطعم او أختار الطعام فيه، ولا أعرف أين هي السينما، ولا كيف اشتري التذكرة، ولا كيف أدخلها. ولقد رأيت الشوارع وعلى جانبيها

عمارات ضخمة شاهقة، حتى أني كنت ادوخ اذا ما رفعت رأسي الى الأعلى لرؤية قمة بعض العمارات، ثم رأيت كل شيء في هذه المدينة مكتظ ومزدحم، فالناس وقد ارتسمت على وجوههم امارات الجد يمشون بسرعة ويلتفتون بنشاط، ويجتازون الشارع من جهة الى أخرى بخفة، كأن أحداً يلاحقهم وهم يركضون، ورأيت هذه الشوارع وقد امتلأت بمختلف وسائط النقل، ولاسيما السيارات الكبيرة الفارهة، ولقد رأيت المتعة تتحدث عن نفسها والفن يكشف عن هويته، كما رأيت وسائط النقل هذه لا تسير على الشارع فقط بل تسير فوقه أيضاً وتسير تحته كذلك!

خرجت في الليل لأرى نيويورك، فرأيت أنها مضاءة بشكل لم يكن لي عهد بمثله من قبل، وجدت بعض الشوارع وقد أضيئت حتى اصبحت نهاراً! ورأيت لأول مرة هذه الألوان الزاهية المتنوعة من احمر واخضر وازرق واصفر وابيض فضي وكل لون آخر، ورأيت لأول مرة كيف تضيء هذه الالوان وتنطفئ بين حين وآخر، وفي فترات ايقاعية متساوية، ورأيت كيف يضيء الضوء بالاحمر والاخضر عند تقاطع الطرق، وكيف يقف السير مرة واحدة عند الضوء الاحمر، وكيف يتحرك السير مرة واحدة ايضاً عند الضوء الاخضر، وكيف يتوقف الناس كما يتوقف السيارة ويسرون كما تسير حسب اشارة الضوء. وقد رأيت نيويورك في الليل وهي في أبهى منظر وبأبهى شكل، وكأنها شعلة من نور. ورأيت ناطحات السحاب وقد أضيئت غرفها ودوائرها وبدت من بعيد وكأنها أحجار ماس صف بعضه فوق بعض يتلألأ ضوؤها ويسطع نورها، وانك إن نسيت نيويورك بأجمعها فلا يمكنك ان تنسى منظر ناطحات سحابها في الليل وهي مضاءة.

لم أر الشيء الكثير في نيويورك بل رأيت القليل القليل منها. رجعت الى الاوتيل وأنا مهموم مغموم إذ شعرت بأنني وحيد غريب، بل شعرت كأنني ضعت في هذا العالم الذي لم أره من قبل ولم أعرف عنه شيئاً. وإذا كانت نيويورك بهرتني فانني لم ابتهج بها ولم ارتح لها، بل لقد تضايقت منها وسئمت البقاء فيها، وتمنيت من الله ان لو تنطوي هذه الأيام الثلاثة بسرعة حتى أترك هذه المدينة وضوضاءها وضجيج الناس وصخب الحياة. وكنت أتمنى في حينه لو تركت نيويورك بسرعة، ثم صرت اتمنى فيما بعد لو أطلت البقاء فيها، فإن جهل الانسان بالشيء ضعف ومعرفته به قوة.

السفر إلى بيركلي

تركت نيويورك وأنا غير نادمٍ على فراقها، وحين دفعت أربعة دولارات عن الليلة الواحدة استكثرت المبلغ وهالني مقداره، وقلت لنفسي: ما بال شركة كوك اختارت هذا الاوتيل؟ ألم تعلم انني تلميذ وانني لا أقدر أن أدفع بسهولة مثل هذا المبلغ الكبير؟ ولم أدر أن هناك اوتيلات اخرى تتقاضى اضعاف هذا المبلغ. وركبت القطار، وشققت الولايات المتحدة عرضاً من شرقها الى غربها في سفرة ممتعة وإن بدت طويلة فقد استغرقت خمسة نهارات بلياليها. وكان القطار يقف في كثير من المدن، وكنت أنزل في كل مدينة منها اشتري بعض الطعام من سندويجات وفواكه وما شابه ذلك، ولم أكن آكل في مطعم القطار إلاّ قليلا لانه كان ذا كلفة باهضة. لقد تمتعت بهذه السفرة فإني رأيت قسماً غير قليل من امريكا، مدنها وقراها وريفها. وكانت مناظر الريف خلابة ومناظر المدن أخاذة. وكان القطار يسير بسرعة وكنت أراه يسبق السيارات التي تسير بمحاذاته، وكان مريحاً يحتوي على كل وسائل الراحة،

وقد شاهدت فيه لأول مرة أقداح الماء (كلاصات) المصنوعة من المقوى، كيف وضع الواحد داخل الآخر، فاذا أردت شرب الماء تُخرج أحد هذه الأقداح من محله وتستعمله ثم ترميه فلا يُستعمل القدح إلاّ مرة واحدة ومن قبل شخص واحد. وقد أعجبتني في القطار الأضواء الموجودة فوق رؤوسنا والتي تستعمل للقراءة او ما شابه، ووجود الجرس الذي ندقه إذا ما أردنا مناداة الخادم، كما ادهشني أن يكون المقعد الذي نجلس عليه في النهار فراشاً لنا في الليل، وكانت السُتُر تُسدل بين شخص وآخر كما تُسدل على جانبي الممر بحيث إذا مشى المرء في هذا الممر لشرب الماء او لاستعمال غرفة التواليت اثناء الليل لا يرى الناس النائمين من حوله.

وكنت أجلس طوال السفرة في نفس المقعد الذي جلست فيه يوم سفري من نيويورك، غيرأن من يقعد أمامي كان يتغير بين حين واخر، وقد صادف مرة ان جلست أمامي سيدة جميلة في الثلاثين من عمرها وهي تصحب طفلها الذي لم يتجاوز العشر سنوات، وكنت اقرأ كتاباً عن الطيار (لِندبرج) المشهور[١٣١] اشتريته من احدى المكتبات المنتشرة في المحطات، فقال لي الطفل: هل تطمح أن تكون يوما مثل لندبرغ؟ قلت: بلى! فاندهش الولد واندهشت أمه، ولكني أردفت قائلاً: إنني اطمح أن أكون مشهوراً ولكن ليس في الطيران بل في دائرة اختصاصي. كان الكتاب ممتعاً يصف كيف عبر لندبرج المحيط اول مرة في التاريخ، وكيف احتفت اوروبا به، واستقبله الملوك ورؤساء الجمهوريات والناس في كل مكان، ويصف الحفلات التكريمية التي أُقيمت له والهدايا والاوسمة التي منحت له تقديرا لشجاعته وعلمه. كانت

---

[١٣١] كان شارل لندبرج البالغ من العمر ٢٥ سنة، قد نجح بتاريخ ٢٠ أيار ١٩٢٧، في قطع المسافة بين نيويورك وباريس في ٣٣ ساعة ونصف من الطيران دون راديو، فعد ذلك العام (عام الأطلنطي).

الأم لطيفة معي وكنت مؤدباً معها، وباتت تسألني عن بلادي وعن سبب مجيئي. وعندما علمت أنني من بغداد سألت مداعبة: ولماذا لم تطر بسجادتك السحرية واين هي العصا السحرية التي تضرب بها السجادة عند الطيران وما الى ذلك من الامور التي كانت قد قرأتها في قصص الف ليلة وليلة، والتي بقيت عالقة في ذهنها.

وإني لأتذكر أنه عندما وقف القطار في محطة شيكاغو ترددت في النزول الى المحطة لما شعرت به من خوف، وقلت في نفسي: أخشى إذا ما نزلت أن يمسك أحد رؤساء العصابات او أحد أفرادها ويَسلِبني أحدهم دراهمي أو يمسني بسوء، فقد كنت قد سمعت وقرأت شيئاً عن عصابات شيكاغو، فتصورت أن مثل هذه العصابات منتشرة في كل مكان من المدينة وانها لابد أن تتحرش بالناس ولاسيما الغرباء منهم، وعلى أية حال نزلت المحطة ومشيت في بعض شوارع المدينة واشتريت بعض الحاجات ورجعت الى القطار سالماً!

إن المسافة بين نيويورك وبيركلي في كاليفورنيا تبلغ اكثر من ثلاثة الاف ميل كالمسافة بين بغداد ولندن، وان فرق الوقت يبلغ ثلاث ساعات، بينما يبلغ فرق الوقت بين بغداد ونيويورك ٨ ساعات، وبين بغداد وبركلي او سان فرنسسيكو نحواً من ١١ ساعة أو أكثر بقليل.

بيركلـــي

وصلت بيركلي وأنا لا أعرف من العراقيين فيها أحداً، باستثناء عبد الجبار جلبي الذي حصلت على عنوانه من أهله. ركبت سيارة وأعطيت سائقها العنوان، وعندما وصلنا المحل وسألنا عن عبد الجبار، قالت لنا صاحبة الدار: إنه انتقل الى محل آخر، ولا اتذكر كيف وجدت عبد الجبار

بعدئذ، وهل أن صاحبة الدار أعطتنا عنوانه كما هي العادة التي تقضي بضرورة قيام الشخص بترك عنوانه الجديد في محله القديم أم أنني وجدته بوسيلة اخرى. وعلى أية حال فقد وجدت عبد الجبار في داره الجديدة يتسامر مع صاحبة البيت، وهي عجوز ناهزت الستين فقدمت له نفسي، وقدَّمني لصاحبة البيت، واقترح أن أسكن معه إلى حين.

أنزلنا امتعتي من السيارة، وهي تتألف من حقيبتين، واتذكر أني كنت أحمل معهما بطانيتين ووسادة، فلما رآها عبد الجبار ضحك، وقال: إرمِها يا أخي! قلت: ماذا؟ قال: هاتين البطانيتين والوسادة، فإنك لست بحاجة اليها هنا. قلت: وهل أرميها الآن بعد أن حملتها معي من بغداد إلى بيركلي؟ على أني رميت البطانيتين فيما بعد ورميت الوسادة بعد أن فتحتها فوجدت فيها دبابيساً وعفصاً وآيات قرآنية وأدعية وما شابه ذلك من الأمور، وكان واضحاً أن هذه الوسادة التي أعطتني إياها والدتي لم تكن لأستعملها فقط بل كانت حِرزاً، وكان هذا الحرز للمحافظة علي وحمايتي من كل سيئة وسوء.

وفيما عدا عبد الجبار الجلبي، تعرفت على غير واحدٍ من العراقيين الذين يدرسون إذ ذاك في جامعة كاليفورنيا، منهم ممتاز عارف وعبد الجبار بكر، وكانا في بعثة الأوقاف، وناظم سرسم وكان في بعثة وزارة المعارف. وأردت أن انتسب الى الجامعة لأدرس في كلية الزراعة في بيركلي، غير أن عبد الجبار جلبي وناظم سرسم اقترحا عليَّ أن انتسب ولو لهذا الفصل في ديفز Davis حيث يوجد فيها فرع لكلية الزراعة، بحجة ان من الافضل الدراسة هناك لتوفر الجو العلمي والعملي معاً. كنت قد أحسست توددا خاصاً من عبد الجبار، وكذلك من ناظم، وكان الاثنان يدرسان ذلك الفصل في ديفز، ففضلت أن أسجل معهما، وتركت معهما بيركلي إلى ديفز.

كانت ديفز عبارة عن مزرعة تجريبية كبيرة تابعة الى كلية الزراعة في جامعة كاليفورنيا في بيركلي، وقريبة من سكرنتو عاصمة ولاية كاليفورنيا، وكانت من جهة ثانية عبارة عن كلية كاملة قائمة بذاتها بما فيها الادارة والاساتذة والاندية والمختبرات والمكتبة والاقسام الداخلية وما شابه ذلك. وقد أخذت بنصيحة صديقي ان اسكن معهما في القسم الداخلي، وحينما سكنت هناك هالني منظر الطلاب، حتى اني لم أصدق انهم كانوا طلاباً وظننتهم عمالاً في معمل. كانت ملابسهم من نوع خاص فـ (الفِرشمَن) يلبسون لباساً خاصاً، و(السنودور) يلبسون بنطلوناً ازرقاً يدعى Jeans، و(الجوينر) و(السينر) يلبسان ماهو معروف بالكورد. كان قسم من هذه البنطلونات ممزق ومرقع، وكلها وسخة، ولا غرابة فإنه لباس طلاب الجامعة الذي يجب أن يخدمهم لا أن يخدموه، فاذا كانت الاقمشة من النوع الغالي والجيدة فلا يكون التلميذ حراً فيها بل مقيدا بالعناية بها فضلا عن كلفتها.

شاركني في الغرفة ناظم سرسم، وقد نمت ليلتي الاولى فيها، وعند الصباح أيقظني من النوم عبد الجبار جلبي بأن دخل علي وقد خلع كل ثيابه فكان عارياً على طريقة (ربي كما خلقتني). قال: قم واستحم. قلت: ما هذا يا عبد الجبار؟ ولماذا هذا المنظر المؤلم المُقرف؟ وماذا فعلت حتى استقبل صباحي الجميل بهذا المنظر غير الجميل؟ كنت أُداعبه وقد فهم المداعبة. قال نحن هكذا هنا، فنحن لسنا في بغداد. وهكذا فهمت أن عادات القوم هنا على خلاف عاداتنا، فإذا كان من العيب أن يظهر الانسان عارياً امام الآخر في بغداد فلا عيب فيه ولا ضير في امريكا، بل أن ذلك من الأمور الاعتيادية، كما فهمت انه لابد من عادة الحمام، وكم دهشت حينما رأيت عدد آخر من الطلاب قد سبقني اليه وقد وقف كل منهم تحت دوش.

كان لابد من اجراء فحص طبي للطلاب قبل قبولهم في الجامعة، فعُيِّن يوم خاص لهذا الفحص، وفي ذلك اليوم رأيت نفسي عارياً اقف بين طلاب كلهم عُراة في صف واحد طويل ينتظر كلُ منا دوره للفحص. لقد شعرت مهما أردت أن أصبر واتجلَّد بخجل شديد، ولم أستطع أن اكبح جماح هذا الخجل بيُسر بالرغم مما مررت به من تجربة السيد عبد الجبار والدوش في الحمام. لقد شعرت ان المنظر غريب وقبيح، وأدركت أن الانسان أقبح ما يكون وهو عار يقف بين عاريين، أحدهما من أمامه والآخر من خلفه، وفي صف واحد يبلغ عدد أفراده المئات من العُراة. وكنت أتلفّتُ حولي من دون شعور مني بين حين وآخر، ولا أدري ما إذا كان أحد ينظر إليَّ، ولاحظت أن إحساسي بالخجل يكون أشد إذا ما رآني العراقي، وبخجل أقل إذا ما ما نظر اليَّ الأمريكي. ولعلي كنت أحس أن الامريكي غريب عني وإن شعوري بغربته هذه يقلل من شعوري بالخجل.

وقد زاد في دهشتي وعزائي عندما قيل لنا ان البنات يقفن نفس موقفنا عاريات في الجهة الأخرى من البناية ينتظرن الفحص كما ننتظره نحن. ولا ادري ما إذا كان ما قيل لي صحيحاً!

الحياة الجامعيـة

الويل لطلاب السنة الاولى المعروفين بـ(الفرِشْمَن) فمعنى الكلمة في اللغة الإنكليزية الرجل الخام أو الرجل الطازج، ولعل أقرب ترجمة لها هي الرجل الغشيم، فطلاب السنة الاولى في الجامعة هم الغُشم الذين انتقلوا من الثانوية الى الجامعة، الذين لا يعرفون عن حياة الجامعة شيئاً، ولابد من تعليمهم وتدريبهم وتعويدهم على الحياة الجامعية. وقد استنَّ القوم سُنناً وشرَّعوا

تشريعات غريبة في بابها واصبحت عادات وتقاليد مألوفة يتوارثها الأحفاد عن الأجداد. لابد من (تجبيش)[١٣٢] الفرشمن، ولا يتولى هذه العملية بصورة خاصة الا السفمور، وهم طلاب الصف الثاني الذين مروا قبل سنة واحدة بنفس التجارب القاسية المريرة فلقد آن أوانهم وحانت فرصتهم للانتقام لانفسهم. وإن عملية التجبيش هذه، او التدشين، تعرف بالانكليزية بكلمة Haging. وكان من حسن حظي أن دخلت الجامعة في ديفز وانا سفمور ولست بالفرشمن، حيث كان الفرشمن لا يجرؤون على أن يسيروا لوحدهم، ولابد من أن يسيروا كُتلاً وجماعات، ومع هذا فقد كانوا يفاجئون ويهاجَمون بين حين وآخر وفي كل يوم وفي كل مناسبة من قبل طلاب السفمور. كانوا يشبعونهم ضرباً ولكماً، وكانوا يأمرونهم بأن يقوموا بمختلف الحركات المضحكة، كأن يلبسوا بعض ألبستهم وجهاً لبطن، او أن يسجدوا على وجوههم، أو ينفشوا شعورهم، أو أن يستوقفوا البنات ويركعون على أرجلهن يقبلونها، أو ينشدون أناشيد الحب والغرام بصورة مزرية مضحكة وهم بألبسة تشبه ألبسة المهرجين. وكنا مرة قد أمسكنا بعض الفرشمن وقد ملأنا البانيو ماء وغطسنا رأس احدهم، وكلفت بأن أعطي الاشارة برفع رأسه إذا ما مرَّ وقت معين لا اتذكره الآن. وبالفعل غطس هذا الشاب ومر بعض الوقت، وشعرت انه يكاد يختنق، فاعطيت الاشارة قبل انتهاء الوقت المعين عليه، ولأني لم اعد اتحمل أن أراه يرفس من شدة الاختناق. وكنا مرة بعد ان طاردنا بعض الفرشمن، أمسكنا بهم واركبناهم معنا في السيارة ثم اخذناهم لنزهة فأشبعناهم ضرباً في الطريق ولكماً، ثم انزلناهم على مسافة بعيدة عن

---

[١٣٢] تجبيش (بجيم مثلثة): لفظة عامية بغدادية، مأخوذة من الفعل: جبش، بمعنى اعتاد، أو تكيف على وضع ما، وهي من الفصحى: كبش

الكلية فاضطروا إلى السير مشياً على الاقدام كل هذه المسافة والتي استغرقت الساعات. ولا تنتهي عملية Haging إلاّ بعد اسابيع من افتتاح الجامعة، وإلاّ بعد معركة نهائية فاصلة يقتتل فيها الطرفان الفرشمن والسفمور والتي تنتهي عادة بتغلب السفمور، وترفع الراية البيضاء وتعود الأمور الى مجاريها الطبيعية.

كان عبد الجبار الجلبي في الصف المنتهي من الجامعة وكان أكبرنا سِناً، وكنت أحس أنه قد تزعم بعض العراقيين، ولا أدري لماذا وقفت في طريقه أو ناوأته بعض المناوءة. كان مسيطراً بصورة خاصة على ناظم سرسم، وكان قد افهمه انه، أي عبد الجبار، سوبرمان امريكا، ولم اقبل من عبد الجبار هذا القول، وأتذكر انني جادلته واحرجته. وقد قلت له: إن في استطاعة السوبرمان عمل ما يعجز عنه الرجل الاعتيادي، ولا أدري كيف تطرقت إلى أن مصطفى كمال كان سوبرماناً، وأنه عمل أشياء وأشياء لتجديد شباب تركيا، ولا ادري كيف قلت لعبد الجبار: أنا لا أريدك أن تعمل كما عمل مصطفى كمال ولكن هل في مقدورك الآن ان تذهب الى سكرنتو. وكنت أعرف أنه كان مفلساً في تلك اللحظة، وكنت أتصور أنني أحرجته في هذا الطلب. غاب عبد الجبار عنّا ولم يرجع إلاّ بعد ساعات قال لي: ألم اقل لك انني سوبرمان؟ قلت: وكيف؟ قال: قد ذهبت الى سكرنتو، واستدنت الدراهم!

كنا مرة قد رجعنا الى القسم الداخلي بعد ان شاهدنا رواية بطلتها على ما اتذكر ماريون دينز، وقد اعجبنا بها. وبينما نحن نتجاذب اطراف الحديث وقف عبد الجبار امام المرآة وبدأ يهز رقبته، قلنا له: ماذا تفعل؟ قال: أمثل ماريون دينز! فـ (عَفَطتُ) عليه عفطات عراقية دهش لها عبد الجبار وضحك الآخرون. قال غاضباً: ما هذا؟ قلت انها الطريقة العراقية

للتعبير عن الاستحسان. لقد أحسنت تمثيل ماريون دينز فاستحنت ذلك فعبرت عن هذا الاستحسان بالطريقة العراقية لا بطريقة (الراه الراه) الامريكية. زعل عبد الجبار لأنني مسست بزعامته ولا سيما أمام ناظم سرسم، ولكنني صالحته فيما بعد. لقد تكررت طريقة الاستحسان هذه فيما بعد وفي مناسبات مختلفة، ولكن عبد الجبار هذه المرة او المرات لم يزعل بل صار يفهمها على الطريقة العراقية ويضحك منا على الطريقة البغدادية.

وكان عبد الجبار قد ساق سيارة مرة وكنا - أنا وبقية العراقيين فيها - من دينز الى بيركلي، وكانت سياقة تدل حقيقة على مهارة وحذر، وما أن وصلنا بيركلي حتى قلت للعراقيين: هيا بنا لنقدر عبد الجبار ونستحسن سياقته بـ (الراه راه)! وما أن بدأنا حتى تحول الاستحسان الى الطريقة العراقية مما ادهش عبد الجبار ولكنه تقبلها منا وضحك معنا.

ومن الأمور التي لا أزال اتذكرها انني اختلفت مرة اختلافا شديدا مع عبد الجبار حول استعمال كلمة (زيادة) او (تزييد) فقد اتفقنا - نحن العراقيون - على أن نقدم عريضة الى وزارة المعارف نبين فيها ارتفاع تكاليف المعيشة في امريكا، ونبين أن مخصصات البعثة التي لم تكن تتجاوز آنذاك الـ ٦٦ دولار شهريا لا تكفي لسد هذه التكاليف. كما اتفقنا على كتابة العريضة وعلى كل الاسباب التي تقرر تقديمها، ثم اختلفنا، هل نقول لوزارة المعارف: نرجو النظر في زيادة مخصصات البعثة، أو نقول: تزييد المخصصات، ولا اتذكر هل كنت أنا من أنصار استعمال الكلمة الاولى ام الثانية، وعلى كل فان من المضحك أننا اختلفنا على هذه النقطة البسيطة بحيث كادت فكرة تقديم الطلب تموت من اساسها، وفي الاخير قدمنا الطلب

الى وزارة المعارف التي رفضته اسوة ببقية الطلبات الاخرى التي سبق وأن قدمت حول الموضوع نفسه.

كانت مفاجئة سارة لي وأنا اتمشى ببنطلون السفمور في ساحة الجامعة أن أسمع صوتاً اعرفه يناديني، فتوقفت برهة ثم تلفت، واذا بي ارى من بعيد شخصاً يركض نحوي واذا به جعفر خياط، وكان أن وصل في تلك اللحظة، وكنت أول شخص تقع عينيه عليه. وقد دهش جعفر عندما رآني بلباس السفمور الذي يشبه لباس العمال، أما هو فقد لبس الكورد لباس الجوينر، وقد سبق أن تركت جعفر خياط في بيروت لمعالجة عينيه باجراء عملية التراخوما بعد أن كان من المقرر أن نسافر سوية. فرحت فرحاً شديداً بوصول جعفر، وكان فرحي منصبا بالدرجة الاولى على أن جعفر لم يُحرم من البعثة، وانه استطاع بفضل المعالجة الطبية النجاح في الفحص الطبي، كما أن فرحي كان منبعثاً من شعوري بأن جعفر صديقي، وانه سيكون لي في الغربة خير رفيق.

كنت أنام في نحو الساعة العاشرة ليلا ثم استيقظ في نحو الساعة الثانية او الثالثة بعد منتصف الليل، فأذهب رأسا لأستحم تحت الدوش لأكون على اتم استعداد لمقارعة الكتاب ومناضلة الدرس. وأخيراً نجحت في الامتحان النهائي نجاحاً باهراً واستطعت أن احصل على معدل B في الدروس كافة، أي على ما فوق الثمانين، وهو معدل الشرف الذي لا يحصل عليه إلاَ القلة القليلة من الطلاب. وفرح العراقيون بهذا النجاح وعدوه نصرا كبيرا لي ولهم ايضاً، وانني لأتذكر أن عبد الجبار عندما سمع بالخبر ووقف على النتيجة قال لي بلهجته المعروفة وقد فتح عينيه: مجيد لقد عملتها، (عَفية) عليك، لقد قفزت من فوق الحفرة وقد قفزتها بتفوق. إن الامتحان ولا سيما للطالب

الجديد في اول فصل من حياته الجامعية حفرة واسعة يقع فيها الكثيرون ولا يقفزها إلاَ القليلون وانك لم تقفزها فحسب بل وقفزتها بتفوق.

قررنا ـ أنا وجعفر ـ الرجوع الى بيركلي والدراسة في الجامعة هناك، ورأيت أن أودع ديفز هذه المزرعة الكبيرة التي وان كانت قد أدت دورا في حياتي إلاَ أنني لم أحبها كثيرا ولم يرق لي العيش فيها. وقررنا أن نسكن في Biwles Hall وهي أول عمارة داخلية تُشاد على حرم Campus الجامعة. لقد كانت من اجمل واضخم واحدث البنايات التي شيدت في الجامعة تبرع ببنائها الذي كلف ما لا يقل عن ربع مليون دينار المستر باول احد خريجي الجامعة. وشيدت على الطراز العربي الاسباني على سفح جبل يطل على معظم مدينة بيركلي، وكانت هذه البناية قد أعلن أنها ستفتح أبوابها للطلاب هذا الفصل من السنة ولربما كانت سنة ٩٢٩ ــ ٩٣٠، وكنا أنا وجعفر الوحيدين من الأجانب الذين قبلوا الانتماء اليها من بين عشرات من الطلاب الأمريكان. وكان لقسم من الطلاب الأمريكان نواد خاصة بهم تعرف بـ fratirmaty للرجال، وsersity للنساء، وهي عبارة عن أقسام داخلية يسكنها جماعة معينة من الطلاب يفترض أن يكونوا من طبقة واحدة أو على شاكلة واحدة ويفترض أن يسود الانسجام بينهم، وهي تشبه أن تكون نوادي اجتماعية وأقسام داخلية. ثم كانت هناك نواد تضم المتفوقين من الطلاب ولا يجوز لغيرهم الانتماء اليها. ولا ادري إذا كانت هذه النوادي تبنت حقيقة روح الأخوة، كما يدل اسمها على ذلك، ام كانت روح التفرقة عند البعض والاستعلاء والتكبر عند البعض الآخر. ومهما يكن من أمر فإنه لا يجوز لأجنبي الانتماء اليها، ولا يجوز لأية منها قبول الأجنبي على ما أتذكر.

سكنا في غرفة رقم (١٠٢) وكانت تتكون من ثلاث غرف: غرفتان صغيرتان منها للنوم وأخرى كبيرة نسبياً كنا نستعملها مكانا للدراسة حيناً وللراحة حيناً آخر. وقد أصبحت هذه البناية مركزاً لنشاط اجتماعي وطلابي، وكثيراً ما أقيمت فيها حفلات راقصة اشتركنا في قسم منها ولم نشترك في قسم آخر. كما نالت أهمية خاصة بسبب انتخاب أحد ساكنيها في ابتداء عهدها رئيسا للطلبة وهو مركز مهم جداً، فكما أن مركز رئاسة الجمهورية هو أسمى مركز بالنسبة لحياة المواطن الامريكي فكذلك مركز رئاسة الطلبة بالنسبة للطالب في حياته الجامعية هو أعلى مركز اجتماعي يمكن أن يحتله طالب. ولقد عشنا في هذه البناية موسماً واحداً فقط احسسنا فيه بالراحة، فإننا وإن كنا لم نختلط الاختلاط الكافي بالطلاب الامريكان لقصر المدة من جهة ولاختلاف القومية من جهة اخرى، فاننا وقفنا على كثير من عادات القوم وصفاتهم وأخلاقهم واتصلنا بها وراقبناها عن كثب.

تركنا البناية بمحض اختيارنا، وكان في نيتي أن أخبر الحياة الامريكية في اماكن اخرى من اماكن الجامعة، فعشت موسماً في شارع من شوارع بيركلي مع عائلة امريكية، ثم موسماً آخر في شارع آخر، ثم موسماً في البيت الاممي عند اول افتتاحه، وكان هذا آخر موسم من مواسم حياتي في هذه الجامعة العظيمة.

لقد زرت جامعة كاليفورنيا ليوم واحد أوائل ١٩٥٧[133] وزرت هذه البناية، بناية باول، واستقبلتني مديرة البيت فعرفتها بهويتي، ففرحت كثيراً، وقلت لها: اريد زيارة الغرفة التي كنت اسكنها. قالت: وهل تتذكر

---

[133] زار صاحب المذكرات الولايات المتحدة في كانون الثاني سنة ١٩٥٧ وذلك حينما كان عضواً في الوفد الذي مثل العراق في هيئة الأمم المتحدة.

ما رقمها؟ قلت كلا. قالت: في أي فصل كنت في هذه البناية؟ قلت: في اول فصل افتتحت هذه البناية به. فما أن مرت لحظات حتى أتت بالسجل القديم، وقلّبت أول صفحاته فمرت على اسمي وسحبت رقم الغرفة ازاءه فكان رقم (١٠٢). قادتني هذه السيدة المحترمة ومن معي من الأساتذة الى هذه الغرفة فدخلتها، وكان أحد ساكنيها موجودا فسلمت عليه، وقلت له: إنها غرفتي وانني أول من سكنها ورجوته العناية بها اكراما لي، ثم لم اتمالك أن خنقتني العبرة واجهشت بالبكاء. كان موقفا حساساً ومنظراً مؤثراً، لكني كنت مستعجلاً ولم استطع البقاء كثيرا في هذا البيت الذي أحببته. ورجت مني هذه السيدة الفاضلة مديرة البيت ان أبقى لتناول الغداء وأن اتعرف على بعض الطلاب، وأن اتعرف على السيد باول نفسه. قلت: وهل هو هنا؟ قالت: نعم إنه يعيش هنا وزوجته منذ بضع سنوات. قلت: وكيف كان ذلك؟ قالت: لقد ساءت حالة هذا الرجل الفاضل المالية في الحقبة الأخيرة من الزمن بل أفلس، ولم يشأ أن يسترد هذا البيت العظيم، هذه المنحة الكريمة الى الجامعة، بالرغم من افلاسه وشدة حاجته الى المال، بل كل ما طلبه هو أن يعيش هو وزوجته ولا أولاد لهما في هذا البيت وهما في أخريات حياتهما، وقد رجوناهما أن يكونا مديري شرف لبيتهما الذي بنياه بمالهما. وهكذا فإن الأغنياء يتسابقون في تخصيص بعض ثرواتهم للاعمال الانسانية كبناء المستشفيات او المدارس او الكنائس او تخصيص المنح للطلاب المتفوقين في دراستهم من أبناء الفقراء او تأسيس المكتبات او المختبرات او ما شابه ذلك من الامور. إن الأغنياء وحتى متوسطي الحال يخصصون الملايين بل البلايين من الدولارات لمثل هذه الاغراض سنويا. ولا تعجبنَّ إذا ما علمت أن أقدم الجامعات وأضخمها، بل وأكثر الجامعات الامريكية اليوم قد شيدت

بدراهم المحسنين والمتبرعين. ولا تعجبن إذا ما علمت أن اشهر المستشفيات واحدثها واحسنها قد شيدت بالهبات والمنح، وهكذا قل عن الكنائس وغيرها. وقانون الدخل الامريكي يشجع مثل هذا التبرع فالتبرعات للأغراض الخيرية يعفيها القانون من الضريبة. وضريبة الدخل في امريكا ضريبة باهضة مفرطة قد تصل بالنسبة لبعض الثروات حداً عال جداً فلا تترك من الدولار إلاّ بضعة سنتات لصاحبه والباقي يذهب الى خزينة الدولة. فالمتبرع يعلم أن ثروته التي تقدر بالملايين ستذهب كلها الى الخزينة فلماذا لا يتبرع بها لأعمال الخير ولماذا لا يسجل اسمه في سجل الاحسان. وقد استغل الصهاينة هذا القانون ابشع استغلال، وهل هناك شيء في امريكا او في العالم لم يستغلوه استغلالا قبيحاً بشعاً يخدم أطماعهم ويُشبع جشعهم، فجمعوا الثروات الطائلة لـ(إسرائيل) باسم التبرعات على أساس أن هذه المبالغ معفاة من الضريبة، وأنها لولا التبرع بها لذهب معظمها الى الخزينة، أفليس من الصحيح قولنا أن الحكومة الامريكية تساعد (إسرائيل) عن هذا الطريق ولو بصورة غير مباشرة؟ أما كان باستطاعتها تعديل القانون بشكل لا يجيز التبرع بالمال الى الخارج إلاّ إذا اخضع للضريبة؟

تركت ديفز وأتيت بيركلي منتقلا من عالم الى آخر، فهذه المدينة الجميلة مدينة جامعية، تأسست من اجل الطلاب، ولتوفير الحاجات والخدمات لهم، واذ ما عطلت الجامعة وذهب الطلاب الى مدنهم فالحياة في بيركلي تتعطل هي أيضاً، لأن الحياة فيها قائمة على وجود الطلاب في الجامعة. لقد احببت بيركلي، أحببت شوارعها وعماراتها وابنيتها ومخازنها وحوانيتها وبيوتها ومتنزهاتها وكل شيء فيها. ولم تكن كبغداد او دينز تقوم في سهل، بل هي أقرب الى بيروت حيث بنيت على سفح جبل. ولقد مللت

السهل ورغبت في الجبل، والمدينة الجبلية او التي بنيت عن سفح جبل تبدو اكثر جمالا وامتع للنظر واشرح للصدر، ولا سيما في الليل، فأنت تستطيع مشاهدتها او مشاهدة بعض أقسامها، ولا سيما تلك التي بنيت على الهضبة او على الأقسام العالية من التل. وانني لأحب مثل هذه المدينة، في مرتفعاتها وفي منعطفاتها وفي شوارعها المنحدرة وبيوتها التي شيدت على طرقها الصاعدة النازلة والتي لا تسير في خط مستقيم. أحببت بيركلي وأحببت الجامعة قلبها النابض وروحها الوثّاب. ولكم أحببت هذه الجامعة الواسعة, بعاداتها وأبنيتها الضخمة، هذه العمارات التي هي عبارة عن مختبرات وصفوف وقاعات للمحاضرات والتي قد بنيت كلها او جلّها بالمرمر الابيض. أحببت campus (فناء الجامعة وإن كان لا تعجبني كلمة فناء) واحببت الحدائق المنشرة فيه وخضرة (الثيِّل) التي تصبغ كل بقعة خالية فيه، وأحببت campenelli الكامبينلي هذه المنارة القائمة في وسط الجامعة وهي التي يهتدي بها الطلاب اذا ما تاهوا في ساحات الجامعة الواسعة المتعددة، وهذه التي اذا ما صعدت اليها فانك تشرف منها على الجامعة برمتها وعلى بيركلي بأجمعها وعلى هذه التلال الخضراء التي تحيط بالجامعة والتي زادتها بهاء وجمالاً، ولتبصر منها احد هذه التلول وقد رسم في وسطه حرف C بالحرف الكبير، وهو أول حرف من كلمة الجامعة .Calif كاليفورنيا ويعد رمزاً للجامعة.

لم أكن شاهدت الجنس اللطيف بهذه الأعداد الكبيرة التي رأيتها في بيركلي. وصرت أشاهد الفتاة الامريكية، بل فتاة كاليفورنيا التي تمتاز عن غيرها بجمالها ورشاقة قوامها، بالقرب مني، أعيش معها وأتحدث اليها وأجلس في الصف بجانبها. ولاحظت أنها لا تختلف كثيراً عن الفتى، فهي

حرة طليقة تروح وتجيء، تماشي هذا وتسامر ذاك، وتضحك مع هذا وتبتسم لذاك. لم اشعر أن هناك قيودا كثيرة تقيِّدها في حركاتها وسكناتها تفرض عليها نمطاً من الحديث او الحركات وتجعلها تنكمش على نفسها او تنطوي على بعضها. لقد أدهشني ان ارى الفتاة بهذه الحرية، وانها والفتى على قدم المساواة، وشعرت انها انما تدرس لتزيد في جمالها وفي قيمتها كثيرا، وانها وان كانت تنشد الاستقلال الاقتصادي من وراء دراستها ولكنها تريد في الحقيقة ان تكون اكثر اغراء وجاذبية للرجل، إنها تريد ان تتسلح بالسلاح الملائم من اجل ان تكسبه وتحصل عليه لتتزوجه. وهل هناك شيء يهم الفتاة في الحياة، مهما كانت غنية ومثقفة وجميلة، اكثر من ايجاد شريك حياة لها.

لقد شعرت وأنا في جامعة كاليفورنيا أنني في عالم اخر لا عهد لي به من قبل، عالم يختلف كل الاختلاف عن العالم الذي اعرفه سواء كان في بغداد او بيروت او حتى في ديفز. ولكم شكرت الله على نعمته في أن أكون في جامعة من أحسن الجامعات في امريكا وفي وسط من ارقى الاوساط العلمية والاجتماعية، لقد كان كل شيء في هذه الجامعة غريبا علي، ولقد اقبلت عليها بكل نهم امتع فيها كل حواسي الخمس او الست بقدر المستطاع.

ألم يكن غريباً علي أن أُخالط الفتيات، ألم يكن غريباً أن استعمل التلفون، أو استمع الى الراديو، أو أن اشاهد انتشاره في كل بيت وفي كل مخزن وفي كل حانوت حتى حانوت صباغ الاحذية، ذلك الزنجي الاسود الذي يستمع الى موسيقى الراديو ويرقص عليها، ويوقع بخرقته، وهو يمسح الحذاء، ايقاعات منتظمة على نغماتها. ألم يكن غريباً عليَّ أن اذهب الى السينما وأن اشاهدها واستمع اليها وهي ناطقة ولم تمر بعد على هذا الاختراع

إلاّ مدة قليلة من الزمن، وكان العالم يقرأ عنه ولم يره بعد. ألم يكن غريباً أن احضر السينما بين حشد من الفتيات وأنا اجلس بينهن وليس بيني وبينهن اية معرفة سابقة. ألم يكن غريباً علي وقد دخلت السينما أن أجدها نظيفة واسعة قد زينت جدرانها باحسن زينة وزخرفت باحسن زخرف، وأن أجد مقاعدها وثيرة مريحة، ثم أجد نفسي - كما قلت - وقد أحاط بي الجمال من كل جانب ولاسيما جمال المرأة الذي يفوق كل جمال آخر، وإذا كان الجمال جميلا في كل شيء فليس هناك أجمل من جمال المرأة. كنت أدخل سينما الحمراء في (اوكلند) والتي أريد تسميتها باسم بغداد، فلا اشاهد إلاّ ما وصفت ولا ألق إلاّ هذه الوجوه الحسان، واذا ما دخلتها فلا تعرض علينا الرواية مباشرة بل لابد من منهج موسيقي ومنهج ما يعرف (بالفور فيل).

كان سِرب من الفتيات الجميلات قد انتُخِبن انتخاباً خاصاً، روعي فيه جمال الجسم ورشاقته وحسن الوجه وطلاقته، والطول واعتداله، وكأنهن من طول واحد، وكن يرقصن رقصات خلابة متنوعة. وكان أكثر ما يستهويني منهن هو رقصهن الذي يرفعن فيه سيقانهن مرة واحدة فتبدو هذه السيقان وهي مرتفعة او منخفضة كأنها ساق واحدة لما هي عليه من الانسجام والانتظام. وكان لابد من الاستماع الى المنهج المعين الذي كان يضم عزف بعض القطع الموسيقية الكلاسيكية. ولم أكن اتذوق هذا القسم من المنهج إذ لم يكن يعجبني الاستماع الى الموسيقى، وكنت اتبرم بها واتضايق منها، حتى انني كنت أؤثر ان اكون خارج السينما حتى ينتهي هذا المنهج ثم أعود ثانية، وما أن مرَّ زمن وأنا على مثل هذه الحالة حتى تعودت على الاستماع الى الموسيقى وصرت أفهمها بعض الفهم واقدرها بعض التقدير، وصارت السينما تستهويني هذه المرة لمنهجها الموسيقي قبل كل شيء بعد أن كنت لا أستسيغ هذا المنهج

وارفض الاصغاء لسماعه. وإن تذوق الموسيقى الغربية، ولا سيما الكلاسيكية، ليس من الامور العسيرة ولا سيما لابن الشرق، وعلى الاخص لابن العراق الذي كان ولا يزال في أغلبيته بعيداً عن عالم الفن والموسيقى. ومن الضياع لمن واتته الفرصة وساعده الحظ أن يدرس في الخارج أن يهمل هذه الناحية في حياتـه. ولكم أسفت حينما وجدت الكثيرين من طلابنا لا يحفلون بتنمية اذواقهم في مجال الموسيقى. لقد كان غريبا علي هذا وغير هذا، وقد لا تبدو اشياء كثيرة من هذه التي ذكرتها غريبة لبعض الناس الآن.

لم يعد التلفون ولا السينما الناطقة ولا الراديو بل ولا التلفزيون باشياء غريبة. ولم يعد الاختلاط بالجنس اللطيف بشيء غريب، ولم تعد مناظر باريس ولندن ونيويورك باشياء غريبة حتى لمن لم يسافر خارج العراق. إن السينما اليوم قد أدت دوراً كبيراً في تقريب مناظر مدن الغرب وناطحات سحابه ومنتزهاته وشوارعه، بل وحتى حياته الليلية، إلينا، فلم يعد الغرب عالما مجهولاً كل شيء فيه عجيب وغريب، فقد عرفنا الشيء الكثير عن الغرب، فإذا ما انتقلنا اليه وجدناه ليس بالمجهول ولا الغريب.

لم يكن العراق في سنة ١٩٢٦ كما هو عليه الآن في سنة ١٩٦١ فلقد تطور العالم وتطور العراق تطورا سريعاً خاطفاً في بعض الأحيان. ولم يعرف العراق في حينه كثيرا من مستحدثات المدنية الحديثة، ولم تكن هذه المدنية، في بعض تياراتها الاجتماعية والسياسية والثقافية، قد أثّرت فيه. ولم يكن العراق يعرف بعد معنى حرية المرأة واختلاط الجنسين والتعليم المختلط، ولم تكن الثقافة قد انتشرت إلاّ بصورة محددة في بعض الأوساط. أما اليوم فقد تغير العراق، وخطا خطوات واسعة حثيثة في كثير من نواحي الحياة.

فلم يعد كثير من العراقيين يعرفون الغرب من الكتب والسينما فحسب بل صاروا يعرفونه لأنهم يحييون حياة قد تشبه حياة الغرب في بعض نواحها وفي بعض اتجاهاتها. لقد عرف العراق الدراسة المختلطة في الابتدائية وفي الجامعة ولم يعرفها بعد في الدراسة المتوسطة والثانوية. ولم يعرف الشرق العربي بلداً مثل العراق تطورت فيه المرأة وتحررت وشقت طريقها في الجامعة والمجتمع بهدوء وتوئدة ومن دون أن تثير صخباً ولا ضجة. لم تتطور المرأة هنا كما تطورت في غير العراق من البلاد نتيجة معارك وضحايا كمعارك السفور والحجاب وما إلى ذلك، بل استطاعت ان تدخل الجامعة وتختلط بالفتى وتحضر معه قاعات الدرس وتجلس الى جانبه في الصف دون ان تثيرفي ذلك نقمه او تسبب محنة او تدعو الى كارثة. لقد اختلط الجنسان اليوم في الشارع والمتنزه، وفي الحفلات وفي السينما والجامعة وما شابه ذلك، وإن كان هذا الاختلاط يختلف كثيرا عن مفهوم الاختلاط في الغرب، إلاّ أنه جعل من عادة الاختلاط والالفة من العادات المعروفة والشائعة. وأدى هذا الاختلاط لا سيما في الجامعة الى صفاء النفوس وتحابب القلوب والى وقوع ما لابد وقوعه من حوادث غرامية مثيرة أحيانا انتهت في اكثرها برابطة الزواج المقدسة، وكثيرا ما تقع عيني اليوم على فتى وفتاة وهما يسيران حثيثاً (ولا يتأبط احدهما ذراع الآخر كما هي العادة في الغرب إلاّ نادراً) في أحد الشوارع، أو هما يجلسان الى بعضهما في احد المتنزهات، أو هما يتواعدان للذهاب سوية الى السينما، وقد تكون علاقتهما على الأغلب علاقة بريئة.

سَجَّلت في جامعة كاليفورنيا بيركلي في خريف ١٩٢٨ أو في أواخر هذه السنة واوائل ١٩٢٩ في بداية الشهر الاول من ١٩٢٩. لم أكن أعرف ما هي حفلات عيد الميلاد ولا حفلات عيد راس السنة، وإن كانت عندي فكرة مشوهة عن هذه الأعياد حصلت عليها وانا في بغداد، حيث كنت أرى وأنا صغير الجيش البريطاني يملأ شوارع بغداد ويملأ اوتيلاتها وملاهيها وكازينوهاتها وهو يلهو ويلعب في مجون وسكر وعربدة وكان هذا الجيش يظهر بمظهر المحتل المتجبر في اعتداءاته وطغيانه، وكان كثيرا ما يضرب الناس ويعتدي على كرامتهم ويعبث بالملهى وبأصحابه وبالراقصات ورواده، وكثيراً ما أدى هذا العبث والمجون إلى العِراك وإلى تكسير الكراسي والمناضد وفرار الناس منه وغلق ابوابه. وإنني لأتذكر حادثين بسيطين وقعا لي بالذات: كنت صغيراً وقد لبست ألبسة العيد ودشنت لأول مرة (فينة) من النوع الممتاز وذهبت الى السينما، وما أن خرجنا حتى مرت بنا سيارات جيش تحمل جنودا مسرعة كأنها السهم المارق، وكادت أن تدهس الناس وهي لا تبالي على كل حال إن داستهم او سحقتهم، واذا بإحدى هذه السيارات تمر بجانبي وكأن بها مس من الجنون، ولولا لطف الله لكنت هشيما بين عجلاتها. ولم تمهلني لحظة حتى اختطف احدهم (فينتي) الجديدة العزيزة التي لم ألبسها إلاّ بضعة ساعات، كدت اسقط على الأرض من شدة اختطاف الفينة وما تبعها من دفعة في الظهر. وشاهدت في احد الاوتيلات، وأنا في سن الشباب الباكر، ولعلني على وشك التخرج من الثانوية، بعض الناس يرقصون، فما كان من أحد الإنكليز إلاّ وتوسط حلبة الرقص وهجم على احد الراقصين دون سبب تستطيع ان تتبينه ورفعه الى فوق

بعد أن مسكه من جهة الخلف بكلتا يديه من سترته من جهة الرقبة والمقعد ثم رماه على وجهه على الارض. لم يتحمل بعض العراقيين هذا الاعتداء فقام أحدهم اليه واشبعه لكما انكليزياً و(بَسطاً) عراقياً، ثم تطور الامر الى ان صارت معركة عنيفة بين الحاضرين من العراقيين والانكليز، ولولا تدخل الشرطة السريع لكانت النتائج أقبح واضخم.

لقد اعتاد الناس في بيركلي وفي امريكا ان يحتفلوا بعيد الميلاد في البيوت وعلى اساس عائلي حسب طقوس خاصة. ويمتاز الاحتفال بوجود شجرة عيد الميلاد المزينة بمختلف الزينة والمضاءة باضواء خافتة ملونة، كما يمتاز أيضاً بوجود الهدايا التي يأتي بها (سانتا كلوز) للاطفال، ثم بالعشاء الفاخر الذي يقدم فيه دجاج الهند وحلويات معمولة من الكشمش. اما عيد رأس السنة فهو يختلف عن هذا كل الاختلاف فالناس لا يحتفلون به الا خارج البيوت، فهم أما في الشارع او في النوادي الليلية والملاهي وما شابه ذلك وقليل من الناس من يذهب الى الكنيسة. لقد عشت هذا العيد في بيركلي، ووجدت بيركلي في ليلة رأس السنة قد خرجت عن بكرة أبيها الى الشوارع. وكانت الشوارع تموج بالناس وكأن الناس موج قد طغى على المدينة واغرق كل مكان فيها، فالشوارع تزدحم بالناس وتكتظ بعشرات الالوف منهم، والكل في فرح وسرور، والكل يضحك ويصيح ويصفر بصافرته أو يزمر بمزماره او ينفخ ببوقه او يرمي على غيره هذه الأوراق الملونة الصغيرة منها او الطويلة المعروفة بالكونفتي Conafetti، والكُل كأنه الموج المتحرك المتدافع، فلا يملك الانسان وهو جزء من هذا الموج ان يمشي مثلما يريد بل هو يروح ويرجع مثلما تروح الموجة وترجع.

التخصص العلمي

إن التخصص في الزراعة يقتضي تعيين نوع الاختصاص، وإذا ما أخذت بعض الدروس العامة في الزراعة فلابد من أخذ بعض الدروس للاختصاص، ولا بد من تعيين الاختصاص لإمكان تحديد نوعية الدروس التي تؤدي اليه. لقد احترت في اختيار نوع التخصص. وسألني بعض الاخوان من العراقيين ماذا سيكون اختصاصك؟ قلت: لا ادري بعد فأنا لم اكون فكرة نهائية ولم أحزم أمري. ثم سألتهم: وماذا تدرسون أنتم؟ فأجابني اكثرهم بأنهم ينوون الاختصاص بزراعة القطن. وكان القطن محصولاً جديداً أدخل الى العراق ليكون محصولاً من المحاصيل المهمة المتوقع أن يؤدي دوراً في تنمية الثروة الاقتصادية. قلت: إذا كانت هذه نيتكم فلأكن معكم فهذه نيتي ايضا في الوقت الحاضر. وأضفت قائلاً: وإن شأني في هذا شأن من قال "حشر مع الناس عيد". لقد ذهب هذا الكلام في حينه أدراج الرياح وأصبحت هذه الحكاية البسيطة التي أتيت عفو الخاطر في ذمة الماضي، ولا ادري كيف عثرت عليها بعد ان خرجت من الوزارة سنة ١٩٥٣ في إحدى صحف المعارضة التي كان يشرف على اصدارها صالح جبر والسيد عبد المهدي. ولا ادري لماذا نُقلت، وهل كان يقصد توجيه نقد إليَّ أو تشويه سمعة، وماذا فيها من النقد؟ وكيف يمكن ان يؤدي الى تشويه السمعة من نقل هذه القصة؟ وهل يمكن ان ينقلها غير جعفر الخياط وقد كان حاضرها في بيركلي وله صلة بهذه الجريدة واصحابها في بغداد؟

وعلى أية حال لم أختص بالقطن، وأردت الاختصاص بصناعة التعليب ثم تحولت عنها، ثم اختصصت ـ أو كدت ـ قبل التخرج في علم التُربة، ثم اختصصت، ولا سيما بعد التخرج، في الاقتصاد الزراعي. إن الزراعة علم من

العلوم، وإن الاختصاص بها يقتض دراسة كثير من العلوم المتعلقة بها، وقد درست كثيرا من العلوم، فأخذت عددا من الدروس في علم الكيمياء العامة، العضوية وغير العضوية، والكيمياء الكمية والكيمياء النوعية. ودرست دروساً في علم الحيوان وعلم الوراثة وعلم الفيزياء وعلم النبات وعلم فسلجة النبات وعلم الجيولوجيا وعلم الكيمياء الحياتية وعلم الحشرات وعلم تربية الحيوان وعلم الحمضيات، ودروساً في الري والتربة، ودروساً في الاقتصاد السياسي والاقتصاد الزراعي ودروساً اخرى. ألم يصدق ما قلته للسيد ساطع الحصري، وأنا على وشك ان أختار للبعثة، من أن دماغي لم يُخلق ليكون مستعدا لواحدة من الدراستين، الادبية أو العلمية. ألم أقل له: إذا كان هناك تباين بين الدراستين العلمية والادبية فان هذا الفرق هو ظاهري فقط وانه لا فرق بينهما بالنسبة لدماغي. واني لأشعر أن دماغي يقبل على الدراستين على حد سواء ولا يفرق بينهما. واني لأشكر الله على نعمه واني لأشكره على توجيهي لدراسة العلوم. فدراسة العلوم او بعضها في نظري ضرورية لكل اختصاص مهما كان نوعه ومهما كان شكله، ولا يمكن لأحد ان يستغني عن دراسة العلوم لأي سبب من الأسباب، والاديب في نظري لا يكون اديباً حقاً، والشاعر لا يكون شاعرا فحلاً، والفيلسوف لا يكون فيلسوفا بارزاً وعميقاً، إلاَّ إذا طَعَّم دراسته الادبية او الفلسفية بدراسة العلوم. والاديب او الاجتماعي او الاقتصادي الذي ليست له دراسة علمية يختلف كل الاختلاف عن ذلك الذي استند في دراسته على العلوم فكون له عقلية علمية لتستند اليها دراسته المختلفة هذه. وقد وجدت أن الجامعات في الغرب قد أخذت بهذه الحقيقة، واشترطت دراسة حدٍ أدنى من العلوم لمن يريد الاختصاص في احدى الدراسات الأدبية او الاقتصادية او الاجتماعية أو ما شابه ذلك.

ولم أشعر بندم في حياتي، وخصوصاً بعد ان توجهت لدراسة الاقتصاد او لدراسة الحقوق فيما بعد، من أنني اكثرت من دراسة العلوم، ولم اشعر بأني أضعت فرصة من الفرص، او أنني أضعت وقتي في دراسات لا تمت بصلة كبيرة الى اختصاصي الاخير. اني لأشعر بفخر واعتزاز لأني درست العلوم وانها قد اضاءت لي روحي بمنطقها وراضت عقلي بدقتها، فالعقل العلمي عقل منطقي ورياضي يهيئ لصاحبه اتزانا في التفكير وعمقاً في التحليل واصالةً في الحكم ودقة في بعد النظر.

دخلت الجامعة فبهرتني حياتها، ودخلت أول فصل فأقبلت على الدرس وأردت ان انغمر فيه فكنت استيقظ عند الصباح وكلي قوة ونشاط. ما أجمل هذا الصباح وما أروع هذا الجو هل حقيقة نحن في فصل الشتاء، أين البرد القارس، اين الثلوج اين المدافئ و(الصوبات)؟ لم تكن هناك ثلوج، ولم يكن هناك برد قارس، ولم يكن أحد يحتاج الى المدافئ إلاّ في القليل النادر. وجدت بيركلي هكذا في الشتاء ووجدتها هكذا في الصيف. ما هذا الجو المعتدل هل نحن في مصيف؟ تتمتع بيركلي، بل تتمتع المنطقة المعروفة بمنطقة الخليج والتي تضم بيركلي وسان فرنسيسكو وأوكلاند وما جاورها، بجو عجيب غريب، جو فريد لا يضاهيه أي جو آخر في العالم، فلا هو مفرط في الشتاء ولا قائظ في الصيف، فلا تطرف في درجات الحرارة بل أن الجو يكاد يكون متشابها طوال السنة او يكاد يكون واحد في فصولها الاربعة. كنت استيقظ الصباح وكلي قوة ونشاط وما أن أفتح عيني إلاّ وأرى الضباب قد لف بيركلي من كل جانب، وغطى قمم التلول والاشجار والسفوح والهضاب والسهول، بل غطى المدينة برمتها وكل بقعة فيها، فما هي الا ساعة او بضعة ساعات حتى ينقشع الضباب تدريجيا ويخف في كثافته شيئا فشيئاً،

وما هي إلاّ مدة قصيرة حتى تنتهي بيركلي من حَمّامها وتبرز من خدرها كأنظف ما تكون وأبهج ما تكون. ولم اتبرم بالضباب ولم اتضايق منه وأنا الذي اتيت من بغداد واعتدت على جوها الجاف، بل أن الأمر كان على العكس من هذا، فقد أعجبت بالضباب، وقد أحببته وسرني منظره وهو يلف بيركلي لفاً شديداً وكثيفاً في بعض الأحيان، حتى أن من العسير على العين أن تخترقه وتنظر بعيداً. وقد يسأم الانسان ما اعتاد عليه وقد يبرم بما أَلِفه فيحب الجبل إذا كان هو من الصحراء، أو يحب الطقس البارد إذا كان قد عاش في طقس حار، أو يحب البلاد المُشمسة إذا كان قد نشأ وترعرع في بلاد لا تشرق الشمس فيها كثيراً. إن الانسان يحب التغير بفطرته ويسأم الحياة على وتيرة واحدة، وقد لا يكون هذا التغير الى الأحسن دائماً غير انه مع هذا يرتاح نفسيا الى التغير، إلى كل تغير ولا سيما إذا كان هذا التغير إلى الأحسن. فليس اذن من الغريب ان أحب بيركلي وأحب ضبابها الذي لا يجيء إلا بقدر، وإلاّ في وقت معين ثم يزول واذا بيركلي تتمتع بجوها المعتدل الذي لا يضايقك حره ولا برده، وبجوها المشمس المنعش الذي لا تلفح وجهك فيه سمومه ولا تحرقك شمسه.

لقد أقبلت على الدرس في بناية هيلكارد، وهي اهم بناية في كلية الزراعة التي هي جزء من الجامعة، والتي لا تبعد عن الابنية الاخرى لباقي الكليات إلاّ عشرات الخطوات، بل ليست هنالك في الحقيقة ابنية خاصة بالكليات المختلفة ينفصل بعضها عن بعض بل هنالك بنايات يشترك فيها الطلاب من مختلف الكليات. فهناك مثلا بناية العلوم الجبارة التي يؤمها الطلاب على اختلاف كلياتهم للاستماع الى المحاضرة او للعمل في المختبر، وهنالك بناية هويلر Wheelir Hall التي يحضر قاعتها الكبيرة مئات الطلاب للاستماع

الى محاضرة الاقتصاد التي يلقيها الاستاذ الشهيرB. Ira. cros (ايرا كروس). ولقد اقبلت على الدرس في بناية هويلر لدراسة الاقتصاد، واني لأتذكر هذه البناية الجميلة الفخمة المشيدة جدرانها بالمرمر الأبيض، والتي يرقى اليها بسلالم ممتدة على طول البناية من جهة مدخلها الرئيس، واني ما زلت أتذكر قاعتها الكبيرة الشهيرة الواسعة التي تشبه أن تكون قاعة السينما الواسعة المدرجة، كما أتذكر الأستاذ العملاق كروس وهو يقف على مسرح القاعة يحاضر ساعة كاملة وهو يهدر كالسيل والكل ينصتون. وفي ذات مرة توقف الأستاذ فجأة وهو يحاضر ثم وجه كلامه الى شابين لم يعرف اسميهما بالطبع، وقال: أنت الذي تلبس بلوزاً أزرقاً وأنتِ التي بجنبه تلبسين بلوزاً وردياً، لِم تتكلمان؟هل طلبت منكما أن تحضرا المحاضرة؟ إن كل شخص حر في عدم الحضور، ولكنه ليس بحُر متى حضر، فليس من الإنصاف التشويش على الغير وليس من الإنصاف من أجل هذا الغزل إشغال الصف عن واجبه. أخرجا وأرجو أن يتسع لكما الخارج لما أنتما فيه. خرج الطالب والطالبة وقد تألما وامتعضا فلم يكونا ينتظران أن يُوبَّخا مثل هذا التوبيخ العلني المر، ولقد شعرت وشعر الكثيرون أن الاجراء كان قاسياً، ولو انه اقتصر على مجرد التوبيخ لكان ربما عادلاً. واحتجت الطالبات بكتاب أرسلنه إلى الأستاذ على هذه المعاملة، فما كان من الاستاذ إلاّ أن قرأ هذا الكتاب وقال: إن للمحاضرة حُرمة وللوقت ثمن.

ومن العجيب أن يواتيني الحظ فأزور الجامعة سنة ١٩٥٧ وأزور بناية هويلر بطبيعة الحال، ثم أدخل هذه القاعة التي لها مكانة خاصة في قلبي، وإذا بها مليئة بالطلاب كعادتها، فجلست بينهم استمع للمحاضرة، وكانت محاضرة اقتصادية تدور حول اسباب الازمة الاقتصادية لسنة ١٩٢٩،

فتملكني إحساس بأني عدت تلميذا استمع الى نفس المحاضرة في نفس القاعة من البناية في نفس الجامعة. وكم من مرة استمعت الى الاستاذ كروس وهو يحاضر عنها في سنة ١٩٢٩ بالذات، ولكن لم يكن الاستاذ كروس هو المحاضر هذه المرة فلقد أحيل على التقاعد. ولم أتمالك نفسي وانا بين الطلاب إلاّ ان دمعت عيني. ولاحظ بعض الطلاب الذين جلست بقربهم انني غريب واني اكبر منهم في السن ولايمكن ان اكون تلميذاً، كما لاحظوا كذلك ان الدموع ترقرقت في عيني فهل فطن احدهم الى اني كنت تلميذا مثلهم استمع الى المحاضرة في نفس القاعة قبل نحو من ٢٨ سنة؟!

أقبلت على الدراسة بنَهَم، وذهبت إلى مكتبة الجامعة التي تعد من اكبر وأحدث المكتبات في العالم وتضم كتباً تعد بعشرات الالوف. ويوجد بالإضافة اليها مكتبة فخمة لكل كلية من الكليات. والمكتبة العامة نفسها تضم عددا من المكتبات الفرعية، كما تضم عددا من الصالات للقراءة، وإنني وإن كنت قد تجولت في هذه المكتبة، أو المكتبات، وقرأت في مختلف قاعاتها غير أني اخترت أن أقضي معظم أوقات القراءة والدرس في قاعة تسمى Reserve Reading Room ولعلها تعني القاعة المحجوزة للقراءة، وقد عرفت من الطلاب أنها تدعى بالقاعة المحجوزة لعمل مواعيد مع البنات، فلقد اشتهرت هذه القاعة بكثرة وجود الجنس اللطيف فيها وتردد الشباب عليها، وبكثرة ما يحدث بينهم من اتصال وتقارب وتعارف وضرب مواعيد، على أني كنت أتردد على هذه القاعة الجميلة لأقضي الساعات الطويلة دارساً باحثاً منقباً في الكتب الجامعية وفي امهات المصادر، وكنت أينما حللت وحيثما جلست فلابد أن أجد نفراً من الغيد الحسان يجلسن أمامي وعلى جانبي، وكنت راضيا في اكثر الاحيان بمجرد جلوسهن أمامي او بجنبي، قانعاً بأن

اختلس النظر اليهن بين حين وأخر.. ولم يكن من السهل الحديث في هذه القاعة إذ تنص قوانينها على الإلتزام بالضمت والهدوء فلا يجوز الحديث او الكلام.

لقد أقبلت على الدرس بحرص ونهم وشغف، وكان بودي أن لايقل معدلي هذه المرة ايضاً عن الثمانين بالمائة، وكان يشجعني على ذلك ما انجزته في جامعة بيروت، وما حصلت عليه في ديفز، كما كان يشجعني على ذلك الكلام الحماسي الذي سمعته من اخواني العراقيين، ولاسيما عبد الجبار جلبي، عندما حصلت على معدل في ديفز، غير انني وجدت نفسي وانا منكب على الدرس قد خصصت الوقت كله او يكاد للدرس، وقضيت الوقت كله او يكاد بين جدران اربعة، أما في هذه البناية او في تلك، وقد وجدت ان الدرس المتواصل في الكتب والمكتبات كاد أن يعزلني عن الاصدقاء والرفاق بل كاد يعزلني عن المجتمع ويفصلني عما يدور فيه، بل كاد أن يحجز بيني وبين الحياة، فقررت ان الحياة في الجامعة لا تعني الاقتصار على المحاضرات ودراسة الكتب والعمل في المختبرات فحسب، بل أن الحياة الجامعية اوسع من هذا بكثير، ومن الحرام على من يدرس في الغرب أن يتعلم الحياة في الكتب فحسب، فالدراسة في الغرب تعني الدراسة في الجامعة وتعني الدراسة في المجتمع. وإذا كان في امكان أي طالب أن يدرس أينما كانت الكتب، وفي أية جامعة من جامعات الغرب، فليس في امكانه أن يدرس محيط الغرب ومجتمعه.

وليس من شك في أن دراسة الكتب والنجاح في الامتحان والحصول على الشهادة هي أولى واجبات الطالب ولكن ليست كل شيء في حياته، وليست كل شيء لتكوين مستقبله، فلابد إذن من دراسة المحيط وتفهمه، ولابد من

الاختلاط بالناس ومعاشرتهم والوقوف على تقاليدهم وعاداتهم، ولابد من أن يبذل الطالب كل جهده، وهو غريب، مع تكييف نفسه لهذا المحيط الجديد، وشعاره يجب أن يكون دراسة الجامعة والمجتمع، وعليه أن يستفيد كل الاستفادة منها على حد سواء وان يفهم المجتمع ويبتهج به وينعم بنعمه الى اقصى حدود. ولكن يجب عليه وهو ينعم أن لاينسى ان واجبه الأول هو الدراسة العالية والحصول على الشهادة، وأنه اذا ما اصطدم هذا الواجب بأي شيء آخر فهو الذي يجب أن يقدم على غيره وينتصر على سواه، وانه هو الذي يجب أن يسود وان يخضع له كل شيء عداه.

مخالطة المجتمع

ليس من الهيِّن على الأجنبي أن يختلط بالناس ويمتزج بالمجتمع وهو غير مسلح بالسلاح الملائم، وليس من الميسورعلى الاجنبي أن يتكيف للمحيط وهو غريب عنه جنساً ولغة وثقافة وعادات وتقاليد وحتى ديانة، فهو غريب على المجتمع والمجتمع غريب عنه. إن الاجنبي قد لا يعرف المجتمع وقد لا يعرف لغته وإذا عرفها فضمن حدود محدودة، وقد لايعرف كثيراً من عاداته وتقاليده ولايعرف الاسرة ومقوماتها ونوع الروابط التي تربط بين أفرادها، وقد لا يعرف كثيراً عن استقلال الولد بعد الثامنة عشر أو حرية البنت بعد هذا السن، وقد لا يفهم مغزى اعتماد كل منهما على نفسه من تدبير أمور معاشه وقيام كل منهما بأي عمل يدر عليه أجراً وكسباً، وقد لا يعرف معنى الروابط التي تربط الناس ببعضهم، وقد لا يفهم كثيراً عن مفاهيم المرأة وحريتها، بل لا يعرف بعض الأجانب هذا او غير هذا، مثل اصول المائدة والأكل بالشوكة والسكين، فليس من الهين على الأجنبي إذن أن

ينسجم مع المحيط ويمتزج مع الناس ويندمج في المجتمع، وإنه مهما أراد ذلك وصرف مجهوداً في سبيل ذلك فلابد أن يبقى اجنبياً وتبقى بعض الحواجز تفصل بينه وبين المجتمع، وإنه مهما أراد أن يتفهم المجتمع ويتذوق حياته ويتمتع بامتيازاته التي يضفيها على ابنه الذي ولد فيه وترعرع. وهل يمكن دراسة المجتمع الاّ في المجتمع نفسه وإلاّ أن تعيش عيشه وتحيا حياته، والا ان تمارس عاداته وتتقيد بتقاليده وأن تعرف الناس وتختلط بهم وتعاشرهم وتفهم - أحسن ما يكون الفهم - مفاهيمهم الخلقية والروحية والنفسية والمادية، أي أن تعرف باختصار فلسفتهم في الحياة.

وكما أنه ليس من الهين على الأجنبي أن يُقبِل على المحيط فليس من الهين على المحيط أن يَقبَل بالأجنبي، فالمحيط لا يرحب بالأجنبي ولا يفتح له أبوابه، بل كثيرا ما يقيم دونه الحواجز ويضع بوجهه انواع الصعوبات والعقبات، وكثيرا ما يسأم الأجنبي بالمحيط ويتبرم به ويضيق بحياته، وتفسير ذلك أن أمريكا كانت حتى سنة ١٩٢٩ منكمشة على نفسها، منطوية على ذاتها، فقد انعزلت عن العالم أو كادت، وكانت تتبع بالفعل طريق سياسة العزلة في سياستها الخارجية. ولم تسهم أمريكا في السياسة الدولية، بل لم تساهم حتى في عصبة الأمم التي كان تشكيلها من مقترحات أمريكا ومبتكراتها، كما لم تلعب أي دور عالمي وهي التي لعبت دوراً بارزاً في الحرب العالمية الأولى وكانت العامل الأساسي في كسب الحرب وانتصار الحلفاء. ولم تؤثر هذه السياسة في علاقتها الخارجية فحسب بل انعكست أيضا على علاقتها بالنسبة للأجانب الموجودين فيها. لم تكُ أمريكا تعرف الشيء الكثير عن العالم الخارجي وعن الأمم الأخرى وعن ثقافة هذه الأمم وحضاراتها وأمانيها وآمالها في الحرية والاستقلال ومنجزاتها في التطور

العلمي والسياسي والاجتماعي والاقتصادي. وكنت أشعر وأنا في أمريكا بأن الأمريكان يجهلون الشيء الكثير عما يدور خارج بلادهم واذا ذكروا كلمة العالم أثناء حديثهم فلا يقصدون به إلاّ العالم الامريكي، ومن ثم لم يعرفوا شيئا يذكر عن البلاد العربية أو عن العراق، بل أن قسما منهم لم يسمع به وأن القسم الآخر اذا ماعرفه فلا يعرفه إلاّ باسم ما بين النهرين ذلك الاسم الذي ورد ذكره في الانجيل[١٣٤]، وقد بدا لي آنذاك أن اتصالهم كان بالدرجة الأولى بنوع معين من الأجانب هم الصينيين واليابانيين والهنود (من الهند وليس من الهنود الحمر). ومن سوء الحظ أن يختلف هؤلاء الأجانب عن الأمريكان في كل شيء ولا سيما في أشكالهم وسِحنهم وفي كثير من عاداتهم وتقاليدهم بل أن قسما كبيراً منهم يحمل معه عادات وتقاليد لايمكن أن يستسيغها المحيط بل كان كثيرا ما يمجها ويرفضها، ومن سوء الحظ أيضاً أن يكون لدى الأمريكان عدة عقد بالنسبة الى ما يسمونهم "بالملونين".

وكانت لديهم مشكلة من اكبر المشاكل الانسانية، وهي مشكلة الزنوج والذين يكونون نسبة لا تقل عن ١٠ بالمائة من مجموع الشعب، غير أنهم يكونون نِسَباً عالية في الجنوب، وقد تبلغ نِسبتهم في بعض ولاياته الى ٤٠ او الى٥٠٪. ولقد نشأت المشكلة عندما استقدم الأمريكان عشرات الألوف من أفريقيا للعمل في مزارع القطن. ولا ينكر أحد أن تاريخ الزنوج في أمريكا محشود ولاسيما في بعض فتراته بكثير من المآسي والمحن، وما الحرب الأهلية الأمريكية بقيادة رئيس الجمهورية ابراهيم لنكولن[١٣٥] إلاّ حرباً من أجل تحرير العبيد. لقد شعرت وأنا في جامعة بركلي ان لدى الأمريكان شعور

---

[١٣٤] لعله يقصد: في التوراة أو العهد القديم.

[١٣٥] (١٨٠٩- ١٨٦٥).

خاص تجاه الأجانب لم يكن شعور صداقة على كل حال انما كان شعور أقرب الى شعور الابتعاد والنفور بل أقرب الى شعور العداء. وإنني لأتذكر تلك الضجة التي أثارها بعض الطلاب والحملة التي استهدفوا بها تطهير واجهات الجامعة من الملونين حيث كان يسكن بالقرب من الجامعة عدد غير قليل من الصينين واليابانيين والهنود وكان ذلك ما أثار بعض الطلاب الأمريكان، فقاموا بحملة هوجاء لإخراج هؤلاء من بيوتهم وابعادهم عن السكن بالقرب من الكامبس، في الجامعة، ولا أتذكر كيف انتهت هذه الحملة الرعناء ولكن أتذكر أنها سببت امتعاض كثير من الطلاب الأجانب غير الملونين وامتعاض كثير من الطلاب والاساتذة الأمريكان. وليس من شك أن الوضع في أمريكا وفي الجامعات قد اختلف الآن عما كان عليه وقد خرجوا من عزلتهم ولاسيما بعد الحرب العالمية الثانية وتسلموا قيادة العالم، وإن الأمريكان اليوم أكثر فهما للأجنبي وأقرب الى معرفة عاداته وتقاليده.

كان في سان فرنسيسكو كل ما يوجد في كل مدينة كبيرة من سينمات وملاهي ومنتزهات وحدائق كبيرة تكاد تكون غابات تتخللها بحيرات اصطناعية، وكانت تعجبني لأنها لم تكن منبسطة بل كانت جبلية فيها التلول والسفوح والمنخفضات وفيها الشوارع الصاعدة والمتعرجة والمائلة والنازلة وماشابه ذلك في الامور التي تمتاز بها مدينة من هذا القبيل، ثم كانت فيها بنايات شاهقة هي أشبه ببنايات ناطحات السحاب، وعمارات فخمة ضخمة،ولعلها المدينة الوحيدة آنذاك التي فيها قبل هذا ناطحات السحاب على شاطئ البحر الغربي برمته. وكان يعجبني فيها انها اشتهرت بمناخها اللطيف وجوها المعتدل لذا كنت أُسرِّي فيها عن النفس وكنت أجد متعة ولذة. كما تقدر لهذه في سنة ١٩٤٥ان تكون مركز لهيئة ألأمم المتحدة، ولعل

هذه المدينة التي عرفها التاريخ أسوء ما عرفها في الزلزال الذي أصابها سنة ١٩٠٦، والذي كاد أن يأتي عليها برمتها فذهبت ضحيته المئات والألوف من الناس وهُدّم او ابتلع قسما غير قليل من المدينة ذاتها؛ اقول: تضم هذه المدينة فيما تضم من الاشياء الشهيرة حديقة الحيوان، ولقد أشتهرت هذه الحديقة بسعتها وتنظيمها وبنايتها وبحيراتها الإصطناعية وغاباتها ووجود مختلف الحيوانات والنباتات النادرة، وكانت بالنسبة لي في الأقل أول حديقة للحيوانات أشاهدها في حياتي. وقد ذهبت مرة على ما أتذكر الى مايسمى بحديقة Luna park حيث تجد عالما خاصا فيه مختلف الألعاب وأدوات اللعب. لقد ركبت مرة مع أحدى هذا القطار الملعون الذي ينطلق صاعدا نازلاً، متعرجاً متموجاً بسرعة مذهلة. وما أن ركبته وصعد بي لا يلوي عن شيء حتى خيل لي وهو يصعد مارقا كالسهم الى كبد السماء وهابطا فجأة وبسرعة من اعلى ذروته انني سأضرب الأرض حتما من هذا العلو الشاهق وأنني ملاق حتفي لامحالة، فأغمضت عينيَّ وامسكت بقضبان الكرسي الحديدية الجانبية ولم أسمع وانا اصعد وانزل الاقهقهة الناس ورعد القطار، فحمدت الله على بلوغ النهاية، ولم اركب هذا القطار ثانية طوال حياتي.

لقد أخبرني مرة صديقي ممتاز[١٣٦]، وكان قد رجع من سان فرانسيسكو، قائلا: أتدري ماذا حدث لي البارحة؟ قلت: ماذا حدث؟ قال: ما أن نزلت من القطار حتى تبعني شخصان قويان طويلان ضخمان، ثم أستوقفني احدهما مناديا ها ايها القصير Hay shorty أرني ساعتك وقل لي كم هي الساعة. فاضطربت وترددت في اخراج الساعة، وما هي إلاّ صرخة أخرى حتى كانت الساعة في جيبه ثم ذهب لا يلوي على شيء. قال: أتدري لقد ذهبت الى هذه

---

[١٣٦] يريد: ممتاز عارف.

المدينة الجميلة عشرات المرات ولم أصادف فيها ما يكدر صفوي وينغص علي لذتي إلاَ هذه المرة. كان صديقي ممتاز قصيراً حتى بالنسبة لنا نحن القِصار، أو مربوعي القامة، وكان مرة قد منع من الدخول معنا إلى احد محلات اللهو بحجة أن سنه أصغر من السن المباح ولم يفد قولنا بأنه ليس صغيرا في السن بل أنه أكبر منا سناً.

وفي سان فرنسيسكو مخازن كبيرة دهشت عندما دخلت فيها لأول مرة فهي واسعة ذات طوابق عديدة وكل طابق فيه أقسام متعددة، وكل قسم أعد لحاجة من الحاجات فهذا للألبسة وذاك للمعاطف وأخر للثياب ومثله للأحذية وهكذا، وفيها للنساء ما فيها للرجال وأكثر، ولا ينتظر الإنسان طويلا حتى يحصل على ما يريد ولا يحتاج الا أن يشتري كل شيء جاهزا بما في ذلك السترة والبنطلون.

وكانت في (ريفرسايد) دورة صيفية لدراسة الحمضيات، وأستاذ الدورة هو الاختصاص الشهير البرفسور هِدسون الذي ذاع صيته في اختصاصه، حتى أن بعض الدول صارت تستعين بخبرته في زراعة الحمضيات وتحسين أنواعها، وكان له حظ او سوء حظ مع الجنس اللطيف، فكن يفتتن به حتى لقد تزوج وطلق أكثر من مرة، وكان في هذه الدورة يصطحب سكرتيرة جميلة في الثلاثين من عمرها أو ما يزيد على ذلك بقليل قيل أنه تزوجها فيما بعد. وريفر سابد هذه قرية كبيرة تقع على بعد نحو من ٤٠ أو ٥٠ كيلو متر من الجنوب الشرقي من مدينتي لوس انجلوس وهوليود، وكان مناخها حارا وجافا في الصيف، وقد تصل درجة الحرارة فيها الى نحو ٩٦ فهرنهايت. سافرت الى هذه القرية مع شاب أمريكي من أصل أسباني، جمعت بيننا الصداقة إذ كان يدرس معي في الجامعة، وكانت لديه سيارة صغيرة ذات

مقعدين فسرنا الليلة كله حتى الصباح حتى وصلنا لوس أنجلوس. وكنا في طريقنا نصادف بين الفينة والفينة اناسا من كلا الجنسين واقفين في الطريق يومئون لأصحاب السيارات بالوقوف واصطحابهم معهم، ولم اكن أعرف هذه العادة من قبل، فقلت لصاحبي من هؤلاء ولماذا يومئون وماذا يريدون؟ أخبرني بأن هؤلاء لا يملكون أجرة السفر من مدينة الى أخرى وهم يخرجون الى الطريق العام يلتمسون المساعدة، وما أن انتهينا من حديثنا حتى لمحت فتاتين جميلتين يومئان لنا، قلت: ولماذا لا نقف ونأخذهما؟ قال: لا تكفي السيارة إلاّ لشخص واحد يجلس بيننا، فإن استطعت ان تتحمل الثانية بأن تقعد بجنبك فلا مانع لدي من الوقوف. قلت: هيا نقف! وهكذا اصطحبنا الفتاتين معنا فجلست إحداهما بيني وبينه والأخرى في حِجري؟

وجدت في (ريفر سايد) جعفر خياط وعبد الجبار بكر وممتاز عارف، ثم تعرفت على شخص عربي آخر من سورية اسمه...[١٣٧] البكري. كان مرحا لطيفا غير أني لم أشعر أنه كان مقبلاً على الدرس كل الأقبال، ولم يستطع النجاح في تلك الدورة. ولقد غاب عني سنوات وسنوات واذا بي ألاقيه في بغداد موظفاً في المفوضية السورية ثم قائماً بأعمالها. وكان قد تعرف على إحدى بناتٍ ثلاث للزعيم العراقي المعروف المرحوم ياسين الهاشمي[١٣٨] في الشام وتزوج بها هناك. لقد استطاع هنا الشاب أن يشغل مركزه وبنجاح وقد ساعده على التعرف على كثير من رجالات العراق وشبابه والاختلاط بالمحيط بزواجه بهذه الفتاة العراقية المعروفة.

---

[١٣٧] بياض في الأصل.

[١٣٨] رئيس الوزراء العراقي، ولد سنة ١٨٨٤ وتوفي سنة ١٩٣٧، تولى رئاسة الوزراء سنة ١٩٢٤-١٩٢٥، وسنة ١٩٣٥-١٩٣٦.

كانت الدورة في (ريفر سايد) من ألذ وأمتع الدورات التي دخلتها في حياتي. وقد أحببت (ريفرسايد)، ولربما أحببت أيضاً حرارتها المرتفعة إلى حد أني لم أكن أتضايق منها، وهي لم تكن على كل حال تلازمنا اثناء النهار إلاّ ساعتين أو ثلاث وفيما عدا ذلك تنخفض درجات الحرارة ويطيب الجو ويتلطف المناخ.

في هوليود

لقد كانت هذه المدينة قريبة من لوس انجلس وقريبة من هوليود مدينة السينما، وهذه في الحقيقة ليست إلاّ ضاحية من ضواحي لوس انجلوس. وكم كان يشدني اسم هوليود ويغريني على زيارتها والتفرج على معالمها وخصوصاً وأنا اسمع أن هوليود جذبت اليها بعض فتيات الجامعة الجميلات اللواتي فَضّلن الحياة في هوليود على الحياة في الجامعة. وجمال بنات كاليفورنيا مشهور، وجمال بنات جامعة كاليفورنيا مشهور أيضاً على نحو خاص. وقد كان يعجبني أن ازور هذه المدينة وأتفرج على سينماتها ودورها ومطاعمها وملاهيها وأن التقي ببعض نجومها. وكنا نزور هوليود في كل العطل الأسبوعية، وكل عطلة تكون عادة في يومي السبت والأحد، ثم بقينا فيها مدة ليست بالقصيرة بعد أن انتهينا من الدورة الدراسية ونحن في طريق عودتنا الى جامعة كاليفورنيا بيركلي.

بهرتنا هوليود بجمالها، فأكلنا في مطاعمها المشهورة ولاسيما مطعم الشيخ، ولا أدري اذا كان قد شيد لتخليد ذكرى رودولف فالنتينو[١٣٩] في دوره

---

[١٣٩] Valentino ممثل أمريكي من أصل إيطالي، من كبار نجوم هوليود في العشرينات، نال شهرة عالمية ولقب بمعبود النساء، توفي سنة ١٩٢٦.

المشهور في رواية الشيخ، ودخلنا المطعم ونحن نسير على رمال وأمامنا في صدره قد علقت لوحات كبيرة جميلة تمثل الصحراء والخيم والرمال والحصان والفارس بالزي العربي وفي رأسه كوفية وعقال ولوحات أخرى كبيرة أيضاً تضم أجواقاً موسيقية وراقصات عاريات على الطريقة الشرقية، فتشعر بأن المطعم قد احيط بجو شرقي سحري غامض قد انتثرت في أركانه وفي جوانبه أضواء خافتة وكأنك تسمع - وانت تدخل - ألوانا من الموسيقى العذبة تأتي من بعيد. وليس من السهل أن تجد محلاً خالياً في هذا المطعم، فعليك أن تنتظر حتى يأتي دورك في الجلوس، وإن المقاصير ملآنة بالأزواج فكل واحدة منها مشغولة بشاب وشابة، اوبعجوز وشابة، او شاب وعجوز. وكنت أسر لمنظر الشاب والشابة وهو منظر منسجم طبيعي آخاذ يتدفق حيوية وجمالاً، لكني أعجب من أن أرى الشابة مع عجوز او العجوزة مع شاب! وكان يؤذيني هذا التنافر وانعدام الذوق والانسجام فأتساءل: كيف يمكن لشابة أن تقضي سهرتها مع عجوز وكيف تستطيع أن تأنس حقا بهذه الصحبة وتتمتع بهذه الليلة؟ وكنت أعجب كيف يقبل هذا الشاب بهذه العجوزة وكيف ينعم برفقتها وتطيب له معاشرتها؟ ثم وجدت أن الشابة لا تخرج مع عجوز إلاّ لأنه ينفق عليها بسعة ويغدق عليها المال والهدايا ولأنه غني ويضحي بالمال الكثير من أجل راحتها وسعادتها، وأنها لولا هذا العجوز لما استطاعت ان تغشى مثل هذه المحلات الراقية الغالية، ولما استطاعت ان تلبس الألبسة الزاهية الفاخرة وتتحلى بهذه المجوهرات البراقة الثمينة، ثم اكتشفت أن الآية قد انعكست وان هذا الشاب لايخرج مع هذه العجوزة إلاّ لثروتها الطائلة وغناها العريض، وأنه يعيش هذه الحياة الباذخة المسرفة من وراء هذا الفحش في السخاء والثروة.

دخلت إحدى السينمات المشهورة والمعروفة باسم السينما الصيفية، واستوقفتني وأنا في المدخل تماثيل كاملة او نصفية لبعض المشاهير من نجوم ونجمات السينما، ثم استوقفتني آثار أقدام كُتِبت عليها أسماء أصحابها من مشاهير النجوم من كلا الجنسين. ولقد قيل لي أن هؤلاء النجوم حضروا افتتاح هذه السينما وقد طُبعت آثار اقدامهم تكريماً للسينما وتخليداً للنجوم. إن هذه السينما وأخرى لشركة (بارمانت) وأخرى (لفوكس)، هي من اكبر واشهر السينمات في العالم وتمتاز بكونها تعرض فيها الأفلام التي تخرجها هذه الشركات ثم تعرض بعدئذ على باقي السينمات في الولايات المتحدة والعالم. ولقد تجولت في شوارع هوليود وتفرجت على مخازنها وتنزهت في منتزهاتها ورأيت الثروة والبذخ والجمال، ثم ذهبت إلى حيث يسكن الفنانون، في هضبة طويلة أدهشتني بشوارعها وبيوتها وحدائقها. إنها فيلات وبيوت الممثلين والممثلات، وقد توقفت عند بعضٍ منها لأنظر اليها ولأراها من قرب، لقد بني أكثرها على الطراز العربي الأسباني وضم أكثرها حدائق غناء وساحات للتنس وأحواض للسباحة هي آية في البذخ والثراء وآية في الفن والجمال.

كانت لدى صديقنا عبد الجبار بكر سيارة مستعملة، وهي على كل حال السيارة الوحيدة التي تملكها البعثة العراقية بأجمعها! لم يكن هذا هو حال الطلاب المصريين فقد كان كل منهم يملك سيارة. إن مخصصات البعثة التي كانت تدفعها الحكومة المصرية لكل طالب هي ١٥٠ دولار شهرياً بينما كانت مخصصات الطالب العراقي آنذاك ٦٦ دولار شهرياً فقط، وعلى أية حال فلقد قمنا بهذه السيارة بعدة سفرات أهمها سفرات ثلاث: سفرة إلى هوليود، وسفرة إلى أورغن وواشنطن، وسفرة إلى وادي اليوسامتي.

كانت السيارة ذات مقعد واحد بجنب السائق فقط، أما القسم الخلفي فهو مُعد للشنط وما شابهها ولا يمكن الجلوس فيه، ولكننا كنا نتجاوز على كل هذا وكنا نحشر أنفسنا فنجلس ثلاثة بما فينا السائق في القسم الأمامي، وكنا نعد القسم الخلفي بعد أن نضع فيه فراشاً ومخاديد لأماكن الجلوس على الفراش والاتكاء على الوسادة فلقد قررنا السفر إلى هوليود، وكان لابد من تنظيم الجلوس فاتفقنا على أن يجلس كل اثنين منا في المقعد الأمامي مدة من الزمن ثم يرجعا الى الخلف، ثم ينتقل من كان في الخلف الى الأمام لنفس المدة من الزمن. وهكذا سرنا على بركة الله، أنا وجعفر وممتاز وناظم سرسم، ويسوق السيارة صاحبها بالطبع السيد عبد الجبار بكر. وكان لابد ونحن نقطع هذه المسافات الطويلة أن نمزح مع بعضنا وننكت على بعضنا، وكنا نتوقف بين الفينة والفينة نرتاح او نأكل. ولما كانت السيارة مستعملة والتايرات تكاد تكون (مأكولة) فإننا كنا نتوقف في كل مدينة نمر بها لأجراء الاسعافات اللازمة. وقد تحرَّج الموقف مرة بأن (انثقبت) احدى التايرات وما أن سرنا مسافة قصيرة حتى انثقبت الأخرى وهي الاحتياطية، فلم يكن بد من توقفنا، ولم يكن ثمة بد من أن أمسك أنا بأحد التايرات وجعفر خياط بالآخر. ووقفنا في الشارع المعروف بالطريق العالي High way نومئ للسيارات بالوقوف. ولم ننتظر كثيراً أذ وقفت سيارة تقودها فتاة جميلة تجلس بجانبها فتاة أجمل منها وقالتا: تفضلا! إنكما في محنة، لقد شاهدنا سيارتكما واقفة ورأيناكما تحملان التايرات فانكسر قلبنا عليكما. قلنا: شكراً لكما وشكراً لهذين القلبين الشفيقين فما خلقا والله إلاّ للرحمة وإلاّ لإغاثة الملهوف واعانة المنكوب. ثم داعبانا وداعبنهما مداعبة خفيفة.

وصلنا هوليود ونحن طوال الطريق نخدم هذه السيارة ونغسلها ونشحمها ونبدل دهنها ونملأها وقودا ونخدم تايراتها فننفخها تارة ونرقعها أخرى ونصلحها مرات ومرات، وكنا كلنا نشترك في تقديم هذه الخدمات كما كنا نشترك فيما تحتاج اليه من نفقات. ولم تكن هوليود بغريبة عنا هذه المرة ولكن لم يكن في وسعنا أن ننعم بكل مباهجها ومحاسنها إذ ليس بوسعنا أن ننفق عن سعة ونحن طلاب ومواردنا محدودة ومخصصات البعثة قليلة. وكنا نقتصد ونقتر لنجمع يعض المال ونضيفه إلى ما يرسله الينا او إلى بعضنا أهلونا لننفق هذا كله - وهو ضئيل على كل حال - أيام العطل والسفرات. وكان بعضنا يشتغل بتقديم الطعام في بعض المطاعم كناظم سرسم، أو بيع بعض المجلات كعبد الجبار جلبي لتوفير بعض المال لأيام العطل.

لقد حضرنا هذه المرة مدينة (باسيدنا) بالقرب من هوليود، وفي عيد من أهم اعيادها ولِنُسمِّه عيد الربيع. كانت المدينة تخرج عن بَكرة أبيها تُحيِّي الربيع في موكب الربيع. وكنا نستقبل موكباً حافلاً واستعراضاً رائعاً حيث تسير من أمامنا عربات وبأشكال وحجوم مختلفة قد زينت بانواع الزينة وجُمِّلت تجميلاً أخّاذاً منسق الألوان والأشكال، وكان يغطي هذه العربات غطاء كثيف من الورود الزاهية ذات الألوان المتنوعة الخلابة، بل كانت العربة تبدو كأنها صنعت من الزهور فكل شيء فيها صنع من الزهور وليس من أي شيء آخر، وقد وضعت على جوانبها وفي كل مكان فيها ورود بشرية اجمل من الورود وأزهار أنسانية. وكان الموكب طويلا والعربات تأخذ بعضها برقاب بعض، وكان بعض الناس يمشون أمام هذه المركبات بألبسة تشبه ألبسة المهرجين، أو بوجوه مستعارة تشبه وجوه كثير من الحيوانات يغنون ويرقصون، والموسيقى تشرح النفس وتشنف الأسماع.

وكنا بعد الظهر نذهب الى ملعب في الولاية يضم مائة ألف متفرج، حيث شاهدنا أغرب لعبة بين أعظم فريقين، وهي كرة القدم الأمريكية التي تشبه لعبة (الرَكْبي) الأنكليزية فانها مشتقة منها على كل حال، كان الفريقان هما اللذان كسبا كل المعارك التي خاضاها مع غيرهما من الفرق ولم يبق إلاّ أن يتسابقا بينهما للحصول على كأس بطولة الولايات المتحدة.

سفرات وجولات

ثم سافرنا الى جنوب كاليفورنيا الى الحدود التي تفصل بينها وبين المكسيك، وقد أردنا أن نعبر الحدود وندخل المكسيك ونزور مدينة (تيوانا) التي يعرفها الكثيرون من سكان كاليفورنيا، ولم يكن من الصعب أن نسير الحدود فقد عبرنا مع العابرين دون أن يستوقفنا أحد، ودون أن يطلب منا أحد أن نبرز جواز سفر أو أية وثيقة أخرى كما هوالمفروض ونحن نجتاز الحدود من بلاد الى أخرى أجنبية. وكان الكثير من الأمريكان يذهبون الى (تيوانا) للمتعة والأنس، بل كانوا يفرُّون من الولايات المتحدة التي تحرِّم عليهم الشرب، الى هذه القرية أو المدينة للسكر ما شاء لهم السكر، والتي تحلل السكر بل تشجع الناس عليه وتغريهم به. وكانت الأعلانات على واجهة المخازن وفي كل محل في المدينة كلها تستهزئ بالماء وتستهزئ بشاربيه، وكانت المطاعم كلها تمتنع عن تقديم الماء ولا تقدم إلاّ المسكرات.

رجعنا من تيوانا وأردنا أن نعبر الحدود الى كاليفورنيا فاجتزنا السلطات المكسيكية بسلام وما أن اجتزناها حتى استوقفتنا السلطات الأمريكية، واستوقفت السيارة واحتجزت من فيها إلاّ أنا فقد سمحت لي بالدخول دون سؤال، أما بقية أخواني العراقيين، فقد استوقفتهم بسبب سِحَنهم السمراء،

فإن هذه السحن تشبه سِحَن المكسيكين، ولم تكن السلطات الأمريكية آنذاك تشجع هجرتهم. لقد رفضت أن أدخل الحدود دون أخواني، وقد قلت للسلطات أننا كلنا عراقيون ونحن طلاب بعثة ولم نبق في تيوانا إلاّ ساعات وها نحن راجعون للالتحاق بالجامعة لم يكن لدينا جوازات السفر ولكن كان يوجد لدى البعض منا بعض الهُويّات. لم ندخل الحدود إلاّ بعد جهدٍ غير قليل، فلا يهتم الامريكان بمن يعبر حدودهم الى المكسيك ولكنهم يهتمون كثيرا بمن يدخل الى بلادهم.

لقد حلّت العطلة الصيفية ولابد من الإستفادة منها بالسفر والتجوال. إن حب السفر والتنقل هو من أمراض المدنية الحديثة المحبوبة فالقوم هناك يحفلون كثيرا بالعُطَل ويضعون الخطط مقدماً للتمتع بها وترويح النفس، إنها فرصتهم للراحة والاستجمام، ولا يقتصر التمتع بالعطل على الأغنياء والمترفين بل أنه ليعم ويشمل الطبقات كافة، فكل يسعى للاستفادة من عطلته بطريقته الخاصة او حسب قدرته المالية، وإنك لترى الكثيرين يشتغلون خلال أوقات العمل بما يجهدون به أنفسهم لتوفير ما يمكن توفيره من مال للتمتع ايام العطل، وأنك لتجد القوم يستفيدون من العطلة طالت أم قصرت، وأنك لتجدهم في شغل شاغل وفي حِلّ وترحال حتى أيام العطل الأسبوعية وهي تكون عادة في يومي السبت والاحد، فلقد اعتاد الناس من الشبان والشابات، بل اعتادت كل عائلة من العوائل أن تقوم بسفرة من السفرات في هذين اليومين، وهي تعرف باسم Picnic. وإنك لتجد المدينة وقد خرج الناس منها الى الغابات والمتنزهات وإلى الأنهر والجبال، كأنها قد أقفرت وباتت مدينة مهجورة خالية، فأقفلت الأسواق والمخازن والمقاهي والمطاعم وكل مرفق من المرافق التي يسعى الإنسان اليها عادة ويرغب. وكم من مرة احترنا أين

نأكل وأين نروح، ولعل منظر الشوارع العامة هو من أجمل المناظر في مثل هذه الأيام فهي تزخر بقوافل السيارات التي لا يفصل بين واحدة وأخرى إلاّ قليل من المسافة، كما انها تزخر بوسائط النقل الأخرى لاسيما الموتوسايكل والبايسكل. إن هؤلاء الشبان يملأون الشارع ضجيجاً وحيوية والنفس سروراً وانشراحاً، فلقد حلّت العطلة الصيفية. وهكذا قررنا السفر هذه المرة الى أحد المصايف المشهورة في وادي (اليوسامتي).

وركبنا السيارة نفسها وقصدنا المصيف، وقد أمطرت السماء ونحن في الطريق فرجونا الأخ عبد الجبار بكر أن يرفق بنا وبالسيارة وأن يكون حذراً وأكثر هدوءاً في السياقة. ولما دخلنا اليوسامتي ألفيناها غابة واسعة، كثيفة الأحراش ملتفة الاشجار في بعض اقسامها، تضم أشجاراً ضخمة باسقة لاتضاهيها في ضخامتها وأرتفاعها إلاّ الأشجار المعروفة بأشجار الخشب الاحمر التي توجد في غابة معروفة في شمال كاليفورنيا على الحدود بينها وبين ولاية (اورغن). كانت غابة فسيحة وسيعة تحيط بها الجبال الخضر الغنية بمساقط المياه، ودخلنا الغابة فرأيناها تزخر بالناس وتزدحم بالمصطافين ورأينا الخيم تناثرت في كل مكان على الخضرة وبين الاشجار، وكان لابد لنا أن نفعل كما فعل غيرنا وأن نحصل على خيمة من ادارة الغابة وتعاونا على نصبها في محل ما بين المجاميع، وقد نصبت نفسي، أو نصبني اخواني، رئيساً لخيمهم.

كنا نلعب ونلهو ونسهر ونسمر ونتسلق القمم وننزل إلى بطون الوادي، لم نترك فرصة إلاّ وكنا فيها كتلة من نشاط وقطعة من حيوية، ولم نشكو أحيانا إلاّ من عسر في الهضم وانقباض في المعدة، وذلك اننا أوكلنا السيد ناظم بمهمة بالتسوق وشراء ما نحتاج من حاجيات وضروريات لسفرتنا هذه، وكان الجبن

يُقدَّم الينا بأنواعه العديدة اللذيذة، ولما أكثرنا من أكل الجبن قُبضت مِعدنا، فسألنا ناظم: لماذا أكثرت من الجبن ولماذا اشتريت كل أنواعه؟ وأين هي الخضرة والفاكهة وما شابهها؟ لم يجب ناظم على هذه الأسئلة إلاّ بأجوبة ناقصة مبتورة، ثم اكتشفنا أن ناظم كان يدرس تربية الحيوان وصناعة منتجاته، فأراد تجربة هذه الأنواع من الجبن كلها لأن الأستاذ كان قد عددها في محاضراته وبين ميزات كل نوع منها، وهكذا أراد تجربتها برؤوسنا: رؤوس اليتامى كما في المثل.

كانت الحياة في هذه الغابة ممتعة، فهي باردة، وكلها مياه وعيون وينابيع حتى أن صديقنا عبدالجبار بكر لم يستطع في الصباح الاغتسال بالماء او شُربه إلا بعد تسخينه!

وكنا نقطع عشرات الأميال بمحاذاة شاطئ البحر الجميل، فلابد من المرور ونحن نقترب في حدود اورغن بأشهر غابة من غابات كاليفورنيا وهي المعروفة بامبراطورية الخشب الأحمر Red Wood Empire. وقد أعجبنا بهذه الغابة، وبخاصة الشجرة المعروفة بشجرة الخشب الأحمر، وذلك لضخامتها وشموخها، وقد أخذت اسمها من لونها. إن هذه الأشجار معروفة بكونها من الاشجار المعمرة ولعل بعضها قد تجاوز عمره المئات من السنين ولربما الالوف. لقد أخذنا بضخامة هذه الشجرة أكثر مما أخذنا بارتفاعها حتى أننا وقفنا خمستنا ومددنا ايدينا الى بعضنا وأردنا الاحاطة بها فلم نقدر على ذلك، فهي أضخم من أن نحيط بها. ولقد رأينا بأعيننا هذه الشجرة التي كثيراً ما نرى صورتها وقد مرت سيارة من داخلها، ولا أدري كيف أفرغت من داخلها من جهة الارض واتسع هذا الفراغ ليكفي لمرور سيارة من جهة والخروج من أخرى.

كان الوقت قصيراً، وقد مررنا بولاية (أرغن) وزرنا جامعتها، ثم مررنا بولاية واشنطن. وقد التزمنا نفس الترتيب في الجلوس والويل كل الويل لمن يكون دوره في الخلف ويصيبه البرد في الليل أو يتلقفه البق بالقرب من احدى المزارع. وأنني لا أنس ما حدث ونحن في طريق عودتنا نسير بسرعة فقد أخطأنا قراءة احدى لافتات الطريق فاتجهنا إلى جهةٍ غير التي كان يجب أن نتجه اليها، ولم نحس في بادئ الأمر أننا أخطأنا الطريق، ولم نشعر إلاّ وقد أتينا قرية كتب في مدخلها الساحل الذهبي. وكانت قرية صغيرة ولكنها جميلة، فذهبنا إلى الاوتيل لنجده يغص بالنزلاء. كان الاوتيل أية في الروعة والجمال، وقد بدا لي أنه شيد على لسان امتد في داخل البحر وكأنه سفينة راسية في عرض البحر. ولا أتذكر أنني شعرت بجوع مثلما شعرت به آنذاك، ولا أتذكر أنني اقبلت على الأكل بشهية ونهم مثلما اقبلت عليه! دخلنا مطعم الأوتيل وكان صغيرا ولكنه كان خلاباً إذ امتد هو الآخر في البحر امتداد الاوتيل وكأنه قد أحاط به البحر من كل جانب. واستقبلتنا فتاة لم تتجاوز العشرين شقراء اللون رشيقة القوام جميلة المحيا لم تفارق الابتسامة شفتيها، وكل شيء فيها يعبِّر عن الشباب والجمال، وقدَّمت لنا أنواع الطعام ولاسيما السمك المشوي وأصناف الحلوى والفاكهة مما ازال أتذكره حتى هذه اللحظة. وهكذا قضينا ساعة أو بضعة ساعات مع هذه الفتاة الجميلة ومع هذه الأكلات الشهية مما أنسانا كل شيء، وأنسانا الدنيا وهمومها. وكنا لَعَنَّا الساعة التي أخطأنا فيها الطريق ولام بعضنا بعضاً لأننا أخطأنا في قراءة اللافتة، ولكن ما أن حللنا هذا الأوتيل وأكلنا في مطعمه، وما أن التقينا بهذه الفتاة الرائعة إلاّ وشكرنا الله وحمدناه على تلك الساعة التي أخطأنا فيها.

نشاطات جامعية

لم تكن الجامعة لتسهل على الأجنبي غربته ووحدته، ولم يكن لديها الخطط والوسائل لتقريب هذا الغريب من الجامعة ومحيطها ومن المجتمع وبيئته، وكثيراً ما شعرنا بالوحدة ومرارتها وبالغربة وضراوتها، ولعل الأمر قد تغير الآن الى حد ما، ولعل في الجامعة الآن جمعيات ومنظمات تقوم بمهمة التعارف والاختلاط لكنني لم أشعر في حينه أن هنالك مثل هذه الجمعيات الا بعض الجمعيات او المنظمات الكنسية او التي لها علاقة بالكنيسة، ولم يكن نشاطها إلاّ محدودا للغاية، وقد ذهبت مرة الى الكنيسة ولا أدري بالضبط لم ذهبت. وليست الكنيسة مركزا دينيا فحسب بل هي مركز أجتماعي أيضاً، وكثيراً ما يتعارف الشبان ببعضهم في الكنيسة، وكثيرا ما يتواعد الشبان للالتقاء فيها. وهكذا ذهبت الى الكنيسة فتعرّفتُ على بعضهم ثم وصلتني دعوة منهم بعد مدة لشرب الشاي وإلقاء كلمة عن العراق.

ولم يكن من العسير علي أن أهيئ كلمة عن العراق والبلاد العربية، ومكتبة الجامعة فضلا عن معلوماتي الخاصة مليئة بالكتب التي تبحث عن بلادنا، وما كان لي إلاّ أن أذهب الى المكتبة وأن افتح الدرج تحت كلمة العراق او البلاد العربية لأرى أنه يضم العدد العديد من هذه المؤلفات. ولقد اغترفت من منهلها ما شاء لي الاغتراف، ثم أردت أن القي الكلام بصورة ارتجالية فكنت أذهب عصر كل يوم الى محل قريب من محل سكناي، وهو محل معروف بالملعب اليوناني، ولم يكن أحد ليدخل هذا الملعب في مثل هذا الموسم، فكنت الوحيد الذي أصول فيه وأجول بكل حرية لأتمرن على الخطابة بما يحلو لي من طرق، وكنت أتمرن فيها خاصة بصوت عال. وكانت الحفلة قد حضرها بعض الطلاب العراقيين، وكان الخطاب موفقا

بشهادة الكثيرين، وكان هذا أول خطاب أُلقيه باللغة الانكليزية وفي مجتمع عام. كنت متهيباً متخوفاً، ولكن ما أن بدأت في الالقاء حتى ملكت نفسي وهدأت روعي وقد شعرت - كلما مضيت في الالقاء - بسرور ولذة، ثم أحسست بعدها بجرأة وشجاعة حفزاني كثيراً على حضور مثل هذه المجتمعات والقاء مثل تلك المحاضرات.

كنا في جامعة كاليفورينا نتجادل مع بعض الايرانيين حول فضل الإسلام على إيران، وأن رجالها البارزين من العلماء والشعراء إنما هم نتاج الثقافة الاسلامية والحضارة العربية. فثارت ثائرة أحدهم وهو متشبع بروح قومية متطرفة تُنكر كل شيء غير إيراني ولا تعترف بفضل العرب والحضارة الإسلامية على إيران. وقال: إننا لا نعترف بأي فضل لكم علينا، ونحن لسنا مدينين باي شيء لكم، وكل ما في الأمر أنكم اعطيتمونا شيئين، الجمل والقرآن، وسيرجع إليكم قريباً الجمل وقد علّقنا في رقبته القرآن. كان هذا القول قد قيل بحضور عدد من العراقيين والإيرانيين. لقد دهشنا لهذا القول المبني على الجهل والغرور، ولم أتمالك نفسي أن قلت له: إن مثل هذا القول السخيف لا يمكن ان يُرد عليه بشيء، وبما أنك قد أهنتنا فأنني سأنازلك وألاكمك، وطلبت منه ان يحدد الموعد والوقت والمكان، فقال: دعني أفكر. وانقضى يوم وآخر، وكنت كلما أراه أذهب اليه وأطلب منه تحديد الوقت والمكان، يعتذر ويماطل، حتى ذهبت إلى غرفته أكثر من مرة فلم أجده فيها، ثم اضطررت إلى أن أُبَكِّر في الذهاب إلى غرفته في أحد الأيام وأنا احمل اليه كفوف الملاكمة، فوجدته نائماً، وما أن صحا وفتح عينيه ورآني ومعي كفوف الملاكمة حتى ابتسم وضحك وطلب مني الجلوس، وقال: ما هذا؟ أتريد أن

تقتلني؟ أنا لست بملاكم، وقد سألت فحذرني منك الذين يعرفونك. ثم قال: إني لم أكن جاداً فيما قلت، وأنا اعتذر اليك.

وكان لابد لكل خريج جامعة أن يأخذ أربعة دروس في الرياضة، وأن يُزج، إذا كان أمريكياً بدورة عسكرية. وقد أردت أن أدخل هذه الدورة ولكن لم أقبل لكوني أجنبياً فأخذت من الدروس الرياضية الملاكمة والمصارعة والتنس والسباحة. ولم تكن السباحة مختلطة بين الجنسين في الجامعة في سنة ١٩٢٨ بل لكل جنس حوضه الخاص به، وكان يمكن أن نرى من مسافة بعض الفتيات يسبحن وهن بلباس السباحة الخاص المعروف بـ(المايو) ولم يكن (البكيني) معروفاً آنذاك. وكنت كَلِفاً بالسباحة ولم اتوقف عنها بمجرد انتهاء الفصل وحصولي على شهادة فيه ومدالية في فن انقاذ الغريق، بل كنت أسبح في الصيف وأجلس الساعة تلو الساعة في شمس بريكلي ولم أشعر بلسعتها ولم أحس بحرارتها ولم أعرف انها تمكنت من جسدي فأكسبته سمرة.

أدهشتني لعبة الكرة الامريكية ولكنني لم أكن أحبها في البداية لأني لم أكن أفهمها، وفي الواقع فاني لم أر فيها إلاّ فريقا يقابل فريقاً أخر وكأنه في مبارزة، وكان على كل لاعب أن يكون مصارعا منه الى أي شيء، يركض والكرة بيده ولا يضربها بقدمه إلاّ نادراً، وكان خصمه لا يهمه الا أن يركض وراءه ويمسكه بأي شكل كان ويطرحه أرضا بأي صورة كانت، ثم كلفت بهذه اللعبة، وازداد حبي لها كلما عرفت قواعدها وأصولها وفهمت قوانينها ووقفت على كيفية لعبها، فكنت أشتري في بداية الموسم دفتر بطاقات للموسم برمته، وأحضر كل لعبة سواء كانت على ملعب الجامعة أو على ملاعب الجامعات الأخرى، وكم من مرة شددت الرحال وسافرت مسافات ومسافات

من أجل مشاهدة مسابقة من المسابقات، وكم من مرة حضرت المسابقة وقد أمطرت السماء أو أثلجت وأنا لا أبرح المكان ولا أترك المسابقة شأني في هذا شأن الكثيرين من الأمريكان شباباً وشيباً رجالا ونساء.

وكان لجامعة كاليفورنيا مسابقة مشهورة معروفة بمسابقة اللعبة الكبرى The Big Game وتجري هذه المسابقة بينها وبين جامعة استانفورد، وهي مسابقة تقليدية بدأت منذ عشرات السنين. وجامعة استانفورد لا تبعد كثيراً عن جامعة كاليفورنيا وتقع في مدينة (بولا التو) التي لاتبعد عن بركلي إلاّ بنحو ١٠٠ كيلو متر. وقد أشتهرت هذه الجامعة بمستواها العلمي الرفيع وبفريق الكرة الجبار، وبمدرب الكرة المشهور بوب ورنر، وبواحد من خريجيها وهو المستر هوفر[١٤٠] الذي أصبح رئيساً للجمهورية. بدأ المستر هوفر تلميذاً فقيراً يدرس ويشتغل في آن واحد شأنه شأن الكثيرين من الشباب الامريكي، فكان يمر على غرف الطلاب ويجمع ملابسهم الوسخة للغسيل ويعيش من وراء هذا العمل ولا يرى فيه إلاّ كل فخر وشرف. وإذا كنت قد وجدت الشاب الجامعي منكمشاً على نفسه بعض الانكماش بالنسبة للأجنبي فإنه كان أجتماعياً بطبعه، يحب الاختلاط ويريد التعرف على أكبر عدد ممكن من الناس، وإذا كنت قد وجدته مرحا يحب اللهو ويعشق الرقص فقد وجدته أيضا جديا شغولا دؤوبا على العمل لا يمل ولا يكل، وهكذا وجدته قد تعلم اللهو عند أوقات الراحة والجد في أوقات العمل.

لم أكن أدري لماذا أصبحت ولاية كاليفورنيا، بل امريكا برمتها، قائمة على قدم وساق وأنا حديث عهد بها، ثم عرفت أن الأمة تستعد لانتخاب

---

[140] Herbert Hoover انتخب رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٩٢٩ ودامت ولايته أربع سنوات.

رئيس الجمهورية، وأن المرشح هو المستر هوفر أحد أبناء كاليفورنيا وأحد خريجي جامعة ستانفورد، ثم جرت الانتخابات، ولم نستطع مشاهدتها بالتلفزيون كما يستطيع الملايين في الوقت الحاضر، وكانت النتيجة أن فاز المستر هوفر وهو جمهوري على منافسه فوزاً ساحقاً، وكان منافسه هو المستر آل سميث وكان شخصية قديرة فذة، وهو اول كاثوليكي يرشح نفسه لهذا المنصب، وقد قيل في حينه ان اختلاف المذهب كان سبباً من أقوى الأسباب في الفشل فلم تكن أمريكا لتقبل بعد رئيساً كاثوليكياً لها، ولم تتقبله إلاّ بعد نحو ٣٢ سنة، ففي سنة ٩٦٠-١٩٦١ كان المستر كندي أول كاثوليكي رئيساً للجمهورية[١٤١].

كانت المسابقة الكبرى لها طابعها الخاص ولها عاداتها وتقاليدها، وكان يسبق هذه اللعبة ما يسمى بنار العَظْم Bone fire، وكنا نجتمع في الملعب اليوناني فنجمع الاخشاب من كل مكان ثم نكدِّس بعضها فوق بعض حتى تصبح كومة كبيرة كأنها التل. ثم يغشى الملعب في ليلة تسبق موعد المسابقة بنحو أسبوع شبان الجامعة وشاباتها حتى يضيق مدرج الملعب بهم وهو يتسع لأكثر من عشرة آلاف نسمة، ثم توقد النار في هذا التل من الخشب وتتصاعد ألسنة اللهب وحلقات الدخان الكثيفة من كل جانب حتى تملأ السماء، ويدور حول هذه النار الكبرى العشرات والمئات من الشبان فقط الواحد وراء الأخر وهم يرتلون الأغاني وينشدون أناشيد الحرب، أما الفتيات الجميلات فلا يشاركن في هذه المسيرة، ولا يساهمن برقصة الحرب، بل يجلسن على مدرج الملعب يهمهمن ويغمغمن وينشدن ويصفقن وكأنهن بهذا يحثثن الرجال على الحرب ويحرضنهم على الموت. وقد اخترت مرة أن أجلس مع صاحبة

---

[١٤١] تولى جون كندي رئاسة الولايات المتحدة سنة ١٩٦١ اغتيل في ٢٢ تشرين الثاني سنة ١٩٦٣.

لي بينهن ولا أشترك في رقصة الحرب أسوة ببعض الأصدقاء غير أنني ما أن جلست قليلاً إلاّ وعدد من الشبان الاشداء - عرفت أحدهم - قد حملوني حملاً ودحرجوني من الأعلى الى الأسفل وقالوا لي: ليس مثلك من يجلس مع النساء هذه الليلة. إن محلك النار تدور حولها وتصيح وتزعق وترفس الأرض وتصرخ، إنها المعركة الكبرى! إنها الحرب مع عدونا اللدود.

وكان لكل فريق فدائيون واجبهم التسلل الى معسكر العدو وإجراء التخريبات فيه وسرقة بعض الأشياء التي تعود له ولاسيما (الفأس) فقد كانت عزيزة لدى الطرفين، وكان كل طرف حريص على أن يسرقها ويحتفظ بها وأن يدخل حرم الأخر ويدنس مقدساته، وكانت الفأس أحدى الرموز المقدسة فهي مصبوغة باللون الذهبي. وكان لابد من حراستها والذود عنها وإلاّ فالويل كل الويل اذا ما انبلج الصباح وكان لونها احمراً، وهو لون جامعة (استانفورد).

كانت المسابقة تجري في جو خاص من الهياج والحماس، فلكل فريق فرقة موسيقية كاملة بالوانها الزاهية وآلاتها العديدة المتنوعة تنشد أناشيد الحماسة وتثير في اللاعبين روح الكفاح والعناد، ولم يكن هناك ما يدهش مثل فريق المهرجين والمشجعين، فقد كان لكل جامعة مثل هذا الفريق الذي يحتل مقاعد الملعب الوسطى، وكنت عضواً في هذا الفريق، فكنا نتحرك ونتصرف ونصرخ وننشد حسب الايعازات التي تأتينا من رؤسائنا لهذا الغرض، ويقف أمامنا عدد من هؤلاء الشباب القادة الذين يقومون بحركات ونحن نتبعهم فيها ونعمل مثلما يعملون. وكنا نمسك بأيدينا أوراقاً من المقوى تحتوي أما على ارقام او صور او حروف او ما شابه ذلك، وبإشارة من هؤلاء القادة نرفع أيدينا او نخفضها أو نرفع واحد ونخفض الآخر او ما شابه ذلك من الأمور،

وإذا بالمشاهد يرى صوراً قد زينت مدرج الملعب، وقد تكون صورة مدرب الفريق او صورة علامة الجامعة كالدب بالنسبة لكالفورنيا، او كتابات ترمز إلى اشياء مثل التهديد والوعيد او الى نكتة من النكات. ان منظر المهرجين في حماسهم وهياجهم وكتاباتهم لمن أعجب ما يمكن أن يراه الانسان في حياته، إنها مناظر تدل على مهارة في الفن وابتكار في العرض، وهي وحدها تكفي لحضور الحفلة ومشاهدتها. وكم من مرة في هذه المسابقات تعادل فيها الفريقان، وكم من مرة غلب أحدهما الآخر، والفرق كان بسيطاً فالهدف يعد بستة نقاط وضربة اخرى في القدم تجري بعد تسجيل الهدف، وتستلزم هذه اخراج الكرة من بين عمودي الهدف، فإن أصاب الضارب فتعد هذه الأصابة بنقطتين ويكون المجموع ٧.

كان مدرب فريقنا هو Nibs Prsice وبالرغم من حذقه ومهارته فانه لم يكن في مستوى بوب واينر مدرب فريق استانفورد الذي ربما كان يعد أحسن مدرب في أمريكا برمتها. لقد سُحق مراراً بخططه الغريبة مما أدى في الأخير إلى أن تتضعضع ثقة الطلاب بمدربهم في جامعة كاليفورنيا. لم يقوَ (نِبس) على احتمال مثل هذا الوضع فقد مُسَّت سمعته وكرامته فاستقال بالرغم من مركزه الممتاز وأجره الكبير. ولعل مدرب الكرة يتقاضى أضخم راتب بين الأساتذة على الاطلاق، وقد يكون راتبه يقرب من راتب رئيس الجامعة ذاته وقد يبلغ نحوا من ٢٥ الف دولار عدا بعض المخصصات، وهو يتقاضى هذا الراتب من صندوق الرياضة، وكان هذا الصندوق غنياً وارداته كبرى فقد كان يحضر هذه اللعبة نحوا من ١٠٠ الف متفرج، وكانت البطاقة بسعر خمسة دولارات، وقد تصل الى سعر ٤٠ أو ٥٠ دولار في السوق السوداء، فيكون دخل الصندوق في هذه اللعبة فقط نحو نصف مليون دولار.

وإذا ما خضنا المعركة وانتصرنا فالجامعة برمتها في عيد من ابهج أعيادها، حيث تقام الزينة في كل محل وتسهر الجامعة في تلك الليلة حتى الصبا، فحفلات الرقص في كل مكان ولا سيما في القاعة الكبرى، أعني قاعة الرياضة، حيث يرقص فيها حتى من لم يرقص في حياته، والرقص مباح للجميع ولا يتطلب مراسيم خاصة فلا تقديم ولا تعارف، وانما يسأل الشاب أي شابة للرقص معه دون معرفة سابقة، وكثيرا ما توافق الشابة على الرقص وقد ترفض أحيانا لسبب من الأسباب، ولا عيب إذا ما رفضت الفتاة ولاداعي لأن ينكسر خاطر الشاب ولا موجب لأن يتألم لهذا الرفض أو يخجل منه، فانها العادة قد جرت بمثل هذا، هذا ولم يكن في حينه في بغداد ولا في الشرق العربي مثل هذه الحفلات، ولم يكن بوسع أي شاب أن يراقص اية شابة. صحيح أن عادة الرقص وجدت طريقها الى مجتمعنا كما دخلت أشياء أخرى ولكنها ايضا لم تصل الى ما وصلت اليه في الغرب.

كان جون د. روكفلر[١٤٢]، وقد توفي بعد أن تجاوز التسعين من عمره، أحد أساطين المال في أمريكا، وإذا ما قُلت في أمريكا فأعني العالم أيضاً. وكان قد جمع ثروته من وراء النفط واستطاع بمدة ليست بالطويلة أن يكون أغنى أغنياء العالم. والنفط او أي معدن أخر من المعادن في امريكا لا تعود ملكيته للدولة، فإن ما تحت الأرض هو ملك لصاحب الأرض وليس ملكا للدولة كما هو الحال بالنسبة لقوانيننا. إن النفط أو أي معدن آخر في العراق أو أي بلد عربي أخر أو في أكثر أقطار العالم هو ملك الشعب برمته، بل هو ملك الدولة

---

[١٤٢] Rockefeller صناعي أمريكي ألماني الأصل، ولد سنة ١٨٣٩ وعمل كاتبا في إحدى الشركات، ولكنه استطاع أن يكتشف النفط في إحدى حقول ولاية بنسلفانيا، مما أدى به إلى أن يكون من رواد الصناعة النفطية، وقد خصص جزءا من ثروته الضخمة للإنفاق على مؤسسات علمية وفنية، وتوفي سنة ١٩٣٧.

حيثما وجد وفي أي ارض استنبط. وأراد روكفلر في أواخر أيام حياته أن يساهم بطريقة ما لإحلال السلام العالمي فاهتدى الى أن سوء التفاهم بين الناس هو مشكله المشاكل فلا بد اذن من إيجاد طريقة لإحلال التفاهم، وقد ارتأى أن يساهم في ازالة سوء التفاهم ببناء مراكز عالمية ليعيش فيها الناس من مختلف الاقطار والأجناس فكانت بناية ما يسمى بالبيت الأممي في شيكاغو، ثم بناية أخرى في باريس، ثم كانت بناية البيت الأممي في بركلي. وكانت هذه البنايات تُشاد في مراكز يكثر فيها الأجانب، وبناية البيت الأممي هي واحدة من افخم البنايات وأضخمها وأزهاها وأحلاها، أقيمت على سفح تل من هذه التلول الصغيرة الجميلة التي تحيط بالجامعة. كانت البناية التي بنيت على الطراز العربي الاندلسي قد افتتحت في صيف سنة ١٩٣٠ وكنت في الرعيل الأول الذي دشّنها وسكن فيها، وقد أمضيت فيها فصلاً كاملاً هو آخر فصل في حياتي في جامعة كاليفورنيا، وكان هذا الفصل يضم النصف الأخير من شهر آب ثم شهور أيلول وتشرين الاول وتشرين الثاني والنصف الاول من شهر كانون الاول ١٩٣٠ إذ اني تخرجت وحصلت على شهادة الـ B.S.C في ٢٥ من هذا الشهر.

مَثل هذا البيت مثل دنيا مصغرة فيه من كل جنس ولون ولغة، فكان فيه الياباني والصيني والسيامي والفلبيني والهندي والزنجي والانكليزي والفرنسي والألماني وآخرون. وفيه نحن الطلاب العرب من العراق ومصر وسورية، كما كان فيه بعض الأمريكان وكان من بينهم اليهود. وقد اختلفت حياتنا في هذا البيت عن غيره من المحلات، ففيه مختلف اللجان لمختلف الفعاليات الإدارية والاجتماعية وما شابه ذلك، وقد لعبت دورا في اكثر من لجنة واحدة. ولم يكن الاختلاط بين الطلاب من الأمور السهلة حيث بقيت

كل جماعة منكمشة على نفسها او تكاد، وبقيت حواجز اللون والجنس تلعب دورها الأساسي في فصل الجماعات بعضها عن بعض بالرغم من الجهود الكبيرة والمجاملات الكثيرة التي كانت تبذل لتخفيف هذه الحواجز والحد من هذه الاختلافات. وكنا نحاول أن نختلط مع بعضنا أوقات تناول وجبات الطعام او في بعض الفعاليات او خلال حفلات السمر وما شابهها ولكن لم أكن أشعر أن هنالك تقارباً روحياً او أن هناك امتزاجاً حقيقياً.وكانت العلاقات في أكثرها سطحية إذ تحدث بعض الاحتكاكات بين جماعة وأخرى من أجل فكرة أو عادة أو تقليد أو رأي أو ما إلى ذلك من أمور الحياة، غير أن البيت لم يشاهد احتكاكا قويا بل تصادماً عنيفاً مثلما كان يقع بين العرب واليهود.

كانت قضية فلسطين على أشدها، وكانت الصهيونية في كل مكان تجند الرأي العام ضد عرب فلسطين. وكان الصهاينة متغلغلون في الحياة الأمريكية، بل في كل زاوية من زواياها، وسيطرتهم بادية في أكثر من وجه واحد من وجوه هذه الحياة. وكانوا من أكثر الناس نفوذاً في الحياة المالية والاقتصادية كالمصارف والشركات وما شابهها ومن أكثرهم نفوذا على مراكز الدعاية والنشر كالصحافة والسينما والراديو وغيرها، ومن أكثرهم نفوذا في المراكز الحكومية الحساسة وفي السياسة بل حتى في الثقافة وبين الأستاذة ورجال الجامعات. وكان الشباب اليهودي من أكثر الصهاينة إيمانا بالوطن اليهودي وحماسة في الدعوة اليه، وكان لابد من الوقوف ضد دعايات اليهود المغرضة الكاذبة بقدر المستطاع، فلقد ملأ اليهود دماغ الفرد الأمريكي بكل الأكاذيب والأباطيل وبكل ما يشين سمعة العربي ويقلل من أهميته وقيمته. وكنا نتجادل ونتخاصم وكم من مرة رددت عليهم على صفحات جريدة الجامعة

المسماة بـ Daily californian، وكم من مرة تهجموا عليّ ورموني بالباطل، ثم كان أن نظَّم البيت اجتماعات للمناظرة والمنافسة، فأُشركت في مثل هذه المناظرات. وكم كانت دهشتي عظيمة أن وجدنا الفرد الأمريكي لا يعرف شيئا عن قضية فلسطين من وجهة نظر العرب وأن فكره قد خلا من المعلومات والحقائق وأنه قد امتلأ بالدعاية الصهيونية وبأكاذيبها، وكم كنا نندهش أن نجده يستمع الينا وقد فغر فاه وحملق عينيه وكأنه قد أفاق من حلم مزعج، أين هذه الحقائق التي نأتي بها من دجل اليهود وشعوذتهم، كم من مرة كسبنا الرأي العام بجانبنا، وكم من مرة قد اعتذر لنا كثير من السامعين بأنهم كانوا في جهل مطبق وفي ظلام دامس، وأنهم لا يعرفون عن عرب فلسطين إلاّ أنهم بدو رحل او شُقاة غزاة يأكل بعضهم بعضاً.

كنت في الفصل النهائي استعد للتخرج في حياتي الجامعية، وكان هذا الفصل مزدحماً بالأعمال، فكنت أعيش في البيت في أول افتتاحه واشارك في تنظيم الحياة وفي فعاليات أكثر من لجنة واحدة، وكنت القطب الفعال في المناظرات العربية – اليهودية وفي التعليقات الصحفية. ثم كان لابد لي من أن أساهم في إحدى الفعاليات الرئيسية. وفي ليلة من الليالي طلبت ادارة البيت وعلى رأسهم المدير المستر بليز ديل أن يقوم البيت بإحياء ليلة من الليالي تشترك فيها الأقوام المختلفة بفعالية من فعالياتها التي تميزها عن غيرها، وكانت قد سمت هذه الليلة بـ International night. ولقد اشتركت اقوام مختلفة فيها من الهند وأسبانيا وانكلترا والسويد والمانيا وفرنسا والصين واليابان، ثم اشتركت البلاد العربية، ولكن الذي اشترك بالفعل هم الطلاب العراقيون فقط مع فلسطيني واحد اسمه كمال سليم الذي لم أره فيما بعد

طوال سنوات وسنوات حتى زارني وأنا في عمان سنة ١٩٥٧ أي بعد ٢٨ سنة.

لقد شاركت في هذه الليلة بتمثيل رواية كان قد وضعها كاتب إنكليزي واسمها حسن البغدادي، فغيَّرنا اسمها إلى فاضل البغدادي وحوَّرنا بعض فصولها واختصرنا فصولاً أخرى حتى قدرنا لها أنها اصبحت تتلائم والمناسبة التي نحن فيها، ثم اختلفنا على توزيع الأدوار فأراد جعفر خياط أن يكون بطل الرواية، وأردت أنا أن أكون البطل، ثم قرر الاخوان العراقيون أن أمثل أنا دور البطل وأن يضطلع جعفر ببطولة الدور الثاني في الرواية. وكان لابد من فتاة تمثل معنا ولم تكن في البعثة آنذاك فتاة عراقية فاستعنا بإحدى الصديقات من الأمريكيات. وكان أن اشترك فيها طلبة من مختلف الجنسيات وبمختلف الفعاليات من موسيقى ورقص وتمثيليات قصيرة وما شابه ذلك، ثم جاء دورنا بتمثيل هذه الرواية، وكان تمثيلاً موفقاً واخراجاً ناجحاً نال التقدير والتشجيع والتصفيق المتواصل. وكنت بطل الرواية ونجمها اللامع فقد تقمصت الدور وأجدت التمثيل حتى أن الناقد المسرحي الذي وصف تلك الليلة ونقدها قال أن التمثيلية التي قام بتمثيلها الفريق العربي كانت أحسن ما في الليلة من فعاليات (وإن كان قد انتقد بعض مشاهدها) وإن فاضل بطل الرواية لم يكن النجم اللامع بين فريقه فحسب بل كان ابرز شخصية وأحسن واحد في تلك الليلة بمجموعها على الإطلاق، فكان نصراً عظيماً لفريقنا، ولي شخصيا نصراً أعظم. لقد هنأني الكثيرون بعد انتهاء الحفلة حتى اني اتذكر أحدهم يقول لي: اننا لم نكن نعرف أن هناك شخصاً يعيش بيننا لا يقل مقدرة على التمثيل من آل جونسن، وكان هذا الممثل يهودياً وأحد مشاهير السينما.

لقد طلب مني مدرب فريق الجامعة المسرحي، وهو أمريكي أشرف على تدريبنا أن التحق بالفريق، وقال: انك تتمتع بمقدرة تمثيلية هائلة وأنني أضمن لك أن تكون من المع النجوم فقد بَدَوتَ وكأن لك خبرة واسعة في التمثيل. وأنا وغيري لم نصدق أن يكون هذا اول عهدك بالتمثيل وأن يكون هذا الدور هو أول دور تمثله في حياتك.

وكنت مع هذا منهمكاً أيضاً في الدراسة وأعمال المختبر في علم التربة، إذ طرح علي الأستاذ قضية كيمياوية من قضايا التربة وأرادني أن أجد حلاً لها عن طريق المختبر، فاشتغلت فيها أكثر من ثلاثة أشهر حتى عثرت على الحل وكان حلاً طريفاً مبتكراً له قيمة علمية كبيرة، فاقترح الأستاذ عليَّ أن ننشر هذا البحث باسمينا في مجلة الجامعة العلمية، وأن يضاف اسمه الى اسمي بوصفه قد اقترح المشكلة وساهم في ايجاد الحل بصورة غير مباشرة بما كان يقدمه من معونة أثناء العمل وفي اشرافه على تقدم العملية في المختبر. وكان أن طبع هذا البحث في المجلة العلمية ثم طبع بكراس خاص، واستقدمتُ معي عدداً غير قليل من هذا الكراس، وقدمت نُسخاً منه الى مديرية الزراعة العامة ووزارة المعارف فنلت منها كتب شكر وتقدير.

نجحت في الامتحان بشرف وكان معدلي فوق ٨٠٪ بما مثل انتصاراً عظيماً. إن معركة الامتحان لا تشبه أختها في العراق، فان مرحلة الجامعة في أمريكا تختلف كل الاختلاف عن مرحلة الثانوية والطالب ينتقل فيها من حياة الى أخرى، وإذا أحس الطالب بهذا الانتقال وبخطورته وارتفع الى مستوى هذه الخطورة واضطلع بواجباتها فلا يشعر لجنة الامتحان كما يشعر بها الطالب العراقي، والحياة في الجامعة تقتضي الدرس المتواصل والتحضير المستمر والبحث الدائم، والطالب في الجامعة يجد نفسه وكأنه كل يوم في

امتحان فهو مشغول دائما وهي على استعداد دائماً، فإذا ما حلّ وقت الامتحان فلا يختلف عليه الوضع كثيراً، وإن كان الامتحان يتطلب منه جهوداً أكبر على كل حال. ولابد من الاعتراف بأن الحياة الجامعية في العراق لم تتبلور بعد ولم تأخذ شكلها الصحيح، والطالب لا يقدر اختلاف حياته في الجامعة عن حياته في الثانوية كل التقدير. وإذا ما وجد الطلاب - أو كثير منهم -محنة في حياتهم الجامعية ولا سيما في السنة الأولى منها فمرد ذلك الى أنهم قد تخلفوا عن ادراك متطلبات حياتهم الجديدة ولم يرتفعوا بعملهم الى مستوى خطورة الوضع الجديد وأهميته.

دراسات عليا

كان العقد المبرم بيني وبين وزارة المعارف يقضي أن أدرس لغرض الحصول على شهادة بكلوريوس علوم، وكانت المدة تتراوح بين أربع سنوات وهي المدة الاعتيادية التي تتطلبها مثل هذه الدراسة أو خمس سنوات وهي المدة الاعتيادية التي يحتاج اليها الأجنبي لاكمال دراسته لحاجته الى سنة واحدة لدراسة اللغة. ولما كنت قد أكملت دراستي للحصول على هذه الشهادة في ثلاث سنوات ونصف، قضيت منها سنة في جامعة بيروت، فقد فكرت أن لابد من اكمال التحصيل العالي والحصول على شهادة أستاذ علوم M.SC. مدة الخمس سنوات الموجودة في العقد، وهي شهادة علمية محترمة لم يكن قد حصل عليها بعد أحد من العراقيين. ولقد كتبت الى وزارة المعارف أُطلِعها على رغبتي، كما كتبت لها بأنني اريد الانتقال من جامعة كاليفورنيا الى جامعة كورنيل الواقعة بالقرب من البحيرات الخمس. وجامعة كورنيل كجامعة كاليفورنيا معروفة ومشهورة، وتعد من الجامعات القلائل الاول في

الولايات المتحدة كلها، ولا أتذكر تماما كيف اخترت هذه الجامعة دون سواها، ولكن أتذكر أنني كنت أدرس بعض الكتب الدراسية وانا في جامعة كاليفورنيا وارجع الى بعض أمهات المصادر فأجد أن مؤلفيها هم على الأغلب من أساتذة جامعة كورنيل. وقد تأثرت بهذه الكتب كما تأثرت بما سمعت عن الجامعة ثم استعنت ببعض أساتذتي للنصح والارشاد فكانت النتيجة أن تشجعت لأكمال دراستي فيها، وأن كنت قد حذرت بأن الدراسة في هذه الجامعة صعبة ولاتقبل فيها إلاّ الطلاب المتفوقين. وعلى أية حال وافقت جامعة كورنيل على قبولي لدراسة M.SC. واعتباري متخرجاً دون أن تطلب مني أية دروس اضافية، ولو أنني أتيت اليها من غير جامعة كاليفورنيا أو مثيلاتها من جامعات الدرجة الاولى لما عدتني متخرجاً.

ووافقت وزارة المعارف على دراسة M.SC. في جامعة كورنيل، غير أنها أرادت أن تبرم معي عقداً جديداً باعتبار أن هذه الدراسة هي دراسة جديدة، ولا تدخل ضمن مفاهيم العقد الأول الذي كان ينص على دراسة ب. ع[١٤٣]، وقد اختلفت أنا ووزارة المعارف على هذه النقطة فتشبثت أنا بحقي في أن استمر على الدراسة ضمن مدة الخمس سنوات المنصوص عليها في العقد بصرف النظر عن نوعية الشهادة، بينما تمسكت وزارة المعارف بوجهة النظر القائلة بأن المدة المنصوص عليها كانت لغرض دراسة الـ ب. ع وليست لدراسة أستاذ علوم وعليه فلابد من عقد جديد. ولقد بقينا مختلفين وأنهيت دراستي في جامعة كورنيل بشهادة أستاذ علوم بمدة سنة واحدة ورجعت الى العراق دون أن أوقع عقدا جديداً. وفي تقديري فإني لا أزال أطلب نصف سنة دراسية لأنني أنهيت دراستي وحصلت على شهادتي بكلوريوس علوم وأستاذ

---

[١٤٣] بكالوريوس علوم.

علوم بأربع سنوات ونصف، وهي ضمن مدة الخمس سنوات المنصوص عليها في العقد، فما بال وزارة المعارف تحاسبني على نوعية الشهادة وهي تسمح لغيري بأن ينال شهادة الـ ب. ع فقط في مدة خمس سنوات؟ ألم يحصل فلان بن فلان على شهادة أستاذ علوم بمدة سبع سنوات وأكثر من هذا بقليل؟

لقد أمضيت سنتين ونصف في جامعة كاليفورنيا، نصف سنة في ديفز وسنتين في بركلي، وكم كان بودي أن أبقى فيها، وأن أستمر على الدراسة في الجامعة، فلقد أحببت بركلي وأحببت الجامعة بل أحببت كل شيء فيها. لقد أحببت الحياة بكل ما فيها من حلو ومر، وبالرغم مما تكبدته من عناء ومشقة لتعويد نفسي على هذه البيئة الجديدة وتكييف نفسي على هذا المحيط الغريب. كان كل شيء في بركلي عزيز عليّ، فلقد قضيت فيها ربيع عمري وزهرة شبابي. لقد فتحت عيني على الحياة فيها، وأية حياة كانت! ألم تختلف كل الاختلاف عما ألفته من قبل؟ ألم تتضارب في كثير من مفاهيمها ومقاييسها مع ما تعودت عليه؟ ألم يكن كل شيء فيها ممتع، وكل شيء غريب ولذيذ وكل شيء يدعو الى التفكير والتأمل؟ لقد علقت في ذهني أشياء وأشياء، وأستقرت في أعماق روحي ذكريات، وأن هذه الذكريات سوف لا تمحى ولا تنسى. انها عزيزة عليّ! وهل عليّ أن أنسى جامعة كاليفورنيا أو أن أنسى الدور الذي لعبته في حياتي وفي تكويني الثقافي والروحي. ألم تعودني على العمل في المختبر وعلى الاقبال على القراءة والشغف بها وعلى معاشرة الكِتاب والاستئناس به والارتياح اليه؟، وهل الحياة الجامعية غير قراءة ودرس وتمحيص وبحث وتنقيب؟ وغير دراسة النفس ودراسة المحيط ومعرفة الحقيقة؟ وهل يبقى لدى الانسان إلاّ عادات وتقاليد راسخة في ذهنه لا تكونها الا الحياة الجامعية؟ وهل يأمل الإنسان أن يتذكر ما تضمنته

الكتب من حقائق وأرقام وذاكرته معرضة للنسيان؟ ها قد نسي الانسان كل شيء إلاّ أنه لا يمكن أن ينسى شيئا واحدا هو حبه للقراءة وشغفه بالاطلاع وركضه وراء الحقيقة. وهل أنسى جامعة كاليفورنيا وقد علمتني أن الوقت أثمن من كل شيء في الحياة بل هو الحياة ذاتها، ومن أراد الحياة فلا يُضيِّعنَّ الوقت سدى. وهل أنساها وقد علمتني أن الوقت يتسع لكل شيء وإذا ما شعرنا بأن الوقت قد ضاق بنا وأننا قد ضقنا به فما ذلك إلاّ شعور كاذب، فليس العيب في الوقت بل العيب فينا لأننا لانعرف كيف ننظمه وكيف نوزعه على مختلف الأعمال والفعاليات؟ وهل أنسى هذه الجامعة وقد علمتني أن البناء الضخم لمستقبل زاهر لا يكون بالدرجة الأولى إلاّ في سن الشباب؟ وإن في هذا السن يجب أن لا يُنصرف الى أي شيء آخر ألا لبناء هذا البناء الشامخ. وهل أنساها وقد علمتني أن معترك الحياة بحر خضم، وأن صخرة الحياة شاهقة ملساء، ولا يمكن النجاة من هذا البحر وأمواجه وتسلق هذا الصخرة الملساء والصعود الى ذروتها إلاّ إذا تسلح الإنسان في حياته بأمرين أساسيين هما الخلق المتين والعلم الغزير.

رحلة إلى شرقي الولايات المتحدة

ركبت القطار وأردت هذه المرة أن اقطع الولايات المتحدة من الغرب الى الشرق من جهة الجنوب كما قطعتها عند أول وصولي اليها من الشرق الى الغرب من جهة الشمال. وأردت أن أزور أكبر عدد ممكن من الولايات فركبت القطار لأيام وليال وقد قصدت هذه المرة أن أنزل في بعض المدن الكبيرة لأبقى فيها ليلة أو ليلتين، وأردت التعرف على البلاد بقدر المستطاع فنزلت هنا

وهناك، ولكن أتذكر أنني نزلت في مدينة (نيو أورلينز)[144] التي لا تزال المسحة الفرنسية ظاهرة عليها، وأتذكر أنني نزلت في إحدى اوتيلاتها الفخمة، وقد كلفني ذلك كثيراً وأبهض جيبي، ثم تجولت في المدينة وأردت ركوب الترام ولم أدر أنه ينقسم الى قسمين، قسم أمامي وهو للبيض وقسم خلفي وهو للزنوج، فأردت الصعود الى القسم الخلفي لأن بابه كانت قريبة مني وإذا بأحدهم يصيح: ما تعمل يا هذا؟ أنت لست زنجياً! وأردت مرة أخرى أن اصعد الترام أيضاً ففسحت المجال لسيدة زنجية أن تتقدمني فنهرني أحدهم قائلا: تقدم يا هذا ولا تدع هذه المخلوقة تتقدمك! كنت أسمع أشياء عن مشكلة الزنوج ولكن لم أكن أعرف أن هناك عالمين في الجنوب هما عالم البيض وعالم السود، وأن هناك ألف حاجز وحاجز يفصل بين هذين العالمين، فللبيض مدارسهم وجامعاتهم ومطاعمهم ووسائط النقل وبيوت السكن والسينمات والملاهي وكل شيء أخر فهو خاص بهم، ومثل هذا للسود، فلا يجوز للأسود أن يكون تلميذاً في مدرسة للبيض أو أن يأكل في مطعمهم أو يصلي في كنيستهم أو.... أو .... هناك عالمان، عالم الأسياد وعالم العبيد، عالم طغى وتكبر وازدرى وأحتقر، وعالم قد أُذل وأُهين لا لذنب إلاّ أنه يحمل بشرة سوداء. وإذا كانت الإنسانية الأمريكية لم تبلغ بعد مرحلتها النهائية في التطور، ولم تستطع بعد التخلص من كثير من القيود والعنعنات ومن بقايا الماضي والترسبات، فلا تقبل أن يتزوج الأبيض بالسوداء، فلماذا ترفض أن تعامله كإنسان؟ ولماذا لا تحتمل وجوده مع الأبيض، ولماذا ترفض أن تعامله كصديق أو رفيق أو كمواطن له نفس ما للبيض من حقوق وعليه نفس ماعليهم من واجبات؟

---

[144] عاصمة ولاية لويزيانا، على نهر المسسبي.

مررت بـ (جاكسن فيل)، وهي عاصمة فلوريدا على ما أتذكر[١٤٥]، ثم صعدت منها الى واشنطن ولم أتمكن أن أمر بمدينة (بالم بيج) المصيف المشهور. وفي واشنطن عاصمة الولايات المتحدة بقيت ثلاثة أيام ونزلت في أحدى اوتيلاتها، وعندما سُئلت كما يسأل غيري من المسافرين عن هويتي، قلت: إني عربي! وقد أتيت من البلاد العربية، كما انني لم أذكر عند التخرج الا أن بلادي البلاد العربية، وقد ثبت ذلك تجاه صورتي التي نشرت في كتاب الجامعة السنوي المعروف بالكتاب الأزرق الذهبي. ولقد أعجبتني واشنطن كثيراً في تنظيمها وحسن تنسيقها وفسحة شوارعها وكثرة منتزهاتها وكثرة الحدائق التي تتخللها أو التي تحيط بها حتى لقد شعرت كأن واشنطن حديقة كبيرة غناء. وزرت القصر الأبيض وزرت (الكونكرس) ومكتبته المشهورة التي تعد أكبر واغنى مكتبة في العالم، ثم زرت كثيرا من معالمها ولاسيما قبر إبراهام لِنكُلِن[١٤٦].

قطع بي القطار مسافات، مررتُ خلالها بقرى ومدن عديدة، واجتزنا محطة نيويورك ليلاً وأنا نائم، وما أن استيقظت عند الصباح ورفعت ستارة شباك مقصورتي حتى وجدت القطار يسرع في أرض منبسطة شاسعة قد تبرقعت كل بقعة فيها بشيء أبيض، ولا أدري لماذا لم يتبادر الى ذهني، وانا أنظر الى هذا البياض، والنوم لا يزال في عيني إذ لم أستيقظ تماماً، إلاّ شيء واحد وهو أن هذا البياض لايمكن أن يكون إلاّ مِلحاً، ولا ادري لماذا لم أفكر إلاّ في الصحراء وأن الرمال تحيط بنا من كل جانب وان الأرض تكسوها طبقة من الأملاح. وعلى أية حال كان ذلك أول منظر للثلج تقع عليه عيني في

---

[١٤٥] إن عاصمة ولاية فلوريدا هي (تلاهاسي) أما جاكسن فيل فهي إحدى مدنها المهمة.

[١٤٦] رئيس الولايات المتحدة (١٨٠٩-١٨٦٥).

حياتي فهل من الغريب أن أتصور ما تصورته وأن لا يخطر الثلج على بالي بأي شكل كان.

وصلت (أتِيكا) في نحو منتصف شهر كانون الثاني، وكان الطقس بارداً جداً بل كانت بقع من الثلوج قد انتشرت هنا وهناك في محطة القطار، لما ركبت الترام الذي يصعد الى الجامعة وجدته دافئاً وكان لابد من تدفئته في مثل هذا الموسم الذي يشتد فيه البرد وتسقط الثلوج بغزارة. لم تبهرني الجامعة في أول نظرة كما بهرتني جامعة كاليفورنيا حيث لم أجد فيها تلك البنايات الضخمة ولا تلك الشوارع الفسيحة ولا المتنـزهات الكثيرة والحدائق العديدة. ولم أجد فيها تلك المنارة الشامخة كما وجدتها في كاليفورنيا بل كانت منارة متواضعة، ولم أجد فيها تلك العمارة الفخمة الضخمة التي تشغلها المكتبة بفروعها وقاعاتها وصالاتها، ولكن وجدت شيئا أعجبني جدا لم اجد مثيلاً له في جامعة كاليفورنيا هو ما يسمى ببناية الطلاب، وكانت بناية واسعة وضخمة لها قلب وجناحان، جناح للطلاب وأخر للطالبات، ووسط هو القلب حيث يجتمع الجنسان ويلتقيان، ثم شرفة كبيرة تطل على سفح جبل فسيح وواد عظيم تمتد فيها ووراءها بيوت السكن والبساتين.

وكنت قد اخترت أحد هذه البيوت لكي أسكن فيه، وكِدت أتفق مع صاحبته على شروط السكن، ولكن وجدتها في اللحظة الخيرة قد غيَّرت رأيها، وأستغربت من مثل هذا التغيير المفاجئ الذي أتى بعد أن اتفقنا وكاد كل شيء ينتهي، وتكررت هذه الظاهرة في بيتين او ثلاثة، ثم اكتشفت أني كنت أنا السبب. كانت صاحبته ترحب بي في بادئ الأمر بسبب أن بشرتي البيضاء خير شفيع لي، غير أنها ما أن تعرف أنني عربي وقد قدمت من البلاد العربية إلاّ وتُغيِّر رأيها ولا توافق على أن أسكن في دارها! **كنت أفتخر**

بالقول: أنني عربي، وأن بلادي هي البلاد العربية، ولم أكن أقول أنني من العراق. إن في هذا القول اقليمية لم أكن أستسيغها بل ولا تنسجم مع أهداف القومية العربية. لقد تألمت من هذا الشعور البغيض والاستعلاء البغيض الذي يدل على خِسّة القوم وعلى جهلهم بقدر العرب وعدم معرفتهم بمدنيتهم الزاهية الزاهرة. ولقد عرفت أخيراً أن القوم في شرق أمريكا أكثر محافظة ورجعية من القوم في غربها، وأن حواجز الجنس واللون هي أشد في الشرق عما هي عليه في الغرب. ولقد اكتشفت أن في هذه المدينة شعوراً قديماً ضد اليهود فهم لا يحبون معاشرتهم ومساكنتهم والإختلاط بهم ولعل سبب هذا الشعور هو قربها من نيويورك التي استولى اليهود فيها على كل مرفق من مرافق الحياة المهمة. وأخيرا سكنت في مبنى النادي الأممي، ويشغل بناية ضخمة وموقعها جميل يطل على احدى الولايات وكان يسكنها عدد كبير من مختلف الأقوام الأوربية وعدد كبير من الآسيويين كما كان فيها عدد غير قليل من الأمريكان. وقد وجدت فيها عددا من البولنديين واليوغوسلافيين والنمساويين وعددا من جنوب أمريكا، ووجدت تركياً وايرانياً وعدداً من الهنود. وكانت الغرف واسعة والحمامات حديثة، وفي النادي مطعم بإدارة أحد البولونيين. وللنادي فعاليات ثقافية واجتماعية وقد انتخبت عضوا في لجنة إدارته. وكنا نقيم حفلات راقصة وحفلات موسيقية يحييها بعض الطلاب من الروس البيض والبولونيين، كما كنا نقيم بين آن وآخر حفلات للتعارف وحفلات عشاء، ثم كنا ندعو بعض الشخصيات لإلقاء بعض المحاضرات.

وكان عليَّ أن استمر على دراسة علم التربة، وان اختص في الاقتصاد الزراعي، وكم كانت فرصة جيدة أن أدرس على الأساتذة الذين كنت اقرأ

أسماءهم على مؤلفاتهم، وأن أواجههم وجهاً لوجه، وأن احضر محاضراتهم واستمع اليهم. ولقد كان من حسن حظي أن أكون موجوداً في الجامعة في ذلك الوقت الذي كانت تضم في مجموعة من احسن الأساتذة. فقد كـان الاستاذ (بوكمَن) رئيساً لقسم التربية بها أعني في ذلك الاستاذ (بريل). كما كان في القسم الاقتصاد الزراعي مجموعة من الاساتذة لم تعرف الجامـعة لها مثيلا لا من قبل ولا من بعـد. وكان يـرأس هذه المجمـوعة العـالم الفـاضل G. F. Warrem الذي اصبح فيما بعد احد اعضاء الهيئة الاستشارية الاقتصادية للرئيس روزفلت، وهي الهيأة التي عرفت Beain Truet. وكانت تضم هذه المجموعة الاستاذ بيرسون العالم بالأسعار والاستاذ بويل العالم بالتسويق Marketeting والاستاذ W. I. Myrsn مايرسن العالم بعلم ادارة المزارع وغيرهم ممن لا تحضرني أسماؤهم في هذه اللحظة. لقد قد كنت محظوظاً ان أتعلم على يد هؤلاء الأساتذة وأغرف من معينهم وانهل من منهلهم، كما درست بالاضافة الى دروس الاقتصاد الزراعي عدد غير قليل من دروس الاقتصاد السياسي.

لقد أمضيت في هذه الجامعة سنة كاملة بما فيها الصيف ابتدأت من الشهر الأول سنة ١٩٣١ وانتهت في الشهر الأول من سنة ١٩٣٢ وحصلت على شهادة الـSC. شهادة استاذ علوم في علم التربية وعلم الاقتصاد الزراعي، وإذا ما اضفنا هذه السنة الى السنة الأولى التي قضيتها في جامعة M بيروت، وإلى السنتين والنصف التي قضيتها في جامعة كالفورنيا فيكون المجموع أربعة سنوات ونصف قضيتها لأخذ شهادة B. SC. والـ M. SC..

انتهى الشتاء وقدم الربيع، وحلت عطلة عيد الفصح، وكان لابد من سفرة، ولماذا لا تكون إلى نيويورك وانا لست بعيداً عنها إلاّ بنحو ٣٠٠ ميلاً في الشمال الغربي. لماذا لا اذهب الى نيويورك وأنا لم أرَ منها عند أول قدومي في سنة ١٩٣٠ إلاّ الشيء القليل وقد تركتها على عجل. وبالرغم من قِصر إقامتي فيها، فقد كنت أحسن حظاً من حظ ممتاز عارف وعبد الجبار بكر اللذين لم يريا من نيويورك إلاّ محطتها الكبرى الموجودة تحت الارض، وقد تصورا أنهما كانا على وجه الارض.

سافرت الى نيويورك في القطار، ولما كنت لا اعرف أحداً من الناس قررت أن اذهب الى البيت الأممي الذي قد سمعت به. وبالفعل ذهبت الى هذا البيت وسألت الادارة أين أجد الطلاب العرب، فأشارت الى زاوية كان قد جلس فيها بعض الطلاب، وتوجهت الى هذه الزاوية وحييت من فيها، وقدمت نفسي باني فلان بن فلان طالب من العراق وادرس في جامعة كورنيل، وقد أتيت هنا لقضاء عطلة عيد الفصح، فردت عليّ الزمرة بمجموعها هذه التحية أو بأحسن منها، ثم قال لي أحدهم: أقدم لك نفسي! إني فاضل الجمالي[١٤٧] من الكاظمية في العراق. ولم أكن اعرف فاضلاً من قبل وما كنت سمعت باسمه، وكانت هذه هي المرة الأولى في حياتنا التي رأى فيها أحدنا الآخر وتعرف احدنا على الآخر. وما أن رأيت فاضلاً وما ان رآني حتى شعر كلانا وكأنه يعرف الآخر منذ سنوات وسنوات، فتبادلنا الحديث، وارتفعت الكلفة، وتمازحنا كأننا صديقين من قبل، ومن العجيب كيف

---

[147] أصبح رئيساً لمجلس النواب العراقي، ورئيساً للوزراء من ١٧ أيلول ١٩٥٧ إلى ٨ آذار ١٩٥٤، ومرة ثانية من التاريخ المذكور وحتى ٢٩ نيسان ١٩٥٤ وزيراً للخارجية في وزارة نوري السعيد الرابعة عشرة (٣ آذار ١٩٥٨– ١٤ مايس ١٩٥٨).

ربطت أواصر الالفة والرد بين نفسينا بمثل هذه السرعة الخاطفة. لقد وجدته حلو الحديث، ودمث الخلق ووديع النفس ورقيق الجانب.

شربنا الشاي سوية ثم دعاني الى غرفته، وأطلعني على بعض الكتب والمجلات، ثم طلب مني أن أسكن بالقرب من البيت نفسه وبالقرب من غرفته، ثم دعاني الى أن احضر إليه في غرفته كل صباح. لقد تمشينا وتنزهنا سوية ثم ذهبنا الى بعض المراقص الليلية سوية، وكان فاضل في نظري لا يجيد الرقص كثيراً، وكنت امزح معه حول رقصه وحول الجرائد التي كان يحملها معه في جيبه اثناء الرقص.

لقد انتهت عطلتي وافترقت عن فاضل، ولم ألقه إلاّ فيما بعد في بغداد. وقد تعرفت كذلك في البيت الأُممي على السِّت أمَة سعيد[١٤٨]، وقد دعتني ذات يوم إلى الغداء وكنت قد نزلت الى نيويورك وأشغلتني بازدحامها فرجعت مسرعاً ولكن متاخراً ساعة او نحو الساعة، وكانت هذه السيدة الفاضلة في انتظاري وقد تحلت بصبر وأدب جم، واعتذرت عن التأخر ولكنها قالت: لست أنت السبب ولكن نيويورك هي التي يجب أن تُلام. إنها لا ترحم أبناءها في زحمتها فكيف ترحم الغريب؟ ثم تعرفت بالسيد راغب رشيد وكان مرحاً لطيفاً.

كورنيــل

كان الصيف، وما كنت ادري أن (أتِيكا) ستلبس فيه أبهى حللها وستظهر فيه بأزهي صورها. إن (أتيكا) في الصيف تعد مصيفاً من مصايف

---

[١٤٨] هي أخت زوجة علي جودت الأيوبي الذي تولى رئاسة الوزراء مرات عدة، وكانت أول عميدة لكلية الملكة عالية (كلية البنات، فكلية التربية للبنات فيما بعد)، توفيت سنة ١٩٥٧.

ولاية نيويورك المشهورة، وهي مدينة جامعية صغيرة تدين بوجودها الى جامعة (كورنيل)، حيث أنشئت في أسفل سفح الجبل، بينما أنشئت كورنيل في أعلاه، وتحيط بكورنيل وأتيكا هضاب وجبال وغابات وبحيرات ومساقط مياه فانهما واقعتان في المنطقة المعروفة بمنطقة البحيرات الخمس القريبة من شلالات (نياغارا) المشهورة. وتخترق جامعة كورنيل نفسها بحيرة واسعة جميلة تعرف ببحيرة بي بي be bee lake، وتنقلب هذه البحيرة في الشتاء إلى ملعب متجمد يتزحلق عليه الناس في الشتاء بينما تكون في الصيف مسبحاً جميلاً يسبح فيه الناس من كلا الجنسين. وترتبط كورنيل بأتيكا بطرق عديدة، أو هي في الحقيقة لا تكاد تنفصل عنها، ولكن هناك طريق واحد لا يمكن أن أنساه وهو الطريق المعروف بطريق الوادي فكم من مرة قطعت فيها هذا الطريق ليلاً او نهاراً، وكم من مرة صعدت درجاته الاصطناعية المصنوعة من صخور الوادي نفسه أو نزلتها، وكم من مرة اخترقت هذا الطريق الذي ينساب بين الأشجار الخضراء الكثيفة والمختلفة الوارقة الظل في الصيف، والتي تكتسي حلتها البيضاءالثلجية البلورية في الشتاء، وكم من مرة اخترقت هذا الطريق الجبلي الذي لا يتعب من يصعده ولا يتعب من ينزله، فالمياه تتكسر على بعض درجاته او تنساب على بعض صخوره، او تقطر في بعض جوانبه.

ولهذا الوادي وللطريق الذي يخترقه ذكريات لا تمحى، فكم من مرة اجتزته في الليالي المقمرة او المظلمة والمحبون والعشاق والناس قد انتشروا على جانبيه على مدى البصر وافترشوا الأرض في كل بقعة ومكان، وهل يهتم هؤلاء الناس بمن يمر بهم، ما شأنهم وشأن غيرهم وقد هاموا ببعضهم، واطلقوا العنان لعواطفهم. وهل لا يمكن إلاّ اطلاق العواطف في مثل هذا الوادي

الخلاب وبين أحضان هذه الطبيعة الساحرة، وهل يمكن لبشر أن يشغل عاطفته بغير شواغل القلب ونوازع النفس، وهل يمكن له أن يصرف القلب او ان يشغله بأي شيء آخـر؟ وكنت لا اسمع فيه إلاّ خرير الماء وحفيف الشجر والقوم عندهم سيان إن أطبق الظلام او فاض ضوء القمر فلا ضجيج ولا صخب ولا أصوات ولا كلام بل سكون شامل وصمت مخيم إلاّ من حركات خفيفة تدل على تقارب الاجسام من بعضها وململة رقيقة او عنيفة تدل على الضم والاحتضان وإلاّ من زفرات تدل على النار الملتهبة وأنات تفرج عن الصدر المكروب وهمسات تخفف من لوامج الكبد المقروح وقبلات تنطق بالهوى الدفين والحب المستعر.

كان الصيف، وقد برزت كورنيل من خِدرها، وقد ذابت الثلوج عن وجهها، وتدفقت المياه حولها، واخضرت اشجارها، وسرت الحرارة في كل عضو من أعضاء جسمها، ولم تكن في الصيف كما كانت جامعة كاليفورنيا، خاوية خالية مقفرة موحشة، وإنما دبَّت الحياة فيها واحتشد المصطافون في كل حين ومكان وازدحم الوافدون على دخول الدورة الصيفية فاختلط الناس ببعضهم واختلط الطالب بالمصطاف، وكنا نجتمع في بناية الطلبة حيث نحتشد في الشرفة العريضة الطويلة المطلة على الوادي ولا سيما قبيل المساء. كان الشبان من كلا الجنسين، ولعل عدد الفتيات كان اكثر من عدد الفتيان، ينظر بعضهم الى بعض ويبتسم بعضهم لبعض. وقد شعرت – وأنا انظر إلى هذا المنظر – وكأننا في سوق يبغى كل منا شراء حاجة او يروم الحصول على بضاعة، فكانت الفتاة تريد رفيقاً لها وكان الفتى يريد صديقة له، ولا يمكن البيع والشراء إلاّ بعد تلاقى النظرات وتبادل الابتسامات فقد ينظر الشاب إلى شابة أعجبته فتعرض عنه، وقد ترمي البنت شاباً بسهام لحظها فلا تصيب

منه مقتلاً فيعرض عنها، وقد تتلاقى اللحاظ والعيون وتهفو الأفئدة والقلوب فلا يحيد أحدهما عن الآخر إلاّ وقد انتهت الصفقة أما بموعد في الحال فيخرجا، او بموعد في اليوم التالي.

كنت قد اشتغلت في الصيف لأول مرة في حياتي إذ طلبت من ادارة الجامعة أن تجد لي عملاً في الصيف، وفضلت أن يكون هذا العمل في مزرعة من المزارع، وقد أردت من وراء ذلك بعض الخبرة وبعض المال. واشتغلت مع بعض الطلاب الأمريكيين فكنا نعمل في الحقل سوياً، ونعيش في دار واحدة تعود الى صاحب المزرعة. وكانت الدار حديثة بكل معنى الكلمة، فيها الماء والهواء والتلفون وكل ما يساعد على العيش بصورة مريحة، من غرف ومرافق وحمام ومكتب وما شابه ذلك، ولم تكن تختلف في شيء كثير أو قليل عن أية دار في المدينة، حيث لم يكن في أمريكا عالمان: عالم المدينة وعالم القرية، ولم تكن القرية متخلفة يعوزها الماء النقي او الكهرباء او الشوارع المبلطة، بل لم تكن هذه المزرعة وهي بعيدة عن القرية ليعوزها الشيء الكثير.

لم يعجبني العمل في هذه المزرعة طويلاً فلقد كان مرهقاً، ولم تكن فيه فائدة علمية او خبرة عملية، فلقد اشتغلنا بجمع الحلفاء وخزنها لتكون علفاً للحيوانات في فصل الشتاء، وهكذا فقد تركت العمل وذهبت الى كورنيل، وكانت الدورة الصيفية على وشك الابتداء، وأخذت بعض الدروس في الاقتصاد السياسي، وكان لابد من فترة بين انتهاء الدورة الصيفية وبين استئناف الدراسة في الجامعة من جديد في فصلها الاعتيادي، وكنت قد أقمت صداقة مع مصري بعد أن بقيت نحو من ستة اشهر، وليس من عربي واحد

في هذه الجامعة، كما قدم إليها من لبنان شاب اسمه فوزي العيتاني[١٤٩] وآخر من دمشق واسمه أحمد سحبان، وقدم شابان آخران أحدهما من فلسطين واسمه توفيق معلوف، وآخر من الاردن اسمه ميخائيل حداد، وكلاهما كان يدرس الهندسة.

وسافرت أنا والمصري بسيارته إلى شلالات (نياغارا)، وهي لا تبعد اكثر من ٢٠٠ كيلو متر على ما اتذكر. كانت سفرة ممتعة ونزهة جميلة لولا أن رأينا الموت بأعيننا إذ كنا نسوق بسرعة قبل أن نصل الشلالات ببضعة ساعات، وإذا بالسُّكَّان يفلت من يدي صديقنا المصري، وإذا بالسيارة تلف وتدور حتى ارتطمت بشجرة وتدهورت في ساقية، وكلانا قد اغمض عينيه وسلّم نفسه للقدر، وما كان أشد من فرحتنا حين وجدنا السيارة لم يصبها إلاّ عطب بسيط ووجدنا انفسنا سالمين إلاّ من خدوش سطحية ورضوض بسيطة وبقع من الدم هنا وهناك. وما كانت أشد دهشتنا عندما قرأنا في اليوم الثاني في بعض الجرائد أن حوادث اصطدام كثيرة قد حدثت في هذه المنطقة ذهبت من جرائها بعض الضحايا في الأنفس.

كانت شلالات نياغارا أعظم شلالات واضخمها في العالم، بل كانت اعجوبة من الأعاجيب السبع، هائلة في ارتفاعها الشاهق، مروعة في كميات المياه الضخمة التي تتساقط منها. وكان لهذه المياه المعربدة المتلاطمة المتدافقة بعنف وقوة صوت هائل يصم الآذان. وبعد أن كنا في اعلاها نزلنا الى اسفلها بوسائط خاصة، بعد ان اكتسينا بكساء خاص يحمينا البلل من هذه المياه المتطايرة التي تلفح وجوهنا وأجسامنا. وما كان اروع من منظر هذه الشلالات

---

[١٤٩] سيذكر المؤلف فيما يأتي من مذكراته، أن لفوزي هذا أخ مهندس تولى تصميم بناية نادي المثنى في بغداد.

في الليل حيث الأنوار الملونة تسلط عليها فتظهر وكأنها قسمت إلى اقسام، فذاك ازرق وآخر اخضر وذاك بنفسجي وهذا ذهبي، ثم لون آخر يشبه لون الفضة اللماعة السائلة، وقد أخذت بهذا اللون وأعجبت به جداً. ولا أريد أن اقول شيئاً عن فوائد هنا الشلال في توليد الكهرباء، وما أدته هذه القوة من دور في تطوير تلك المنطقة من الوجهة الصناعية، وفي توسع المدينة، فلقد كانت هذه القوة هائلة ورخيصة، ولا اعرف بالضبط كم يكلف الكيلو واط الواحد منها، ولربما كان يكلف فلساً او اكثر في هذا بقليل.

كانت سفرتنا الى شلالات نياغارا سفرة لذيذة ممتعة لم تشبهها أية سفرة أخرى من قبل، وكانت المدينة التي تحيط بهذه الشلالات والتي سميت باسمها مدينة لهو وعبث ومجون فهي مركز سياحي مهم يؤمها السائحون من امريكا ومن مختلف بقاع العالم. وقد أخذنا حصتنا من هذه الشلالات كما أخذنا حصتنا من هذه المدينة، ومثلما يحتاج الانسان الى غسل جسمه مما قد يعلق به من أوساخ وأدران فإنه كذلك يحتاج الى ان يغسل نفسه من اوساخ المتاعب، وقلبه مما قد يعلق به من أدران الهموم، وهل هناك طريقة لاستحمام النفس واغتسال القلب افضل من الذوق السليم والفن الرفيع، وافضل من حياة اللهو والمرح والعبث البريء.

وجاءت نهاية فصل الصيف، وكانت الجامعة قد استأنفت نشاطها وفعاليتها وعجَّ (الكامبس) بشبابها وشاباتها، وزخرت بالدراسة والحياة. ولم أكن أعرف أن هناك نادياً أممياً للنساء Wamen cosmprlition clab كنادينا الرجالي، حتى دُعيت إليه لألقاء محاضرة عن العراق والعرب. وكنت قد دعيت إلى عدد من المؤسسات الطلابية وغير الطلابية لإلقاء بعض المحاضرات. وإن من عادات الامريكان دعوة الغرباء لإلقاء محاضرات عن

بلادهم، فهم يريدون التعرف على ما لا يعرفونه. وإن عادة إقامة الحفلات والخطب من العادات الشائعة بل انهم يطلبون مسبقا من المدعو، وإن كان في دعوة عشاء، أن يلقي كلمة. انهم ينتظرون من الغريب او من غير الغريب أن يعرف هذه العادة، وهي أن يدعى لإلقاء كلمة بعد العشاء.

كنت أحاضر ذات مرة بين جمع من الطلاب في بناية الطلبة، وإذا بأحد المستمعين وقد تقدم به العمر يوجه اليّ بعض الأسئلة. وكانت الأسئلة تنم عن أن صاحبها يعرف الشيء الكثير عن الشرق الاوسط والبلاد العربية بصورة خاصة. ثم ابتسم وسألني: هل درست في جامعة بيروت؟ قلت: نعم درست سنة واحدة. قال: ومتى كان ذلك؟ قلت: سنة ١٩٢٧ - ١٩٢٨. قال: إذن يجب أن تعرفني! فتفرَّست فيه ولم أعرفه، ولم يتمالك نفسه حتى رفع قبعته وقد ظهر رأسه بشعره الابيض. قلت صائحاً: بالطبع أنت العميد نقولى! لقد عرفتك الآن من شعر رأسك، وانني وإن كنت لم اتصل بك تلك السنة، وان من اتصلنا به هو المستر هدسن، غير أنه لا يوجد طالب في الجامعة إلاّ وعرفك من قريب او بعيد تصول وتجول، فلقد كنت استاذاً فاضلاً وادارياً حازماً. لقد علمت منه أنه في اجازة او أنه بديل استاذ في احدى جامعات امريكا ولا اتذكر اسمها الآن، وأنه قد حاضر كثيرا عن البلاد العربية في مختلف المنظمات والمؤسسات. وفي الواقع فإن رؤساء جامعة بيروت وأساتذتها كانوا من خير الداعين للعرب ومن اقوى المناصرين لقضيتهم وقد اصطدموا بالصهاينة كثيراً.

كنت قد دعيت الى النادي النسائي الأممي لإلقاء محاضرة في عصر يوم من ايام الآحاد وكانت قاعة المحاضرات خاصة بالمدعوات، ولم أكن انتظر مثل هذا الجمع الحاشد وبهذا المستوى من الجمال. لم أجد إلاّ القليل من

الأجنبيات الأوروبيات والأقل الأقل من الاجانب، وقد وجدت اكثر الحاضرات من شابات الجامعة الاميركيات. وكانت محاضرتي طويلة عن العرب وتاريخهم وأمجادهم وحضارتهم، استهدفت بها تفنيد الكثير من الدعايات الصهيونية الكاذبة، او دعايات الاستعمار ولا سيما الاستعمار الفرنسي في دنيا العرب في افريقية. وأعقبت المحاضرة أسئلة وأجوبة، ثم تطورت بعض الاسئلة وبعض الأجوبة الى مناقشات حادة إذ أن قسماً من الحاضرات كُنَّ من اليهوديات. لقد ارتحت كثيرا لهذا المحاضرة، وشعرت انني سجلت نصراً عظيماً، كما أنه قد أُعجب بي قسم غير قليل من الحاضرات.

نشاطات مختلفة

لم تعرف كورنيل كياناً للشباب العربي من قبل، لذا فقد كنت وحدي في الجامعة لعدة شهور، ثم أصبحنا نحواً من ستة في بضعة شهور أخرى، ولم تخلو حياتنا هناك من مضايقات الصهاينة وهم كثر، ودعاياتهم واسعة وشنيعة. وكم من مرة دخلنا معهم في كثير من الجدل والنقاش، وقد كان توفيق معلوف وهو فلسطيني قطعة من حماسة. وعلى الرغم من وجود عدد من الجمعيات الطلابية في الجامعة فإنه لم تكن ثمة جمعية للطلاب العرب، فقررنا تأسيس مثل هذه الجمعية، ولم تسمح الادارة بها في بادئ الامر، ولكن ما لبثنا أن أسسنا الجمعية، وكان ان انتخبت رئيساً لها والسيد توفيق معلوف سكرتيراً والسيد ميخائيل حداد أميناً للصندوق، فكانت جمعية للطلاب العرب في كورنيل، بل واول جمعية في الولايات المتحدة. لقد نظمنا كثيرا من المناقشات والمناظرات مع اليهود، ثم قمنا بحملة تبرعات جمعناها

من بعض الهيئات الطلابية ولا سيما من منظمة الطلاب العرب في جامعة كالفورنيا، وقام بتحويل المبلغ الى الهيئات العربية في فلسطين أمين الصندوق ميخائيل حداد.

كنت في كورنيل غير ما أنا عليه في كالفورنيا، لقد اختلفت حياتي في كثير من الوجوه والنواحي، فلم أعد في كورنيل تلميذاً غير متخرج، ولم أكن في بداية عهدي في الحياة الجامعية اعرف إلاّ القليل من اللغة ولا اعرف إلاّ القليل من العادات والتقاليد، ولا اعرف الشيء الكثير عن البيئة والمحيط، لم أعد غشيماً تحيط بيً القيود وتحد من نشاطي وتشل من حركتي وفعالياتي، ولم أعد غشيماً منكمشاً لا اعرف الحياة الاجتماعية وكيف اندمج بها واستمتع بنشاطاتها. فها أنا في كورنيل قد تخرجت من الجامعة وتمكنت من اللغة، وتعلمت الرقص، وعرفت الشيء الكثير عن الحياة الاجتماعية، وتعلمت كيف أفهم البيئة واندمج بها. والدراسة بعد التخرج لا تشبه الدراسة قبله، وان تكن اوسع واعمق واكثر عناء ومشقة. ولما كنت متخرجاً فقد بت اشعر بحرية اوسع، وأن مجال الحركة لي اكبر، وأني اكثر سيطرة على الوقت، واكثر سيطرة على نفسي. كنت اشعر أن للمتخرج بعض الامتيازات، فهو اكثر اتصالاً بالاستاذ، وان كان الاستاذ على اتصال دائم بالطلاب ولا تفصل بينهما حواجز او فوارق. وإذا كان هنالك شيء لا انساه فهو هذا الاستاذ العالم الفاضل، والذي يزينه فوق هذا تواضعه الجم وخلقه العظيم.

لقد أحببت كورنيل واحببت اتيكا بالرغم من شتائها القارص الطويل، أحببتها بجبالها وبحيراتها وشلالاتها وغاباتها وثلوجها وخضرتها ووديانها. وربما فاقت كورنيل جامعة كاليفورنيا في جمالها، إلاّ أن كاليفورنيا فاقت

كورنيل بجمالها الاصطناعي. لقد تعانقت يدا الانسان مع الطبيعة في التنظيم والتنسيق والعمران في كاليفورنيا أكثر مما بدا الأمر في كورنيل.

كان عليَّ أن اكافح وأناضل أكثر فأكثر من اجل العلم والحياة، وكان هذا الكفاح والنضال يزيداني اتصالاً بالبيئة والتصاقاً بالمجتمع، وكانت عملية التكيف بيني وبين المحيط، وعملية التفاعل بيني وبين الحياة، تزيدني إلفة بالمحيط ومعرفة بالحياة، وليس مثل الالفة والمعرفة بعد نضال وكفاح ما يربط بين اثنين ويجمع بين قلبين. كانت كاليفورنيا وطني في ربيع العمر وليس هناك جمال مثل جمال الربيع وليس هناك حب مثل حب الربيع.

ولا أظن أن هناك شيئا يعدل في اهميته وجماله أهمية التلمذة وجمال حياتها، ففيها يبني الانسان مستقبله ويعيد حياته، ومن فاته العمل هذا السن فقد فاتته الحياة،والحياة لا ترحم إلاّ من استعد لها وتسلح بسلاحها، واذا كانت حياة التلمذة كلها تحصيل وتعب وعناء فإن فيها لذة ومتعة وهناء. إليس التحصيل بذاته لذة؟ أليست الدراسة العالية نفسها متعة؟

كان يتوجب على الشخص الذي يسعى لنيل شهادة استاذ علوم أن يكون معدله فوق الثمانين أي بتقدير B فإن مثل هذا المعدل ولاسيما في جامعة كورنيل او اية جامعة من جامعات الدرجة الأولى هو شرط اساسي للحصول على مثل هذه الشهادة، وإذا لم يتوفر مثل هذا الشرط، وإن نجح الطالب في كل الدروس، فلا يقبل في الامتحان النهائي، ولابد من اعادة الدروس التي كان معدلها تحت الثمانين. وقد شكرت الله اني بالرغم من خضم الحياة ومختلف النشاط والفعاليات تمكنت من الحصول على B في كثير من الدروس، وحصلت على A في دروس اخرى. وتمكنت من أن أقدِّم بعض الدراسات والبحوث العلمية الاقتصادية أو الدراسات المتعلقة بعلم

التربية وتقديم الأطروحة عنها والتي كان لابد من تقديمها إذ بدونها لا يمكن التخرج والحصول على الشهادة.

وكانت مفاجأة سارة أن تُطرَق عليَّ الباب في نحو الساعة العاشرة مساء، وإذا بي اتبين أصواتاً قد اختلط بعضها ببعض ولم تكن بغريبة علي، فإذا بجعفر خياط وممتاز عارف وعبد الجبار بكر يمرحون ويضحكون. وكان هؤلاء الثلاثة قد اشتروا سيارة اقلّتهم من كاليفورنيا وهم في طريقهم الى نيويورك ثم العراق، وكانوا قد أنهوا دراساتهم، فجعفر حصل على شهادة استاذ علوم بأقل من ست سنوات بقليل، وأما ممتاز وعبد الجبار فلم يحصلا إلاّ على شهادة بكالوريوس علوم بعد خمس سنوات، وكنت عند مجيئهم أستعد لآخر درس من امتحانات ما قبل الامتحان النهائي ومع هذا فقد رحَّبت بهم اجمل ترحيب، وتمشينا سوية ولكن لم أسهر معهم تلك الليلة، ولم يبقوا في كورنيل غير ليلتين ويوم.

كنت قد انتهيت من الامتحانات النهائية للدروس، وكنت قد قدمت الدراسات والبحوث والأطروحة، ولم يبق إلاّ الامتحان للحصول على الماجستير. ولهذا الامتحان اصول ومراسيم، فلا يجري إلاّ في جو خاص له روعته وهيبته ورهبته، ويحضر هذا الامتحان رئيسا فرعي الدراسة للتخصص وبعض الأساتذة وبعض المتحنين، ولذا فقد حضره الاستاذ (مايرز) من قسم الاقتصاد الزراعي، والاستاذ (بريل) عن فرع التربة، كما حضر ثلاثة آخرون من الاساتذة في هذين القسمين اللذين اختصصت بهما. ويخصص لهذا الامتحان عادة ثلاث ساعات من الزمن تحاول فيها هيئة الامتحان اختبار الطالب في معلوماته العامة وفي معلوماته الخاصة الدقيقة التفصيلية في مواضيع معينة، بل تحاول فيها امتحان الطالب وسَبْرغَوره والنزول إلى أعماق عقله

ودفين نفسه ومهما كان الطالب متمكناً من نفسه واثقاً من جهوده معتداً بمعلوماته، فلابد وأن يعتريه كثير من القلق والاضطراب بل كثير من الشعور بالفزع والرهبة.

وجاء اليوم الموعود، يوم الامتحان، فذهبت الى البناية المختصة وانتظرت في غرفة الانتظار ولا أدري كم انتظرت، وبينما أنا اسبح في كثير من الخيالات والتأملات، وأعاني من الانقباض النفسي والتوتر العصبي، وإذا بي أنتبه إلى صوتٍ يناديني فدخلت الغرفة ووجدت هيئة الامتحان يتقدمهم الاستاذان مايرز وبريل، وقد ارتسمت على وجوههم ابتسامة او ما يشبه الابتسامة. وكنت أعرف الاستاذ مايرز وهو يعرفني، وكانت معرفته بي قوية إذ وقف على كثير من دروسي وامتحاناتي في خلال سنة قضيتها معه، كما كان واقفاً على كثير من نشاطي وفعالياتي ويعرف الكثير من معدلاتي، وهكذا الأمر بالنسبة الى الاستاذ بريل، أما الاساتذة الثلاثة الآخرون فلم أعرف واحدا منهم. دخلت قاعة الامتحان، وأنا أحاول الآن أن اتذكر الأسئلة التي وجهت اليَّ، ما نوعها، وما عددها، ولكنني لا أتذكر إلاّ القليل، واني لأ تذكر سؤالاً واحدا منها، وهو ما هي الأزمة الاقتصادية وما أسبابها وعواملها وكيف تعالجها؟ اكتب ما تعرفه عن ازمة سنة ١٩٢٩. وثمة سؤال آخر عن النظريات الاقتصادية وآخر عن العمالة والأسعار والعلاقة الموجودة بينهما وما شابه ذلك. كما سألت عن قضية كيمياوية معينة تتعلق بالتربة، ثم سألني استاذان كل منهما سؤال او سؤالين لا اكثر. ولم يمض على بدء الامتحان إلاّ نحواً من خمسين دقيقة حتى عد الامتحان قد انتهى وأُذن لي بالخروج إلى غرفة الانتظار.

لا ادري كم انتظرت وهل طالت المدة ام قصرت، ولكنها دقائق ثقلت حتى شعرت وكأني لا اقوى على احتمالها، وكنت وأنا اتصبّر واتجلّد وأظهر بمظهر الهاديء المطمئن الواثق من نفسه العارف بأساتذته أحسب الدقائق واعد الثواني، واذا بباب الغرفة يفتح وإذا بالأستاذ بريل وقد ارتسمت على محياه ابتسامة عريضة ومد يده يصافحني وهو يقول لي: أهنئك يا مستر محمود، أهنئك من كل قلبي وباسم هيئة المتحنين على نجاحك الباهر، إن الهيئة تقدر فيك علو أخلاقك وغزارة معلوماتك وتثمن اتعابك وجهودك. لا أدري كيف شكرت الاستاذ على تهانيه ولا أدري كيف شكرت هيئة المتحنين فرداً فرداً علىٰ ثقتهم بي. بل لا أدري كيف أصف شعوري في تلك اللحظة ومبلغ سروري وعظيم حبوري. كانت لحظات فاصلة في فترة من فترات حياتي الحاسمة.

لقد هنأني على هذا النجاح الباهر عدد آخر من الطلاب الذين دخلوا امتحان الماستر، ومنهم من نجح ومنهم من فشل. ولقد نقل أحد الأجانب أنه فشل في الامتحان وأن هيئة المتحنين قد نصحته بتغيير فرع أختصاصه، وآخر نصحوه أن يغير هذه الجامعة ويذهب الى جامعة أخرى وآخر نصحوه بأن يرجع الى بلاده.

لقد أخبرنا السيد ع.ج[١٥٠] ونحن في جامعة كاليفورنيا بأنه قد حدد له اليوم الفلاني لامتحان الماجستير، ولما جاء اليوم المخصص، وسألنا صاحبنا عن الامتحان ونتائجه، أجاب ولم يستطع ان يكتم ما بنفسه من حزن أجوبة لم تكن كافية ولا شافية إذ قال: إن أحد الاساتذة المتحنين كان غائباً في سفرة ولم يكن حاضراً في هيئة الامتحان ولذلك تأجل إلى ستة اشهر اخرى.

---

[١٥٠] كذا رمز إليه المؤلف في الأصل.

استغربنا مثل هذا العذر الواهي وخالجنا شك كبير، ثم حدث بعد بضعة ايام أن خرج أحد الاساتذة في احدى المحاضرات وهو يبحث موضوعاً معيناً وقال: أننا رسَّبنا شاباً عراقياً قبل بضعة ايام في امتحان الماجستير لأنه غش في الجواب على هذا الموضوع بالذات. وفي الواقع فإن ع.ج لم يكن بالطالب الخامل بل كان من أبرز الطلاب العراقيين واكثرهم ذكاء، ولكنه قصَّر في امتحان الماجستير.

وكان ع.ج قد فكر ونحن في جامعة كاليفورنيا بالرجوع الى العراق عن طريق الشرق الاقصى، أي عن طريق اليابان والهند، أما أنا فلم تستهويني الفكرة ولا سيما وأنا لم أزر غرب اوربا. لذا فضلت أن أزور غرب اوربا وهي بلاد قد تقدمتنا بمراحل على أن أزور بلاداً قد لا تختلف عنا كثيراً، وكنت قد فاتحت وزارة المعارف في ان توافق على منحي مخصصات السفر المقررة للطالب على أن اقوم أنا بتدبير سفرتي بالطريقة التي اختارها.

لبثت في نيويورك هذه المرة نحواً من اسبوعين، فتفرجت على كثير من معالمها: وزرت جامعة كولومبيا والمكتبة العامة كما زرت تمثال الحرية الذي هالني بضخامته وارتفاعه.

كما زرت ايضاً بناية Empire State وكانت ولا تزال فريدة في ضخامتها وارتفاعها، فهي مكونة من ١٠٣ طوابق، وإن رأسها يكاد يكون دوماً مغطى ببعض الغيوم. لقد افتتحها رئيس الجمهورية (هوفر) وقيل لنا انه اضاءها بضغطه على زر كهربائي وهو في القصر الابيض في وشنطن، كما قيل لنا ان مدير هذا البناية هو المستر آل سميث الذي كان منافساً لهوفر في انتخابات رئاسة الجمهورية.

السفر إلى أوروبـا

لقد حجزت على الباخرة الالمانية المشهورة بريمن ولم أحجز في الدرجة الثانية بل في الدرجة الثالثة، وقلت في نفسي: ولماذا لا أوفر بعض المبالغ من اجل صرفها في اوربا، ولماذا لا اركب الدرجة الثالثة والسفرة لا تطول إلاّ خمسة او ستة ايام. واين هذه المدة من مدة ٢١ يوماً التي قضيتها في البحر عند اول مجيئي الى امريكا، وأين حمولة هذه الباخرة وهي نحو ٥٦ الف طن من حمولة تلك الباخرة التي لم تكن تتجاوز الـ ٢١ الف طن، وكان ذلك ربما في أواخر شهر شباط وأوائل شهر مارس سنة ١٩٣٢.

وحينما جاء اليوم الموعود ركبت الباخرة مع الراكبين، وكانوا خلقاً عظيماً يعدون بالعشرات والمئات، ثم صفّرت صافرة الباخرة تعلن بالاقلاع فهرع المودعون بالخروج، ووقفت على سطح الباخرة متكئاً على المحجر (السياج) ألوح بيدي للمودعين بمنديل ابيض ولقد بقيت اهز يدي حتى غاب الناس عن ناظري، كما غابت نيويورك نفسها. والباخرة لا تسير إلاّ رويداً رويداً وهي تختفي قليلاً قليلاً، وكلما أسرعت في سيرها وابتعدت عن الساحل وضربت في البحر ابتعدت عن نيويورك وابتعدت نيويورك عني، وكلما ابتعدت اختفت بنايات وبنايات، وغابت معالم ومعالم، حتى لم يبق في نيويورك، ونحن نبتعد ونبتعد، والبحر يتسع ويتسع، والموج يتلاطم، إلاّ بعض ناطحات سحابها، وما هي إلاّ لحظة او لحظات حتى غابت نيويورك برمتها. قلت في نفسي: ها قد غاب العالم الجديد وها انا مع العالم القديم على موعد وإن طال السفر.

إن من يركب الدرجة الثالثة، وان كانت الباخرة كبيرة، لا يرى الشيء الكثير من حياتها، فلم تكن المقاصير مريحة ولم يكن الأكل متميزاً. وكانت

مقصورتي بالقرب من مكائن الباخرة الكبيرة، وكان الصوت مزعجاً وقد يصم الآذان في بعض الأحيان، ولم أكن لأبالي بهذا أو بغيره ما دمت أوفر بعض المبالغ للإفادة منها فيما هو أكثر نفعاً وأدعى الى البهجة والسرور. ولم تكن سفرة البحر بالمريحة طوال الطريق، فاذا ما هاج المحيط فلا يبق شيء في جوفي إلاّ وقد اضطرب وهاج.

إنكلتـــرا

وصلتُ إلى انكلترا بعد خمسة أو ستة ايام، وهي مدة قصيرة هوَّنت علينا وِحشة البحر وهيجانه، فركبت القطار الى لندن، وقد سرنا في طريق ريفي جميل في وسط حقول خضر كانت تمتد على جانبي الطريق، وما أن يمتد البصر حتى يتصل بزرقة السماء في الافق البعيد. وما هي إلاّ ساعة او اكثر بقليل حتى وصلت لندن ونزلت في اوتيل (رسل) في (رسل سكوير) ولم اكن قد رأيت لندن من قبل، وقد رأيتها بعد ان رأيت نيويورك، وتعرفت على معالمها، ولا يمكن لأي شخص أن يرى نيويورك ولا ينكسر خياله اذا ما رأى اية مدينة اخرى، ولا سيما اذا رآها بعدها مباشرة.

لم تبهرني لندن بل لم تعجبني كثيراً في بادئ الامر فأين شوارعها من شـوارع نيويورك، وأين بناياتها الفخمة وعماراتها الضخمة، واين ناطحات سحاباتها وشاهقات صروحها. ومن الغريب انني شعرت وكأن لندن لا تعدو أن تكون قرية كبيرة بالنسبة الى نيوريورك، ولم يكن هذا الشعور بالطبع إلاّ شعور كاذب فإذا لم تبهرك لندن بمظهرها الخارجي كما تبهرك نيويورك فلا شك وانها تبهرك فيما هو موجود في داخلها من حضارة ومدنية وثروات تاريخية وغير تاريخية. بدت لندن وكأنها من المدن المغلقة، واقصد بذلك انها

ليست كغيرها من المدن المفتوحة التي لا يعسر عليك معرفتها ولا يصعب عليك التعرف على الناس. لقد وجدت لندن بالنسبة الى نيويورك كئيبة وكأنها في الليل مظلمة، فأين (البكاديلي) من (تايم سكوير)، واين شارع اكسفورد من الشارع الخامس. اين تلك الأضواء الساطعة الملونة التي تجعل من الليل نهاراً بل ألطف نوراً واكثر بهجة، لقد وجدت الناس اقل حيوية ونشاطاً واقل سرعة في سيرهم واقل قوة واندفاعاً في حركتهم، ولكني وجدتها كأختها في نيويورك خالية من المقاهي والكازينوهات. وليس من السهل على الغريب أن يتعرف على الناس اذا كانت المدينة خالية من مثل هذه المحـلات، ولم اكن اعرف ان في لندن وسائل أخرى للتعرف قد تكون أهم من المقاهي وهذه هي محلات الشرب العامة، او المراقص العامة (كالهامر سميث باليه) الذي يرقص فيه كل ليلة ما لا يقل عن الاثنين او الثلاثة آلاف شابة وشاب. وقد وجدت في لندن شيئاً لم يكن له أي وجود في نيويورك او اية مدينة اميريكية اخرى، أعني شوارع كاملة في الليل مليئة بالرقيق الابيض، حيث رأيت الفتاة وقد وصلت الى أسفل درك واحط منزلة، فهي تُباع وتشترى مثلما تباع وتشترى اية بضاعة، ووجدتها قد امتهنت بحيث أصبح سعرها من ارخص الأسعار وابخسها. ولا اريد أن اقول أن امريكا تخلو من الرقيق الابيض او من محلات الدعارة، كلا فأن ذلك من المستحيل إذ لا يمكن ان تخلو اية مدينة ولا سيما اذا كانت كبيرة من مثل هذه المحلات. إن البغاء شر من شرور المدنية، بل قل المجتمع الانساني بصورة عامة، إذ قلما يخلو منه مجتمع من المجتمعات سواء كان متحضراً او متاخراً وان كان هو الصق بالمجتمع المتحضر اكثر منه بالمجتمع المتأخر، واذا كان هذا صحيحاً فأن من الصحيح ايضاً ان اقول ان نيويورك او اية مدينة اخرى خالية من

البغاء العلني وانت لا تجد فيها الفتاة بل أسراباً من هؤلاء الفتيات يقفن في بعض الشوارع المهمة لاصطياد المارة كما هو موجود في لندن.

لقد زرت بعض معالم لندن، ومنها المتحف البريطاني. ووقفت طويلاً في القسم المختص بمدنية العراق قديمها أو في الزمن الاسلامي، وزرت برج لندن وبعض أمكنتها التاريخية وقصورها المعروفة، وزرت حديقة الحيوانات، وتفرجت على حقول الهايدبارك الخضراء وازهارها الزاهية وبحيرتها الاصطناعية، وتفرجت على بشرٍ فيها من مختلف الاقوام والأجناس ولا سيما يوم الاحد، وقد شاهدت لأول مرة كيف يقف بعض الخطباء – وكلهم من الأجانب – يهاجمون فكرة او سياسة او يدافعون عنها والناس بين منتقد ومحبذ.

زرت كنيسة (ويستمنسر) المشهورة وبعض كنائس اخرى، وتفرجت على ما فيها من آثار خالدة، ووقفت عند مقبرة العظماء استلهم التاريخ واستنطق الحوادث فلقد خدم هؤلاء أمتهم بأخلاص وأمانة وزادوا في رفاهيتها ورفعوا من شأنها. وكم كان سروري بالغاً أن أزور ولأول مرة في حياتي البرلمان الانكليزي، كانت بناية مهبية قد ربضت على ساحل نهر التايمس، وامتدت على قسم غير قليل منه وقد انتصبت على جانبيه تماثيل من ساهم في تكوين التاريخ البريطاني، منهم بعض رؤوساء الوزارات ومشاهير الرجال، أمثال كلادستون ودزرائيلي. وحضرت جلسة من جلسات البرلمان حيث شاهدت المتفرجين الذين يجلسون في شرفات الطابق العلوي ورأيت النواب وقد انقسموا الى نواب اليمين وهم نواب الحكومة، والى نواب اليسار وهم نواب المعارضة، وشاهدت رئيس المجلس وقد وضع على رأسه الشعر الابيض التقليدي. وكان قسم غير قليل من المتفرجين هم من الهنود، وما كنت ادري

ان تلك الجلسة كانت وقد خصصت لمناقشة القضية الهندية، فلقد تكلم بها رئيس الوزراء وعدد من الوزراء والنواب وتكلم فيها المستر بلدوين[151] والمستر رمزي مكدونالد[152]، وكانت جلسة طريفة شهدت فيه كيف ينصت المجلس لخطيب بينما لا ينصت لخطيب آخر، وكم اعجبتني أصوات النواب وهم يؤيدون او يعارضون، او حين ترتفع بكلمة يا... يا... للاستحسان والتحبيذ.

لقد وجدت من المناسب وأنا في لندن ان اتصل بالمفوضية العراقية، ولم يكن بعد قد رفع التمثيل الدبلوماسي الى درجة سفارة، ولم يكن الوزير المفوض جعفر العسكري موجوداً آنذاك في لندن، وقد أجابني على التلفون السيد حسين أفنان[153] سكرتير المفوضية، عندئذ قلت: إنني طالب عراقي أنهيت دراستي في أمريكا وأنا في طريق عودتي الى بغداد واحب زيارتكم. وقد رحب بي وضرب لي موعداً في اليوم التالي في نحو الساعة الرابعة، وكم سررت عندما وجدت نفسي في دعوة شاي صغيرة قد اقيمت على شرفي حضرها عدد قليل من الانكليز الذين سبق لهم العمل في العراق مع زوجاتهم. كما تعرفت على السيدة بديعة افنان زوجة السيد حسين افنان.

---

[151] من أهم الشخصيات السياسية البريطانية فيما بين الحربين، من أعضاء حزب المحافظين، أصبح وزيراً سنة ١٩٢١، ألف وزارته الأولى سنة ١٩٢٣، وألف وزارته الثالثة في سنة ١٩٣٥، وتنحى عنها سنة ١٩٣٧.

[152] رئيس حزب العمال البريطاني، أصبح رئيساً للوزراء سنة ١٩٢٤ ثم سنة ١٩٢٩، استقال سنة ١٩٣٥ وخلفه بلدوين، وتوفي سنة ١٩٢٧.

[153] ولد في عكا سنة ١٨٨٩ ودرس في بيروت، ثم جاء إلى العراق حيث أصدر جريدة (الشرق) التي كانت تدعو إلى تكريس الاحتلال البريطاني فالانتداب، وعين سكرتيرا لمجلس الوزراء فرئيسا للتشريفات، وفي سنة ١٩٣٠ عين سكرتيرا للمفوضية العراقية في لندن ثم في أنقره.

في باريس

لا اتذكر كم بقيت في لندن ولكن شعرت انها كانت مدة كافية، وكانت وجهتي باريس، لكني لم أكن اعرف إلاّ القليل من اللغة الفرنسية ولم يكن هذا القليل ليكفيني مؤونة الكلام والتفاهم، ويزيد في غربة الغريب جهلهُ بلغة القوم. ولم أكن اعرف اللغة فشعرت بالغربة والوحشة والضيق، ومن غريب الصدف أن أسمع اول ما اسمع في محطة باريس اللغة الانكليزية وان اسمع اول ما اسمع في محطة لندن اللغة الفرنسية، ولا اتذكر كيف استطعت أن إهتدى الى حي الطلاب وأن اسكن معهم، ولعلي ذهبت الى احدى المقاهي ووجدت فيها بعض الوجوه السُّمر من أبناء وطني.

وباريس ليست كأختها لندن او نيويورك، فهي من المدن المفتوحة غير المنغلقة على نفسها فلا يستطيع الغريب فيها ان يتبين طريقه. وإن المقهى خير ملجأ له لانها تضم اشتاتاً من البشر وألواناً من الناس، وهي منتشرة في الشانزلزيه وغيره من الشوارع المهمة، وفيها تعرفت على بعض الطلاب من العرب كما تعرفت على بعض العراقيين، اتذكر منهم احمد عزت القيسي[١٥٤] وعبد المجيد القصاب[١٥٥] وكانا يدرسان الطب. وكم كان سروري ان اجتمع بالطلاب العرب وقد وجدتهم بكثرة ووجدتهم يمثلون مختلف الأقطار العربية، وكم كان سروري أن اجد بعضهم من الشمال الافريقي ولم يسبق لي

---

[١٥٤] طبيب، ولد سنة ١٩٠٦، وتخرج في الكلية الطبية ببغداد، ثم التحق بالبعثة العلمية العراقية في باريس حيث التقى به المؤلف، تدرج في المناصب الطبية حتى صار مديرا لمعهد الطب العدلي، له مؤلفات منها (البكارة ومشكلاتها).

[١٥٥] طبيب، ولد سنة ١٩٠٧، وتخرج في الجامعة السورية، ثم درس الطب في جامعة مونبيليه بفرنسا حيث التقى به المؤلف كما يذكر هنا، وعاد إلى بغداد سنة ١٩٢٦ فأصبح مساعدا لعميد الكلية الطبية، ثم وزيرا للصحة والمعارف بين سنتي ١٩٥٢ و١٩٥٤ وتوفي سنة ١٩٨٨.

أن تعرفت عليهم سواء في امريكا او في أي بلد آخر. وقد كانت هذه اول مرة في حياتي التقي بهم وأتعرف عليهم، وكانت هذه اول مرة ان اجد صعوبة في التفاهم معهم بلغة الآباء والأجداد. لقد مسخ الفرنسيون اللغة العربية في دنيا العرب في افريقيا وكادوا يقضون عليها حتى بات من غيرالسهل على ابناء العروبة ان يتفاهموا فيما بينهم بلهجاتهم المحلية، لقد ابتعدت هذا اللهجات عن بعضها وداخلها شيء كثير من التحريف وشيء كثير من الكلمات الاجنبية بحيث اصبحت كل واحدة منها وكأنها قائمة بذاتها مستقلة عن اخواتها، ولولا القرآن الكريم لاستقلت هذه اللهجات عن بعضها، ولما أصبح من المكن التفاهم بها كما حدث للشعوب الفرنسية والايطالية والاسبانية بالنسبة الى اللاتينية وهي لغتهم الاصيلة. ولولا القرآن الكريم لاندثرت هذه الرابطة المقدسة رابطة اللغة التي تربط بين ابناء الأمة الواحدة الممتدة من المحيط الى الخليج، ولتفرقت هذه الأمة الى امم وشعوب، واللغة في الامة العربية اكثر من رابطة، انها حضارة ومدنية تشترك فيها الشعوب العربية في مختلف اقطارها وأمصارها، وانها لتشعرك بأن الأصل واحد والتاريخ واحد والمصير واحد، وان هذه الشعوب انما هي اجزاء من امة واحدة وان هذه البلاد انما هي اقطار من بلاد واحدة، فليس هناك الاّ أمة واحدة وإلاّ وطن واحد، وقد أضعف من حدة هذا الانقسام بين اللهجات. إن العربي اليوم وإن لم يتكلم العربية الفصحى فانه لا يتكلم العامية، بل يتكلم لغة وسط لا هي بالعامية ولا هي بالفصحى، ولقد ساعد على تكوين هذه اللغة بسرعة اشياء كثيرة ولكن اهمها في نظري توسع الثقافة وانتشار الاذاعة والصحافة.

ولكم فرحت أن التقى ببعض هؤلاء الأخوان وأن اجدهم مثلنا بل اشد منا حماساً واكثر منا استعداداً للفداء في سبيل الوطن وخدمته واستقلاله. لم

أكن أدري أنهم مثلنا يحملون نفس الآمال الوطنية والآمال القومية، وأن قلوبهم العامرة لتجيش بحب الوطن ومقارعة الاستعمار والقضاء عليه وتحرير الامة من كل قيود العبودية والاستقلال. لقد اجتمعت بهم في اجتماعاتهم السرية وغير السرية، وتحدثت اليهم كما تحدثوا الى بكل حرية وانطلاق في كثير مما يهم الوطن في حاضره ومستقبله، وكنت احضر بعض هذه الاجتماعات السرية مع السيد احمد عزت القيسي، ولم يشأ هو أن يصطحب معنا غيرنا من العراقيين، فتعرفت على عدد غير قليل منهم، بل تعرفت على بعض قيادتهم وعملائهم، واتذكر منهم بلفريج الذي أصبح رئيساً للوزارة في المغرب.

وقيل لي أن الشيخ محمد مهدي البصير[156] يدرس في باريس، فقلت: لابد من زيارته، وهو على كل حال أستاذي في الأدب العربي في المدرسة الثانوية ولو لمدة قصيرة. والشيخ محمد مهدي كان شاعراً من شعراء الثورة العراقية وشخصية وطنية محبوبة، وهو أعمى ولكنه مرهف الحس، وكثيراً ما يعرف الشخص من صوته أو لمسه، فذهبت لزيارته وقد عرفني من صوتي ولمسه يدي وهو أستاذي القديم، فدهشت لتمتعه بمثل هذا الحس المُرهَف وبمثل هذه الذاكرة القوية. رأيته منكباً على درس اللغة الفرنسية، وهو يضع أمامه آلة صغيرة فسألته: ما هذا؟ قال: انها راديو او ما يشبه الراديو، فيها سماعة يضعها في أذنه فلا يسمع الموسيقى او غيرها إلاّ هو، واتذكر انني عجبت لها.

---

[156] ولد سنة ١٨٩٦، وعمل في بعض الوظائف الدينية، ثم درس الفرنسية في القاهرة، وسافر إلى فرنسا حيث كان لقاء المؤلف به، وعاد إلى وطنه وقد حصل على الدكتوراه في الأدب، وعين مدرسا في دار المعلمين العالية، وألف كتابا مهما عن ثورة ١٩٢٠ ومؤلفات أخرى، وتوفي سنة ١٩٧٤.

لقد زرت كثيراً من معالم باريس كمقبرة نابليون او مقبرة العظماء وقصر فرساي وقاعة المرايا فيه، كما زرت الاوبرا، والجامع، وسرّني ما رأيت فيه من عمارة انيقة وزخرف بديع، وزرت بعض اماكن اللهو التي اشتهرت باريس بها، بل زرت لأول مرة في حياتي ملهى عربياً هو ملهى الجزائر.

وكنت اتردد على شارع الشانزيليزيه الذي هو ولا شك أوسع شارع في العالم، وأخذت اتردد على بعض مقاهيه. والمقهى في هذا الشارع متعة من المتع، والمشي في الشارع ولا سيما وقت العصر لذة من اللذائذ. ان هذه المقاهي لتحتشد بالناس، وان بعضها هو اكثر من مقهى، وإنما هو مطعم ومقهى في آن واحد. كما ان البعض الآخر لا يخلو من (جوقة) موسيقية صغيرة وقد تكون هذه الجوقة مكونة من النساء فقط، وكان هذا الشارع في كل وقت من اوقاته اكثر حيوية عند العصر والمساء وفي الليل، فمن عادة الباريسيين، والباريسيات خصوصاً، النزهة في هذا الشارع عند المساء. ومن عادة هذا الشارع أن يزدحم بهم وبهن، وهم يسيرون فيه على غير هدى فهم يتنزهون لمحض النزهة ويتمشون لمجرد المشي. ولا تخرج الباريسية الى هذا الشارع إلاّ وهي على آخر موضة في زينتها وهندامها ولباسها، وهي لا تسير إلاّ متبخترة مزهوة وبغنج ودلال، إنها المشية الباريسية المعروفة. وكم مرة شاهدت هذا الحشد الانيق الجميل يروح ويضحك ويلهو وكان لا شيء في العالم يقلقه او يكدر عليه صفوه، وكم من مرة شاهدت فتاة وقد تَحرَّش بها شاب أو ضايقتها آخر، وقد لا تستجيب وهي تعتذر والابتسامة لا تفارق شفتيها، وقد تستجيب بعزة وكبرياء. واذا كانت الباريسية تفوق غيرها في موضتها ورشاقتها وانوثتها فقد لا تفوقهم في جمالها، فإني وجدت الفتاة اللندنية جميلة، ولا أبالغ إن قلت انني وجدت مُعدَّل الجمال في لندن، إن ام يتجاوز معدله في باريس، فإنه لا

يقل عنه بأي شكل كان، ولعل بنت لندن ظلمت بسبب بعض السيدات او العجائز اللندنيات اللواتي يصطحبن أزواجهن في اعمالهم الى الشرق، وقد وجدت على كل حال فتاة كاليفورنيا اجمل من الجميع ولم اجد فتاة نيويورك إلاّ اقلهن جمالاً.

أحبولة مخادع

وهل يجوز لإنسان أن يزور باريس ولا يزور متحف اللوفر؟ كانت زيارة طويلة مفصلة وقفت عند مختلف أبهائه وصالاته وقفات طويلة انعم النظر في محتوياته، وهي كلها من عجائب الدنيا ونوادر التاريخ، وقد وقفت اكثر ما وقفت عند بعض الألواح الزيتية الاصلية، وانني لأجد نفسي أميل الى هذا النوع من الفن الجميل فانها تستهويني، وانه ليعجبني أن امتع النفس بالنظر اليها. ولقد رأيت في اللوفر في يوم واحد ما لم أكن أره في بضعة ايام لو كنت لوحدي إذ كان شخص اخر يصحبني في هذه الجولة، وقد أعانني على زيارة هذا المتحف بسرعة، وعلى تفهم كنوزه ونوادره. ولم اكن أعرف هذا الشخص من قبل ولكنه تعرف عليَّ وأنا اقف عند شباك قطع التذاكر في مدخل اللوفر الفخم، حيث قال لي وهو يهم بقطع تذكرة ايضاً: أراك غريباً وانك لا تعرف الفرنسية. قلت: هذا صحيح، قال: وأنا غريب ايضاً وكل غريب للغريب نسيب، وانا أروم زيارة المتحف ايضاً فهل لك ان ترافقني؟ قلت: بسرور. لقد فرحت ان اجد شخصاً وأنا في زحمة المتحف وفي غمرة باريس تربطني وإياه رابطة اللغة بل وتربطني وإياه رابطة الغربة ايضاً. وسألني من اين أنا؟ قلت له: كنت في امريكا وقد انهيت دراستي فيها وأنا في طريق عودتي الى بغداد. قال: متى ستكون في بغداد؟ قلت: في التاريخ الفلاني. ثم قال: انني انكليزي

وقد ورثت إرثاً كبيراً من أجدادي فقمت بجولة في اكثر بقاع العالم، وانني أنوي زيارة بلادكم قريباً فانها مهد الحضارة ومصدر المدنية، كما أن عليّ واجباً لابد من ادائه. قلت: وما هذا الواجب؟ قال: إن قريبي الذي توفي كان قد أوصى ببناء مستشفى في البصرة وتوزيع بعض المبالغ على فقراء المدينة. وأتذكر انها كانت نحو خمسة آلاف دينار. وما أن أتم كلامه حتى أخرج من جيبه قصاصة جريدة من الجرائد وقد طبع فيها هذا الكلام الذي قاله، فاستغربت كلامه وتملكتني الدهشة. وقلت: إن الخبر لا يمكن إلاّ أن يكون صحيحاً، ثم قال: وأنني لأفتش عن شخص نعهد اليه القيام بهذه المهمة لقاء أجور مناسبة، وانني أحمد الله أن وجدتك وأكون ممتنا لو أنه يوفقك لتساعد على القيام بها.

لقد اجتمعنا اكثر من مرة، وتغذينا وتعشينا سوية، وكان كل منا يدفع عن صاحبه بحسب الدور ثم رد صاحبي لي المبلغ المقترض. كانت الفلوس التي أحملها غير التي وفرتها من هنا وهناك بعد أن ركبت الدرجة الثالثة بدلا من الدرجة الثانية، وهي بشكل شيكات مسافرين للمحافظة عليها لئلا تسرق، ولكن صاحبي حملني على تحويلها إلى نقود بعد أن عرف أنها شيكات وعندما جس نبضي. ولعله قال لي: لابد لهذا الرجل أن يثق بك حتى يعهد اليك بهذه المهمة ويسلمك مثل هذه المبالغ الطائلة، ولا بد من أن تريه انك تحمل بعض المال وانك لست محتاجا، أو لعله قال لي: إن هذا الشخص لا يثق بالشيكات ولا بد تحويلها إلى نقود. وعلى أية حال فإني أتذكر أننا اجتمعنا في مقهى، وكان ذلك قبل سفري إلى إيطاليا بيوم واحد، وكنت قد صرفت الشيكات إلى نقود بعد أن أخذني صاحبي إلى أحد الصرافين، وقد يكون شريكا له، ثم طلب مني الإنكليزي أن أريه الفلوس

فأخرجت له (الجزدان) بما فيه من فلوس وبطاقات السفر ثم منحته ساعة زيادة للاطمئنان. وما أن استلم الجزدان من حيث كان مخبئا حتى فتحه ورد الي بطاقات السفر، وقال: لا حاجة لي بها، ثم خرج من المقهى ليمتحن ثقتي به، وقد تأخر قليلا ثم قال صاحبي: دعني اذهب وراءه لأرده إلينا، ثم خرج وبقيت في المقهى لوحدي انتظر بعض الوقت ثم شعرت.. ولكن بعد فوات الأوان.

إن ذاكرتي تخونني ولا يسعني أن أذكر بالضبط ما حدث، وكلما أردت وأنا اكتب هذه المذكرات ان أتذكر تماما ذلك، تأخذني الحيرة والعجب! لقد استغفلني هاذان الرجلان وضحكا على ذقني. لقد احتالا علي و(قشمراني) فكيف انطلت علي هذه الحيلة؟ وكيف نجحت هذه المكيدة؟ وكيف وقعت في الفخ فاصطاد تني المصيدة؟ هل كنت غشيماً وبسيطاً، هل لم أكن حذراً لاسيما وأنا لم أمر بغير هذه التجارب ولم ينبهني أحد إلى مثل هذه الأخطار؟ هل كنت طيب القلب، حسن النية، حتى أقيس الناس بمقياس نفسي؟ فإذا كنت لا اشك بأحد وإذا كان لا يخطر على بالي أن انكث بعهد أحد أو احتال على أحد، أو أخون أحد، فهل يجوز لغيري أن يحتال علي ويخونني؟ هل لعبا على بعض الأوتار النفسية؟ هل اثارا في عامل الطمع وأغرياني. لا ادري ولربما كان ذلك شيئاً من هذا كله.

كان صاحبي رجلا مشعوذاً كبيراً ولصاً محترفاً خطيراً. وكان يقف لفريسته كل يوم في مدخل اللوفر، وعندما وقعت عيناه علي ذلك اليوم كنت أنا الصيد السمين، فأنا منذ أن احتالا علي وكأني بهما قد نوماني تنويما مغناطيسيا سلبا فيه إرادتي فلم يثيرا في إية شكوك، ولم يسمحا بتسرب أي

ريبة في نفسي، لقد سيطرا على سيطرة تامة فوثقت بهما وأمنت واستسلمت لهما وأطعت؟

خرجت من المقهى وأنا أتعثر بأذيال الخيبة، أتساءل: كيف سأجد السارق ولم يبق بيني وبين السفر إلاّ بضع من نهار وليلة؟ كان توقيتهما للسرقة دقيقا إذ انهما سرقاني قبل السفر. وكان صاحبي يعرف متى أسافر فلقد سألني هذا السؤال عند أول تعرفه بي. ثم وصلت الى الاوتيل وما ان دخلت حتى وجدت سائحاً عربياً من فلسطين كنت قد تعرفت عليه معرفة بسيطة، واسمه كما أتذكر حمدي، وكان قد أعلمني أنه في باريس لدراسة التمثيل والغناء، وأنه يطمح ان يكون يوماً ما مثل المغني محمد عبد الوهاب. قلت له: حمدي لقد سُرقت! وقصصت عليه القصة فأخذني مسرعاً إلى دائرة البوليس وسجلت دعوى، ثم فرَّجَني ضابط البوليس على عدد كبير من صور النشالين والسُّراق تعد بالعشرات وبالمئات وطلب مني التشخيص، وقلبت هذه الصور وأمعنت النظر فيها ولم اشك إلا بواحدة او اثنتين ولكني لم أجزم ولم أتهم. رجعت الى الاوتيل ومعي حمدي، وعندما رآني قلقاً مضطرباً منزعجاً، قال: ما بالك يافلان! هوِّن عليك فالقضية لاتساوي شيئاً. قلت: صحيح، ولكن لم يتبق عندي إية فلوس، وأنا بعد لم ادفع حساب الاوتيل بعد. قال: لا تبالي أنا ادفع الحساب. فأدهشني هذا الشاب بخلقه العربي الكريم وأدهشتني شهامته وانا في موقف حرج. ادهشني تصرفه النبيل وأنا لا اعرفه ألا معرفة بسيطة، وسأترك باريس في اليوم التالي وقد لا اراه وقد لا يراني طوال العمر. قلت: سبحان الله كيف لي ان أرى في ساعة واحدة نموذجين من البشر: نموذج هو عين الرذيلة والآخرعين الفضيلة، ذلك يسرقني وهذا

ينقذني. وعجبت للإنسان في سَفالته وانحطاطه، وفي خسته ودناءته، وعجبت للإنسان في سموه وارتفاعه، وفي طيبته وفي إنسانيته.

كنت وحدي ولا أملك نقوداً لأرسل برقية إلى اهلي، فدفع حمدي اجرة البرقية. ولا اتذكر إذا كنت قد أخبرت اهلي اني سُرقت أم لا، ولكن اتذكر انني اخبرتهم بحاجتي الى المال، وأنني سأترك باريس يوم غد وسأصل نابولي في ايطالية بعد يوم غد ولا بد من ارسال الفلوس. وقد طلبت ذلك بواسطة شركة توماس كوك في نابولي.

ركبت الباخرة ووصلت نابولي في اليوم التالي، وما أن وصلت حتى هرعت الى مكتب الشركة مسرعاً والقلق بادٍ علي أسألهم عما إذا وصلهم شيء من بغداد باسمي، وكم كان ألمي شديداً عندما أجابني الموظف بالنفي، ولما لاحظ قلقي الشديد، قال: مهلاً إن بريد بغداد لا يصلنا إلاّ بعد نحو ساعة. ولا ادري كيف مرت هذه الساعة ولكن رحت ثانية الى الشركة وكم كانت فرحتي شديدة وانا اشاهد الموظف المختص يفتح البريد الذي كان قد وصل لتوه ويقلب المكاتيب والرسائل حتى توقف قليلاً وصاح: خذ هذه لك ففتحت الرسالة ووجدت الحوالة. لم اشعر في حياتي بمِنّة إلى أهلي وإلى والدتي مثلما شعرت بها في تلك اللحظة، فقد كنت قلقاً وخائفاً ولم اكن واثقاً أن البرقية التي ارسلتها من باريس ستصل في الوقت الملائم، وانها إذا وصلت سيستجيب لها اهلي بالسرعة المطلوبة إذ قد لا يكون المال متوفرا، ولم اكن واثقاً من أن المبلغ سيصلني ولم يتبق إلا بضعة ساعات في نابلي. وكان اول عمل قمت به هو أني ذهبت الى مدير الشركة وطلبت منه تحويل المبلغ الذي استدنته باسرع ما يمكن إلى حمدي في باريس. فحوَّل المبلغ واستلمت وصلا بذلك، ومع هذا بقيت شاكاً وخائفاً من المبلغ لم يُحوَّل وانه ربما لم يصل الى

الشاب الذي تفضل بإقراضي وهو بحاجة الى المال. لقد اصبحت في حال يشبه حال ذلك الذي لا يضع اللبن في فمه إلاّ إذا نُفخ عليه لأنه شرب الحليب حاراً فاكتوى لسانه. وبقيت قلقاً سنين طوال اسال فيها نفسي هل ارسلت الشركة الدراهم أم انها قد احتالت عليَّ؟ واذا كانت قد احتالت فما معنى هذا الوصل الذي استلمته؟ وهل وصلت الدراهم الى حمدي ام انتظرها ولم تصله، وهل هز راسه آسفاً لأنني نكثت بوعدي، أم هزَّه شاكراً لأنني اسرعت في ارسالها، ولأنني وفيت بالدَّين بأقصر مدة ممكنة.

كان ذلك في اواخر سنة ١٩٤٠ او اوائل سنة ١٩٤١ أي بعد نحو عشر سنوات على مرور هذه الحادث عندما استلمت مكتوب مصدره البصرة، وانا موظف كبير في وزارة المالية، فتحت المكتوب واذا به يشير الى اننا كنا تحدثنا في باريس، وانه الآن مدرِّس في احدى مدارس البصرة، ولم يعد يقوى على البقاء فيها، وانه يرغب في النقل إلى إحدى مدارس بغداد، وكانت الرسالة موقعة بتوقيع حمدي، ولكنه لم يشر إلى تلك الحادثة المشؤومة وإلى موقفه النبيل منها.

لقد دهشت لهذه المصادفة، وكم فرحت بالرسالة، ولم اصدق أنها من حمدي، فأسرعت في الكتابة اليه، ورجوت منه ان يخبرني إن كان هو أحمد الذي كان ينوي دراسة الموسيقى والغناء وأنه ذلك النبيل الذي أقرضني المال، وأن يخبرني عما اذا كان قد وصله المال الذي أرسلته له في نابولي. فأجاب بالنفي وكان على استحياء وخجل من هذا الجواب إذ لم يكن يريد ان يذكر الحادث، ولا يريد ان يذكر موقفه النبيل وفضله الكبير، فازداد في نظري نبلاً وفضيلة.

كان صادق البصام وزيراً للمعارف[157] فهرعت اليه، وما أن سمع القصة حتى أسرع بإقرار أمر النقل، ولا أتذكر إذا كان حمدي قد انتقل إلى بغداد أم لا، بل لا أتذكر إنني رأيته في بغداد، فقد كانت ثورة رشيد علي الكيلاني قد انفجرت، وكان قد استغنى بعدها[158] عن خدمات كافة العرب من غير العراقيين وسُفِّروا خارج العراق، ثم مرت سنوات وسنوات ولا أدري ماذا حل بحمدي ولم أسمع كلمة واحدة منه حتى كانت ١٩٤٩ - ١٩٥٠، إذ كنت في محطة باريس أهم بالسفر فلمحت حمدي صدفة بين زمرة من الشباب، فلم أتمالك إلاّ ان اصافحه بحرارة وأن أضمه إلى صدري بشدة.

وكنت أحرص وأنا اجوب أوربا، وأزور البلاد واحدة واحدة، أن ابعث برسائلي إلى والدتي وإلى أهلي، ولكني لا أدري لماذا لم أكتب أية رسالة من سفرتي من كالفورنيا إلى كورونيل وقد استغرقت مدة من الزمن ليست بالقصيرة ولربما كانت بضعة أسابيع، وهكذا تركت والدتي قلقة مشوشة، وكانت تنتظر (المكتوب) على عادتها لكنه قد تأخر هذه المرة طويلا، وهي تعلم أن ولدها في سفر فهل وقع في مكروه، كما تعلم ان ولدها لم يعتد على تأخير رسائله كل هذه المدة وان لم يعتد على إرسالها بصورة منتظمة. كانت والدتي نهب الأفكار والهواجس لم يهدأ لها بال ولم تستقر على حال، وكم من مرة -كما أخبرتني فيما بعد- قد ذهبت بنفسها إلى دائرة البريد تستغيث وتستنجد وكم مرة وهي تزيد في منحة ساعي البريد الذي اعتادت ان تمنحه

---

[157] عين وزيراً للمعارف في وزارة ياسين الهاشمي في أيلول سنة ١٩٣٥، وكان قد ولد سنة ١٨٩٥ وتخرج في كلية الحقوق في بغداد، ومارس المحاماة عدة سنوات، وصار نائباً عن لواء الكوت سنة ١٩٣٠- ١٩٣٤، وأيد ياسين الهاشمي، وأصبح عضواً في حزب الإخاء الوطني، ثم اختير وزيراً للمعارف في وزارة طه الهاشمي (٣١ كانون الثاني ١٩٤١- ١ نيسان ١٩٤١) على ما سيذكر المؤلف.

[158] أي بعد إخمادها من قبل حكومة الوصي عبد الإله.

شيئاً من المال كلما أتى لها برسالة كأنها تستحثه وتغريه. وهل كان في مقدور دائرة البريد ان تعمل شيئا، أو أن يكون في مقدور ساعي البريد أن يحضر لها ما لم يكن موجوداً.

كنت قد تعرفت على شاب مصري على الباخرة ونحن في طريقنا من نابلي الى الاسكندرية، وقد اخبرني أنه يعود الى الوطن بعد غياب اربعة سنوات في انكلترا حيث درس فيها علم الصيدلة على ما اتذكر. وقفت الباخرة في الاسكندرية يومين او ثلاث لم يتركني خلالها ولو لحظة واحدة هذا الشاب العربي الحبيب، بل اخذ بيدي وفرّجني على أكثر معالم الاسكندرية لمدة قصيرة، ثم اقترح علي ان اذهب معه الى القاهرة وأن أعود الى بورسعيد بدلاً من الاسكندرية توفيرا للوقت وركوب الباخرة بعد يومين. واستحسنت الفكرة وذهبنا سوية وما أن وصلنا القاهرة حتى رجا صاحبي مني أن أمنحه ولو قليلاً من الوقت لزيارة والدته التي لم يرها منذ اربع سنوات. كان صاحبي نعم الرفيق الوفي والصديق الصادق فقد أراني من القاهرة ومعالمها في يومين ما لم أكن اقدر على رؤيته في اسابيع لو كنت لوحدي، كما استمعت لأول مرة لأم كلثوم، وشاهدت يوسف وهبي يمثل لاول مرة، وحضرت بعض تمثيليات جورج ابيض التي كنت قد رأيتها عندما كنت في الصف المنتهي في المدرسة الثانوية، حيث كنا مرة ونحن نشاهد احدى هذه الروايات قد جلسنا صدفة بالقرب من بعض الاساتذة، وكان بينهم الاستاذ المرحوم طه الراوي، وكان يعجبني ان اختلس النظر اليه بين آونة واخرى وهو يشاهد التمثيلية، وكم من مرة ارتسمت على وجهي ابتسامات وابتسامات وان انظر اليه وهو طأطأ رأسه كلما ظهرت على المسرح مغنية من المغنيات او راقصة من الراقصات. وكم كان سروري عظيما وفرحي كبيرا وانا ارى صاحبي المصري

يطرق باب بيتنا إذ قد حضرالى بغداد بسبب مؤتمر من المؤتمرات، ولا أظن أني استطيع، مهما فعلت له في بغداد، أن أرد له بعض فضله وإحسانه.

العودة إلى بغداد

وصلت ميناء بيروت فانتظرت دوري للخروج من بعد أن تُفحص أوراقي وجواز سفري، وبينما كان الناس يخرجون واحداً بعد آخر وإذا بضابط الشرطة يفرزني عن الآخرين ويجلسني، أو قل يحجزني في غرفة وجواز السفر بيده وهو يخرج من غرفة ويدخل أخرى، فأحسست ان الوضع غير طبيعي وأنني قد احتجزت مع جواز سفري، ثم مضت مدة وإن لم تكن طويلة غير انها لم تكن بالقصيرة في مثل هذه المناسبات وانا جالس لوحدي ولا اعرف ما يدور بشأني، وقد كاد ينفذ صبري لولا اني رأيت ضابط الشرطة يقبل نحوي وبيده جواز السفر، ثم قال: تفضل، قلت: ولكن قبل أن أترك المحل هل لي أن اعرف السبب وانا في بلد عربي وقد قدمت لتوي من دراستي ولم أقم بأي عمل يسبب هذه المعاملة؟ ولم يكن ضابط الشرطة مؤدباً ولا رقيقاً فقد أجابني بخشونة: إن ما جرى هو من شأنهم وليس من شأني! قلت: لابد من معرفة السبب! قال: لا يهم إن عرفت السبب ولا يمكن على كل حال اطلاعك على السبب. كم من مرة فكرت في هذه الحادثة وكم من مرة حاولت تفسيرها ولكن استعصى علي فهمها ولم اهتد الى تفسير، وقد ظننت أن في الأمر خطأ او اشتباهاً او ما إلى ذلك من الأمور، ولكن خطر على بالي وأنا اكتب هذه الكلمة في هذه اللحظة أنه يجوز أن يكون السبب في احتجازي وجواز سفري هو اجتماعاتي بالشباب العربي من الشمال الأفريقي واحاديثي معهم السرية وغير السرية.

وصلت بغداد بطريق البر في سيارة من سيارات نيرن، وما أن وصلت المطار حتى وجدت أهلي وعشيرتي وكثيراً من أصدقائي وأبناء محلتي كلهم في استقبالي. وكان يتقدم الكل والدتي وأخي المرحوم غني، فقبلت عدداً غير قليل منهم كما صافحت أعداداً ممن كنت اعرفه ومن لا اعرفه، وكان من بينهم من قد نسيت اسمه ولم أنس وجهه،او قد نسيت وجهه واسمه. ولقد هالني ان أرى عددا من الصغار لم اكن رأيتهم من قبل قد ولدوا وترعرعوا أثناء غيابي وكان أكثرهم من أبناء اخوتي وأخواتي الكبار. وكم هالني أن أرى كيف كبر الصغار وكيف كبر الكبار وكيف ترهلت أجسام بعضهم وتضخمت كروشهم وخط الشيب رؤوسهم، بينما هزلت أجسام البعض الآخر ونحلت. رأيت أخي غني وقد بدا عليه الشيب بكثرة ولاسيما في لحيته وقد تضخم كرشه قليلا، ورأيت خالي الحاج حسين وقد هزل وابيض شعر رأسه ولحيته، ورأيت أخوي الصغيرين رشيد وصاحب، وإذا برشيد وقد تغير كلياً. كان نحيلاً ضعيفاً شاحب الوجه، ورأيت صاحب الذي تركته ولم يتجاوز عمره الثماني سنوات وقد شب ونما إذ بلغ عمره نحو الثالثة عشر سنة وهو العمر الذي يشب فيه الصبي ويكبر. وكم كانت فرحتي بصاحب أن أراه وقد نما وقد استقبلني وهو يرتدي كامل بزته من سترة وبنطلون وسدارة. كم كان هذا الطفل عزيزاً عليَّ وكم كان يهمني أمره ويقلقني شأنه وأنا في الخارج، وكنت أوصي الوالدة والأهل وأحثهم على مداراته والعناية به، كما كنت حريصاً على مدرسته ودراسته، حريصاً على ضمان مستقبله.

استقبلني الأهل في المطار استقبالاً حافلاً، فلم يكن مجيئي بعد هذه الفترة الطويلة وبعد ان تخرجت من أميركا بالحادث البسيط، بل كان الكل في انتظار مجيئي وكان الكل يفخر بتخرجي. استقبلتني النسوة بالهلاهل

والزغاريد و(طَش) الملبّس والحامض حلو فوق رأسي، واستقبلني الرجال بذبح الخراف، وكادوا يحضرون الموسيقى التقليدية المكونة من الطبل والزمار والقيثارة لولا علمهم بعدم ارتياحي لذلك. وكان من بين ركاب السيارة طالب عراقي قد تخرج من فرنسا هو الدكتور علي غالب، وكان قد اخبرني فيما بعد بأنه استهجن كثيرا مما حدث في هذا الاستقبال كذبح الخراف والهلاهل والتقبيل، بحجة ان ذلك من الأمور العقائدية ولا تأتلف مع المدنية الحديثة؟!

كان لابد من استقبال الخطّار والزوار لبضعة ايام، وكان لابد من رد الزيارة للكثير منهم، وكان لابد من إقامة بعض الحفلات التكريمية من قبل بعض الاصدقاء، وقد اقيم قسم منها في احسن اوتيل في بغداد آنذاك، وهو اوتيل دجلة. وقد أخذت بعض التصاوير مع البعض منهم ولا أزال احتفظ بها. وانني اتذكر بانه قد القيت بعض الكلمات الترحيبية في بعض هذه الحفلات وكنت أرد عليها ببعض كلمات الشكر المناسبة، وكنت احس وأنا ارتجل بعض هذه الكلمات انه ينبغي علي أن أقول شيئاً جديداً، إذ لا يجوز للمثقف حامل الشهادات العالية المتخرج من احسن الجامعات الأمريكية إلاّ أن يكون في جيبه شي جديد، وهل يجوز أن يرد على المهنئين ببعض كلمات الشكر فحسب، وقلت لنفسي ولماذا لا اجعلها على الطريقة الأمريكية ولماذا لا اغتنم هذه الفرصة كما يغتنم الأمريكيون مثل هذه المناسبات فيتحدثون عن أمور شتى. لا اتذكر شيئاً مما قلته ولكنني اتذكر اني تحدثت لهم عن الدراسة في الجامعة وعن المياه في امريكا، ثم تحدثت لهم عن شي جديد كان الحديث عنه في بدايته في العراق وهو حديث **القومية العربية**، عن هذه الحركة وعن أهدافها وعن نشاط الطلاب العرب في هذا المجال ومعوقاتهم في

الجامعة الامريكية. لم يكن حديثي عن القومية بالنسبة لبعض اصدقائي بالأمرالغريب وإن قسماً ليعلم تحمسي لفكرة العروبة منذ أن كنت تلميذاً في الثانوية، وإن قسماً منهم ولاسيما محمد حسن سلمان وأحمد محمد سهيل ليعرف عن ذلك الشيئ الكثير مما كنت أُراسلهم به، فقد كان كثير من الرسائل التي نتبادلها تدور حول الاستقلال والحرية والوحدة العربية، وكانت تتضمن كثير من الاراء والمناقشات وكثير من هذه الآراء تدور حول فكرة الوحدة والاتحاد بين البلاد العربية، وهل يجب ان تكون على غرار الوحدة الالمانية او على غرار الاتحاد الموجود بين الولايات المتحدة الأمريكية. لقد تحدثت في اكثر من نقطة واحدة كما تحدثت في أكثر من مناسبة واحدة، وكان حديثي هذا يدور بين الأصدقاء والمحبين، وفي كثير من الندوات والمجالس.

محاولات للتعيين

أخبرت وزارة المعارف ومديرية الزراعة العامة بإنتهائي من الدراسة ومجيئي إلى العراق، كما أن وزارة المعارف اخبرت رسميا بذلك سواء كانت في جامعة كاليفورنيا أم جامعة كورونيل، وما اردت أن اراجع الحكومة فقد كنت معتزا بدراستي وشهادتي، كنت احمل شهادة الماستر التي لايحملها في العراق إلا إثنان أو ثلاثة أنذاك، فهل يجوز لمثلي أن يراجع الدوائر من أجل الوظيفة. أو ليس العراق بحاجة إلى مثلي وهو المفتقد إلى الدارسين والأختصاصيين وحكومته تغص دوائرها بالأجانب من مختلف الجنسيات والقوميات. كنت أشعر أن مما يمس كرامتي وكرامة العلم الذي درسته والشهادة التي حصلت عليها أن أطرق الأبواب، وأن اقف على العتبات،

وهل أنا بعد هذا كله إلاّ طالب بعثة؟ وهل أن وزارة المعارف إلاّ ملزمة بحسب العقد الذي بيننا بتوظيفي.

كان أخي غني قد ألحّ عليّ بضرورة المراجعة بعد أن مرت الاسابيع سراعاً والأشهر تباعاً. وبعد أن طال الأنتظار وليس هناك من حل،ذهبنا لمراجعة مستر(سمرفيل) مستشار وزارة المعارف، ولا أدري لماذا اختار أخي هذا الشخص دون غيره ولربما كان لوجود معرفة سابقة بينهما كما قال لي ذلك اخي. وقد انتظرنا وما كان أشد علينا من الانتظار. إنه مضيعة للوقت وإن فيه لشيئ كثير من الاذلال، ولم أكن قد تعودت بعد على عادة الانتظار القبيحة، ولم أكن فهمت بعد لماذا لاتكون المقابلات حسب المواعيد. كنت حديث عهد بهذه التجربة المرة فاستهجنت الانتظار والمقابلة دون موعد، كما كرهت أن أواجه رجلا اجنبياً من أجل وظيفة في الحكومة العراقية، وما كنت ادري آنذاك أن كثيرا من امور الحكومة هي في ايدي الأجانب، وهكذا كانت المواجهة فاشلة فقد شعرت أن الرجل كان مشغولاً بأشياء أخرى ولم يكن ليحفل أن يتعين شاب عراقي يحمل الماستر أم لم يتعين.

كانت قد فُرضت علي البطالة، وبقيت بدون عمل، مما أصابني بخيبة أمل. إذ لم أكن انتظر أن تعامل الدراسة الجامعية وشهادات الاختصاص العالية مثل هذه المعاملة. لم أكن انتظر أن يقدر صاحبها مثل هذا التقدير، وهل يجوز أن أبقى عاطلاً بين الكازينو والبيت، وما هو شعور الأهل والأصدقاء، وما هو شعور الوالدة الحبيبة التي كانت تعد السنين والأشهر والأسابيع والأيام تنتظر يوم التخرج وتنتظر يوم التعين، هل أصبحت عاطلاً إذن؟ لقد فرضت علي البطالة، وصرت أقضي معظم الاوقات في كازينو عباس

بين القراءة والكتابة. وكازينو عباس في مدخل جسر (مود)[159] من جهة شارع الرشيد على الجهة اليسرى تارة أو على الجهة اليمنى تارة أخرى حسب تنقل عباس من واحدة إلى أخرى.

الكتابة في الصحف

وقد كتبت في موضوعين أولهما القومية العربية وأهدافها الاقتصادية والسياسية، وثانيهما الري في العصر الحديث. وأردت نشر ما كتبت فعلمت أن جريدة روفائيل بطي[160] التي تسمى بالبلاد تارة وبالإخاء العربي تارة أخرى، هي أهم الجرائد وأوسعها انتشاراً. فأردت مواجهة روفائيل فقيل لي انه في مركز الحزب فذهبت إليه عصر يوم من الأيام، ووجدته جالساً مع نفر من أصدقائه في زاوية من الزوايا في ساحة الحزب. سلّمتُ عليهم وعرفتهم بنفسي، كان يجلس مع الجماعة رجل طويل القامة حاد النظرات بادرني الكلام قليلا ثم عرفت فيما بعد انه كان حكمت سليمان[161]، وقد عرفت من روفائيل انه قد قال بعد أن خرجت: سيكون لهذا الشاب مستقبل باهر.

اتفقت مع روفائيل على أن ينشر مقالتي عن الوحدة العربية في الصحيفة ما استطاع إلى ذلك سبيلا، وكان أول توقيع قلمي اخترته لهذه المقالات هو "علقمة بن علامة" وكنت قد ذهبت إلى الحزب وأنا أتأبط هذه الأبحاث

---

159 جسر الملك فيصل الثاني، فجسر الأحرار فيما بعد.

160 صحفي رائد، ولد سنة ١٩٠١ وتخرج في كلية الحقوق سنة ١٩٢٩، واشتغل في الصحافة، أسس جريدة البلاد سنة ١٩٢٩، وانتخب عضواً في المجلس النيابي سنة ١٩٣٥ و١٩٣٩ وعين سنة ١٩٥٣ وزيراً للدولة لشؤون الدعاية والإعلام، وتوفي سنة ١٩٥٦.

١٦١ وزير في عدد من الوزارات، ولد سنة ١٨٨٥، وأكمل دراسته في استانبول، وانتمى إلى جمعية الاتحاد والترقي، وعين مديرا لمعارف ولاية بغداد، اختير رئيسا للوزراء إثر انقلاب بكر صدقي، ثم سجن بعد ذلك مدة. وسيرد الكلام عليه في هذه المذكرات.

وأتأبط معها عدد من المصادر الأجنبية، وقد أعجبت هذه الكتب روفائيل والآخرين، وقد رأى فيها ظاهرة جديدة وهي أن لا يكتب الكاتب من عند رأيه فقط بل يستند إلى المراجع والمصادر. ولقد اخترت هذا الاسم القَمي لأني قد أعجبت بعلقمة، وهو أحد أعضاء الوفد العربي الذي أرسله النعمان بن المنذر لمواجهة كسرى وللدفاع عن العرب والذود عن عروبتهم وكرامتهم. وكان الوفد يضم عددا من حكماء العرب وخطبائهم وفصحائهم أمثال أكثم بن صيفي والحاجب بن زرارة وعلقمة والحارث بن حِلِّزة وغيرهم ممن لا تحضرني أسماؤهم الآن، وكان عددهم نحو عشرة. لكن بعض الإخوان استثقل هذا الاسم واقترح عليَّ تغيره فغيرته فيما بعد إلى اسم مستعار آخر هو "أبو الحارث"[162]، ولم أرد بهذا الاسم إلاّ إن أشير إلى اسم آخر من أسماء هذا الوفد، وهو الحارث بن حلزة.

لقد كتبت سلسلة من المقالات عن الوحدة العربية في وجهها السياسي ونظام الحكم، وكتبت سلسلة أخرى عن وجهها الاقتصادي. كما كتبت عن النظام الاقتصادي في البلاد العربية، وكتبت عن رفع الحواجز الكمركية، وتبني النظام الصيرفي وتوحيد العملة وما شابه ذلك. كان ياسين الهاشمي رئيساً لهذا الحزب، أعني حزب الإخاء، فأعجبته بعض مقالاتي حتى أنه طلب مواجهتي فواجهته مرة أو مرتين تحدث معي خلالها حول هذه المقالات. ولم يكن زعيماً عراقياً فحسب بل زعيما عربياً كذلك وقد اشتهر بتفكيره القومي وإيمانه بوحدة بلاد العرب.

---

[162] وهي الكنية التي عرف بها فعلا بعد أن ولد له ولده الأول وقد سماه الحارث.

كنت قد وجدت اخي رشيد في اول يوم عدت فيه من امريكا، وانا مازلت في المطار، انه قد تغير كلياً، فنحف جسمه وشحب لونه وبدا عليه المرض، ولم يكتب لي وانا غائب عن الوطن كما تحاشت الوالدة، وتحاشى الاهل، كل خبر عن هذا الموضوع. ثم علمت أن أخي مريض، وأنه مصاب بمرض السل، وأن هذا المرض قد تجاوز مرحلته الاولى، وأنه قد تخطى الى مرحلته الثانية، وأن الوالدة لم تدخر وسعاً إلاّ وقد بذلته لتمريضه، وانها استدانت مبلغا لعلاجه حتى انها استأجرت له داراً في الكرادة من أجل راحته وصحته، بيد أنه عانى في هذه الدار من الوحدة، بالرغم من كونها تقع في بقعة جميلة وانها صحية وملائمة له اكثر من دارنا القديمة. وكان لي صديقان في الصف المنتهي في الكلية الطبية هما محمود سلمان واحمد سهيل فاستنجدت بهما وقلت لهما لابد من فحص أخي، فإن حالته الصحية تقلقني كثيراً بل أنها تخيفني.

فحصنا رشيد عند عدد من الأطباء، ثم كان لابد من فحصه عند كبير الأطباء المستر سندرسن باشا، وهو طبيب إنكليزي موظف لدى الحكومة العراقية، وطبيب العائلة المالكة الخاص[١٦٣] كان قد منح لقب باشا من المرحوم الملك عبد الله. فشخَّص الداء وكان مريضاً بالسل وأن المرض يتقدم ويفتك به بسرعة. وقد قيل لى أن احسن علاج لهو هو تسفيره الى لبنان وإدخاله في إحدى المصحات. ولم يكن لدي شيء من المال ولم أكن بعد قد توظفت إنما ما زلت في بطالتي الجبرية، ولم يكن لدى والدتي أي مال إذ استدانت في خلال

---

[١٦٣] عمل سندرسن طبيبا للأسرة المالكة في العراق من سنة ١٩١٨ إلى سنة ١٩٤٦،وله مذكرات شهيرة سماها (عشرة آلاف لليلة وليلة) ترجمت إلى العربية وطبعت غير مرة.

السنين الماضية الكثير ولاسيما من أخيها الحاج حسين، وفي الواقع فإن الوالدة قد أخذت الوالدة تستدين بكثرة منذ اكثر من سنتين من أجل إدارة البيت وتربية الأولاد، ولاسيما بعد أن مرض رشيد وانقطع عن العمل في دكانه البسيط الذي كان يبيع فيه الخضراوات والفواكه. كما استدانت والدتي مبالغ كانت ترسلها لي بين حين واخر وأنا في امريكا، ومبلغاً كانت قد ارسلته لي بعد مدة قصيرة عندما سُرقت فلوسي وانا في باريس، وكان اعتمادها على شيء واحد، وهو ضمانها الوحيد، ألا هو ابنها الذي يدرس في الخارج، وهل هناك احسن من هذا الضمان وابنها على وشك ان ينهي دراسته أو هو قد انهاها فعلا، وأنه في بغداد؟ ولم يخطر على بالها ان ضمانها قد جُمِّد، او يمكن أن يتجمد، وان ابنها وإن كان في بغداد، فإنه فرضت عليه البطالة بالرغم من ثقافته وشهادته. ولابد لي أن اقول أن والدتي بالرغم من هذه الفترة القاسية التي مرت بها لم تكن متشائمة او يائسة او حتى شاكية او متذمرة بل كانت تشعر في قرارة نفسها انه لا يمكن لهذا البطالة أن تدوم او حتى أن تطول ولا بد من أن تنتهي لأنها على خلاف مع طبيعة الأشياء. لم يكن لدينا شيء من المال لأننا كنا قد (طمسنا) في الديون، غير أنه لا بد من تسفير رشيد الى لبنان ولا بد من تدبر المال. قلت لخالتي الحاجة: هل لك ان تقرضيني مبلغا من المال؟ إن أخي في خطر! قالت: ما كنت أمانع لو كان عندي ما تطلب، قلت: وهل لديك مانع إن رهنًا دارك الفلانية بمبلغ ١٠٠ دينار؟ قالت: كلا. كان موقفاً جميلاً منها فقد حل لي مشكلة من اكبر المشاكل التي جابهتها وانا في بدأ حياتي العملية التي لم تكن قد بدأت فعلا بعد.

كان عليَّ أن أعبر الصحراء مرة أخرى ولما يمض على عبوري إياها إلاّ أربعة اشهر عندما قدمت من أمريكا، لكني عبرتها هذه المرة وأنا كئيب وحزين، فأخي مريض بين يدي، وهو يسعل ويشكو الضعف، ولم يكن يقوى وهو بهذه الحالة على مثل هذه السفرة الصحراوية الشاقة المملة, وكنت (أداريه) طوال الطريق وألاطفه وأشجعه كما كنت أطعمه واشربه.

وصلنا دمشق فالتقينا ببعض العراقيين، وكان من بينهم من محلتنا أحمد بن عديله، وآخر من الكرخ، وآخر من الكرادة، وكلهم مرضى بالسل، وكنا قد زرنا ذويهم قبل سفرنا للاستفسار عن المصحات وعن مقتضيات السفر. لقد خلا بعض هؤلاء برشيد وزينوا له الرجوع الى بغداد، إذ لم تكن تعجبهم الحياة في المصح، لا الأكل ولا التمريض ولا أي شيء آخر، ولذا فقد تركوا المصح وهم في طريق العودة الى بغداد. وما أن هممنا بالسفر من دمشق الى بيروت حتى اعترض أخي رشيد قائلا: لا اظنني أرغب في الذهاب إلى بيروت والدخول إلى المصح. إن الحياة هنا لا تطاق وإذا كان هناك من أمر قد قدَّره الله فمن الأفضل أن اكون بين أهلي بدلاً من أن اكون غريباً. قلت: هوِّن عليك يا رشيد! انك معافى ومتعافى باذن الله، فلا تستمع لهؤلاء الذين التقينا بهم من العراقيين والذين يعبثون بصحتهم ويجازفون بحياتهم، وأنني لأعلم أنهم حاولوا تسميم أفكارك وإفساد رأينا، ولكن ما يضرّنا وقد استدنا الفلوس وقطعنا الصحراء حتى شاهدنا هذا المصح ونختبر حياته، فإن أعجبك فانك باق، وإن لم يعجبك فإني أعاهدك بأني لا اترك بيروت وارجع الى بغداد ألاّ وأنت معي. ولما لم يكن أخي رشيد مشاكساً فقد أبدى رأيه ثم اقتنع بوجهة نظري.

سافرنا إلى بيروت، ونزلنا فيها في اوتيل متواضع. وفي عصر ذلك اليوم الذي وصلنا فيه أردت أن ازور جامعة بيروت، ولم أكن ادري أن الجامعة تقيم في ذلك اليوم حفلتها بمناسبة التخرج الكبير. وعلى أية حال وصلنا في الوقت المناسب فاستقبلني أحد المستقبلين وكان قد عرفني وأجلسني في أحد الصفوف الأمامية. وتضمَّن الحفل خطبة رئيس الجامعة وتوزيع الشهادات وظهور الطلاب بالروب الجامعي. وكم شعرت بمرارة وأنا أشاهد هذا، فلقد حُرمت سواء في جامعة كاليفورنيا أو جامعة كوورنيل من المشاركة في مثل هذا الاحتفال. وفي الواقع فاني لم أحضر حفلة التخرج ولم البس الروب ولم استمع الى رئيس الجامعة وهو يلقي خطابه التقليدي ولم أتناول الشهادة من يده، لأنني قد تخرجت في منتصف السنة من كلتا الجامعتين ولم أتخرج في نهايتها كما يتخرج اكثر المتخرجين، لكي احضر هذه الحفلة التقليدية التي لا تقام إلاَّ بعد التخرج في الصيف.

لقد سررت بحفلة بيروت وشعرت كأنها كانت تعويضاً عما افتقدته. وعند انتهاء الحفلة، وقد هممت بالخروج، إذا بي التقي بالدكتور فاضل الجمالي الذي كنت قد التقيت به لأول مرة في مبنى البيت الأممي في نيويورك قبل بضعة شهور. لقد رحَّب بي ترحيباً حاراً وقدَّمني إلى شخص كان معه لم أعرفه سابقا هو الدكتور سامي شوكت[١٦٤]، وكان الدكتور قد تخرج من جامعة بيروت سنة ١٩٢٧م ثم تعين مدرساً في دار المعلمين الابتدائية لمدة سنة، ثم حصل على منحة من جامعة كولومبيا، وسافر إليها، وقد تخرج

---

[164] طبيب قومي النزعة، ولد سنة ١٨٩٣ ودرس الطب في استانبول، والتحق بالجيش العربي في سورية سنة ١٩١٩، وعين معاوناً لرئيس صحة بغداد، ثم مديراً عاماً للمعارف في العراق، وفي سنة ١٩٣٦ عين مديراً عاماً للصحة، أسس ما عرف بكتائب الشباب، من آثاره (هذه أهدافنا) و(فن القبالة)، توفي سنة ١٩٨٦.

منها بشهادة الدكتوراه قبل بضعة شهور من تخرجي من جامعة كورنيل بشهادة الماستر. وكان قد تعين بوظيفة مديرعام براتب يبلغ نحو ١٥ دينار شهرياً، وهو نفس الراتب الذي كان يُمنح لحامل مثل هذه الشهادة بحسب القانون، ولم يشمله التخفيض الذي شمل الشهادات الباقية كافة، ومنها شهادة الماستر التي كان يعين صاحبها براتب ٣٦ دينار او ٣٠ دينار شهريا في الأقل. ولم يمنح مثل هذا الراتب قبل فاضل إلاّ لمتي عقراوي[١٦٥] مدير دار المعلمين الابتدائية آنذاك بوصفه قد حصل على الشهادة، ثم ظهر فيما بعد أنه لم يكن قد أنهى دراسته عندما منح راتبها. وأحد أساتذة الدكتور فاضل في جامعة كولومبيا وقد استخدمته الحكومة العراقية بناء على اقتراح من فاضل مع أستاذ أخرز او استاذين لدراسة احوال المعارف في العراق ووضع الاقتراحات اللازمة لاصلاحها وتطويرها وتجديدها[١٦٦]. وكان الدكتور فاضل قد سافر مع البعثة إلى أنحاء العراق كافة، وقد وضعت البعثة بعد هذا تقريراً ثميناً عن المعارف واصلاحها.

---

[165] تربوي، ولد في الموصل سنة ١٩٠١، وسافر إلى بيروت حيث تخرج في الجامعة الأمريكية حاصلاً على شهادة بكالوريوس علوم، وعمل مدرساً في دار المعلمين الابتدائية ببغداد، ثم سافر إلى الولايات المتحدة حيث التحق بجامعة كولومبيا، وحصل على شهادة الدكتوراه فيها، وأسندت إليه رئاسة جامعة بغداد قبل ثورة تموز ١٩٥٨، وله كتب مهمة في التربية والتاريخ.

[166] عرفت هذه اللجنة باسم (لجنة الكشف التهذيبي) وكانت برئاسة الأستاذ بول مونرو Paul Monroe مدير معهد التربية الأممي بجامعة كولومبيا، وعضوية كل من وليم شاندلر باكلي William Chandler Bagly وأدكار ولس نايت Edgar wallace Knight وقد وصلت اللجنة إلى بغداد في نهاية شباط سنة ١٩٣٢ وعادت إلى بلادها في أواخر نيسان بعد أن قدمت تقريراً تضمن مقترحات لتطوير التعليم في العراق، وجاء مع اللجنة الدكتور فاضل الجمالي، الذي أنهى دراسته في تلك السنة في جامعة كولومبيا، بصفته مرافقاً رسمياً للجنة. ينظر ساطع الحصري: مذكراتي في العراق ج١ ص١٦٥– ٢٦٥.

لقد رحب بي الدكتور فاضل، وكذلك الدكتور سامي شوكت، وعلمت انهما في بيروت لبضعة ايام وانهما في مهمة اختيار مدرسين ومدرسات لسد حاجة المدارس العراقية ولا سيما المدارس الثانوية. عاتبني الدكتور فاضل وقال: اين انت يا هذا؟ أونسيت صداقتنا في نيويورك ولم يمض عليها الا مدة قصيرة، لماذا لم نلتقي؟ لماذا لم تزرني؟ كان حديثاً وكان عتاباً، ثم رجا أن ازوره في وزارة المعارف عند اول مجيئي الى بغداد.

وفي اليوم الثاني اخذت اخي رشيد الى الدكتور، وبعد أن فحصه من جديد، ولم يعتمد على الفحوص السابقة، ولا على اشعة اكس وما شابهها، قال: لابد من المصح! فذهبنا الى المصح وأدخلت فيه اخي رشيد، وكنت قد حجزت له غرفة لطيفة، ووصيّت به بعض المرضات خيراً لقاء شيء من (البخشيش)، وسكنت في دار مع عائلة لبنانية بالقرب من المصح. وكانت العائلة مكونة من الزوج والزوجة وفتاة في نحو السابعة عشر وثلاثة اطفال، وقد هالني أمرها فهي عائلة ريفية لكنها لا تتكلم إلاّ باللغة الفرنسية، وقد شعرت أن هذه العائلة، وإن كانت عربية، إلاّ أنها تحتقر العروبة وتحتقر اللغة العربية، وتعدها علامة التأخر والرجعية، كما شعرت انها تبتهج باللغة الفرنسية بوصفها علامة المدنية والتقدم، وإن من يتكلمها هو من الطبقة الراقية بخلاف العربية التي لا يتكلمها إلاّ الفقراء والفلاحون المتأخرون. هذا هو الاستعمار الفرنسي يغزو وأول ما يغزوه الدين، ثم يفسد اقدس القيم وأعز الأشياء، وهل هنالك اقدس من الدين وأعز من اللغة وأغنى منها، وإذا كان اللبناني مسيحياً فلا حاجة بطبيعة الحال إلى غزو دينه، ولكن لابد من غزو لغته وتشكيكه بقيمتها بل وافسادها بحيث يزدريها ويمقتها.

لقد دخلت مع هذه العائلة التي نست خالقها ومسخت لغتها في مناقشات عنيفة حول اللغة وضرورة التمسك بها والاعتراف بالأصل والافتخار به. وبقيت معها نحو اسبوع كنت اقضي فيه اليوم برمته عدا اوقات الأكل مع اخي رشيد لأطمئن على حالته وراحته. ووجد رشيد المصح أحسن بكثير مما وصفه له العراقيون الذين التقينا بهم في الشام، وقد أخذ يألف المصح يوما بعد يوم، ولما شكى من الأكل قليلاً خصصت له مبلغاً اضافياً لشراء ما يرغب به من أكل وفاكهة. وقلت لرشيد ذات يوم: كم كان بودي أن أبقى معك الصيف كله وأن لا أُفارقك ولكن لابد من السفر فإنني لا استطيع أن اصرف الكثير من الفلوس على نفسي وهي على كل حال محدودة ومخصصة لك، وكان في حالة نفسية جيدة وقد اطمأن إلى حد كبير على نفسه واعتاد على حياة المصح، وقد شعرت انه يرغب بالبقاء ولاسيما وأن احدى الممرضات وكانت رقيقة باتت تميل اليه ويميل اليها.

تجربة رائدة في الريف

رجعت الى بغداد ولم يمض على سفري اكثر من عشرة ايام فاستغرب الأهل ولا سيما اخي غني ذلك، وقال عندما رآني في البيت ولم يكن احد يعلم بمجيئي حتى يستقبلني في المطار: لقد فاجئتنا، فما كنت اتصور انك سترجع بمثل السرعة، وانما تصورت - ولا اكتمك - انك ربما ستصطاف وتقضي الصيف برمته هناك. فابتسمت وقلت له: لم أذهب من أجل الاصطياف، وأين هي الفلوس للاصطياف وهل انا بحاجة اليه ولم يمض على رجوعي من اميركا إلاّ بضعة شهور انا عاطل فيها.

زرت ذات يوم، وربما كان يوما من ايام شهر تموز الأخيرة، فاضل الجمالي في مكتبه في وزارة المعارف، وكان المكتب على سعته مكتضاً بالمراجعين، فرحب بي بعد أن تصافحنا ترحيباً حاراً ثم دخلنا في صلب الموضوع، قال: لقد تطرقت اللجنة في تقريرها إلى نقطة من نقاط الاصلاح، وهي تأسيس مزارع حديثة لتخريج فلاحين عصرين. قلت: انها فكرة سامية وإن العراق لشديد الحاجة اليها لأن العراق يشكو من زراعة قديمة تتبع فيها الأصول القديمة والفلاح جاهل لا يعرف القراءة والكتابة ولا يعرف الزراعة الحديثة. قال: هذه هي الفكرة! أن تؤسس مزارع حديثة نزرعها وفق الاصول الحديثة، ونريد أن يزرعها فلاحون شباب ننتخبهم من مختلف العشائر بعد أن نعلمهم الكتابة والقراءة واصول الزراعة الحديثة. نريد ان نخرج فلاحين عصريين يرجعون إلى عشائرهم وهم يحماون رسالة التجديد الزراعي. لقد كانت الفكرة سامية ولو قدر لها الديمومة لأدت دوراً خطيراً في تطوير الحياة في العراق.

كنا قد حجزنا موعدا للسفر الى الحلة لفحص الأرض اللازمة لتأسيس المشروع، وسافرنا في سيارة واحدة انا والدكتور الجمالي ووزير المعارف آنذاك الحاج عبد الحسين الحلي الى الحلة، وزرنا السيد تحسين علي[١٦٧] ثم ذهبنا الى ارض تقع على نهر النيليات بالقرب من مدينة الحلة، وكانت الحكومة لم تنتهي بعد من حفرها للنهر الذي سيتفرع من شط الحلة، والذي سيروي اكثر الارض الاميرية الواقعة على جانبيه، والتي خصصت لبعض المزارعين من

---

[167] ولد سنة ١٨٩٤ وتخرج في الكلية الحربية في استانبول سنة ١٩١١ والتحق بقوات الثورة العربية في أثناء الحرب العالمية الأولى، وعين سكرتيراً لوزارة الدفاع سنة ١٩٢١ ثم عين متصرفاً لعدد من الألوية العراقية، وفي سنة ١٩٤١ اختير وزيراً للمعارف فرئيساً للديوان الملكي ثم وزيراً للدفاع سنة ١٩٤٤، توفي سنة ١٩٧٠.

اهل المدن كبيت القزويني والمرجان وغيرهم. وكان متصرف الحلة قد بيّن أن الأراضي واسعة، ولذا فقد تقرر تخصيص بعض هذه الارض التي لم تُمنح للاهالي لهذا المشروع الحكومي.

ذهبنا إلى هذه الأرض ومعنا متصرف الحلة، ومدير شرطتها آنذاك السيد عبد الرزاق الفضلي، وكانت تنقسم إلى قسمين: الصدور والبزايز، فأما الصدور فكانت طينية وأما البزايز فرملية طينية، ووجدت أن منظرها العام يدل على أنها تصلح لشروعنا، وإن في الإمكان ادخال زراعة البساتين والخضروات في أرض الصدور الطينية، والتي كان قسم منها مرتفعاً، بوصفها خالية منها وهي بأشد الحاجة إليها. وأردت أن اقوم بفحص بسيط لجودة التربة ونحن في الأرض نفسها، فأخذت قليلاً من ترابها ووضعته في راحة يدي، ووضعت عليه قليلاً من الماء ثم برمته حتى انبرم واستقام واصبح كالخيط الغليظ المفتول. وكان فحصاً يدل على أن التربة لزجة وأنها جيدة.

كانت زيارة الوزير للحلة من أجل المشروع حدثاً مهماً ودليلاً على اهتمام الوزارة، ولم يكن والحالة هذه إلا أن تهتم المتصرفية به ايضاً، فأسرعت بتخصيص الأرض، وأعلمت وزارة المعارف بانها جاهزة لتسلمها. وكانت هذه أول زيارة لي للحلة مع وفد رسمي يضم وزير من وزراء الدولة.

ولا أنس ونحن في طريق العودة أن بعض الصبية رشقوا السيارة بالحجارة، ولا اتذكر إن كان ذلك ونحن في نواحي الحلة أم في المحاويل ام في محل آخر، ولكن اتذكر أن الدكتور فاضل أصر على أن تقف السيارة لينزل منها ويطارد الصبية الذين رشقونا بالحجارة، وقد عارضت وقوف السيارة ونزول الجمالي منها ومطاردته للصبية على أساس أن ذلك امر لا يليق به، ولكن فاضل اجاب انه لابد من اعطائهم درساً لئلا يتكرر منهم ذلك.

كنت قد زرت فاضلاً غير مرة وتحدثت معه حول المشروع أكثر من مرة، ثم اتفقت معه على أن ينقل ناظم سرسم من ملاك الزراعة الى ملاك هذا المشروع، الذي سميناه المزرعة الريفية في الحلة، ليرأس قسم تربية الحيوانات، ونقل خدمات السيد فتحي وكان مصري الاصل، ثم نقل السيد احمد توفيق من ملاك التعليم الابتدائي للقيام بتدريب الطلاب او الفلاحين بمبادئ القراءة والصحة وما الى ذلك.

كان ذلك في يوم ١٦ اب من سنة ١٩٣١ عندما اخبرني فاضل بوجوب مراجعة سكرتير الوزارة السيد عبد الكريم الازري[168] لتسلم امر التعيين، ولم اكن اعرف السيد عبد الكريم ولم أكن أعلم أنه ابن اخت الوزير، وكان قد تخرج قبلي بسنة واحدة من الثانوية وذهب على حساب الأوقاف إلى انكلترا، ثم تخرج بالعلوم الادارية والاقتصادية منها، وقد تعين في السلك الخارجي في طهران لمدة سنة او اكثر ثم نقلت خدماته الى وزارة المعارف بوظيفة سكرتير. ذهبت الى السكرتير واستلمت الأمر بتعييني مديراً لهذه المزرعة براتب قدره خمسة وعشرون ديناراً، مع هيئة التدريس الآنفة الذكر. وهكذا تعينت بالوظيفة بعد ان مر على تخرجي اكثر من ٨ اشهر، وعلى رجوعي الى بغداد نحو ٦ اشهر.

ذهبت بمفردي الى الحلة لوضع الأسس اللازمة للمشروع، ولم يكن في ارض المشروع ماء ولا بناء، إذ لم يكن نهر النيليات قد انجز ولم يجر فيه الماء

---

[168] ولد سنة ١٩٠٨ ونال شهادة الليسانس في الاقتصاد السياسي من جامعة لندن وعين بعدها سكرتيراً للقنصلية العراقية في كرمنشاه، ثم في المفوضية العراقية في طهران، ثم نقل إلى وزارة المعارف حيث التقى به صاحب المذكرات، وتقلب في المناصب حتى صار مديراً عاماً للواردات فمديراً للتجارة، وانتخب نائباً عن لواء العمارة، واختير سنة ١٩٥٠ وزيراً للمالية، وله أبحاث ومقالات، وسيذكر المؤلف بعض أخباره فيما يأتي من هذه المذكرات.

بعد. وتعرفت في الحلة على عدد من المدرسين وكان اكثرهم من مسيحيي الموصل، وكان احدهم يمت بصلة القرابة الى ناظم سرسم، فأقمت معهم في الدار وكنت أشاركهم نفقات الايجار والمعيشة، وما كنت ادري انني اتحمل نصيبي من هذه النفقات وإن غبت عنهم أسبوعاً او أسبوعين، وكثيرا ما كنت أتغيب في تلك الفترة لمراجعة المسؤولين في بغداد حول الكثير من القضايا التي كان لابد من وجودها لا سيما وأن المشروع لا يزال في بدايته.

كانت الأرض خالية ليس فيها ماء وليس فيها زرع وليس فيها أي مكان للسكن، فاضطررنا للسكن في الخيم، وشربنا ماء الآبار التي حفرناها، وكان الماء مجاً ثقيلاً داكناً، وكنا نتسوق في الحلة وهي ليست ببعيدة عنا، وإن كان هذا الطريق ينقطع أحيانا في الشتاء من كثرة الأمطار. لقد وضع مهندس المعارف السيد محمد تصاميم لبناية المدرسة وأربع دور وإسطبل لتربة الحيوانات، وبدأنا بفكرة تحسين نوع البقر الحلوب في المنطقة، فأرسلنا لهذا الغرض السيد ناظم سرسم إلى المزرعة الملكية في خانقين، وقد اشترى لنا عدداً من الأبقار الأجنبية الحَلوب وثوراً أجنبيا أصلياً استفادت المنطقة منه برمتها.

ولم يكن العيش في الخيمة صيفاً ولا شتاءً بالأمر الهيِّن، فكان الحر في الصيف يؤذينا والبرد في الشتاء يجمدنا. واني لأتذكر كم كان الشتاء قارساً في تلك السنة،ولم يَقِنا من البرد غير هذه الخيمة التي أعارتها لنا وزارة الدفاع. كنت وانا في الخيمة اتغطى بعددٍ من البطانيات قد يصل الى السبعة أو الثمانية حتى إذا ما أردت النهوض عند الصباح شعرت بثقلها يهد جسمي، وكم من مرَّة وجدت صِفاح الماء التي أحتفظ بها في الخيمة قد صار ماؤها ثلجاً. وقد اضطررنا الى حماية الحيوانات بادخالها الخيم، ولم تسلك بعض

هذه الحيوانات سلوكاً طيباً حتى أنها مزّقت بعض الخيم، وخلقت لنا مشكلة مع الحكومة عمن سبّب هذا التمزيق ومن هو المسؤول عن أثمان الخيم المزقة.

لم يكن هذا المشروع من مبتكرات لجنة مُنرو[١٦٩]، فلقد قرأت الشيء الكثير عنه في كتاب لا أتذكر اسم مؤلفه الآن، ولكنه كان بعنوان الثورة في المكسيك[١٧٠]. لقد كان المشروع مزرعة ومدرسة في آن واحد، تدرس فيها أصول الزراعة الحديثة، كما تُدرّس القراءة والكتابة والأمور الصحية الأخرى ودروس الإجتماع، بل وتُدرّس أيضاً بعض الصناعات القُرَويّة كالتجارة والحياكة وما شابهها. وكنت أرمي أن يكون هذا المشروع مركزاً لشباب الريف في مختلف العشائر. ولم يكن من الهيِّن اختيار هؤلاء الشباب الذين أقبلوا بأعداد كثيرة، ولقد اخترنا من ٥٠ إلى ٧٠ شاباً تتراوح أعمارهم بين ١٨ إلى ٢٥ سنة من كل العشائر المجاورة لنا، وكانت المدرسة داخلية والطلاب يَدرِسون على نفقة الحكومة، ولم يكن من الهيِّن تدبير إعاشتهم، ولم يكن هنالك من المُناقِصين من يوثق بهم تماماً، وقد كنا نمر بأوقات عسيرة إذ انقطع الأمل عنا وعن الحيوانات بسبب انقطاع الطريق لسقوط الأمطار، وكم دخلنا بمشاكل مع المُتعَهِّد ومع المتصرفية التي كنت أعرف أنها تلتزم جانبه.

كنا نهدف من وراء هذا المشروع أن نُخرِّج شباباً من الفلاحين قد تثقفوا إلى حدٍ ما ونالوا حظهم من الدراسة ومعرفة الزراعة، وقد حَرَصنا على أن نُبعدهم كل البُعد عن أن يكونوا أفَندِيَّة تُهمهم الدائرة ويهمهم الجلوس وراء المنضدة، وأردنا أن يكونوا فلاحين عصريين لا يهمهم إلاّ الحقل، ولا تهمهم إلاّ الزراعة، أردنا أن يكونوا رُسُل تثقيف وتجديد، وأن يرجعوا إلى عشائرهم

---

[١٦٩] يريد لجنة (الكشف التهذيبي) المنوه بها سابقا، وسماها لجنة منرو نسبة الى رئيسها بول منرو.

[١٧٠] ذكر في أوراق أخرى له أن هذا الكتاب كان يتناول سيرة (بنجو فيلا) بطل ثورة المكسيك ضد الاستعمار الاسباني.

وأمامهم هدف وغاية، كما أردنا من وراء هذا المشروع أن نعطي لهؤلاء المُتخَرِّجين قِطَعَاً من الأراضي الزراعية مناسبة لا تقل عن ١٠٠ مشارة سَيْحاً لكي يزرعونها وفق الأصول الحديثة التي تَعلْموها، وعلى أن تكون ملكاً لهم بعد مرور بضعة سنوات على زراعتها وحسب شروط أخرى معينة وصولاً إلى تحقيق المِلْكية الصغيرة وتحرير الفلاح من كثير من أوضاعه. لقد كنا ندرك تماماً أن النظام الزراعي بحاجة إلى تطوير، وأن نظام المِلْكِية الزراعية بحاجة إلى تطوير أيضاً.

انتهى المُتعهِّد من بناء المدرسة والدور والإسطبل، ولقد أراد مني تسلمها، فرفضت لأنها لم تكن على وفق شروط المناقصة. ولم أكن اعرف أن للمتعهدين ألاعيبهم وأنهم قلما يُخلصون في أعمالهم وينهونها حسب شروط المناقصة المُتَّفَق عليها. وقد كلمني المتصرف حول القضية طالباً مني التسلم، فبينتُ له اسباب الرفض. وفي عصر ذات يوم وإذا بالمتصرف، وكانت علاقتنا طيبة، يزورنا مع مدير الشرطة، في المدرسة، وبعد أن شربنا الشاي أراد المتصرف مني أن أُوافق على التسلُّم، وأن اكتب المكتوب بذلك بحضوره، فاستغربت من هذا الطلب، وقلت له: أنا لست مهندساً، ولابد لمهندس المعارف أن يأتي ليقوم بالفحص اللازم وهو الذي يوقع كتاب التسلم، ولم أدرِ - في حينها - أن المتصرف (زَعَل) إلاّ بعد أن زرته ورأيت وجهه متجَهِّماً، وأن وضعه السابق قد تغيَّر معي، فلم يرحب بي، ولم يَبِش بوجهي، ولم يأمر بتقديم الشاي أو ما شابهه كما كان يفعل سابقاً، ولم يعد يُسَهِّل كثيراً من المراسلات التي كنا نقوم بها مع المتصرفية بحكم العمل، مما خلق لنا كثيراً من المشاكل والصعوبات، وبعد هذا كله - أو بالرغم من هذا كله - استُلِمت

البنايات كلها من قبل وزارة المعارف! فكيف استلمت دون ان أعرف ذلك مسبقاً، ولست ادري حتى هذه اللحظة.

وحين بدأنا في تنفيذ منهجنا الدراسي والزراعي، أخذت المدرسة في التدريس، وبدأ الفلاحون يعملون في الحقل، ولقد أدخلنا زراعة البساتين والخضروات في الصدور، اي في القسم الملاصق الى شاطئ النهر، حيث كانت الأرض طينية وبعض اقسامها عالية وصالحة لمثل هذه الزراعة، ولم تكن المنطقة تعرف هذه الزراعة ولا سيمل زراعة الخضروات، بل كانت تعد هذه الزراعة عيباً ولا يقوم بها إلاّ أبناء المدن، أما أبناء الريف فلا يجوز لهم التدنّي لمثل هذه الأعمال. وكم هي الصعوبات التي واجهتنا عند حثّنا أبناء المدرسة على تعلم زراعة الخضروات والقيام بالزرع فعلاً. وقد زَرَعنا قسم البزايز الزراعة الشتوية من حنطة وشعير، وزرعنا أيضاً زراعة صيفية محاولين أن نُدخِل مفهوم الدورة الزراعية التي لا يعرف عنها الفلاح شيئاً. وعليه فإننا أردنا أن نستغني عن زراعة (النير ونير)[١٧١]، بأن يُزرع قسم من الأرض ثم يترك بوراً بينما يزرع القسم الآخر، وأدى تأخرالحكومة عن فتح الماء في نهر (النيليات) إلى تأخرنا عن الزراعة قليلاً مما سبب التأخر في زراعة الحنطة، وإذا ما تأخر زرعها فقد تُصاب ببعض الامراض.

لقد زارنا في المزرعة الدكتور الجمالي، وكذلك زارنا عبد الكريم الأزري وهو يقوم بجولة في الألوية الجنوبية، وقد زارني أيضاً بعض الأصدقاء، ولا سيما الدكتور محمد حسن والدكتور أحمد وهما صديقان منذ الدراسة في الثانوية. ولقد استغرب هذان الصديقان وغيرهما كيف يجوز لمثلي وأنا الذي قد قضيت زهرة شبابي في أحسن بقاع العالم وأكثرها مدنية وحضارة، أن

---

[١٧١] مصطلح يقصد به أن تزرع الأرض موسما ثم تترك في الموسم التالي لتجديد خصوبتها.

أعيَّن في هذا (الجول)، وإن كان قد انقلب إلى مزرعة ولكنه لم ينقلب إلى محل معمور يزخر بالناس والحياة الاجتماعية التي اعتدت عليها وانا في امريكا! وكم استغرب الاصدقاء كيف اعيش في الخيمة واشرب ماء البئر واشتغل بيدي في الحقل تحت رحمة الطبيعة وقساوتها شتاءً وحرارتها صيفاً. وانا بعيد عن الأهل والأصدقاء، وأنا بعيد عن كل عمران وحضارة بل بعيد عن الحياة وما فيها. وفي الحقيقة فإني لم تكن لتهمني بغداد ولا نعومة الحياة فيها، بل أقبلت على هذا العمل بقلبي وجوارحي وكرَّست له وقتي وحياتي وآمنت بخطورته وعظم نتائجه، وقد أردت منه شيئا مهماً يلعب دوراً خطيراً في حياة الأمة.

كان يؤمنا لزيارة هذه المزرعة النموذجية بعض المزارعين والملاكين وبعض طلبة المدارس، وكنا نقوم باطلاعهم على منهج المزرعة والمدرسة، ونُفرِّجهم على مختلف أقسامها ومزروعاتها، وقد صادف وانا أُفَرِّج بعض الأصدقاء وهم محمد حسن وأحمد وخالد أمين، أن اقتربت من البناية التي كان فيها الثور الكبير، فما كان منه إلاّ أن خرج مهرولاً فقد كنت لا أدري أن بابه مفتوح. ولولا أني تراجعت إلى الوراء مذعوراً من غير إنتظام، ولولا أني عثرت صدفة بصفيحة كانت ورائي وسقطت على ظهري أرضاً، لشقت قرون هذا الثور بطني.

كانت مزرعة القزويني لا تبعد عنا إلاّ بضعة كيلومترات، وكان يديرها شاب هو السيد جعفر القزويني، فكثرت لقاءاتنا، وكم كنا نلهو بقراءة الشعر أو نظمه، وكم كنا نعبث بأن يقف كل منا حسب دوره، يشاركنا في ذلك ناظم سرسم، ونخطب ارتجالاً. وشاءت الصدف أن نتزامن أنا والسيد جعفر في بعض دورات المجلس النيابي. وقد استمريت انا في ندوة هذا المجلس على

العبث بالكلام والخطب ولم يستمر زميلي على ذلك، ولعله لم يستفد من تلك الندوات الخطابية التي شهدتها مزرعتنا.

كانت مزرعتنا واسعة، وكان لابد لادارة الأعمال فيها من أن اتجول وأنا على ظهر فَرَس، وبذا اضطررت إلى تعلم ركوب الخيل في هذه المزرعة، وكانت واسطتي ايضاً لزيارة الأصدقاء او النزول إلى الحلة. وحَدَث مرة وأنا ازور السيد في مزرعته أن هاجت الفرس كالمجنونة، ولم أدرِ أنها أرادت الهروب واللجوء إلى أهلها وهم في تلك المنطقة، وإذا بها وهي تركض على خلاف عادتها وإن كنت أعلم أنها شَموس، ولم أستطع السيطرة عليها، فهي تريد وجهة وأنا أريد أخرى، حتى طَفَرَت النهر في غير جهة القنطرة، ولم أحس إلاّ بأنني ارتفعت عنها عالياً وسقطت على الأرض وأُغمي عليَّ، أو كِدت، وأن رئتيَّ قد إنضغطتا وان الهواء يخرج منها ولا يدخل إليها، فأردت التنفس فلم استطع، وشعرت أنني مُختَنِق لا محالة. وشعرتُ في حينه، والموت يدِبُّ إلي، أو هكذا خُيِّل إلي، بأن الحياة لا تهمني بقدر ما أنني إذا ما مِتُّ سأسبب ألماً وحزناً لوالدتي، وانني لم أعش لادخل البهجة والسرور إلى قلبها، وأنها قد حُرِمت مني وهي لم تقطف الثمر بعد. وكانت هناك بعثة فرنسية تشتغل في (الأحيمر)[١٧٢] أسرعت بسيارتها ونقلتني الى المستشفى، ولم أبق في المستشفى إلاّ وقتاً قصيراً عدتُ بعده وفيَّ آثار بعض الكِدَم والرضوض.

بدأ المشروع يتنفس ويزدهر، وبدأ الطلاب يمتازون عن غيرهم من أبناء العشيرة في نظافتهم ونظافة ألبِسَتهم، وفي معرفتهم شيئاً من القراءة والكتابة

---

[١٧٢] تل أثري يقع على مسافة ١٢ كيلومترا من شرقي بابل، وعلى نحو ٢١ كيلومترا من شمال شرقي الحلة، وهو يضم بقايا آثار مدينة (كيش) التي ترقى الى نحو ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد.

وبعض المعلومات في الزراعة والمحاصيل الحقلية وما شابه ذلك، وبينما نحن مقبلون على العمل ومغمورون في أداء الواجب لم نكن نُدرِ ما يدور حولنا وما يُبَيَّت لنا في الخفاء. لم نكن ندري أننا نقوم بثورة ولابد من القضاء عليها قبل أن تلتهم ألسِنة النار فيها المناطق المجاورة، ولم نكن ندرِ أن كبار الملاّكين كانوا يعارضون في تأسيس هذا المشروع منذ البداية، وأنهم أدركوا خطره وخطورته، فقد كان بعض هؤلاء المزارعين، او قل الاقطاعيين، ينظرون الى الزراعة الحديثة بوصفها خروجاً على التقاليد، وينظرون الى تثقيف الفلاح على أنه تهيئة إلى التمرد والعصيان، ويعتبرون فكرة المِلكية الصغيرة ثورة قد تكتسح النظام من أساسه. ولم نكن ندرِ أن هذه الطبقة تدس وتتآمر بهدف القضاء على هذا المشروع الثوري بأي ثمن كان، وكانت أن بدأت عراقيلها بأن طالبت بأراضي المشروع، وادَّعت أن لها حق التصرف بها، وأنها لم تكن أميرية صرفة. ثم بدأت تشاغب بأن المشروع غير مفيد، وأنه لا يزيد على كونه أحد المشاريع والتجارب الفاشلة التي قامت بها الحكومة العراقية، ادعت بأن المشروع مشروع تبذير وإسراف وأن الجهود والأموال التي تُبذل عليه لا تتناسب والنتائج، وما الى ذلك من أنواع الشغب والدس. وقد بدأ المشاغبون شغبهم في بعض المجالس والأندية وفي بعض الدوائر الحكومية، ثم تطور الى الكتابة في بعض الصحف، ثم الى بعض الأسئلة والأجوبة في مجلس النواب. ومن الغريب - أو قل: ليس من الغريب! - أن يتزعم هؤلاء المشاغبون اناس عرفوا بجهلهم وأُميَّتهم وإن احتلوا مراكز عالية كسلمان البرّاك وأمثاله، وسلمان البراك كان أمياً لا يعرف إلاّ القليل من القراءة والكتابة، وكل ما أشغله في زمن العثمانيين وظيفة كاتب في دائرة النفوس.

كان من عشائر البو سلطان المتنفذين في لواء الحلة، وقد أصبح وزيراً في بعض وزارات نوري السعيد[١٧٣].

وقد كتبت لأول مرة، بتوقيعي الصريح، رداً على هؤلاء المشاغبين، ونشرت هذا الرد في سلسلة من المقالات بلغت نحواً من عشرين مقالة في إحدى الصحف المحلية، ولعلها جريدة (العالم العربي) لصاحبها سليم حَسُّون[١٧٤]. وكم يؤسفني أنني لا احتفظ بها الآن، ولربما أنني سأجدها في مقر الجريدة إذا ما سنحت الفرصة. ولا يخطر ببالي في هذه الساعة تفصيل ما كتبته، ولكن أتذكر بأنني قد كتبت في حينها عن تاريخ هذه الحركة في العالم الذي أرادت تطوير الزراعة وتطوير الحياة في المجتمع المريض، ولا سيما في بلاد المكسيك التي كانت تعاني مثلما نُعانيه من مشاكل وصعوبات. ولقد قلت بأن العالم في تقدم مستمر وأن هذا التقدم لابد وان يشمل الحياة في الريف، وأن الزراعة متأخرة ولا بد من أن تتطور ولا يمكن لأحد أن يفعل ذلك إلاّ فلاح متعلم، وأن هذا الفلاح مهما كان متعلماً لا يمكن أن يؤدي رسالة إلاّ إذا كانت إقتصادياته قد بُنيت على أسس سليمة، ولا يمكن أن تكون هذه الأسس سليمة إلاّ إذا أخذنا بمبدأ المِلكية الزراعية الصغيرة. ولقد قلت أن هذا المشروع قد يحمل معه أفكاراً يراها هؤلاء المشاغبون ثورية تهددهم وتهدد مصالحهم ولكننا نعتبرها أفكاراً تجديدية، تطويرية، إصلاحية، وهي في المدى البعيد لفائدة البلاد ولفائدة هؤلاء المشاغبين انفسهم. وقلت ما بال هؤلاء لا ينظرون بعيداً، ما بالهم لا ينظرون أبعد من أنوفهم. ما بالهم يخافون كل اصلاح ويقفون حجر عثرة في طريق كل تقدم، إن الزمن يسير بسرعة في

---

[١٧٣] وزيرا للاقتصاد سنة ١٩٤٢ وسنة ١٩٤٣

[١٧٤] كاتب صحفي، من رواد التأليف المسرحي في العراق،وله مؤلفات رائدة في النحو والصرف، ولد سنة ١٨٧٣ وتوفي سنة ١٩٤٧.

تطوره. ومن لم يسايره في هذا التطور قد تُقتلع جذوره من أساسها. لقد بينت أهداف المشروع وغاياته، وهاجمت هؤلاء المُترَفين الذين لا يعرفون غير مصالحهم الضيقة، والذين ضاقت نفوسهم وافكارهم عن كل ما يخدم الصالح العام. وكان لهذه المقالات رد قوي في مختلف المجالس والأندية، وقد ردّ عليها غَير واحدٍ ممن سخَّرتهم الأقطاعية البليدة.

لم أبقَ في هذه المزرعة إلاّ أقل من سنة، فقد ذهبت اليها في شهر آب من سنة ١٩٣٢ وخرجت منها في ايلول سنة ١٩٣٣، ولم تستمر بعد خروجي منها إلاَ بضعة أشهر، ثم أنهارت كما أرادت له الرجعية المتنفذة، وهكذا مات هذا المشروع الذي لو كُتِب له البقاء لأدّى دوراً خطراً في تطوير الحياة الزراعية وتحقيق فكرة المِلكية الصغرى ولجنَّب البلاد أخطاء الحركات المتطرفة.

مدير المعارف في الناصرية

كان صالح جبر قد استُوزر في هذه السنة[175] بعد أن كان حاكماً في سنة ١٩٣٢ في السماوة وبراتب قدره ٣٥٠ روبية، ثم اختير نائباً ثم وزيراً لمدة قصيرة جداً، ولربما كنا اتينا براتب واحد في هذه السنة، غير أنه اكبر مني سناً وأطول خدمة، ولعله قد تخرج من كلية الحقوق سنة ١٩٢٥. كان شاباً عندما استوزر. ولعل عمره كان يتراوح بين ٣٣ — ٣٥ سنة. وحينما استوزر للمعارف، وهي وزارة مهمة، أراد أن يقوم ببعض الأعمال، وأن يحدث بعض التغييرات. وكانت ادارة المعارف في الألوية مقسمة إلى مناطق ثلاث، منطقة

---

[175] استوزر صالح جبر للمعارف في وزارة جميل المدفعي في تشرين الثاني سنة ١٩٣٣ واستقال في شباط سنة ١٩٣٤.

بغداد والبصرة والموصل، ثم ارتؤي أن يكون ثمة مدير معارف لكل لواء، وهي فكرة صائبة وسديدة وقد أثمرت أحسن الثمرات، وهكذا عُين للواء المنتفك السيد رشيد سامي أول مدير معارف. والسيد رشيد هو ابن صفّي في الثانوية، ودَرَسنا سوية (الفِرشمن) في جامعة بيروت[١٧٦]. غير أن السيد رشيد لم يلبث في هذا اللواء إلاّ نحواً من سنة، ثم نُقل، إذ اصطدم مع متصرف اللواء السيد عبد الحميد عبد المجيد[١٧٧].

ولم يكن السيد عبد الحميد ممن دَرَس وتخرَّج من المدارس العالية، بل تدرج بالوظيفة حتى أصبح متصرفاً، وكان يمثل إلى حدٍ كبير العقلية الادارية السائدة آنذاك، وهي عقلية رجعية لا تنظر الى انتشار المعارف نظرة ارتياح وإطمئنان، ولا تعرف في الاصلاح إلاّ تمشية بعض الأمور الروتينية، وإلاّ بعض الإجراءات البوليسية للمحافظة على الأمن تارة او الاقلاق لهذا الأمن تارة أخرى إذا ما اقتضت ذلك سياسة بعض (الافندية) في بغداد. وفي إحدى المرات كان الدكتور فاضل[١٧٨] والسيد باقر الشبيبي يزوران بعض الألوية، وقد زارا لواء الناصرية الذي كان متصرفه هذا الاداري العتيد، وأخذا يبحثان عن شؤون المعارف في لوائه، ويستطلعان رأيه فيما يجب إتخاذه من خطوات لإصلاح نواقصها او توسيع نطاقها، ولم يبخل هذه الاداري العتيد بآرائه القيِّمة ونصائحه الثمينة، ولم يرد أن يقول لهما أنه لا ينظر بارتياح الى ما

---

176 يقصد الجامعة الأمريكية في بيروت.

177 متصرف بغداد فيما بعد، أشار إليه علي البازركان، وهو الذي تولى متصرفية المنتفك بعده، بقوله" وعبد الحميد عبد المجيد الملقب صرصر، وهو من الموظفين في زمن الاحتلال وزمن الاستقلال الحالي، والآن أصبح من ذوي الثروة الطائلة" (الوقائع الحقيقية في الثورة العراقية، بغداد، الطبعة الثانية، ١٩٩٢، ص ٢٣١).

178 يريد الدكتور فاضل الجمالي.

يلمسه في نشاط المعارف في هذا اللواء او في غيره من الالوية، وأنه يوجس خِيفة من نشر المعارف بين مختلف الناس، وانه يشعر بالخطر يداهم الدولة إذا ما عمَّ التعليم مختلف الطبقات، ولكنه قال لهم: هل يجوز أن يتساوى الناس في التعليم، أو أن يساوي التعليم بين الناس؟ هل يجوز أن يتثقّف ابن الكنّاس والنجّار والحداد وما شابه ذلك كما يتثقف ابناء الموظفين او اولاد الأغنياء أو المتنفذين أو الوجهاء؟ هل يجوز أن يُفسح المجال لابن الفقير أن يزاحم غيره من أبناء الموظفين؟ إن وظائف الدولة يجب أن لا تنزل إلى هذا المستوى، وإن الدولة يجب ان لا تديرها هذه الطبقة من الناس. وأنا لا أتهجَّم على هذا المتصرف بشخصه، ولا يوجد أي خلاف شخصي بيني وبينه، وإذا كانت هنالك أية علاقة بسيطة بيننا فهي اقرب الى علاقة الود، ولكن اتهجم عليه لأنه يمثل عقلية خاصة، عقلية رجعية أورثت البلاد الكثير من الهزّات والرجّات، فإذا ما اصطدم هذا المتصرف بمدير معارف اللواء فإنما هو اصطدام بين عقليتين: عقلية تريد المحافظة على القديم ولا تريد الاصلاح، بل ترى الاصلاح خطراً، وعقلية ترى أن لابد من التطوير والتجديد. لقد نُقل مدير المعارف وإن كان هو المُعتدى عليه لأنه أضعف من المتصرف، ولأنه يُمثّل وزارة المعارف، وهي أضعف من وزارة الداخلية.

وكنت قد نُقلت إلى هذا اللواء مع هذا المتصرف في مثل هذه الظروف، إذ كنت قد عُينت مديراً للمعارف في أواخر سنة ١٩٣٣، وقد التقيت برشيد سلبي في بغداد قبل سفري الى مقر وظيفتي، وكنا قد تحدثنا كثيراً عن المعارف وصعوبات المعيشة في الناصرية ومشاكل الحياة فيها، كما تحدثنا عن مشاكل المعارف ومشاكل الادارة. وكانت تشكيلات المعارف بالنسبة للمتصرف شيئاً جديداً، ولم يَرُق للمتصرف أن يرى مديراً للمعارف مستقلاً بأعماله

متمتعاً بصلاحية رئيس دائرة بالنسبة للصرف حسب ميزانيته وبالنسبة لذاتية موظفيه فيما يتعلق بنقلهم وترفيعهم وانضباطهم. ولا يريد المتصرف إلاّ أن يكون رئيساً لمدير المعارف ولموظفي المعارف كما هو رئيس بالنسبة لرؤساء الدوائر الاخرى كالمالية والشرطة والطابو وما الى ذلك ما عدا المحاكم وموظفي المحاكم. كان المتصرف يتدخل في شؤون المعارف ويريد أن يشرف على كل أمر بالرغم من استقلال مدير المعارف حسب صراحة القانون وتعليمات وزارة المعارف. ولم يكن من السهل عدم التصادم بين المتصرف ومدير المعارف، فهذا يريد السيطرة وهذا يريد استعمال صلاحياته القانونية. فكان تصادم بين عقليتين، وكان تصادم بين صلاحيتين.

كنت قد وصلت الى الناصرية بالقطار، وكان ذلك في أواخر تشرين الثاني وأوائل كانون الأول من سنة ١٩٣٣. وكانت هيئة المعارف، يتقدمهم مدير المتوسطة السيد عبد الوهاب الرِّكابي، في استقبالي، وكان الاستقبال حاراً وقد تأثرت به وبالكلمة التي ألقاها مدير المتوسطة. وشكرت الهيئة على مجيئها في هذه الساعة المتأخرة من الليل، وطمأنتها بأننا كلنا ننتمي الى عائلة واحدة تسعى لخدمة الشعب ورفع مستوى التعليم. وقد تركت هذه الكلمة، على قِصَرِها أثراً في أسرة التعليم كما أفصح لي فيما بعد أكثر من واحد من المستقبلين.

وكنت وصلت الناصرية وحيداً، وقد تركت والدتي وأخويَّ الصغيرين رشيد وصاحب ورائي حتى أجد مسكناً. ولما كانت العادة أن يزور رئيس الدائرة الجديد المتصرف، ون يزوره رؤساء الدوائر الآخرون، فقد زارني في الأيام التالية مدير الشرطة ومدير الطابو ومدير الواردات ومدير الخزينة ومدير الأملاك، ولا أتذكر إذا ما كان قد زارني رئيس المحكمة أم كان ينتظر مني

كالمتصرف أن أزوره، ولكنني أتذكر بأنني لم أزره ولا أتذكر كيف انجلت هذه الازمة، وكيف بدأنا نتزاور. تصادقت فيما بعد مع رئيس المحاكم، فكم من مرة ذهبنا سوية الى سوق الشيوخ، هو من أجل المحكمة، وانا من اجل التفتيش. وبهذا زارني رؤساء الدوائر كافة، ثم أعدت لهم الزيارة، ثم بدأت الحفلات والولائم.

لقد زرت المتصرف، ووجدت أن المتصرف السابق السيد عبد الحميد قد نُقل الى لواء آخر قبل مجيئي بأسبوع، وحل محله السيد علي البازركان[١٧٩]. والسيد علي كان أحد رجال الثورة العراقية، فقد ساهم فيها بمجهود لا ينكر، وكنت قد احترمته لما فيه الطيبة، وكان قد ودَّني على ما يظهر، ولبثت علاقتنا في أكثر الأحيان طيبة.

لم أجد دارا للسكن فسكنت بما يسمونه دار الضيافة، وهي دار جميلة تقع في حديقة كبيرة غنّاء تُطل على نهر الفرات، وكان يسكن هذه الدار فيما سبق الحاكم السياسي الإنكليزي فلا عجب إذا كانت داراً عصرية مريحة، وقد سكنت فيها نحواً من شهرين حتى وجدت داراً تليق بسكن عائلة رئيس دائرة في اللواء. ولم يكن الأكل مريحاً، فقد كان هنالك طباخ آثوري لايعرف

---

[١٧٩] هو علي بن عبد الحميد البازركان القيسي، ولد ببغداد سنة ١٨٨٧، أسس أولى المدارس الوطنية فيها، وهي المدرسة الجعفرية سنة ١٩٠٨ والمدرسة الأهلية سنة ١٩١٩، وللأخيرة الدور الكبير في إلهاب ثورة ١٩٢٠، وكان قد أسس سنة ١٩١٨ حزب حرس الاستقلال الذي قاد تلك الثورة، ثم عين سنة ١٩٢٤ رئيسا لبلدية بغداد، فقائمقاما في السنوات ١٩٢٥ – ١٩٣٢، ثم متصرفا (محافظا) في لواء الدليم من ١٩٣٢ الى١٩٣٣ فمتصرفا للواء المنتفك، حيث التقى به المؤلف، في المدة من ١٩٣٣/١١/٢٨ الى ١٩٣٤/٩/١٤، ومفتشا من ١٩٣٤ إلى ١٩٣٦، وأحيل على التقاعد بسبب موقفه المناوئ للهيمنة البريطانية، ثم أعيد إلى وظيفته سنة ١٩٣٧ إلى نهاية ١٩٣٨ أحيل بعدها إلى =التقاعد، ١٩٣٩. دون مشاهداته ومشاركاته في ثورة ١٩٢٠ في كتاب مهم سماه (الوقائع الحقيقية في الثورة العراقية)، وله كتب أخرى، توفي سنة ١٩٥٨.

من الطبخ إلاّ بعض الأكلات الفرنجية الناشفة و(البورك)، فأخذ يقدّم لي البورك كل يوم تقريباً حتى مَلِلته وصرت منذ ذلك الحين أنفر منه وحتى هذه اللحظة تقريباً.

كانت الناصرية بلدة صغيرة فقيرة مُهمَلة، وإن كانت تمتاز بتخطيطها المُنسَّق البديع، فهي تكاد تكون المدينة الوحيدة في العراق التي بنيت حسب تخطيط مسبق، وكان هذا التخطيط قد وضعه مهندس أجنبي[١٨٠] بطلب من ناصر باشا السعدون[١٨١]، وقد سُمِّيت باسمه، لذا جاءت شوارعها مستقيمة وواسعة ومتقاطعة بنقاط معينة. وثمة شوارع رئيسية مستقيمة موازية للنهر وشوارع أخرى مستقيمة عمودية، ولكنها مع هذا خالية من الخُضرة والزهور والأشجار، ولعل ملوحة المياه في الصيف لها أثر في ذلك، ومع هذا كنت السبب في تأسيس حديقة كبيرة عامة في ضاحية المدينة زرعت فيها - بالتعاون مع دائرة الزراعة - المئات من الأشجار، ولا أدري ماذا حلَّ بها الآن، ولا بد أنها اليوم - إذا ما جرت المحافظة عليها - حديقة غناء ذات أشجار وارفة الظِّل.

والبلدة بعيدة عن بغداد، وبعيدة عن العمران، وسكة الحديد الذاهبة الى البصرة لا تخترقها بل تمر بـ (أوُر)[١٨٢]، ولابد للراكب أن يغير القطار أو يركب السيارة حتى يصل الناصرية، وكانت كثيراً ما تُعد منفى للكثير من الموظفين، والفكرة السائدة أن قسماً من هؤلاء، ممن يُرسلون إلى هنا لم يكونوا

---

[١٨٠] هو المهندس البلجيكي جولس تلي Julis Tilly.

[١٨١] هو الشيخ ناصر باشا بن راشد بن ثامر السعدون، وقد تولى مشيخة اتحاد قبائل المنتفق (المنتفك) من سنة ١٨٦٩ الى ١٨٧٥.

[182] المدينة السومرية التي عرفت بقاياها بتل المقير، وترقى إلى عهد السلالتين الأولى والثالثة، في الألف الثالث قبل الميلاد.

على جانب من الكفاءة والمقدرة. ومهما يكن من أمر فقد كانت في الواقع منفى، لأنها بعيدة وفقيرة عمرانياً، وخالية من وسائل التسلية والراحة، وكثيراً ما تشكو من قلة الخضرة والفاكهة والتي إذا ما جُلِبت من بغداد فكلفتهاعالية. وإذا كنت قد شكوت من هذا كله، فأنني لازلت أتذكر سمكها الوفير واللذيذ والرخيص، وهو يُصطاد في الأهوار بكثرة و(يُسْكَف) في التنور على طريقة أهل الفاو، ولا يُسْكَف بأعواد الطَّرفة على الطريقة البغدادية؛ ومهما كانت هذه الطريقة لذيذة فإن السكف في التنور ألذ. ولم تكن الناصرية منفى للموظفين فقط، بل كانت كذلك لبعض الاهالي أيضاً، فقد نُفي إليها الشيخ محمود الكُردي[183]، كما نُفي إليها أيضا الشيخ أحمد البَرَزاني[184]، وكنت قد واجهت الأخير عندما كنت في الناصرية.

كانت المعارف مهملة في ألوية العراق كافة، وإذا كانت هنالك من حركة في نشر المعارف فهي محصورة في بغداد والموصل. وكان العراق يشكو، أول ما يشكو، من مرض الأُميّة الذي كان يفتك بأكثر من ٩٥٪ من أبنائه، وليس هناك مرض آخر مهما كانت فداحته يفتك بمثل هذه النسبة العالية من أبناء الشعب إلاّ مرض آخر هو الفقر.

---

[183] هو الشيخ محمود الحفيد النودهي البرزنجي، ولد سنة ١٨٨٥، وجاهد ضد البريطانيين في منطقة الشعيبة في أثناء احتلال القوات البريطانية للعراق، واستأنف جهاده سنة ١٩١٩ حتى أسر، وتزعم =انتفاضة قوية في السليمانية سنة ١٩٣٠ لكنه فشل في تحقيق هدفه فاستسلم وأسر ونفي الى السماوة فالناصرية حيث التقى به المؤلف. توفي سنة ١٩٥٦.

[184] هو ابن عبد السلام البارزاني وأخو الملا مصطفى البارزاني، وكان قد قاد حركات بارزان منذ انتهاء الحرب العالمية الأولى وبخاصة في السنوات ١٩٣١– ١٩٣٢، وكان قد لجأ بعد فشل هذه الحركات الى الأراضي التركية، الا أن الأخيرة سلمته – مع أعوان له– الى الحكومة العراقية، التي أبعدته الى الناصرية – حيث التقى به المؤلف– فالحلة فالديوانية، ثم أعيد الى السليمانية سنة ١٩٣٣.

وإذا كانت ألوية العراق مهملة بصورة عامة، فإن لواء الناصرية كان مهملا بصورة خاصة، فقد وجدته فقيراً في هيئة التدريس، يشكو قلة المعلمين والأساتذة، وتشكو المدارس من كثرة الشواغر، ولا سيما في القرى والأرياف، بل لا يتجاوز عدد المدارس أصابع اليد الواحدة، وأما البقية فهي دور أو محلات تُستأجر ولا تصلح لأن تكون مدارس، وهي أبعد ما تكون عن متطلباتها ومقتضياتها. ولا أتذكر بالضبط كم كان عدد المدارس والمدرسين والطلاب، ولكن اتذكر ان عدد المدرسين كان يتراوح بين ٧٠ - ٨٠ مُدرِّساً ومُدرِّسة، وعدد الطلاب كان يتراوح بين ٢٥٠ - ٣٠٠ طالب وطالبة، وعدد المدارس كان يتراوح بين ٢٠ ـ ٢٥ مدرسة. وهذا كل ما كان قد حصل عليه اللواء منذ الحكم العثماني وطوال الحكم الوطني وحتى أواخر سنة ١٩٣٣.

كان لابد لي من أن اتعرف على هيئة التدريس، وأن أزور المدارس، فقمت بزيارة لمركز اللواء حيث لم تكن إلاّ متوسطة واحدة وابتدائية واحدة وعدد آخر من الابتدائيات غير الكاملة ومدرسة أو مدرستان ابتدائيتان للبنات. وكنا قد أبتدأنا بمدرسة متوسطة فيها صف واحد عدد طالباته ست أو خمس فقط، ولم تكن التقاليد تسمح بزيارة مدارس البنات وإن كانت ابتدائية، وكنت شخصياً أُحرَج من زيارة مدارس البنات، بل أُحرج من مراجعة المعلمات للدائرة بأشغال رسمية. كان المحيط ضيقاً وقاسياً والاشاعات الباطلة تروج بسرعة، ولا يمكن لأي شخص حريص على سمعته، ولاسيما إذا كان مدير معارف لواء، أن يتساهل ويتسامح بأي شكل كان، أو يعطي مجالاً لهذه الاشاعات.

لقد زرت الأقضية والنواحي والقرى والأرياف والأهوار والمستنقعات، بل زرت كل بقعة من بقاع اللواء البعيدة والقريبة، ومنها أماكن لم يزرها أحد من

موظفي الحكومة من قبل. من ذلك أني زرت - غير مرة - الشّطرة والرِّفاعي وقلعة سِكَر، ولي في بعض هذه الأماكن ذكريات طيبة. وأذكر أني حينما زرت الشطرة وجدت فيها عبد الهادي الظاهر[185] قائم مقاماً، وعبد الأمير القزاز حاكماً. ولما زرت قلعة سكر وجدت فيها المرحوم جعفر حَمَندي قائممقاماً[186]، وصديقي وابن مَدرَستي عبود الشالجي حاكماً. وقد جرت العادة أن يستضيف القائممقام زائره إذا كان رئيس دائرة، حتى وإن لم يكن بينهما سابق معرفة، فكيف إذا كانت تربط بينها روابط المعرفة والود. وكنت أعرف عبد الهادي معرفة بسيطة في بغداد ولكنني لم أعرف عبد الأمير القزاز، واعرف جعفر حمندي معرفة طيبة فإنه كان ابن محلتنا. كانت زيارتي لهذين القضاءين زيارة عمل وانشراح، ولم يكن الانشراح في مثل هذه الأماكن النائية التي تخلو حتى من الكهرباء والماء المعقم بالشيء الذي يتبادر إلى الذهن من هذه الكلمة، فلم يكن في مثل هذه المحلات أي شيء مما يدعو إلى السلوى واللهو، ولكني كنت أجد فيها متعة وسرورا حيث التقي بالأصدقاء، ومنهم إداريون يعرفون مشكلة المعارف ويسهمون في حلها.

والإدارة في ذلك الزمان وقبله وبعده وحتى هذه اللحظة[187] تلعب الدور الاول في أمن اللواء وانعاشه زراعيا وعمرانيا وثقافيا، فاذا كان العراق قد فشل في العمران، او فشل في حل كثير من قضايا الزراعة والارض، او في القضاء على الامية، وفي رفع المستوى الصحي، فما ذلك الى لان الادارة قد فشلت في القيام بواجباتها واداء مهماتها. وكان بوسع الادارة ان تساعد اي مشروع وكان

---

[185] ولد سنة ١٨٩٨ وتخرج في مدرسة الحقوق، وتقلب في المناصب الإدارية، ثم انتخب نائبا في المجلس النيابي، وعين سنة ١٩٤٦ وزيرا للاقتصاد.

[186] وزير المعارف في وزارة حكمت سليمان سنة ١٩٣٧.

[187] كتب هذا في سنة ١٩٦١

بوسعها ان تعرقل اي مشروع، بيد ان مما يؤسفني ان اسجل انني وجدت اكثر الاداريين لا يحملون اية فكرة ـ وان كانت متواضعة ـ عن العمران والاصلاح. ولم أجد أكثر هؤلاء الاداريين يحسون باحاسيس الناس ويعرفون مشاكلهم، ولم اجدهم يعطفون على الناس ويعملون من اجلهم، كانوا في معزل عنهم وفي استعلاء وتكبر، ولذلك فقد أُهملت الألوية وعمرانها وأُهمل الناس وحاجاتهم. ولو أن كل اداري مهما صغرت وظيفته قد بنى لِبنة واحدة في اليوم أو في الأسبوع، منذ بداية الثورة العراقية في سنة ١٩٢٠ وحتى الآن، لتعمَّر العراق وازدهر، ولكانت حالة الناس في صحتهم وثقافتهم هي غير حالتهم اليوم.

جولات ريفية

وقد زرت الرفاعي، وكانت مديرية ناحية آنذاك، وهي الآن قائممقامية. وزرت (أبو هاوَن) حيث يسكن السيد عبد المهدي[188]، وكم كان يسرني أن أزور السيد وان احضر مضيفه وقد احاط به كثير من المزارعين والسراكيل والفلاحين يتداولون واياه في الشؤون الزراعية تارة، او يحل لهم بعض مشاكلهم تارة اخرى. كان يسرني أن ازور مكتبة السيد، وأن أقلّب فيها بعض الكتب، ولاسيما دواوين الشعر، فهي مكتبة عامرة بالنسبة لأي هاوٍ، وحتى بالنسبة لكثير من مكتبات المدن، بالكتب العربية الادبية والفقهية وما شابه ذلك.

وصادف وأنا أتجول في اللواء أن تسلمت برقية من الست أمة السعيد تخبرني بها أنها تزور اللواء هي والسيدة بديعة أفنان في زيارة خاصة. ولما

---

[188] يريد: السيد عبد المهدي المنتفكي، وقد نوه به من قبل.

كنت بالقرب من (ابي هاون) فقد التقينا في مجلس السيد، ولا أدري كيف تلقَى السيد نبأ زيارتنا له، ولكنه رحَّب بنا وفرح بقدومنا واستضافنا على خير ما يُمكن أن يُضيِّف عربي ضيفه، ولاسيما إذا كان بعض الضيوف من السيدات المثقفات. لقد تحدثنا كثيراً، وقرأنا الكثير من الشعر، وأُعجبت السيدة بديعة بالسيد وهو يلقي الشعر بصوته المؤثر الضخم الرنان، وقد أبدت اعجابها بالسيد وطريقة إلقائه الشعر أكثر من مرة وفي أكثر من مناسبة سواء كان في بغداد أو في غيرها.

وفي بيت السيد في (ابي هاون) حصل اجتماع اخر، حيث كنت قد تلقيت برقية مصدرها الكوت من الدكتور فاضل الجمالي يطلب فيها أن اجتمع به في أبي هاون، فاجتمعت بالدكتور وبنفر من أعز الأصدقاء وأحبهم إلى قلبي. حيث كان الدكتور وهؤلاء الأصدقاء، وهم أكرم زعيتر وفريد زين الدين وعبد االكريم الأزري ومتِّي عقراوي في جولة خارج بغداد بمناسبة العيد فمروا بالكوت، وكان متصرفها آنذاك السيد ماجد مصطفى، حيث استضافهم عند أمير ربيعة[١٨٩] في قصره الفخم في الحسينية، وهوالذي تتحدث بذكره الركبان، والذي لم أره حتى كتابة هذه الأسطر. وعلى أية حال فقد اجتمعنا في بيت السيد، ولا يمكن بالطبع أن يخلو مثل هذا الاجتماع من أحاديث في القومية والاصلاح وحاضر الأمة العربية ومستقبلها، وما يتصل بذلك. وهكذا قضينا يومين وليلتين وكأننا لم نقضِ إلاّ سُوَيعات. وكان الدكتور فاضل وبقية الأصدقاء قد طلبوا مني الرجوع معهم إلى بغداد بالرغم من ازدحام السيارة بهم، وهم كانوا خمسة عدا السائق. وكم كانت الرحلة ممتعة هذه التي

---

[١٨٩] هو محمد الحبيب، ولد سنة ١٨٩٢ وتولى زعامة قبيلته سنة ١٩١٦ وأختير عضوا في المجلس التأسيسي سنة ١٩٢٤، وتزوج الأمير عبد الإله من إبنته هيام، وتوفي سنة ١٩٧٠.

قضيناها في السيارة من الناصرية الى بغداد عن طريق السماوة فالديوانية فالحلة، ثم بغداد، بالرغم من طول الطريق ووعورة بعض أقسامه.

لقد تجولت غير مرة في سوق الشيوخ وكَرْمة بني سعيد وماجاورها، ولكني في هذه المرة أردت ان أزور مناطق الأهوار والقرى النائية والأرياف التعيسة، ولاسيما تلك التي تقع على الانهر، بواسطة غير واسطة السيارة التي هي على أية حال غير مُجدية كواسطة في بعض هذه الرحلات، فسافرت إلى الناصرية بواسطة زورق بخاري (ماطور) بعد أن استعددت لهذه السفرة، فأخذت معي طباخاً وكل أدوات الطبخ وكثيرً من المُعلَّبات وبعض الاسطوانات الأجنبية والعربية مع فونوكراف وبعض الكتب والمجلات وأدوات الكتابة، وأخذت معي فِراشاً وسريراً وكرسياً أو كرسين. كانت سفرة فريدة في نهر الفرات الجبار وفي بعض فروعه وأقنيته، حيث مررت في خلالها بكثير من العشائر والقبائل، وجِست أهوار الجِبايش والحَمَّار، ولم أكن أعرف ماهي (الجبيشة) وكيف يسكنها أصحابها، فإذا بها كالكوخ مصنوعة من البَردي والقصب مبنياً على أرض رخوة يحيط بها الماء من كل جانب، بل ويركد تحت البعض منها، حتى أنني دخلت إحداها فاهتزت الجبيشة التي كانت طافية او تكاد على سطح الماء الراكد. وحينما زرت الحمّار وآل جُوَيبر[190] وأماكن اخرى، وجدت المدارس في هذه المنطقة مهملة والمعلم مهملاً، بل وجدته في حالة يُرثى لها، بائساً كئيبا لا يقو على تحمل هذه الحياة الخشنة بهذا الراتب الضئيل دون مخصصات اضافية، كما وجدت أكثر هذه المناطق العشائرية خالية من المدرسين بالرغم من اكتظاظها بالسكان، وشغف الأهالي بالدرس.

---

[190] آل جويبر عشيرة من بني خيكان، نزلت هذه المنطقة من زمن بعيد فعرفت بها.

اتصلت برجال الادارة من مدراء نواحي وقائمقامين فوجدت أكثرهم في عالم آخر لا تهمه المعارف ولا يهمه أمر الأهالي، ولكني وجدت عند البعض الاخر ـ وأكثرهم من الشباب ـ روحاً قوية وحماسا كبيراً، وقد كان لهؤلاء الفضل الكبير في جمع التبرعات لبناء المدارس البسيطة او حمل الأهالي على بناء مثل هذه المدارس بأنفسهم، وبهذا بنينا عدداً من المدارس في كثير من هذه المحلات؛ وكان البناء بسيطاً لا يكلفنا كثيراً. كما كنت أمِد الادارة ببعض المبالغ التي لدينا والمخصصة لمثل هذه الاغراض. واتفقت مع كثير من الشيوخ والراغبين على أن نكافح الأمية في المُضيف مدة ساعة أو ساعتين في الليل، وقد رحَّب هؤلاء بهذه الفكرة فاستمرت بعض الزمن، ولا ادري ماذا حل بها بعد أن تركتُ اللواء. كانت سنين بالرغم من أنها شاقة ومتعبة وطويلة، فإنها غنية بتجاربها، وإذا كنت قد اصطدمت ببعض الاداريين فيها فإني كسبت صداقة الأكثرين منهم للمعارف ولأهدافها.

كنت قد مررت بآل جُوبَير فوجت معلمها الأول مريضاً، وهو سيد من سامراء، ولم يُصدِّق عندما حملته معي في الزورق وأتيت به سوق الشيوخ وأدخلته المستشفى حتى تعافى. فبقى هذا المعلم يتذكر الحادث ويرويه للكثيرين، ثم صار لهذا المعلم فيما بعد شابان ضابطان لم ينسيا هذا المعروف البسيط.

تجولت في السيارة، وتجولت في الزورق، وفي المَشحُوف، وتجولت وأنا على ظهر الحصان، وتجولت ليلاً ونهاراً، وتجولت صيفا وشتاء، وكان همي أن أعرف حاجات المنطقة وأن أسعى لسد هذه الحاجات. وحدث ذات مرة وأنا أتجوَّل في منطقة الرفاعي لاختيار الأماكن الملائمة لبناء المدارس بحيث تكون في متناول أكبر عدد ممكن من أبنائها، وإذا بعيني ترمد من شدة الحر

وكثرة الغبار، وما كان يهمني الرمد، ولم يستطيع أن يقف حائلاً بيني وبين أداء الواجب بالرغم من نصائح الطبيب، أو قل اوامره، فقد كنت احرص ان يكون في مركز كل عشيرة مهمة مدرسة، وقد استجاب لهذا الحرص كثير من رؤساء العشائر إلاّ موحان الخير الله[191]، الذي كان أكبر ملاك أو إقطاعي في لوائه، أو قل في العراق برمته. وكنت كلما أخذت محلاً مناسباً لبناء مدرسة في مركز عشيرة يتهمني بحجة من الحجج، ويتذرع بذريعة من الذرائع، لتأجيل البناء، فقد كان يتخوَّف من المدرسة، ويخشى المعرفة إذا انتشرت بين فلاحيه الذين يُعدُّون بالمئات والألوف ويشتغلون في أراضيه التي قد تنوف على النصف مليون مشارة. كان هذا الرجل بالرغم من حلاوة كلامه ولباقة لسانه يقف حجر عثرة في سبيل بناء المدرسة ويقف حجر عثرة في سبيل كل اصلاح. وبالرغم من أنه يعد من أثقف أبناء العشائر فإنه ضيق التفكير قصير النظر لم يفهم الزمن ولم يفهم تطوراته ولم يعرف كيف يساير هذه التطورات ويفسح المجال لبعض الاصلاحات؛ وقف في طريق كل إصلاح، وأراد هو وأمثاله امتلاك كل شيء والاستحواذ على كل شيء، دون أن يفهم أن من لم يتنازل عن بعض الشيء، ومن لم يتنازل عن القليل، لا بد أن يضيع عليه كل شيء.

وحينما كنت أسير احياناً في بعض طرقات الناصرية على هدى أو على غير هدى، أرى بعض الصبية يلعبون ويلهون في الطرقات ولا يذهبون للمدرسة، وهم في سن الدراسة، ولا يتعلمون مهنة أو يعملون عملاً، فلا أتمالك إلاّ أن أحثهم علي الذهاب المدرسة، وأطلب مواجهة آبائهم لأبحث

---

191 شيخ عشيرة الشويلات، ولد سنة ١٩٠٠ وتلقى العلم في النجف، وانتخب نائباً في المجلس النيابي لدورات عدة، انضم إلى حزب الإتحاد الدستوري سنة ١٩٤٩، ولبث فيه حتى ١٩٥٤، وتوفي سنة ١٩٥٧.

معهم الصعوبات التي تقف في طريق دراسة أبنائهم، وأتعاون معهم الى تذليلها ما أمكن الى ذلك سبيلاً.

لم يكن من السهل أن نُسرِع الخُطى في بناء المعارف، وأن نطوي الزمن طيّاً، ولم يكن من السهل أن نستعجل الزمن ونعوض عما فات، فميزانية المعارف محدودة، ومِلاك المعلمين محدد، فلا تستطيع وزارة المعارف أن تخصص للبناء الجديد او للصيانة والترميمات أو للأثاث الا بقدر، ولا تستطيع أن تمدنا بالمعلمين والمعلمات حسب حاجتنا، أو حسب ما تفتحه من مدارس جديدة، أو ما نقوم به من توسع في المدرسة ذاتها. كنا نجتمع، مدراء المعارف، مرة في السنة في بغداد، ونبحث في سياسة المعارف وميزانيتها واعتماداتها، وفي مِلاك المعلمين وكيفية توزيعهم على الألوية، وما إذا كانوا يوزعون حسب نفوس اللواء فلا يستفيد من هذه الخطة إلاّ الألوية الكبيرة، كبغداد والموصل، اللتين استفادتا كثيراً في السابق، أو يوزعون حسب حاجة اللواء، فيستفيد اللواء المتأخر أكثر من اللواء المتقدم. وما إذا كان من العدالة أن نَحرِم اللواء المتقدم لأنه متقدم، أو أن من العدالةِ أن يستفيد اللواء المتأخر؟ وهل يُوَزَّعون حسب الحاجة من جهة وحسب النفوس من جهة أخرى لكي لا يظلم اللواء الكبير المتقدم؟ كنا نبحث في هذا، وغير هذا، غير أننا لم نكن لنحصل على ما نريد من مخصصاتٍ وعلى ما نريد من معلمين ومعلمات. ومع هذا كله فقد عملنا وعملنا، وقد ساعدتنا المعارف بأقصى ما يمكن من مساعدة كما ساعدنا الأهالي بعض المساعدة، وبعض رجال الإدارة حسب المستطاع، فأثرناها نهضة عارمة شملت اللواء برمته، ريفه وحضره، قاصيه ودانيه، فشيدنا مدارس فخمة للبنين والبنات في مركز اللواء ومراكز الأقضية كالشطرة وقلعة سِكَر، ومدارس ريفية بسيطة مبنية من الطين أو حتى الطوف في بعض

الجهات، ولقد حوّلنا حتى مضيف الشيخ إلى مدرسة، وحرصنا على سد الشواغر، وأن تكون الملاكات كاملة، كما حرصنا على أن ينقل إلى لوائنا من المعلمين والمعلمات أكفأهم، وأن لا يعد هذا اللواء منفي فلا ترسل إليه إلا العناصر الهزيلة، وأدخلنا الأولاد من الطرقات إلى المدارس، وراقبنا الدوام واستفسرنا عن اللذين يتركون الدراسة، وشددنا على إرجاعهم إلى المدرسة، وقدمنا المساعدات إلى الفقراء، واعتنينا بالقسم الداخلي في الناصرية، وسعينا إلى رفع مستوى التدريس. كما أننا بعثناها نهضة طيبة في الرياضة والكشّافة والتمثيل وإحياء الحفلات والمسابقات الخِطابية وما شابه ذلك.

كان لواء الناصرية أول لواء بعد بغداد أقام مخيماً كشافياً في ضاحية من ضواحي الناحية. ولقد أدخلنا إليه الماء والكهرباء، وأمّه الطلاب، واشترك فيه ابن المدينة والريف والهور على حدٍ سواء. واصبح لواء الناصرية أول لواء من الألوية الجنوبية، عدا لواء البصرة، يفوز بكل المناسبات في كرة القدم التي أجراها مع الألوية الجنوبية كالعمارة والديوانية والحلة وكربلاء، واذا كان اللواء قد خسر في مباراة شبه النهائية مع البصرة فقد كانت هذه الخسارة بحد ذاتها تعد انتصاراً.

كانت لجنة منرو قد اقترحت تأسيس دارٍ للمعلمين ريفية في محل بالقرب من الشطرة يسمى (البَدْعَة)، والبدعة نهر يتفرع من الفرات يقع وسط أراضٍ زراعية خصبة، وهي على غرار دار المعلمين في بغداد، وقد وُجِد أن خريجي هذه الدار لا يرغبون في التعيين في القرى والأرياف، فضلاً عن أن الثقافة التي يتلقونها فيها لا تؤهلهم تماماً لأن يكونوا مدرسين في الريف. كانت هذه الدار قد تأسست قبل مجيئي ببضعة أشهر، وقد قبلت فيها طلاباً من مختلف ألوية الفرات شمالها وجنوبها حسب نسبٍ معينة، وكان

مديرمعارف اللواء يعد مديراً لهذه الدار على أن يساعده فيها مساعد يقيم فيها. وكانت هيئة هذه الدار من خريجي الكليات الأجنبية والعراقية، وكان المساعد فلسطيني قد حصل على شهادة (الماستَر) في علم التربية ؛ ومنهج الدار يختلف عن منهج دار المعلمين الابتدائية بطبيعة الحال، فهو يؤكد – أكثر ما يؤكد –على النواحي الزراعية والاصلاح الريفي وحب القرية والنهوض بها وبزراعتها وصناعاتها البسيطة. وتهدف أن يَلِم خريجها بهذه المعلومات وأن يُغرس فيه حب الريف، وان يكون مؤهلاً للعيش فيه وخدمة ابنائه، وعلى هذا لم يقبل فيها إلاّ أبناء الريف من مختلف الألوية لكي يعود المتخرج بعد التخرج إلى لوائه، ويعيش كلٌّ في ريفه وبين أبناء عشيرته.

وفي ذات مرة تلقيت برقية من المساعد تفيد بأن الطلاب اعتصموا وأن الوضع في غاية التأزم، فذهبت الى الدار وطلبت من الطلاب الاصطفاف، ثم سألتهم واحداً فواحداً عن أسباب هذا الاضراب، فلم تجب الأكثرية، بل بدت وكأنها اعتصمت مجاراة لمن اعتصم، وأجاب بعضهم بأجوبة مختلفة متباينة، ثم أجاب ثلاثة أو اربعة بأجوبة مشابهة تماماً، ولم يختلف واحد عن الآخرين، فعلمت أن هؤلاء هم رأس الحركة ومدبِّرو الاعتصام. ولا ادري لماذا اخترت هذه الطريقة في التحقيق ولا ادري كيف نجحت مثل هذا النجاح الباهر السريع، ولكن من المؤكد انها اثارت استغراب واعجاب هيئة التدريس ولا سيما المساعد الذي كان قد درس علم التربية وعلم النفس، ولقد بقي هذا الاستاذ يقص هذه الحادثة بالتقدير في كثير من المجالس والاندية.

وكانت تحدث بين حين واخر بعض المشاكل بين المدرسين في المدارس، أو بين بعض المدرسين ومدير المدرسة، أو بين مدير المدرسة والادارة. وكانت أن حدثت مرة مشكلة عنيفة بين مدير مدرسة قلعة سِكَر السيد عبد المجيد

الجوهر وهيئة التدريس والقائمقام، ولا يحضرني اسمه الآن، ولما تلقيت برقية من السيد المدير ينبئني بأن القائمقام أغلق المدرسة وقد يُلقى القبض على هيئة التدريس، ذهبت لتوّي إلى قلعة سِكَر وواجهت المدير في بيته فقصَّ عليّ قصة لا أذكرها تماماً ولكنها تتلخص بأن مدير المدرسة لم يُطَع له أمر في قضية من القضايا، ولعلها تتعلق بـ (تنجيح) أحد أبنائه فأخفاها في نفسه، ووجد فرصة من الفرص فقام بما قام به. وكان القائمقام قد اشتهر بعصبيته وبضيق نظره، فأشار عليّ المُدرِّسون بعدم مواجهته ولكني واجهته، وكنت شديداً فتراجع وتراخى، وفُتِحت المدرسة دون تأخير. ثم أني أخبرت المتصرف بهذا الحادث، وبأن القائمقام قام بعمل ليس من صلاحيته، وأنه مخالف للقانون وقد يُعرِّضه إلى عقوبات. وعلى أية حال كان الاداريون يلتزمون بعضهم بعضاً على حق أو باطل.

كان الشيخ بدر الرّميِّض[١٩٢] قد اشتهر بشجاعته وكرمه ووطنيته، كان يحب الأتراك، ولقد حارب الانكليز مدة طويلة ولم يعترف من كل قلبه بالحكم الوطني. كان يظن أن هذا الحكم إنما هو مؤقت ولابد من رجوع الأتراك الى البلاد مرة أخرى فبقي على ولائه لهم. وقد اشتهر بمقاطعته للحكومة وابتعاده عن المتصرفية وبإنعزاله بين أهله وأفراد عشيرته وانقطاعه عن زيارة المدن ولاسيما الناصرية، كما اشتهر كذلك بانه مِزواج وأن لديه من الاولاد والأحفاد مالا يحصي عددهم بسهولة. وكان إذا زار الملك فيصل الأول هذا اللواء فلا يأتي مع الشيوخ الآخرين للقائه ولا يفصح عن ولائه. وكان السيد علي البازركان قد نُقِل وحلَّ محله السيد أحمد الراوي، فأراد هذا المتصرف، وقد شغل المنصب حديثاً، أن يزور هذا الشيخ. ولا أتذكر كيف

---

[١٩٢] شيخ قبيلة بني مالك، ولد سنة ١٨٢٥ وتوفي سنة ١٩٤٢.

فاتحني برغبته في زيارته، لكننا ذهبنا بسيارات عديدة بجولة تفتيشية في بعض أنحاء اللواء ومن هناك عرَّجنا إلى مضيف الشيخ، وكنا قد افترقنا ونحن في الطريق، او في الحقيقة كنا قد أضعنا معالم الطريق، ومهما يكن من أمر فقد وصلت مضيف الشيخ قبل أن يصله المتصرف ببضعة دقائق فاستقبلتُ استقبالاً حافلاً، وشعرت حالاً أن الاستقبال لم يكن مُعدّاً لي وإنما كان للمتصرف، وبما أنني وصلت قبله فقد استقبلت كأنني المتصرف خطأ. وما أن وصل المتصرف حتى استقبل ايضاً بنفس الحفاوة. وتعرفت على الشيخ وعرف أنني مدير المعارف ولست المتصرف، ومع هذا فقد كان الشيخ ظريفاً وذكياً وقد أراد أن يعلمني أن الاستقبال الذي أُعِدّ لي لم يكن من باب الخطأ انما كان مقصوداً، وأنه قام بذلك على قاعدة إذا كنتَ مأكول الطعام فرَحِّب.

لقد استقبلتني العشيرة وعلى رأسها شيخها الوقور خارج الخيمة بمسافة ولم يكن هذا بالامر الاعتيادي بالنسبة لمدير المعارف وان كان مألوفاً بالنسبة للمتصرف. لم يكن المتصرف قد ارتاح إلى ما حدث، لا أدري إن كان قد عدَّ وصولي الى العشيرة قبله من باب الخطأ ام كان مقصوداً، فإن مثل هذه الأمور بالنسبة للاداريين في الألوية لها أهميتها القصوى. وعلى أية حال، استضافتنا العشيرة ونُحِرت الخِراف وقُدِّمت أصناف الطعام؛ وكنا نرى بين العشيرة افراداً امتازوا بلباس الرأس وهو اليَشماغ الأحمر، وكان عددهم كبيراً يتراوح بين الـ٥٠ والـ ٧٠، وهم أولاد الشيخ وأحفاده، ولم يكن يعرف الكثير منهم باسمائهم ولكنه يميزهم بلباس الرأس هذا.

كان الشيخ بدر عندما زرناه قد ناهز السبعين، ولكنه كان قوي البنية ويبدو وكأنه في الستين. وكان مربوع القامة يميل الى الطول قليلاً، اسمر اللون، قد التحى وجهه بلحية سوداء خفيفة، وقد تكون مصبوغة، وقد

انتصب تحت انفه شاربان كثيفان طويلان يُحكى عنهما أنه كثيراً ما يضع عليها بعض الدهون لكي لا تتكسر شعراتهما ولكي تحتفظ بانتصابها، ويلفها بكَفِيّة عندما ينام محافظة على شكلها وهندامها. وكان له أنف أخَن وعينان سوداوان كأنهما مكحلتان واسعتان براقتان كانتا سر تأثيره وجاذبيته. كان متحدثاً لبقاً يسرد القصص ويضرب الأمثال وكلها ذات مغزى تتعلق بعاداته وتقاليده وفلسفته في الحياة. وكانت تروى عنه بعض النوادر والقصص عن مواقفه وبطولاته في حربه على الانكليز. وكان جريئاً في عدم زيارته المتصرف على خلاف عادة الناس في كل لواء، وجريئاً عندما لا يزور الملك فيصل حتى إذا أمَّ اللواء. وعندما زاره حاكم اللواء السياسي الانكليزي، كان قد جلس في المضيف على الارض كما يجلس الآخرون، وقد مدّ رجليه لأنه كان لا يعرف كيف يجلس متربعاً، أو كيف يضم قدميه تحت رجليه، فما كان من الشيخ إلاّ أن ضربه بالعصا على قدميه وصرخ به" لِم حافْرَك"! وقد انتشرت هذه الكلمة وذهبت مذهب المثل لأن الحافر لا يُطلق إلاّ على الحيوان. ذهل الحاكم ولَمَّ حافريه بسرعة ولم يدر السبب لغضب الشيخ هذا، ولم يكن يعرف أنه ليس من عادات العرب مد القدمين في المضيف ولم يدر بأن في هذا إهانة وتحقيراً، فقد كان الحاكم يزور الشيخ زيارة ود وتقدير ولم يخطر بباله أن يُحقِّره بأي شكل كان.

قام الملك غازي في أوائل سنة ١٩٣٥ بجولة في الألوية الجنوبية، فزار لواء المنتفك وشُكِّلت لجنة أنا رئيسها ووضعت منهج الأستقبال. وقد حل الملك في دار الضيافة التي نزلت فيها نحواً من شهرين بعد إجراء بعض الترميمات، وكنت الشخص المُكَلَّف بالاتصال بالملك. وقد راقبت الملك عن

كثب وكان أن تحدث لي قليلاً وطلب مني أن أستدعي له تحسين قدري[١٩٣] أكثر من مرة، ولما حضر في الصباح دار المتصرفية وقدّمنا له كبار الموظفين والوجهاء والأشراف وشيوخ العشائر، لم يحضر بدر الرميض كعادته، ثم أقمنا له دعوة عشاء فخمة في النادي دعونا إليها بعض كبار القوم.

وكان في الناصرية نادٍ للموظفين يطل على نهر الفرات، يحتل بناية جميلة، وحدائقه واسعة وفيه مناضد للعب الكرة ومنضدة للعب البليارد وساحتان للتنس. وهو يضم كافة الموظفين وكثير من وجهاء البلد واشرافها إذ لم يكن في الناصرية سواه. وكان مركزاً اجتماعياً مهماً ويُعد المتصرف رئيساً شَرَفياً له، وقد جرت العادة أن يكون مدير الشرطة رئيساً فعلياً بحسب الانتخاب، ولا ادري لماذا قد تغيرت هذه العادة في تلك السنة وانتخبني الموظفون رئيساً دون مدير الشرطة مع أني لم أُرشِّح نفسي للرئاسة ولم أكن أرغب فيها ولم أقم بأي دعاية لها. لقد وجد فيَّ الموظفون شيئاً من النشاط، وكان كثير من اعضاء النادي من المعلمين، وقد يكون لجواد مدير الطابو يداً في الأمر، وربما كان غير هذا سبباً في انتخابي لرئاسة النادي. كان مدير الطابو من أول من تعرفت عليه في النادي عند أول قدومى، ولم يعجبني بادئ الامر فإنه أذا شرب أكثر المزاح، وربما خرج عن الحدود. ولم أكن قد تعودت على مزاحه، فاستغربت أن يرفع الستار بيني وبينه في أول لقاء. وكلما مر الزمن اكتشفت في الرجل بساطة قلبه وطيبة نفسه وكرم خصاله، كان صديقاً صدوقاً، عفاً نزيهاً، ذا دراية وخبرة بالرغم من انه لم يكن دارساً ولا مثقفاً،

---

[١٩٣] مدير التشريفات الملكية، ولد في بعلبك سنة ١٨٩٤،والتحق بجيش الثورة العربية سنة ١٩١٦ ورافق الملك فيصل الأول في مؤتمر الصلح في باريس سنة ١٩١٩.

محبوباً من قبل الناس والموظفين، وذا صداقة وعلاقة مع كثير من رجالات الدولة، أمثال علي جودت الايوبي[194] وجميل المدفعي[195] وغيرهما.

قمت مع أعضاء الهيئة الادارية بكثير من التنظيمات والاصلاحات في النادي ولكننا لم نستطع أن نقف دون من يلعب أو من يشرب. وفي ذات يوم توفي أحد الائمة فطلب بعض الاعضاء عدم السماح في تلك الليلة للشرب او للعب القِمار وفتح الراديو وسماع الموسيقى في الأقل. وكانت هذه الحادثة البسيطة مثار صراع عنيف وقبيح بين بعض الموظفين الذين رفضوا الانصياع الى أوامر النادي وبين الأكثرية من الموظفين وأبناء اللواء الذين أيّدوا الطلب. وكان يتزعم هذه الاقلية المارقة مدير الطابو السيد خيري الذي حل محل السيد جواد وهو الذي نُقل إلى لواء الحلة تقديراً.

اضطرابات وحركات عسكرية

وكان على جودت رئيساً للوزراء عندما حدثت بعض الاضطرابات في لواء الديوانية، ولا سيما بين عشائر آل فَتْلَه بزعامة الشيخ عبد الواحد الحاج سِكَر[196]. والشيخ عبد الواحد أكبر زعيم عشائري أنجبته ثورة سنة ١٩٢٠، كان وطنياً أسَّره الإنكليز والاستعمار، ولعب دوراً خطيراً - إن لم يكن أكبر

---

[194] سياسي، ولد سنة ١٨٨٥ والتحق بثورة الشريف حسين سنة ١٩١٦، واختير وزيرا للداخلية سنة ١٩٢٣ وتولى رئاسة الوزراء مرة أولى من ١٩٣٤ الى ١٩٣٥، وهي المدة التي جرت فيها الأحداث التي يصفها المؤلف هنا،ثم تولاها مرة ثانية من ١٩٤٩ الى ١٩٥٠، وثالثة سنة ١٩٥٧.

[195] سياسي، ولد سنة ١٨٩٠، وتخرج في الكلية العسكرية باستانبول، والتحق بثورة ١٩١٦، وعند سقوط حكومة فيصل في سوريا أصبح سكرتيرا لجمعية (العهد العراقي)، ثم عاد الى العراق حيث تقلب في المناصب، واختير وزيرا للداخلية، ثم للمالية، وشكل أول وزارة برئاسته سنة ١٩٣٣، ثم تعددت الوزارات التي شكلها، حتى بلغ عددها ستة وزارات، توفي سنة ١٩٥٨.

[196] ولد سنة ١٨٨٠ وتوفي سنة ١٩٥٦.

دور عسكري - في سنة ١٩٢٠، اذ التفت حوله عشائر آل فَتلَه وعشائر أخرى، فقادها بنجاح وحارب ببسالة، ثم وقع أخيراً بيد الإنكليز، وحُكم عليه بالاعدام، وبقى يناوئ الاستعمار والانكليز، ولبث الانكليز يؤذونه ويشددون عليه الخناق حتى آخر لحظة من لحظات حياته. لقد حورب بمختلف الطرق وشتى الأساليب، وحاربوه تارة بالتضييق عليه بأن فرضوا عليه الضرائب على سبيل التخمين، وتارة حاربوه بانتزاع كافة أراضيه أو اثارة الفتن بين افراد عشائره او غير ذلك من الاساليب، ثم حاربوه بأن وقفوا ضده فلم يأت نائباً في المجلس أو عضواً في مجلس الاعيان إلاّ قُبيل وفاته بمدة قصيرة.

كان الشيخ عبد الواحد قد تمرَّد في أوائل سنة ١٩٣٥ في وزارة علي جودت[١٩٧]، إذ تقدم ببعض المطالب الاصلاحية ثم امتنع عن دفع الضرائب حتى تم تنفيذ هذه المطالب. وقد امتاز هذا العصيان المسلح بالهدوء وضبط الأعصاب، فلم تُقيَّد حادثة واحدة اعتُدِي فيها على موظفي الحكومة أو على الأهلين، فالثورة كانت مسلحة ولكنها في غاية الدقة والانتظام مما اثارت اعجاب الناس وأذهلتهم. ولما استقالت وزارة علي جودت ألف جميل المدفعي وزارته[١٩٨] لكنه لم يبق في الحكم غير ١٢ يوماً فقط. لقد طلب من طه الهاشمي[١٩٩]، وكان رئيساً لأركان الجيش موافاته عما إذا كان باستطاعة الجيش التدخل لضرب العشائر المتمردة؟ فأجاب طه بأن الجيش ليس على

---

[197] ألف علي جودت الأيوبي وزارته الأولى في ٢٧ آب ١٩٣٤ واستقالت في ٢٣ شباط سنة ١٩٣٥.

[١٩٨] هي وزارته الثالثة وقد ألفها في ٤ آذار ١٩٣٥ واستقالت في ١٧ آذار من السنة نفسها.

[١٩٩] سبق أن أشار المؤلف الى أنه تتلمذ على طه الراوي حينما كان طالبا في المدرسة الثانوية ببغداد.

استعداد لمثل هذا التدخل. فاستقال جميل وألف الوزارة ياسين الهاشمي[٢٠٠] الأخ الاكبر لطه، ومعه رشيد عالي الكيلاني[٢٠١].

وما أن شكل ياسين وزارته حتى قدم عبد الواحد بغداد مع أرتال من السيارات تعد بالمئات ودخلها مع صحبه وهم مسلحون. وما أن انتهت ثورة عبد الواحد واستقرت وزارة ياسين في الحكم حتى بدأت الاضطرابات في بعض المناطق الثائرة، وقد بدأت بالسماوة حيث كانت ثورة مسلحة يتزعمها خَوّام العبد العباس[٢٠٢].

وكان لا بد من تدخل الجيش، فأوعز ياسين الى أخيه طه بالتدخل. فتدخل هذا الجيش نفسه الذي قال عنه طه بالأمس انَه لا يستطيع التدخل. وأُعلنت الأحكام العُرفية، وتحطمت ثورة خوَّام وحوكم[٢٠٣] وغيره من أبناء عشيرته أمام مجلس عُرفي، فأُعدِم البعض، ولم يعدم البعض الاخر. وكانت قد أُعلنت الأحكام العرفية بمرسوم في سنة ١٩٣٥ لأول مرة في العراق، وقد شملت أكثر أنحاء العراق[٢٠٤].

---

[٢٠٠] هي وزارته الثانية، وقد ألفت في ١٧ آذار ١٩٣٥ واستقالت في ٢٩ تشرين الأول سنة ١٩٣٦. وكان قد تولاها مرة أولى في الأعوام ١٩٢٤-١٩٢٥.

[٢٠١] وزيرا للداخلية.

[٢٠٢] شيخ عشيرة بني زريج، ولد سنة ١٨٩٥ وشارك بعشيرته في الحرب على البريطانيين،وتزعم الحركات العشائرية التي جرت في منطقة (الرميثة)، ثم انتخب نائبا في المجلس النيابي منذ سنة ١٩٣٧ وتوفي سنة ١٩٦٧.

[203] أصيب الشيخ خوام بطلق ناري، وألقي القبض عليه جريحاً، وتمت السيطرة العسكرية على منطقة الرميثة، حيث قامت الحركة، في ١٦ أيار ١٩٣٥(بيان امكتب المطبوعات، نقله عبد الرزاق الحسني، تاريخ الوزارات العراقية، الطبعة السابعة، ج٤ ص١٠٩.

[٢٠٤] أعلنت الأحكام العرفية في منطقة الرميثة في ١١ أيار١٩٣٥، ثم في منطقة الديوانية وفي عفك وفي الشامية.

كنتُ مديراً للمعارف في الناصرية، وكنت أسمع عن ثورة خوّام وأقرأ عنها، وأسمع عن الأحكام العُرفية التي كانت تجري بسرعة ودونما تحقيق ويصدرها المجلس العرفي، وكنت أُدهش لتنفيذ أحكام الاعدام بكثرة وبسرعة. وما كنت أدري أن النار إذا ما شبَّت في دار جاري فلا تلبث أن تلتهم داري.

وما كان يهمني غير شيء واحد، هو أن أنهض بمعارف هذا اللواء الذي هو جزء من العراق، والذي اهمتله الظروف ونسيته عاديات الماضي. كنت شعلة من حماس ونشاط، وما كنت ابذل هذا النشاط في جهة دون اخرى وما كنت ابخل بهذا الحماس على لواء دون آخر. ولم يكن العراق عندي إلاّ بلد واحد وما كنت أُفرِّق بين لواء وآخر. وما كان يدفعني الى العمل غير عامل واحد هو حاجة اللواء الى العمل، فكان اقرب الألوية الى قلبي اكثرهم تأخراً واكثرهم حاجة ودعوة الى العمل، فإني نشأت في بيت لم يعرف التفرقة بين ابناء البلاد الواحدة، وترعرت بين ذراعي والدي وأحضان والدتي وهما يعلماني حب الغير وعمل الخير، ولو أن الصدفة شاءت أن تعينني في لواء السليمانية دون لواء الناصرية لما عملت بنشاط أقل وحماس دون حماسي وأنا في الناصرية. كنت حديث عهدٍ العراق، ولم يمر على مجيئي اليه زمن طويل، وما كنت قد تربيت حسب مقاييس ضيقة وآراء سقيمة ونعرات قتالة. وكنت قد ارتفعت على مثل هذه المقاييس والآراء، وتعلمت أن أرعى المحيط الذي يؤمن بها واشفق على أهله وأبنائه، وأن أنظر إليه بأنه مريض ولابد من معالجته والأخذ بيده، ولا يمكن لمن ينهل من مناهل العلم الصافية أن يبقى يرزح تحت ترسبات الماضي السحيق ويئن من وطأة اثقاله وأوزاره ولا يجد مندوحة إلاّ أن يرتفع بنفسه على عنعناته البالية وقبوره الضيقة.

وكما كان الشيخ عبد الواحد من أنصار ياسين ورشيد عالي، كان الشيخ خوام من أنصار علي جودت وجميل المدفعي ومن ورائهما نوري السعيد[٢٠٥]، وإذا كانت فشلت ثورة خوام في لواء الديوانية فهناك أنصار اخرون في لواء الناصرية. ولم تكد تنتهي ثورة الديوانية بعد حتى نشطت جماعة في الناصرية وعلى رأسها عبد الغني الحاج حمادي ومن ورائها متصرف اللواء أحمد الراوي. كان عبد الغني من جماعة جميل المدفعي وكذلك كان أحمد الراوي وقد ربطت بين عبد الغني وجميل المدفعي روابط متينة وفي مقدمتها رابطة الدم فلعبد الغني أخ اسمه عبد الكريم، وكان انساناً متحمساً ووجهاً من وجهاء الناصرية، وكان من أشد مناصري المدفعي عندما كان متصرفاً للواء الناصرية، وقد قُتل في إحدى المعارك الانتخابية دفاعاً عن سياسة جميل المدفعي. وبقى جميل يرعى هذا البيت ويرعى عميده عبد الغني، ويأخذ بيده الى المجلس النيابي في اكثر الدورات ان لم تكن كلها. ثم تطور نشاط هذه الجماعة واشتدت اتصالاتها ولاسيما بعشائر اهل سوق الشيوخ وما جاورها وهي عشائر الحجيم، وقد عُرفت بشجاعتها وعرف بعض شيوخها بعنادهم وبحبهم لأنفسهم كريسان الكاصد وفرهود الفِندى[٢٠٦]. فهاجمت هذه العشائر سوق الشيوخ وطردت القائمقام والموظفين الآخرين، فالتجأ بعضهم الى بيت

---

[٢٠٥] ذكر السيد حازم المقتي أنه " من أتباع السيد جميل المدفعي أحد رؤساء الوزارات السابقين، وقد طلب من الوزارة (أي وزارة ياسين الهاشمي) أن تستقيل من الحكم، وتعفيه من الضرائب، وتسمح [له] بالاستيلاء على مساحات شاسعة من أراضي الدولة، وطرد الشيخ الموظفين في القصبات وأعلن العصيان الكامل" (العراق بين عهدين، بغداد١٩٩٠، ص٧٨).

[٢٠٦] تنظر إفادتهما عن هذه الحوادث وأسبابها في عبد الرزاق الحسني: تاريخ الوزارات العراقية ج٤ ص١١٠.

محمد حسن[٢٠٧] آل حيدر، واستولت على سراي الحكومة بعد معركة دامية ُقتل فيها جياد الأخ الصغير لريسان. وقد وقفت أُمه بعد مقتله على جثته، والعشيرة تحيط به وبها، وقد نثرت شعرها على كتفيها، وشمَّرت عن ساعديها، ولفَّت العباءة على خصرها، وهي تُهَوِّس.

وكنت – وأنا أكتب للتاريخ بأمانة واخلاص– لا أعرف عن هذه المؤامرات والدسائس شيئاً، ولم تكن لي أية علاقة بها لا من بعيد ولا من قريب، وكنت والنار تضطرم تحت الرماد وتشتد شيئاً فشيئاً لا أعرف غير الواجب وغير المعارف وتسيير أمورها. ولم تكن لي أية مصلحة في مثل هذه الاضطرابات إذ لم أكن من رجال السياسة ولم أكن من محسوبي اولئك او هؤلاء، بل لم أكن أعرف أحدهم، ولم اكن قد وصلت السن الذي أطمع فيها بشيء من الاشياء مما يطمع به عادة رجال السياسة ومن لف لفهم من منصب أو جاه. كنت شاباً لم اتجاوز بعد الـ ٢٥ سنة من عمري، فماذا عساي أن أبغي من وراء الثورة وسفك الدماء. هل كنت انشد وانا في مثل هذا العمر نيابة ولا يمكن للشخص ان يكون نائباً وعمره اقل من ثلاثين سنة. أم كنت أنشد من وراء الثورة أن أكون زعيماً أو وزيراً ولمّا يمض على تخرجي من الجامعة إلاّ بضعة سنوات. لقد كنت حديث عهدٍ في العمل، بل كنت حديث عهدٍ في الحياة نفسها.

كنت حريصاً على الأمن والنظام، وكنت أُنكر على العشائر قيامها بالثورة والاصطدام المسلح وتوريث الويلات على أنفسهم وعلى البلاد. لم أنظر

---

[٢٠٧] هو محمد حسن بن الشيخ باقر آل حيدر، ولد سنة ١٨٨٥، انتخب عضوا في المجلس النيابي، وله ديوان شعر، ومقالات عدة في الصحف العراقية. وتوفي سنة ١٩٤٤.

الى الثورة إلاّ على أنها تخريب ولا يمكن أن تحقق شيئاً إلاّ الويل والثبور، وإلاّ الخسارة والندم.

لقد اضطربت بغداد، فأرسلت قوة من الجيش بقيادة بكر صدقي، عسكرت في الثكنة الواقعة في ضواحي الناصرية[٢٠٨]، واعلنت الأحكام العرفية، وشُكِّل مجلس عُرفي برئاسة اسماعيل حقي الآغا[٢٠٩] وعضوية أربعة حكام، اثنان منهم من العسكريين[٢١٠]، واثنان من الحكام المدنين، وكانا عبود الشالجي وجميل الأورفَه لي وكلاهما من أبناء صفّي في المدرسة وصديق لي. وانتشرت اشاعات تفيد أن العشائر تستعد لمهاجمة الناصرية، وكان المتصرف انذاك ماجد مصطفى[٢١١] إذ كان السيد احمد الراوي قد نقل الى لواء آخر. وقد استدعاني المتصرف وطلب مني أن يساهم الكشّافة من أبناء المدارس مع الجيش والشرطة في حفر الخنادق إذا اقتضى الأمر، فاتخذنا الترتيبات اللازمة لتكون الكشافة على اتم استعداد.

---

[٢٠٨] وصل أمير اللواء بكر صدقي الى الديوانية في ١١ أيار، وفي ١٣ منه تكاملت القوات التي أسندت اليها مهمة القضاء على الحركات المناوئة، وتزوعت على رتلين، أولهما يقوده الزعيم (العميد) عبد الحميد الشالجي، وآخر يقوده الزعيم جميل فهمي، ومعهما كتيبة للخيالة بإمرة العقيد إبراهيم الراوي، وشرعت هذه القوات بالحركة قبل ظهر ذلك اليوم نفسه. ينظر: عبد الجبار الراوي، مذكرات..، بغداد ١٩٩٤، ص ١٣٧.

[٢٠٩] ضابط في كتيبة الخيالة، ترجم له الشهيد صلاح الدين الصباغ فقال: هو عربي من المهمية ببغداد، استغله بكر صدقي وأحيل الى التقاعد في وزارة جميل [المدفعي] بعد أن انتهت أيام بكر صدقي، خدم اسماعيل الآغا في الخيالة، وكنا معا في كتيبة واحدة، وهو صديقي (رواد العروبة في العراق، الطبعة الثانية ١٩٨٣، ص١٠١).

[210] هما الرئيس سعدي مصطفى، والرئيس عادل نجم الدين.

[٢١١] أصبح نائبا عن السليمانية في المجلس النيابي، ووزيرا بلا وزارة في وزارة نوري السعيد الثامنة من ٢٥ كانون الأول سنة ١٩٤٣ الى ٣ حزيران سنة ١٩٤٤.

وكنت قد زرت الثكنة أكثر من مرة، وزرت مع المتصرف بعض الضباط، وكنت على أتم الاستعداد لأساهم بأي عمل من شأنه اعادة النظام، ولا أدري كيف جرى الحديث بيني وبين أحد الضباط وهو.......[٢١٢] عن تمرد العشائر وعدم التزامهم بالقانون والنظام، وكم أسفنا لأن العشائر لا تزال وكأنها تعيش بعقليتها القديمة في زمن العثمانيين حيث لم يكن للقانون صوت يُسمع، وما كان يسمع في أكثر الاحيان إلاّ صوت الرصاص، وكم أسفنا لأن العشائر لم تنتقل من حال الى حال، ولم ترتفع الى مستوى مسؤوليتها الجديرة بالوطن. كنا نعيش في دوامة، وكان الجو متوتراً والوضع متأزماً والاشاعات تقلقنا وتزيد في اضطرابنا. وكان أن وصلنا من سوق الشيوخ بعض الموظفين الذين كانوا هناك اثناء المعارك والذين التجأوا الى بيت محمد حسن حيدر وجيه سوق الشيوخ ونائبها من اكثر دورات المجلس، وقصوا علينا قصصاً وسردوا لنا حوادث، وكان من بين هؤلاء الموظفين بعض المعلمين الذين كانوا يدرسون في مدرسة كَرْمَة بن سعيد. قال لي هؤلاء أنهم يشكرون الله على نجاتهم وإن كانوا قد سُلِبوا كل شيء لديهم، فسُلِبت دراهمهم وألبستهم و(جنطهم) وكل شيء آخر. وقال لي هؤلاء: أتدري من سَلَبنا حتى نَجَونا بجلودنا؟ قلت مَن؟ قالوا لقد سلبنا تلامذتنا، أولئك الذين كنا نُدَرِّسهم ونسهر على تثقيفهم وتربيتهم! فإنهم قالوا لنا: كيف تتركون المدرسة بفلوسكم و(غراضكم)، انكم ستسلبون حتما لأن افراد العشائر سوف لا يتركونكم وشأنكم، وإذا كنتم ستسلبون فلماذا يسلبكم الغير؟ نحن أولى ثم أولى بفلوسكم وأغراضكم. وهكذا سلب الطلاب أساتذتهم! ألم يكن بمقدورهم حمايتهم تقديراً للتربية واعترافاً بالجميل.

---

[٢١٢] بياض في الاصل.

لقد عاشت الناصرية على أعصابها إذ كان الناس في قلق وخوف، يلتجئون إلى بيوتهم عند مغيب الشمس، ويسدون عليهم الأبواب، وهم لا يدرون ما يبيته لهم الليل ولا ما يخبؤه الظلام. وكنت مرة وأنا في طريقي لزيارة الثكنة وإذا بي اسمع طلقات نارية كثيرة، وإذا ببعض الناس يهرولون فزعين، ولما سألتهم عن الخبر أجابوا بأن العشائر قد هاجمت المدرسة! فما كان مني إلا أن ارجع راكضا إذا ما كان الطريق خالياً، أو أن أسرع في المشي دون أن اركض إذا ما كان فيه بعض المارة فلم يكن من اللائق والصحيح أن يراني بعض الناس راكضاً فزعاً نحو بيتي. كان الجو مكهرباً والأعصاب متوترة وقد تؤدي حادثة من هذه الحوادث البسيطة إلى انتشار الفزع والخوف والى الهياج واضطراب الأمن.

قصة اعتقالي

كان رشيد عالي قد زار الديوانية بعد إلقاء القبض على خوام، ثم زار الناصرية وهي تغلي بعد أن سقطت سوق الشيوخ. كانت زيارته للتفاهم مع بكر صدقي للقضاء على الثورة قبل أن تتسع ويستفحل أمرها. كنت من بين الذين استقبلوه، وبعد ان انفرد بالمتصرف وبكر صدقي اجتمعنا به ثانية في دائرة المتصرف وقد مدحني أمام المتصرف وبعض الموظفين واني لأتذكر بعض كلماته، ومنها قوله: إذا كانت هناك أمور تحزنني وأنا اقوم بهذه الجولة فهناك أمور أخرى تُسرّني. لقد وجدت الموظفين يقدرون مسؤولياتهم ويخلصون للحكومة، ويسرني أن أجد مدير معارف اللواء وهو شاب مثقف يشارك الحكومة رأيها ويساهم بأعمالها.

ولم يبق رشيد عالي في الناصرية إلاّ بضعة ساعات، ولم يمر على امتداحه لي إلاّ ساعة، حتى أتى إليَّ مدير شرطة اللواء وأنا في دائرة عملي، وقد ظننته يقوم بزيارة لي على عادته إذ كنا نتبادل الزيارات بين حين وآخر، وما أن استقر به المقام قليلا حتى قال: أنتَ لا تعرف مقدار أسفي بل انا لا أعرف ما أقول، وما أتيتك هذه المرة زائراً. ثم قال: ولم أشاهد طول حياتي شيئاً عجيباً مثل الذي شاهدته. لقد امتدحك وزير الداخلية، ولكنه وهو يهم بترك لواء الناصرية أصدر أمراً بضرورة توقيفك! قلتُ: توقيفي أنا!؟ قال: نعم! كان الخبر مفاجأة اذهلتني قليلاً، وكنت كمن يضرب على رأسه وهو غافل فيغيب قليلاً ثم يعود الى نفسه. كانت مفاجأة لم أتأكد من صدقها، فكل شيء ربما خطرعلى بالي إلاّ هذه المفاجأة. قلت: هل أنت متأكد؟ هل يجوز هذا وقد سمعت أنت كيف مدحني الوزير قبل ساعة؟ هل يخطر على بالك أن مثلي من يُوقَّف؟ هل عملت شيئاً؟ وماذا عساي أن اعمل، هل ارتكبت ذنباً؟ وماذا عساي أن أرتكب؟ كنت واثقاً من براءتي لأني أعرف في قرارة نفسي انني لم أعمل عملاً إدّا، ولم أقترف ذنباً، وهذه الثورة أنا أُنكرها ولا أُقرّها، وما شأني بالسياسة وأنا أبعد الناس عنها؟ وهل يمكن لمن كان يثق بنفسه ويؤمن ببرائته إلا ان يتحمل الصدمة بهدوء ويتلقى المفاجأة برباطة جأش وبرودة دم. قلت والابتسامة لم تفارق شفتاي: هل تسمح بأن أذهب الى البيت لأخبر والدتي العجوز واخوتي الصغار بالأمر، وأخذ معي بعض ما أحتاجه. قال: أنا آسف، وقد أُمِرتُ بأنه لا بد من اقتيادك حالاً إلى الموقف.

واقتادني من الدائرة الى الموقف، وقد سار وراءنا معاون شرطة، وبعض افراد الشرطة. ولم أكن ادري أنهم كانوا واقفين خارج الدائرة عند الباب عندما كان مدير الشرطة يبلغني خبر القاء القبض عليَّ.

كنت أول الموقوفين وأول الداخلين إلى مَوقِف الناصرية، وهو جزء من السجن الذي كان لا يليق حتى بالحيوانات. وكان ذلك على ما اتذكر في أواخر شهر مايس أو أوائل شهر حزيران سنة ١٩٣٥. دخلت المَوقِف ولما يمض عليّ الا زمن قصير حتى بدأ الموقوفون يدخلون عليّ جماعات، وكان من بين الجماعة الاولى التي دخلت عليّ عبد الغني الحمادي وخيري مدير الطابو وعبد الوهاب الركابي مدير المتوسطة وشاكر ناصر حيدر احد مدرسيها، وآخرون وآخرون من الكَسَبَة والتجار من الناصرية وسوق الشيوخ، وكان من بينهم الحاج حسين الحمادي، وهو رجل قد تجاوز الستين ويمت بصلة القربى الى عبد الغني الحمادي.

وأدخلونا فيما يشبه القبو، في غُرَفٍ صغيرة مظلمة إلاّ من نور ضئيل ينفذ من شباك صغير بالقرب من السقف، ولعل هندسة الغرف على هذه الصورة جعلتنا لا نشعر بالحر كثيراً، ولا شك في أنها تكون عَفِنة باردة اثناء الشتاء. وكنت أفكر ونحن في مثل هذه الغرف ما آلت حالنا وتدنى إليه وضعنا، وكنت افكر في الذي حدث، وهل يمكن ان يحدث بدون سبب؟ وما عسى أن يكون هذا السبب.. لقد فكرت وفكرت واستغرقت في هذا التفكير حتى انتهت في بحر منه. لقد انعزلت عن اخواني وشعرت كأنني وحدي وانفردت بنفسي لعلني اقف على شيء اذ اهتدي الى سبب. وفطن القوم اليّ وأنا ملقى على فراشي على الارض واجماً، لا أُكلِّم أحداً، شارد الذهن والقلب إلاّ مع نفسي، وإذا ببعضهم يسألني: لماذا انت ساهم واجم؟ ولماذا كل هذا التفكير؟ فلم أزد في جوابي على كلمة: لا شيء!

لم يخطر على بالي أن يكون النشاط والحماس والعمل جرم! ولم يخطر على بالي أن يكون فتح المدارس وبناء المدارس ومكافحة الأمية جرم! ولم أدرك أن العمل لزيادة عدد الطلاب وعدد المدرسين ذنوب لا تغتفر!

وإذ كنت واثقاً من نفسي وواثقاً من براءتي فممن إذن أخاف؟ وعلام اقلق؟ ولم اكن ادري ان البراءة وحدها لا تكفي لانقاذ صاحبها من السجن او من الموت. لم أكن أقلق من شيء حتى دفع إلينا أحد العامة من الناس، فقال: أتعرفني؟ قلت: لا، قال: أنا فلان الذي اشتغلت عندكم (طوّاف) وأنا الذي بنيت سياج المدرسة الفلانية والمدرسة الفلانية (بالطوف)، ما شأني والسياسة ما شأني والثورة!؟ واذا بهذا الرجل، بعد يومين او ثلاثة وقد حوكم امام المجلس العرفي، قد دفع إلينا مرة اخرى ولكن لا ليبقى معنا بل ليقضي ليلته في غرفة صغيرة مظلمة قيل أنها غرفة الاعدام! ثم غاب عنا ولم نَرَه. وقد تكرر الحادث أكثر من مرة مع أكثر من شخص من هذا النوع ومن كان على شاكلته. وشعرت ولأول مرة في حياتي أن البراءة وحدها ليست بالحُصن المنيع الذي لا يُخترق، ولا يكون الإنسان في منجي من الخطر أو من الموت وان كان يتحصن بها.

كانت المصادقة على عقوبة الإعدام من حق الملك فقط بحسب أحكام الدستور، ولا يمكن نقلها إلى أي سلطة أخرى، غير أن بكر صدقي بالرغم من هذا كله مارسها، وقد قيل أنها نقلت إليه خطأ بموجب أحكام مرسوم الإدارة العرفية لسنة ١٩٣٥. وكان المجلس العرفي قد اصدر أحكام الإعدام بجلسات قصيرة وسريعة بحق عدد من عامة الناس، وقد يكون الكثير منهم لا يعرف عن الثورة شيئاً، وكان بكر صدقي قد صادق على هذه الأحكام بسرعة ونفذت في حينه بسرعة أيضاً. لقد أثارت هذه الأحكام وسرعة تنفيذها ضجة كبيرة

في بغداد حتى انتبهت السلطات القضائية بأنه لا يحق لغير الملك مهما كانت الظروف والأحوال استعمال صلاحية المصادقة على أحكام الإعدام، فأبرقت إلى بكر صدقي تسلبه صلاحية الموت هذه.

كنت قد تَوَقَّفتُ في المَوقِف نحواً من أسبوعين استدعيت خلالها مرة أو مرتين أمام هيئة تحقيقية، وكان أن طلبت مواجهتي بعد مرور نحو عشرة أيام زمرة من وجهاء الناصرية والأصدقاء، وعلى رأسهم زامِل المنّاع[٢١٣]، فالتقيت بهم في غرفة مأمور السجن. وكان زامل المناع شيخاً يكاد يكون بدوياً وإن كان يملك كثيرا من اللباقة وحلاوة اللسان، وجيهاً ومتنفذاً بالرغم من صِغر عشيرته، وعضواً في المجلس التأسيسي ونائباً في اكثر دورات المجلس. وكانت زيارة مجاملة عبر فيها الأصدقاء كثيراً عن أسفهم وألمهم وعن تمنياتهم بالفرج القريب.

لقد حضرت أمام هيئة التحقيق مرة أو مرتين على اكثر الظن، وكانت هذه الهيئة يرأسها حاكم الناصرية المنفرد السيد عبد الرحمن خضر[٢١٤] الذي قد نقل إلى اللواء منذ مدة ليست بالطويلة، كنا قد تعارفنا وتزوارنا، وقد استعار مني - بعد أن توطدت العلاقة - بضعة كتب لم يَرِدَّها لي بالمرة. لا أتذكر تماماً كافة التهم التي أسندت اليّ ولكني أتذكر قسماً منها. لقد استشعرت أن محور التحقيق كان يدور حول نقطتين أساسيتين، أولهما: أني كنت أثير شعور البغضاء والتفرقة بين الناس! أي إنني كنت ثائراً، وهل

---

[٢١٣] زعيم قبيلة الأجود، ولد سنة ١٨٨٢، انتخب عضوا في المجلس النيابي في دورات عدة، توفي سنة ١٩٥٤.

[٢١٤] ولد سنة ١٨٩٨ ودرس القانون، وشارك في ثورة ١٩٢٠ وجرح فيها، ثم شغل مناصب قضائية عدة آخرها رئيس مجلس التمييز الشرعي، وله مؤلفات مهمة منها شرحه لقانون أصول المحاكمات الجزائية البغدادي، وشروح لقوانين أخرى، وأصدر، عدداً من المجلات القانونية. توفي سنة ١٩٥٧.

هناك أفجع وأبشع من هاتين التهمتين؟! ولكي أكون ثائراً او محرضاً الناس والعشائر على الحكومة فلابد من الدليل، وكان الدليل هذا ينحصر في بعض التهم وهي:

أولا: أنني قد تجولت بين عشائر سوق الشيوخ وعشائر الحمار(ويشيرون بذلك إلى سفرة الزورق البخاري) قبل نحوٍ من سنة، ولم تكن هذه السفرة جولة تفتيشية فحسب بل كانت تمهيداً لإثارة الناس، والدليل على هذه الإثارة أنني كلَّمت أحد المعلمين في مدرسة الحمَّار، وهو المدعو حسن البصري، وطلبت منه بث فكرة التمرد. وكان جوابي أن الثورة لم تقع في منطقة الحمَّار إنما وقعت في منطقة أخرى. وإن السيد حسن البصري لم يكن قد نُقل إلى مدرسة الحمَّار عندما قمت بجولتي التفتيشية هذه، بالإضافة إلى أنني لا أعرف هذا المُعلِّم بأي شكل كان، ولم تكن تربط بيني وبين أية صلة، فكيف يجوز لي أن أفاتحه بمثل هذه المواضيع الخطيرة، وهل قام السيد حسن بأي دور من الأدوار؟ ولماذا لا يكون هو مسؤولاً عما قام به؟ وما كانت اتصالاته؟ ومن هم الأشخاص الذين طلبنا منهم التمرد وما إلى ذلك من الأمور. ولم يكن من المهم لدى هيئة التحقيق أن تستمع إلى المنطِق وأن تدقق التهمة أو أن تنفيها أو ما شابه ذلك، إنما كل ما كان يهمها هو وجود التهمة مهما كانت متهافتة كاذبة.

ثانياً: لقد اتهمتُ بأن كانت هنالك معرفة بيني وبين رَيْسان الكاصِد وفرهود العِنزي وهما رئيسا الثورة، وقد تعرفت عليهما في هذه الجولة أيضاً. فكان الجواب: إنني لا اعرف ريسان ولا فرهود ولم أرهما في حياتي ولم ألتقي بهما في جولتي، وقد ظهر أنهما كانا في بغداد أثناء هذه الجولة. والحقيقة وأنا اكتب للتاريخ هي انه لم تكن لي أية صلة بهما ولم أعرفهما لا

بالاسم ولا بالشكل، ولم ألتق بهما إلاّ بعد انتهاء الثورة بأربعة سنوات في دائرتي في وزارة المالية عندما قَدِما مع المرحوم الشيخ محمد حسن حيدر نائب سوق الشيوخ، إذ زارني هذا الشيخ المحترم ذات يوم ومعه شيخان من شيوخ العرب لم أرهما في حياتي من قبل، وقال لي: أُقدم لك زميليك في الثورة: ريسان وفرهود.

ثالثاً: لم أكن أدري أن زيارتي للسيد عبد المهدي مع الدكتور فاضل وبقية الرفاق الذين قدموا من بغداد أيام عطلة العيد كانت مبعث شك وريبة وموضع استفسار وتحقيق، فقد سئلت عن هذه الزيارة التي لم تكن بأكثر من زيارة مجاملة.

رابعاً: كانت إحدى المدارس الابتدائية قد مثّلت رواية الاستقلال، وكان بطل هذه الرواية يُدعى عزّام. وكانت حوادث هذه الرواية تدور في شمال أفريقية، حيث تقوم ثورة يقودها البطل عزّام ضد الطغاة الفرنسيين. فاتهمني المحققون بأني اخترت تمثيل هذه الرواية لكي أوحي إلى الأهلين بضرورة الثورة، لا سيما وأنها قد مثلت أثناء ثورة الديوانية، وان اسم بطلها عزّام يطابق اسم قائد ثورة الديوانية خوّام. والجواب: إن هذه الرواية كانت قد مثَّلَتها فرقة يوسف وهبي في بغداد، وأنني لم اختر هذه الرواية، ولم أطلب تمثيلها، إنما المدرسة الابتدائية هي التي اختارت هذه الرواية ولم يكن من صلاحيتي الموافقة عليها، بل جرت الأصول أن أرسل كتاب المدرسة مع نسخة من الرواية إلى المتصرفية للموافقة عليها، وان المتصرفية لا ترسل كتاب الموافقة إلا بعد تدقيقها من قبل مديرية شرطة اللواء والمصادقة عليها. وبعد الانتهاء من هذه المراسيم كلها وبعد أن تأتي موافقة المتصرف، وعند ذاك فقط، أرسل موافقتي وهي شكلية على كل حال إلى المدرسة. ولما مُثِّلت الرواية

حضرتها حكومة اللواء وفي مقدمتها المتصرف ومدير الشرطة والحكام (إلا عبد الرحمن خضر الذي لم يكن قد نُقل إلى اللواء بعد) وغيرهم من الموظفين، فلو كان هناك شيء في هذه الرواية يمنع تمثيلها فهل أكون أنا مسؤولاً وهل لا يكون غيري هو المسؤول، ولذا طلبت المتصرف ومدير الشرطة شاهدين.

خامساً: كانت متوسطة الناصرية قد أقامت حفلة خطابية وقد خطب فيها بعض الطلاب ثم ألقى أحدهم، وهو عبد المحسن القصاب، قصيدة باسم الفلاح، وهي قصيدة مشهورة لأحمد الصافي النجفي[٢١٥] تتطرق إلى أوضاع الفلاح المتأخرة وتنشد إصلاحها، والقصيدة جميلة وهي غير ممنوعة ومنشورة في ديوانه. لقد حقق معي عبد الرحمن خضر سائلاً إياي: لماذا حضرت مثل هذه الحفلة الخطابية؟ ولماذا وافقت على ان تلقي فيها مثل هذه القصيدة التي كانت تدعو الى تحريض الناس على الثورة على حد زعمه؟ ولماذا لم اتخذ اجراءً ضد الطلاب.

أرأيت هذه التهم وتفاهتها وغرابتها! أرأيت كم هي واهية باطلة وملفقة كاذبة. أرأيت كيف تعب المحقق وقد أعماه الغرض ليجمع من هنا وهناك شتاتاً من الأكاذيب والأباطيل علها تصلح لأقف بسببها أمام المجلس العرفي وتصلح أن تكون أساسا للجريمة والعقاب.

وقفت أمام المجلس العرفي في جو رهيب وكئيب، أمام عالَمٍ مجهول لا أعرف كيف أنفذ إليه، ولا أدري ما هو مصيري. أعيدت عليّ الاتهامات الباطلة واحدة فواحدة ودافعت بها عن نفسي واحدة فواحدة كما جاء في محضر التحقيق وكما خطر على بالي أثناء المرافعة. كانت التهم متهافتة

---

[٢١٥] شاعر مبرز، ولد في النجف سنة ١٨٩٧، وله مواقف وطنية ضد البريطانيين، ناصر ثورة ١٩٤١، واعتقله الفرنسيون في لبنان بطلب من البريطانيين، توفي سنة ١٩٧٧، ولد دواوين عدة.

واهية من أساسها فلم أحتاج إلى كثير من العناء لتحطيم هذا الأساس لتنهار وتهوى. ولا اتذكر كم من الوقت وانا في قفص الاتهام، وربما كان نحوا من ساعتين صدر على اثرها قرار الحكم الذي نطق به الرئيس وينص على براءتي لعدم وجود أي دليل للادانة.

خرجت من المجلس وذهبت لتوِّي إلى والدتي وأخويَّ الصغيرين، ومن ثم داومت في الدائرة واستأنفت عمليّ. وقد أُعجب الرئيس بدفاعي حتى قال عني أن هذا الشاب لم ينقذه من السجن إلاّ (نطقه)، فهو اذن قد أُعجِب بنُطقي ومنطقي. ولكن هل هما اللذان أنقذاني؟! هل يساعد هذا النطق على اثبات براءتي التي لا يتسرب إليها الشك؟

كان خيري مدير الطابو أحد الذين توقفوا معنا وكان أحد شهود عليّ، ولكني خرجت من الموقف بريئاً وقد خرج هو أيضاً من الموقف بريئاً في اليوم نفسه، غير أنه أُبقي في الموقف مع من بقي، ومنهم عبد الوهاب الركابي مدير المتوسطة آنذاك، وقد استنجد بي كثيراً للعمل على اخراجه، وكنت واثقاً من براءته، وأعرف أن خيري هو أحد الشهود عليّ، ولربما في قضايا أخرى، فذهبت إليه في دائرته صباح ذات يوم لكي أوصيه بمدير المتوسطة خيراً، فوجدت عنده بعض الناس يهنئونه بخروجه من الموقف، فانتظرت حتى يخرج الناس، فلما طال الانتظار ولم يخرج الناس، كتبت له ورقة قلت فيها: أخي خيري أرجو أن تعامل مدير المتوسطة كما تعامل أخيك الصغير، ومن يعمل مثقال ذرة خيراً يره. وقد مزَّق خيري الورقة أمامي ورماها في سلّة المهملات، وأجابني بكلمة: طيب، وما يكون إلاّ خير. ثم خرجت من الدائرة، وما أن هلَّ عصر ذلك اليوم حتى استدعاني المتصرف إلى دائرته ثم بادرني وهو غاضب: ما هذا يا مجيد!؟ لماذا تتدخل في أعمال المجلس

العرفي؟ قلت: ماذا حدث؟ وقد أخذَت الغرابة مني مأخذها، فأخرج ورقة من ملف وقال: أنظر! واذا بها الورقة التي تَوَسَّطتُ بها لدى خيري من أجل مدير المتوسطة، تلك الورقة التي مُزِّقت أمامي غير أنها جمعت قصاصاتها ثانية على ورقة كبيرة ولُصِّقت ببعضها. قلت: لكن أي شيء في هذه الورقة وكانت قد مُزِّقت أمامي على كل حال، فكيف جُمِعت؟ ومن جمعها؟ قلتُ: أردت أن لا أتورط في الكتابة فتورطت. لم أشأ أن أُكَلِّم خيري أمام الناس ورغبت أن يكون الأمر سراً بيننا، ولو خرج الناس من عنده لكلمته شفاهاً، ولما كتبت هذه الورقة. قال: لقد كان بعض أهل الخير في الدائرة عندما كتبت الورقة وعندما مزقت، ولكنك ما أن خرجت حتى أُخرجت من سلة المهملات ولصقت ببعضها كما تراها. وقال: لقد غضب بكر صدقي منها غضباً شديداً، وإنه ثائر الآن ويريد إعادة محاكمتك. قلت: ماذا تقول! وأي جُرمٍ ارتكبت؟ قال: لا أدري، ومن الخير لك أن تراه وتعتذر منه. قلت: لكن كيف وأنا لا أعرفه، ولم أره من قبل؟ قال: هيا معي إلى البيت فنحن على موعد لشرب الشاي سوية، وكان ذلك في نحو الساعة الخامسة مساءً. وفي الطريق قال لي: اسمع يا مجيد! هل تدري أن الناس لا يأتون إلى (العُرفي) لاثبات براءتهم، لأن العُرفي هو لتجريم الناس واصدار الأحكام القاسية بحقهم، إنه شكل لاستتاب الأمن واعادة هيبة الحكومة. وقد كنتَ أول شخص برّأه العُرفي ولعلك لا تدري كيف بُرِّئت. لقد بُذلت جهود كبيرة من جهات مختلفة لتبرئتك، بل تدخلت بغداد بشدة.

ولم أكن أعرف بكر صدقي، ولم أكن قد رأيته من قبل، ولكني سمعت عنه الشيء الكثير، ولا سيما في حركات الآثورين التي قد وقعت منذ نحو

سنتين من هذه الحركات[216]. لقد سمعت انه كان قائداً قديراً ولكنه كان صارماً قاسياً، وانني كنت قد أحببته لأنه استطاع الانتصار على الآثوريين بعد أن عاثوا في الارض فساداً وجحدوا نعمة الوطن عليهم، غير أنني كنت نفرت واشمئززت مما سمعته عنه من ارتكابه بعض الجرائم المنكرة. كان هذا القائد قد اشتهر بكلمة: خُذُوه للونْسَة! وكانت هذه الكلمة تعني خذوا الأسير بعيداً في السيارة واقتلوه. لقد أُشيع أن عدداً غير قليل من الاثوريين كانوا قد قُتلوا بهذه الإشارة. وكانت الحكومة العراقية تَكَرُّماً منها قد آوت عدداً غير قليل من الآثوريين وأقطعتهم مساحات كبيرة من أجود الأراضي العراقية في الشمال، وأسكنتهم، ومدَّتهم بأنواع المساعدات المالية، ولم يكن يخطر ببال أحد أن يُقابَل هذا الفضل الكبير بجحود عظيم ونكران كبير. فلقد أنكروا النعمة وجحدوا الفضل، وبدلاً من أن يكونوا مواطنين صالحين ثاروا ضد الحكومة بقيادة المار شمعون، وسببوا خسارة عظيمة للوطن في الأموال والأرواح. وإذا كان لابد من القضاء على هذه الثورة الانفصالية التي لم يكن لها ما يبررها، والتي ارتكب فيها الثوار افظع الجرائم واقبح المنكرات، فلم يكن هنالك ما يبرر قتل الأسرى، ناهيك عن قتلهم دون محاكمة. إن محاكمة الناس والاقتصاص منهم من حق القضاء العادل وحده، ومن حق القضاء الذي يجب أن يكون مستقلاً، وأقوى من الاعتبارات السياسية.

ولما التقيت بكر صدقي لم أشعر أن هنالك خصومة بيني وبين شخصه بالرغم مما أصابني، بل شعرت نحوه بشعور فيه كثير من الود، وقد بينت رأيي في هذه الثورة، وقلت: لم يخطر ببالي أن يقع لي ما وقع مما قد يسبب خصومة بيني وبينك، في الوقت الذي يجب أن يكون نسيان هذا، ولا سيما

---

216 حدثت هذه الحركات سنة ١٩٣٣م.

أنني قد أُعجبت بك من قبل، وأنني - وإن كنت لم أرك قبلاً - عرفتك، ولا سيما عن طريق ثورة الآثوريين. وأتذكر أني استشهدت بالبيت المشهور: والاذن تعشق قبل العين أحياناً. لقد ابتسم بكر صدقي ورحّب بيٌ بعض الترحيب وشربنا الشاي سوية، ولكنه قال: إننا في ثورة، وإننا في معركة دموية، ولابد من السيطرة عليها واعادة النظام بأي ثمن كان، ولا يمكن أن نفسح المجال لأحد أن يكون سبباً من أسباب الاضطراب.

كان عبد الرحمن خضر وراء القضية كلها، وكنت أشعر أنه لا يريد من ورائها إلاّ الصاق التُهمة بي وإثباتها عليّ. هذا الرجل هو حاكم مدني بل أنه رئيس المحكمة في الناصرية، وهو الرجل الذي يمثل القانون في نزاهته والقضاء في عدالته.

وكان أن استدعاني المتصرف مرةً اخرى في نحو الساعة السابعة مساءً ولم يمضِ على افتراقنا أكثر من ساعة، فقلت في نفسي: ما الخبر هذه المرة؟ ألم تُسوّي القضية بعد؟ أم هل من وشاية جديدة؟ وما أن وصلت الى دار المتصرف وكان بكر صدقي قد تركها، إلاّ وقال لي: يا مجيد! إن بكر صدقي وإن كان قد أعجبته شخصيتك وراقه حديثك وأثّر فيه كلامك، وإن كان قد غيَّر رأيه عن توقيفك مرة أخرى وإعادة محاكمتك، غير أنه أصرَّ على نقلك من هذا اللواء الى لواء الموصل. ثم قال: وقد يكون الخير فيما فعل، فإن مديرية معارف لواء الموصل مهمة ولا يشغلها إلا القدامى والكفء من مدراء المعارف، وأنها على كل حال بعيدة عن منطقة الحركات، ولابد من من أن تتهيأ للسفر في الصباح الباكر من يوم غدٍ وبدون تأخير. قلت: ولكن كيف أنقل معي والدتي وأخويَّ الصغيرين وابن خالتي ومتاع البيت بمثل هذه السرعة؟ قال: ما عليك من هذا، فإني أعدك بأني سأسَفِّرهم وراءك وهم

بأحسن حال، ثم قلت: ولكن الطريق مقطوع! وان الناصرية محاطة بالماء من كافة جهاتها. قال: لابد اذن من تسفيرك بالطائرة إلى (أور) ومن هناك تأخذ القطار الى بغداد. وفي الصباح الباكر من أحد أيام حزيران دَقَّ علي باب الدار معاون شرطة اسمه عبد الكريم، وهو مربوع القامة يميل الى القصر، أسمر اللون غامقه، قد أمضى سنوات عديدة من حياته في مهنة التعليم ثم انتقل منها الى سلك الشرطة. كان يعرفني ويحترمني لا سيما وأنا رئيس دائرة في اللواء وهو ليس بأكثر من معاونٍ بنجمة واحدة أو نجمتين على كتفه. قل: ماذا تريد؟ قال: هيا بنا إلى المطار وقد جلبت لك سيارة عسكرية! قلت: وما شأنك أنت؟ فأبتسم وقال: أنا آسف إذ لابد من اصطحابك الى بغداد مخفوراً. قلت: سبحان الله! كنتُ قد تصورت أن كل شيء إنتهى وأني قد نقلت الى لواء آخر ولم يبق للسلطات العسكرية شأن بي. ثم قلت: هيا بنا، وإذا لم يكن من الخفارة بُدّ فأنتَ ولا غيرك. ذهبنا إلى المطار، وركبنا أنا وإياه فقط طائرة عسكرية قطعت بنا مناطق المياه وأوصلتنا أور. ولا أنكر فضل هذه الاجراءات العسكرية عليَّ إذ لولاها ما ركبت الطائرة لأول مرة في حياتي. فلم أكن قد رأيت الطائرة من داخلها، ولم أكن قد ركبتها بعد، وإن كنت قد هممت أكثر من مرة بركوبها عندما كنت في كاليفورنيا حيث كان بعض الناس يطيرون بها ولا سيما عند الأعياد بأجور زهيدة. ولكم دهشت وأنا أطير في الطائرة التي لم تُحلِّق عاليا على كل حال، وانشغلت بمنظر المياه التي تحتنا والتي جعلت من الناصرية وكأنها جزيرة صغيرة في بحر ضخم، ولم أنتبه إلاّ والطائرة تهبط شيئا فشيئاً، ومع أني لم أحس باضطراب في معدتي أو دوار في رأسي ونحن نُحلِّق إلاّ قليلاً، ونحن نصعد، ولكني أحسست بهما كثيراً ونحن نهبط. أخذنا القطار ليلاً ووصلنا بغداد صباحاً، ووجدت أهلي وأخوتي يتقدمهم

أخي غني في المحطة، وذهبنا رأساً الى مدير شرطة بغداد وكان آنذاك وجيه يونس[٢١٧]، ثم ذهبنا الى معاون مدير الشرطة في العبّاخانة[٢١٨]، وكان آنذاك علي الحِجازي[٢١٩]، وقد طلب مني الحضور الى الدائرة يومياً للتوقيع في دفتر خاص باعتبار كوني تحت مراقبة الشرطة حتى يتم ترحيلي الى الموصل، وكان كثير من المراسلات الخاصة أو الرسمية الموجهة لي قد سبقتني إلى الموصل مما أثار ثائرة مدير المعارف هناك السيد عاصم الجلبي[٢٢٠] التي كانت الموصل تُعد منطقته الخاصة به، أو كأنها مسجلة طابو باسمه ولا يمكن لأحد أن يتحرش به وينقله منها إلى غيرها بسهولة، وقد اعتبر اجراءات الثورة هذه ماسة بحقه، وتشبث بمختلف الطرق للبقاء فيها.

الاقامة في بغداد

ذهبت في اليوم التالي إلى وزارة المعارف فزرت فيها مدير المعارف العام أخي وصديقي الدكتور الجمالي، ثم زرت وزير المعارف آنذاك الشيخ محمد

---

[٢١٧] ولد في الموصل سنة ١٨٩٨ وتوفي سنة ١٩٦٥.

[218] كانت دائرة (معاونية شرطة العباخانه) تحتل داراً كبيرة تقع في أحد الأزقة النافذة من شارع الرشيد إلى شاطئ نهر دجلة في محلة العباخانه، القريبة من محلة السنك، وما زالت هذه الدار قائمة وإن غادرتها تلك الدائرة منذ عدة عقود من السنين.

[٢١٩] هو علي محمد خالد المعروف بالحجازي، ضابط شرطة يمت بنسبه الى الأسرة الشريفية الحاكمة، تدرج في وظائف مسلكه حتى صار مديرا عاما للشرطة، ولكنه عزل وسجن بسبب محاولته القيام بانقلاب عسكري وهو مخمور.

[٢٢٠] أحد رواد التربية والتعليم في العراق، ولد سنة ١٨٩٣ وتخرج في الكلية الملكية في استانبول سنة ١٩١٣، وعاد الى وطنه حيث تقلب في المناصب الإدارية والتربوية، حتى صار مديرا لمعارف الموصل، ولمعارف بغداد.

رضا الشبيبي[٢٢١]، وأخبرته بأني أتهيأ للسفر الى الموصل بعد بضعة أيام، وانني بانتظار عائلتي التي لا تزال في الناصرية والتي قد تسافر الى بغداد قريبا، ولولا انقطاع القطار عن الناصرية بسبب المياه المحيطة بها لسافرت من قبل. وكان الشيخ محمد رضا قد اتصل بي وأنا في الناصرية أكثر من مرة بحكم الوظيفة، وكنت قد كتبت له كتابا أطلب منه ترفيعي درجتين أسوة ببعض الرفاق وتعويضاً لي عما لحقني من خسارة عند أول تعييني، وقد أجابني بكتاب رسمي بالموافقة حينما يأتي وقت الترفيع، والذي سيحين بعد بضعة أشهر. وقد اتصل بي في أثناء الثورة، وقبل توقيفي، واستفسر عن حالة المعارف، وعما إذا كانت الثورة قد تعرضت الى سير التدريسات، ثم سأل عن الحالة بصورة عامة، وقد أجبته بما يتناسب والحالة السائدة آنذاك.

قَصَصت على الشيخ قصتي عندما زرته في دائرته، وما لحقني من آذى وما لحق غيري من عَنَت وارهاق، ورويت له قصة المعارف المظلومة في اللواء، وقصة المدارس المتأخرة، وقلة المعلمين والمعلمات والطلاب والطالبات، وقصصت عليه كيف تجوَّلتُ في كل بقعة ومكان، وكيف بذلت الجهد لبناء المدارس في مختلف أنحاء اللواء، وكيف زِدت عدد المدرسين والطلاب، كما قصصت عليه – بكل أمانة واخلاص– ابتعادي عن العشائر والثورة، وعدم وجود أية علاقة أو معرفة بيني وبين زعماء الثورة ورجال القبائل. وكان الشيخ ينصت إليَّ باهتمام وقد أطرق برأسه وتيَبَّس وجهه وتغضَّن جبينه، ثم رفع رأسه وأجابني بصوت هادئ رزين قد خالطه الشيء الكثير من الألم الدفين: وكيف تسافر الى الموصل وفيها مدير معارف لواء، ونحن على كل

---

[٢٢١] ولد سنة ١٨٨٩ وشارك في محاربة القوات البريطانية المحتلة سنة ١٩١٤، وسافر الى الحجاز للاتصال بالشريف حسين سنة ١٩١٩، واختير وزيرا غير مرة، ورأس المجمع العلمي العراقي حتى وفاته سنة ١٩٧٥ وله مؤلفات عديدة في اللغة والتاريخ.

حال بحاجة إليك في بغداد؟ قلت: وبكر صدقي وعبد الرحمن خضر! قال: سأحصل على موافقة رئيس الوزراء ووزير الداخلية على بقائك في بغداد، وقد اتصل بهما فعلا تلفونياً من دائرته واستحصل موافقتهما، ثم صدر أمر وزاري بالقيام بمهمة خاصة في ديوان الوزارة، وكانت المهمة مساعدة مدير التعليم الثانوي في شؤون الامتحانات العامة والملاك الثانوي، وكان المرحوم محيي الدين مديرا للتعليم الثانوي ومديرا للامتحانات، وقد أرسلت صورة من هذا الأمر إلى دوائر مختلفة، منها متصرفية لواء المنتفك، والقيادة العسكرية لتلك المنطقة.

بقيت في بغداد نحواً من اسبوعين مشغولاً بالمهمة التي أُنيطت بي إلاّ من الذهاب كل يوم مرة واحدة إلى معاونية شرطة العبّاخانه للتوقيع، وكان السجل في الطابق الثاني، وإذ زلت قدمي قليلاً يوماً رَجَوتُ المعاون أن يكون السجل في الطابق الأسفل لأنني لا أستطيع صعود السلم بسهولة. كنت قد ساعدت محيي الدين في اعداد الملاك الثانوي كما ساعدت كثيراً في موضوع الامتحانات العامة، وبينما نحن منهمكون في مثل هذه الأعمال المُضنية، شاعت اشاعة مفادها سرقة أسئلة الامتحان في موضوع من المواضيع فأنيط أمر التحقيق بي. وكان تحقيقا مُضنياً عادلاً نزيهاً، كيف لا وقد مررت بتجربة التحقيق غير العادل النزيه قبل مدة قصيرة فقط من وقوع هذه الحادثة، واستغرق التحقيق بضعة أيام حتى توصلت إلى السارق، وكان كاتب طباعة يعمل في دائرة الدكتور متي عقراوي[٢٢٢]، ولم أكن أدري، وأنا أواصل العمل ليل نهار، ما كان يجري في الخفاء وما كان يدور حولي في الكتمان، وما

---

[٢٢٢] ولد في الموصل سنة ١٩٠١ وتخرج في الجامعة الأمريكية ببيروت، وواصل دراسته في الولايات المتحدة حيث حصل على شهادة الدكتوراه من جامعة كولومبيا، أسندت اليه رئاسة جامعة بغداد، وانتخب عضوا في المجمع العلمي العراقي، وله مؤلفات في التاريخ والتربية.

كنت ادري أن هذا الأمر الوزاري قد جلب البلاء على رأسي، إذ أخذه عبد الرحمن خضر بيده وسلمه بنفسه الى بكر صدقي، وقال له: باشا إقرأ! فهل لا يحق لنا أن نتمسح بقراراتنا بعد هذا، ولماذا هذا المجلس العُرفي، وكيف سيَهاب الناس الحكومة، وكيف سنستطيع اعادة الأمن وضبط النظام؟ وما أن قرأه الباشا وهو يَسْكَر مع خِلاّنه وزملائه وفي مقدمتهم (الأغا)[٢٢٣] رئيس المجلس العرفي، حتى ثارت ثائرته وضرب بيده على المنضدة ضربة قوية وقال: ابرقوا إلى بغداد الى الدفاع أنني مُستقيل. ثم قال لقد أردنا أن نحكم هذا الشاب فتَدَّخل الناس وتدخلت بغداد، وقد أردنا أبعاده كمدير معارف الى لواء الموصل فلم ينفذ الأمر بل لم يَعتَد به ورمى به بسلة المهملات، فإذا كنا لا نستطيع أن نقوم بمثل هذا العمل الذي يتعلق بفردٍ واحدٍ فكيف يسعنا أن نخمد الثورة ونسيطر على اللواء؟ كنت قد سمعت في حينه بهذه الاستقالة برقياً وما كنت لأصدق ما سمعته، إذ قلت لنفسي: هل يجوز لمثل بكر صدقي أن يستقيل من أجل هذه القضية بمثل هذه السرعة؟ وهل فيها ما يحمله على اتخاذ مثل هذه الخطوة؟ أليس هذه خِفّة بل طيش. ولكن أكد لي فيما بعد من أثق باطلاعه وصدقه بأن بكر صدقي أرسل، حقيقة، برقية إستقالة إذ عَدَّ قضيتي من أولها الى أخرها وما لابسها من توسطات تدخلاً في أعمال المجلس العرفي، وتدخلا في صلاحياته هو بالذات، فضلاً عما يوحي بعدم اعتماد وعدم ثقة.

---

[٢٢٣] يريد العقيد إسماعيل حقي الآغا رئيس المجلس العرفي.

ولم يكن ارسال البرقية رعونة وطيشاً بل استبداداً وغروراً، وإذ طلب بكر صدقي الاستقالة أو اعادة محاكمتي، رفضت بغداد الأولى ورضخت للثانية. والحقيقة التي لا أعرفها حتى هذه اللحظة، هي كيف برّأني المجلس العُرفي في الناصرية، فهل توسط واحد أو أكثر من واحد من الناس؟ هل توسطت بغداد؟ واذا كنت لا أعرف هذا فأنني أعرف حق المعرفة بأن براءتي وحدها لم تكن كافية لتبرأتي من المجلس العرفي. لا يساق الناس الى العرفي لاثبات براءتهم انما هم يساقون وقد جُرِّموا مُقدماً وصدرت الأحكام بحقهم مُسبقاً.

وفي عصر يوم الأربعاء قدم البيت شرطي وقال لي: إن معاون العبّاخانة في انتظارك يريد مواجهتك. قلت: ولماذا وقد ذهبت هذا الصباح وسجلت حسب المعتاد؟ قال: لا أدري. ذهبت معه الى العباخانة ولكني لم أجد المعاون وقيل لي: إنه انتظرك وقد تأخرت قليلاً وأنه سيعود ثانية بعد نصف ساعة أو ساعة، أنتظرت الساعة والساعات حتى غربت الشمس والمعاون لم يعد. لم أحتاج الى شيء من الفِطنة حتى أعرف ما دُبِّر لي، وقلت ها أنذا قد وقعت مرة أخرى! ولكن ما السبب ولم اقترف ذنباً ولم أرتكب جُرماً؟ أيجوز أن يكون السبب هو بقائي في بغداد؟ ولكن هل بقيت بمشيئتي ورغبتي، بل هل بقيت بمشيئة وزير المعارف وحدها؟ ألم يأخذوا موافقة وزير الداخلية بل لم يكتفوا بها فأخذوا موافقة رئيس الوزراء؟ ثم قلت: هل يجوز أن أوقف مرة أخرى، وأن أُحاكم مرة أخرى وقد بُرِّئت من أي جرم قبل مدة قصيرة. وهل يجوز قانوناً محاكمة البريء عن التهم ذاتها، فلو أنني افرج عني ولم أُبرَّأ لكان للأمر وجه قانوني، فالإفراج غير البراءة، ويجوز إيقاف المُفرَج عنه إذا ما توفرت أدِلّة أخرى جديدة، ولكن كيف يجوز ايقاف البريء وقد حُوكم

وثبتت براءته. هل يجوز أن يُضرب بهذا كله عرض الحائط، وان تكون هذه الورقة الصغيرة التي دفعت شهامتي ونخوتي إلى كتابتها هي السبب. وما كنت أقصد ضرراً بأحد أو مساً بكرامة بكر صدقي أو المجلس العُرفي. ولم أقصد إلاّ أن أُساعد على اظهار براءة من أعتقد براءته، وأن أساعد في رفع الظلم عن المظلوم على قدر المستطاع. ثم بعد هذا هل هذه الورقة الصغيرة وثيقة مهمة ومستمسك خطير، هل كانت وثيقة من أجل مؤامرة تدبر للثورة ولقلب نظام الحكم. أكانت أكثر من رجاء بسيط أطلب فيه من أحد الشهود أن يشهد بالحق وأن يعامل هذا المتهم البريء كما يعامل أخيه الصغير؟

لقد غربت الشمس ولم يأت المعاون لمواجهتي في دائرته، فأستأذنت اذا كان من الممكن أن اطلب فراشا وعشاء فأُذن بهما، ولكن لم يؤذن لأحد من أخوتي بمواجهتي. وفي صباح يوم الخميس أُخذت إلى محطة القطار، وعلمت أن وجهتنا الديوانية وأن المجلس العرفي قد انتقل إليها من الناصرية. وفي المحطة اتصلت بالشيخ محمد رضا فلم أجده، واتصلت بالزعيم المرحوم جعفر ابو التمن[٢٢٤] وقلت له: أني أكلمكم من محطة بغداد وأنا في طريقي إلى الديوانية، وسأحاكم هذه المرة دون سبب ولا شك، فهل لك أن تعمل شيئاً ليس من أجلي فحسب بل دفاعاً عن القانون وكرامته وعن حرية الأفراد، وإن القوم يريدون بي الأذى والشر فهل يجوز أن لا يندفع الظلم عن المظلوم؟ لقد تأثر المرحوم جعفر كثيراً وكنت أحس بصوته وقد ملأه الحزن والألم وهو يقول

---

[٢٢٤] زعيم وطني بارز، ولد سنة ١٨٨١ وشارك في الجهاد ضد البريطانيين في أثناء الحرب العالمية الأولى،وانضم الى حزب حرس الاستقلال وشارك في ثورة ١٩٢٠فطورد واضطر الى الالتجاء الى الحجاز، ثم عاد الى وطنه حيث أسس (الحزب الوطني العراقي)، وعرف بمعارضته للمعاهدات البريطانية، ثم انضم الى جماعة (الأهالي) واختير وزيرا في وزارة حكمت سليمان التي وصلت السلطة إثر انقلاب بكر صدقي، وسينقد المؤلف عليه مشاركته في هذه الوزارة على ما سيأتي في هذه المذكرات.

لي: كنت أدري انك بريء وأن قوى الطغيان تريد أن تؤذيك ولكن ما العمل وأن بيني وبين هؤلاء حربا شعواء، وانقطعت بيننا كل علاقة ولم تبق إلاّ الخصومة والحقد.

كان الزعيم محمد جعفر على صلة طيبة مع ياسين الهاشمي ورشيد عالي ثم أختلف معهما، وقد انظم إليه حكمت سليمان، فكانا يُمثّلان المعارضة في قوتها وعنفوانها، وكانا قد أصدرا جريدة ضد الحكومة[٢٢٥] يكتب فيها بقلمه الصريح كل من محمد جعفر وحكمت سليمان، وكانت مقالات نارية قوية تتضمن نقداً لاذعاً جارحاً، وكانت كثيراً ما تدعو هذه المقالات بصراحة إلى العصيان والثورة.

وكانت تخفرني قوة من الشرطة على رأسها مفوّض يَمتُ لي- من بعيد جداً – بصلة نَسَبية من جهة النساء، فلم يشدد علي الخِناق وأنا في القطار، ولم يضايقني أحد وما شعرت بأنني كنت مخفوراً، وكنت أنزل من القطار في أكثر المحطات التي يقف فيها، بل اني ركبت الدرجة الاولى ودفعت الفرق بين أجرتها وأجرة الدرجة الثانية التي كانت تريد دائرة الشرطة ركوبي بها. وما كنت أعرف وأنا في الدرجة الأولى أن رئيس المجلس العرفي هو الآخر كان يركب الدرجة الأولى، ولم يكن يفصل بيني وبينه إلاّ بضعة قاطرات، كان يلاحظ ما أتمتع به من حرية وأحظى به من احترام، وكيف كنت أُرَوِّح عن النفس بالمشي في بعض المحطات، وقد لاحظ أيضاً أنني استدعيت مدير محطة الحلة، وهو هندي الأصل والجنسية، وطلبت منه أن يتصل بالمتصرف وكان آنذاك السيد أحمد زكي الخياط ليعمل ما في وسعه من أجل احقاق الحق، وقد أسفت لمثل هذا التكليف الذي لم يَلقَ أي أذن صاغية من

---

[٢٢٥] هي جريدة البيان وقد صدر عددها الأول في ١٢ آذار سنة ١٩٣٥.

المتصرف الذي عرف بأنانيته وسبب بعض الانزعاج الى مدير المحطة الذي دار معه بعض السؤال والجواب عما كلفته به.

وصلت الديوانية وقت الغروب، وما أن أُخذنا إلى مديرية الشرطة حتى بُلِّغنا أن نذهب إلى بيت رئيس المجلس العرفي، وما أن وصلنا البيت حتى أطلَّ علينا شخص من السطح وقد إتكأ على (المُحَجَّر،) ضخم الجثة، كبير الكرش، قد لبس (دشداشة) فضفاضة بيضاء، وصاح بعد أن حملق بوجهي ووجه المفوض: خذوهما إلى السجن، وهكذا وقف المفوض معنا في السجن نفسه بجريمة عدم القيام بواجب الخفارة فانه لم يكن قاسيا وشديداً بل كان مؤدباً ورقيقاً!

دخلت السجن الجمعة مساءً، فوجدته قد حُشر فيه كل من هَبَّ ودَب حتى القتلة والسفاكون وقطاع الطرق والسكارى والنشالون ومن شابه ذلك، ووجدت اناساً قد جلسوا على شكل جماعات صغيرة انتشرت هنا وهناك من ساحته، وما أن دخلت حتى خيم على القوم شيء من السكون، ثم سرت همهمة بينهم، لقد عرفوني إذن، ورحَّب البعض بي، وكانوا من أبناء الناصرية وسوق الشيوخ، ثم كان أكثرهم من أبناء السماوة حيث ثار خوَّام، وقد سمعت من أبناء السماوة خاصة قصصاً تشبه الخرافات، قصوا علي كثيراً من الجرائم المنكرة التي ارتكبت والتي يَندى لها جبين الإنسان، قصوا كيف قُصفت بعض القرى وأحرقت البيوت، كيف أُتلِفت المزروعات والحيوانات وهُدمت مضخات الماء، وكيف فُتِك بالناس صغارهم وكبارهم، ثم قصوا قصة رشيد الصوفي والسيد، وكان الأخير يعد من الشباب الوطني المتحمس وقد عينه رشيد عالي قائم مقاماً للسماوة، والسيد هو أحد وجهاء السماوة وساداتها وقد أراد منه وجهاء المدينة أن يترأس وفداً للتفاوض مع القائمقام

حول اعلان الهدنة محافظة على أرواح الناس وأموالهم وأعراضهم، ولا سيما بعد أن استسلم خوام، وبينما كان كثير من الناس ينتظرون في ساحة السراي نتيجة المفاوضات، إذا بالسيد قد رُمي إليهم من أعلى السطح وهو مذبوح. وقد قيل أن الذي ذبحه هو رشيد الصوفي بنفسه، وذلك ارهاباً للناس واذلالاً لهم واشارة الى ضرورة الاستسلام بلا مفاوضة وبلا قيد أو شرط، وكان رشيد يطمح أن يكون متصرفاً ولكنه عُزِل من الوظيفة. وقد قص عليّ البعض الآخر قصة الأسرى الذين أُرسلوا من السماوة إلى الديوانية. وقال هذا البعض: لقد كنا أكثر من خمسين أسيراً وقد سرنا مسافات ومسافات قبل أن نركب القطار، وكان ينقص عددنا بين حين وآخر ولم نصل الديوانية إلاّ وعددنا نحواً من ثلاثين. كان بعضنا يؤخذ بعيداً ثم لا يعود، وقد قيل لنا أنهم حاولوا الفرار. لقد تذكرت بكر صدقي وتذكرت خطته مع الآثوريين، فلم أجدها تختلف كثيراً عن خطته مع عشائر السَماوة وبني حجيم والظوالِم تلك العشائر التي كانت أول من ثار بوجه الانكليز، تلك العشائر التي كانت أول من بنت بدماء أبنائها الزكية صرح الاستقلال. كانت فكرة القتل دون محاكمة وبحجة الهزيمة والفرار قد سيطرت على نفسي، وكانت تراودني وتفزعني بين حين وآخر، هل يجرؤ بكر صدقي على قتلي؟ هل سأصفّى كما صُفّي غيري حتى إذا ما سئل لم يجب بأكثر من أنه حاول الفرار.

كان ولدا أختي في الديوانية يديران معملاً للمكائن يملكانه، ولما سُئلت عما أريد، قلت: أريد فِراشي الذي اصطحبته معي من بغداد وبعض الطعام من ولدي أختي. لقد أتي بالطعام ورُفِض الفراش، فلم آكل ونمت على الأرض، حيث أني لم أنَم ليلتين في موقف العباخانة، وما أن أحسست بالتعب وقد دبَّ في كل جسمي المنهك حتى غِبت – أو كدت – عن نفسي،

وما أن غفوت قليلاً حتى أيقظني أحد الحراس وهو يحمل الفراش، قال: خذه ونم، فاستغربت وقلت: ولكنه قد منع عليّ قبل برهة وجيزة، قال: ولكن المعاون أمر بادخاله، قلت: ومن هو هذا المعاون قال: قاسم. تذكرت قاسماً هذا فقد كان أحد أبناء صَفّي في الثانوية، فاغرورقت عيناي بالدموع.
وما أن هل صباح يوم الجمعة، وهو عطلة رسمية، إلاّ واستدعاني قاسم الى دائرته مستقبلاً إياي استقبالا حاراً ورحب بي أجمل ترحيب، وكم أبدى من أسفه وألمه أن يراني وأنا بمثل هذه الحالة وبمثل هذه الصورة، وطلب لي شَرْبَتاً، وقبل أن أتناوله، واذا بشرطة مسلحة تجرني من الدائرة جراً حيث غرفة المجلس العرفي للمحاكمة، وقد شعرت بالعطش الشديد وأنا خارج الغرفة إذ كان يوماً من أيام تموز القائضة، ولعله اليوم الرابع منه، فطلبت الماء ولكن أحداً لم يستجب، ودخلت الغرفة فشعرت بجو رهيب كئيب فقد كان المجلس كالسابق، برئيسه وأعضائه عدا عضو واحد نقل، هو عبود الشالجي، وحل محله عبد الرحمن خضر. أُدخلت إلى الغرفة وأنا عطشان وأُدخلت قفص الاتهام، ووقف ورائي شرطيان مسلحان يمسك كل منهما البندقية، وقد ركبت فوق رأسها حَربة لماعة. كانت المحاكمة تجري في يوم الجمعة وهو عطلة رسمية وقد عقد المجلس في ذلك اليوم لمحاكمتي أنا وحدي فقط، وكانت محاكمة قادتني رأسا الى قفص الاتهام وأمام المحكمة دون سؤال أو جواب ودون تحقيق من قبل هيئة تحقيق كما تقضي بذلك القوانين، كانت محاكمة لم يكن فيها شهود اثبات أو دفاع ولم يقبل على كل حال توكيل محام، بل لم أتمكن حتى من حق الدفاع وهو حق مقدس. كان رئيس المجلس حاضراً ولكنه لم يكن يحاكمني أو يوجه الأسئلة الي بل كان عبد الرحمن خضر هو الرئيس بل هو المجلس برمته. وكانت المحاكمة قد

جرت هذه المرة بصورة مختصرة ولم تثر فيها كل النقاط التي أُثيرت في محاكمة الناصرية، بل اثيرت نقاط ثلاث وهي:

١- تحريض العشائر على الثورة وبشهادة معلم مدرسة حسن البصري.

٢- تمثيل رواية الاستعباد من قبل مدرسي الناصرية الابتدائية التي كان قد مثلها يوسف وهبي في بغداد.

٣- قصاصة الورقة.

ولم تكن المحكمة بحاجة الى استقدام الشهود، بل قرأ عليَّ المدعي العام العسكري التهمة وشهادة حسن البصري، وأجبت عنها كما أجبت سابقا ونفيتها من أساسها اذ أنني لا أعرف هذا المعلم من قبل ولم أتصل به عندما سافرت الى الحمّار لسبب بسيط هو أنه لم يكن قد نُقل إليها بعد، وأما عن رواية الاستعباد التي ابتليت بها، فإن بطلها أسمه عزام وهو يشبه اسم خوام، وكنت أريد من وراء هذا التشابه اثارة العشائر على الثورة، ولم أزد شيئا كثيراً عن جوابي السابق في محاكمتي السابقة التي اثيرت فيها هذه النقطة بالذات، وقد طلبت هذه المرة أيضا شهود دفاع وهما المتصرف، ومدير الشرطة باعتبار ان هذه الرواية لم تمثل إلاَ بعد مصادقة كل منهما عليها. وأما عن قصاصة الورق التي كانت قد جمعت من سلة المهملات بعد أن مزقت والتي قد لصقت جزيئاتها ببعضها، وهي التي كانت السبب في كل ما لحقني من ظلم وأذى اذ لولاها لاعتبرت قضيتي منتهية، لاسيما وقد حوكمت أمام المجلس العرفي وهو برأني من كل جريمة وذنب، وكنت أول من برأه العرفي في تاريخ حياته، هذه الورقة التي كانت السبب في زعل بكر صدقي، والسبب في نفيي وابعادي الى لواء الموصل، ثم كان ما كان من أمر ابقائي في بغداد واعتبار ذلك مساً بكرامة بكر صدقي وتمرداً على الأوامر العسكرية. وقد

بينت بأنني لم أتدخل بهذه الورقة في أعمال المجلس العرفي ولم أقصد التأثير على سير التحقيق في قضية متهم، ولم أطلب من الشاهد تغيير شهادته أو تحويرها، ولم أطلب منه أن تكون شهادته بجانب المتهم بعد أن لم تكن بجانبه، ولم أطلب منه الرجوع عن شهادته أو عدم الشهادة، بل كل ما طلبته من الشاهد أن يرأف بالمتهم وأن يعامله معاملة أخيه الصغير، ولم أكن مدفوعاً في هذا الطلب بأي غرض شخصي أو مصلحة مادية، ولم تدفعني إلى كتابتها إلاّ نخوتي وحب الغير، ثم أضفت قائلاً: وبعد هذا كله لم يترتب أي أثر مادي على كتابة هذه الورقة، ولم تؤدي الى أية نتيجة، اذ أن الشاهد لم يشهد على كل حال.

ولم يكن عبد الرحمن مرتاحاً وأنا ادافع عن نفسي، فقد كان يقاطعني بحدة بين كل جملة وأخرى، لم يكن يريد أن يستمع المجلس العرفي الى بياني ودفاعي. كنت قد تضايقت جداً من مثل هذه المقاطعات، وشاهدت كاتب الضبط لا يدون دفاعي فاضطررت أكثر من مرة إلى أن ألفت نظر المحكمة إلى حقي في الدفاع وإلى ضرورة تسجيل هذا الدفاع، واضطررت إلى أن استنجد برئيس المجلس العرفي اسماعيل حقي للمحافظة على حقوقي بعد أن نَهَرَني عبد الرحمن خضر، وبيَّن أن ليس من حقي الاعتراض عليه وهو يقاطعني، وليس من حقي أن ألفت نظر المحكمة الى أنني قد سُلِبتُ حقاً من حقوق الدفاع، وهو حق من حقوقي، وإلى أن كاتب الضبط لا يسجل ما أقوله حتى اذا ما سمح لي بالقول والدفاع. لقد استنجدت برئيس العُرفي، ولم أكن كالمستجير من الرمضاء بالنار بل لقد أجارني وأغاثني، وطلب من عبد الرحمن خضر أكثر من مرة التريث وامهالي مدة للجواب على الأقل عن الأسئلة التي كان يوجهها لي. لم يكن يَفِد المجلس عقل ولا منطق، ولم يكن

ليجدي معه عفة الذيل وبراءة النفس، اذ كان قد أصدر عليه حكمه قبل المحاكمة. كان عبد الرحمن خضر قد نوّه أثناء المحاكمة بالمدارس التي شيدتُها في مختلف مناطق العشائر والقرى، وقال أنها لم تكن إلاّ لتستعمل حصوناً ضد الحكومة. وكان أن قال وقد انتهت المحاكمة أو كادت: اذهب الى السجن وافتح مدارس وكافح الأميّة هناك! ولم اكن أدري أن بناء المدارس جريمة ولم أكن أعرف أن مكافحة الأمية جريمة، وأنني استحق من أجلها العقاب والسجن والشماتة القبيحة والسخرية اللاذعة حتى سمعت هذا النطق السامي من فم الحاكم الحكيم!

لقد رُدِدتُ الى السجن بعد محاكمة قصيرة لم يسبقها تحقيق ولم يحضرها شهود ولم يسجل فيها دفاع، وما أن وصلت السجن وأردت التمدد على الفراش، إلاّ ورُفع من تحتي وأُخذ الى الخارج، ولا ادري ماذا حلَّ به حتى هذه اللحظة. وما أن طلبت الغداء من أقاربي إلاّ ورُفض الطلب، وقد كان يحق لي أن أتجول في ساحة السجن فحُرِمت من هذا الحق، وأُمرت أن أدخل (القاووش) أي الرَّدهة والازم قاعاتها. لقد شعرت أن كل شيء قد تغير ولكن لا أدري ما الذي تغير وماذا حلّ. إن المحكمة لم تقرأ عليّ قرار التجريم ولم تبلغني بحكمها، وقد رجعت الى السجن وأنا لا أدري هل انتهت المحاكمة بجلسة واحدة قصيرة أم أن هناك جلسات أخرى، وما إذا كنت قد جُرِّمت وحكم عليَّ، وإن كل شيء قد تم وانتهى.

وما أن أنتصف الليل، وأنا اتقلب على الأرض دون فراش، أغالب السهر الذي انتابني والتعب الذي أنهك جسمي، حتى هزَّني أحدهم، وهو مفوض شرطة، هزاً عنيفاً، وقال: قم! وما أن نهضت حتى وجدت أحد الأعراب، وقد تجاوز الستين من عمره يقف بجانبي، وإذا بيدي اليمنى تُربط

بيده اليسرى بهذا القيد الحديدي المعروف (بالكَلَبْجَة). وقال: هيا بنا الى القطار. ولكم تساءلتُ ونحن في طريقنا إلى القطار، وأوجست خيفة، وتسلطت عليَّ فكرة مفزعة، هل نحن في طريقنا الى القطار أم نحن في طريقنا الى محل أخر؟ هل قرَّر بكرصدقي إنهاء حياتنا؟ هل سنُرمى بالرصاص باعتبار كوننا حاولنا الفرار؟ وإذا لم يكن هذا قصدهم فلماذا رُبطتُ بهذا الأعرابي، ولماذا لم أؤخذ بمفردي الى القطار؟ أوَليس ربطي بشخص آخر هو تستر على الجريمة التي يمكن أن تفضح إذا ما قُتلت لوحدي، وقد لا تفضح اذا ماقتل معي شخص آخر.

وصلنا القطار، ولم نُرمَ بالرصاص، فشكرت الباري عز وجل وحمدته على هذه الحياة الجديدة، ولم يكن من السهل على كلينا وقد ربطت أيدينا أن نصعد أو أن ننزل أو نقوم أو نقعد أو نميل الى هذه الجهة أو تلك، فاذا أراد أحدنا أن يقوم فلابد للثاني من أن يقوم معه وأن لم يكن له حاجة بالقيام، أو إذا أراد الجلوس فلابد للاثنين أن يجلسا معاً، وأن كان لا حاجة لأحدهما بهذا الجلوس، وهكذا قل عن كل حركة أخرى من الحركات. كان لابد من أن يندمج الاثنان ببعضهما وكأنهما واحد، وكان لابد لأحدهما أن يتبع الأخر في حركاته أراد أم لم يرد، وما كان هذا بالأمر الهيِّن ولا بالذي يُطاق ويُحتمل، وقد اعترضت على المُفوَّض ونحن في القطار على هذا الربط، وقلت أني وإن كنت لا أعرف حتى هذه اللحظة حُكم المحكمة، ولكني متأكد من أنها لم تدخل ضمن قرارها أن تربط يدي اليمنى بيد هذا الشخص اليسرى وتقيد حركتي كما تقيد حركته. قال: لا أدري، ولكني أعرف أن رئيس المجلس العرفي أمرني أن لا أتساهل معك بل أن أقسو وأشدد الخناق

عليك، قلت: ولهذا ربطتني مع هذا الشيخ، ولهذا قد شددت بالطوق على يدي حتى ينخر لحمي ويحصرم دمي؟ قال: نعم!

أمضينا ليلتنا على مصطبة ونحن في الدرجة الثالثة في القطار، ولا أدري كيف أمضيناها، ولكني أدري أننا لم ننم ولا لحظة واحدة. وما أن أصبح الصباح الباكر إلاّ ونحن في محطة قطار بغداد، وما أن نزلت من القطار إلاّ ورأيت أحد أقارب مدير الطابو صديقي جواد، فقلت له: اذهب وأخبر العائلة بأنني وصلت. كانت جماعة من الشرطة في انتظارنا، كانا معاونان ومفوضان وأربعة أفراد من الشرطة، فطلبت الى المعاون أن نركب سيارة أو عربة حتى موقف الشرطة في مديرية الشرطة العامة[226] وأن أتحمل أنا أجرتها، قلت: إن الطريق طويل ولا يمكن قطعه سيراً على الأقدام، وأنه مزدحم بالناس وبالمقاهي، ولا يجوز لمثلي- وأنا موظف حكومة كبير- أن يُشَهَّر به على مثل هذه الصورة، وهو مربوط مع أعرابي بكَلَبجَة واحدة. قال: لا يمكن! وإن الأوامر تقضي بأن تمشي هذا الطريق كله على الأقدام مربوطاً مع هذا الاعرابي! وهكذا كان المعاونان يمشيان أمامي، والمفوضان وبقية الشرطة يمشون خلفنا وقد شهر بعضهم السلاح. كنا مربوطين بالكلبجة وكانت في مقدمتها سلسلة من الحديد طويلة يمسك أحد المعاونين بطرفها وكأننا نُسحب سَحباً ونُجرّ جراً كما تربط وتسحب الكلاب السائبة الضارة. كنا نمشي والناس في الشارع أو المقاهي ينظرون إلينا وعيونهم شاخصة، ومنهم من كان يسخر بابتسامة، أو يتألم بتنهد عميق وحسرة مريرة. كان بعض الصِّبية قد تجمهروا من ورائنا ومن حولنا، وكلما سرنا كبرت الجماعة

---

226 كانت مديرية الشرطة العامة قد شغلت مبنى السراي القديم لولاة بغداد، وهو ملاصق لمباني القشلة، حيث توجد دوائر الدولة المهمة آنذاك،

المتجمهرة، وازداد عدد أفرادها مدفوعة بغريزة حب الاستطلاع. وما أن وصلت الموقف في مديرية الشرطة العامة بعد هذا كله وبعد أن قطعت المسافة، وأنا مشهور بين الناس، من المحطة وجانب الكرخ ثم جسر المأمون وسوق السراي حتى وجدت أهلي وأخوتي وفي مقدمتهم أخي غني، وما أن رآني وأنا على هذه الحالة حتى اغرورقت عيناه بالدموع وضرب على رأسه، فربت بيدي اليسرى الطليقة على كتفه، وقلت له: لا تجزع وأصبر إن الله مع الصابرين، وما أنا بأول من أُمتِحن وهو بريء، وإن كانت هذه أول محنة من نوعها في حياتي فلن تكون آخر محنة، وما أن رآني أخي وأنا صابر متجلد والابتسامة لا تفارق شفتي إلاّ وغار عليّ وقبّلني في وجهي قبلات وقبلات، وقال: للّه درُّك ما أصبرك وما أجلدك، لقد رفعت رأسنا عالياً بشجاعتك. لقد بقي أخي يتذكر هذه الحادثة وهذا الموقف الرقيق الحساس حتى مماته، وكم من مرة ذكرها في مناسبات مختلفة، وكم من مرة قال: أردت تقوية عزيمته فقوّى هو عزيمتي، وأردت تشجيعه فابتدرني هو، وقد رآني والدمع ينهمر على وجهي، بتشجيعي.

قلت لأخي: لا تضيع فرصة إذهب الى الشيخ [٢٢٧] دون تأخير واخبره بكل شيء واطلب منه ـ وقد ورّطني في السجن ثانية، ولو أنه تركني أذهب الى الموصل لما حدث ما حدث ـ اذهب وأطلب منه أن أبقى في سجن بغداد. قل له: إن القوم على وشك أن يأخذونني الى الموصل زيادة في العذاب والنكاية، لقد تقصدوا أن أذهب الى الموصل سجيناً بعد ان رفضت أن أذهب اليها كمدير معارف، وأنا لا أريد أن أكون في ظلمات فوقها ظلمات، ويكفي أن أكون سجيناً، ولكن لا أحتمل أن أكون سجيناً في سجن الموصل.

---

[٢٢٧] يريد محمد رضا الشبيبي وزير المعارف.

لم يمهلني الشرطي أن أقف مع أهلي إلاّ بضعة دقائق وعلى غير رضا منه، أدخلني بعدها غرفة صغيرة من غرف الموقف، قذرة نتنة، فيها صفيحة للبول ملآنة. وكنت وأنا في طريقي إلى هذه الغرفة أسمع أحد المعاونين يقول لأحد المفوضين ما بال هؤلاء لا يحبون العراق، فلا يتركوه بدِعة وسلام، ما هذه الثورات بين حين وآخر؟ فإذا كان العراق لا يعجبهم لماذا لا يتركوه. وتساءلت: إلى أين أتركه وأنا العربي ابن العربي من سابع ظهر، وأنا الذي لم أعرف طوال حياتي بأنني غير عربي، ولم أشعر طوال حياتي ولو للحظة بأن ولائي لغير أمة العرب ولغير بلاد العرب، وأنا الذي كنت ولا أزال من رواد القومية العربية ومن جنودها الذابّين عن حياضها بكل ما ملكت يداي وقلبي وعقلي؟

إلى السجن

لم أبق في هذه الغرفة الضيقة النتنة طويلاً فقد أُعِدَّت السيارة التي يجب أن تقلني الى الموصل، ولما ركبت فيها ركب معي في صدرها مفوض الشرطة، وفي المقعد الخلفي على جانبي شرطيان مسلحان وقد أمسك كل منهما ببندقية. وكان مجلسي بين هذين الشرطيين، ولم يكن الجلوس في الوسط لمسافات طويلة وفي هذا الصيف بالأمر الهين، ولاسيما وقد كُبِّلت يداي بقيد شد شداً عنيفاً حتى آلمتني يدي كثيراً. وبينما نحن في طريقنا الى الموصل، توقف بنا مفوض الشرطة عند المحل الذي كان يقيم فيه الملك فيصل[228]، ثم

[228] كان الملك فيصل الأول يقيم عهد ذاك في داره الملاصقة لوزارة الدفاع، على شاطئ دجلة، وهي الدار التي شغلتها من قبل مدرسة الصنائع التي أنشأها الوالي مدحت باشا، وكانت قبله المدرسة العلية، وهي اليوم بيت الحكمة، فيظهر أن السيارة لم تقطع غير الزقاق الذي يفصل بين مديرية الشرطة العامة وهذه الدار.

دار بالسيارة حوله مرة ومرتين وأكثر، ثم توقف قليلاً ثم دار بالسيارة مرة أخرى، وقد استغربت من هذه الحالة ولم أفهم لها مغزى، حتى عرفت أن مفوض الشرطة كان قد تواعد مع أحد الأولاد ليصطحبه معه الى الموصل، غير أن الولد على ما يظهر أخلف الوعد.

سارت بنا السيارة تنهب الأرض نهباً، ولم يكن الطريق مبلطاً بل كان وعراً في أكثر أقسامه، ولم تكن تهم مفوض الشرطة سرعة السيارة ولا (الطسّات) ولا الغبار ما دام هو في المقدمة ولا يحس بهذا كله، أو يحس به قليلاً، وما دام صار عصبياً لأن الولد أخلف وعده. وكانت سيارة أخرى تسير أمامنا بسرعة، وفيها بعض النسوة، وكان يبدو عليهن كثير من التبرج وشيء كثير من الانحلال الخلقي، وقد أراد المفوض أن يتسابق مع سيارتهن فكنا نسبقهم تارة وتسبقنا تارة أخرى وهن يضحكن، ثم اندهشن عندما رأين منظري بين شرطيين مسلحين، وكأن هذا المنظر قد أثار فيهن غريزة حب الاستطلاع، بينما أثار فيه غريزة الصلف والكبرياء، كن هن يُرِدن أن يتفرجن ويلهين ويعبثن، وكان هو يريد أن يرى فريسته في السيارة فُرجة للمتفرجين. وقد أردت أن يقف بنا أكثر من مرة لقضاء الحاجة ولكنه رفض ولم يقف إلاً بعد أن وقفت سيارة النسوة بالقرب من أحد المقاهي. كان يعجبه ويشبع غروره وصلفه أن أخرج من السيارة أمام النسوة بين شرطيين مسلحين ويداي مكبلتين بالحديد وهو يمسك بطرف السلسلة من بعيد، وما أن قعدنا على التخت بالقرب من تخت النسوة، حتى أمر بالشاي، فقلت له: يا هذا كيف تريدني أن أشرب الشاي ويداي مكبلتان؟ ثم قلت له ألا ترى أنك قد بالغت في تضيق الطوق وبالغت في شده بعنف، ألا ترى أن يدي تكاد تتشقق؟ هل هذا من عملك؟ أم من عمل المحكمة أم من عمل أي واحد آخر؟ لماذا كل هذه

القسوة؟ هل تخشى من أن أهرب وهل يفيد الحقد في القلوب والغلظة في الأكباد؟ قال: والله صحيح ولكن اضطررت للقسوة لأنهم أرادوا أن أكون قاسياً، ولكننا وقد خرجنا من بغداد فبوسعي الآن أن أُخفف من الضيق، بل وفي وسعي بعد مسافة أخرى أن أفك القيد. كان الشرطي الذي يجلس على يميني قد اغرورقت عيناه بالدموع وهو ينظر إلى يدي وهي تكاد يخر منها الدم ولم يتمالك أن قال لي همساً: لا بأس عليك يا عم، ليس مثلك من يعامل مثل هذه المعاملة، ليس مثلك من تُقيَّد يداه حتى تدمى وإن الفرج لقريب. لقد افترقت عن هذا الشرطي سنوات وسنوات، وفي ذات مرّة كنت أهم بركوب القطار من محطة بغداد وإذا بشخص ينحني على يدي يريد تقبيلها. كان بلباسه المدني فلم اعرفه بادئ ذي بدء، ولكنن حينما تبينته عرفت انه ذلك الشرطي النجيب، وصافحته بحرارة وضممته الى صدري قليلاً، ثم نفحته بشيء من المال ولكنه أبى واعتذر.

خرجنا من المقهى وقد ارتاحت يداي بعض الراحة، ثم ركبنا السيارة وقطعنا مسافات ومسافات أخرى حتى اقتربنا من مدينة سامراء، واذا بي اشاهد من مسافة بعض السيارات المسلحة فاستشعرت في قرارة نفسي أنها خرجت لتبلغنا أمر الرجوع الى بغداد، وما أن وصلنا بالقرب منها حتى استوقفتنا وسألتنا عما اذا كانت هذه السيارة تقل المجرم عبد المجيد محمود! ثم طلبت الينا الرجوع الى بغداد. كان أخي غني عندما تركني وأنا في الموقف قد ذهب رأساً الى الشيخ محمد رضا وهو في داره، وأبلغه الخبر، ولم يُضيِّع الشيخ كثيراً من الوقت بل اتصل بوزير الداخلية الذي وافق بدوره على أن أُسجن في سجن بغداد بدلاً من سجن الموصل، ولكن الخبر لم يبلغ الى مديرية الشرطة العامة إلاّ بعد أن تركنا بغداد في السيارة. كانت مديرية

الشرطة حريصة على نقلي الى الموصل بأسرع ما يمكن بحيث يكون وصولي اليها في الصباح، ولذا لم تنتظر المساء لتسفيري في القطار.

رجعت إلى بغداد ونقلت الى السجن المركزي[٢٢٩] بعد انتهاء الدوام بقليل. كان السجن يتكون من ثلاث قِلاع إحداها خُصِّصت لصغار المجرمين الذين لا تتجاوز محكومياتهم الثلاث سنوات، والثانية خصصت لمن كانت محكومياتهم تتراوح بين الثلاث والعشر سنوات، أما الثالثة فقد خصصت لكبار المجرمين والقتلة والسفاكين والذين تتراوح محكومياتهم بين العشر سنوات فما فوق حتى السجن المؤبد، وكانت هذه القلعة من نصيبي لأنني اعتبرت من كبار المجرمين الخطرين على الدولة والنظام العام.

أيام السجن

وما أن دخلت هذه القلعة إلاّ واستُقبِلتُ من قبل القوم، وكانوا قد فرغوا من طعام الظهر، استقبالا رائعاً وهم وقوف. وكان كثير منهم قد تقرب مني، ومنهم من صافحني، وكان الكُل قد سلَّموا عليَّ فرددت السلام وصافحت من صافحت سواء من عرفت منهم أو من لم أعرف، وقلت في نفسي: اذا كنت لا أعرف إلاّ القِلّة القليلة منهم فالآن اتعرف بهم جميعاً عن قريب، إننا هنا عائلة واحدة نعيش في محل واحد، وهل يمكن أن لا يعرف أعضاء العائلة بعضهم ببعض وهم يعيشون تحت سقف واحد.

ما كان مسموحاً لي أن أختلط بالقوم وأن أبقى معهم بل كان لابد من أن أُحجز داخل إحدى الردهات (القاووش) لأنني وصلت السجن بعد الدوام وقد ذهب الطبيب الى داره فلا يجوز لأي سجين أن يختلط بغيره من السجناء

---

[٢٢٩] وتشغل أرضه اليوم مباني وزارة الصحة في باب المعظم.

عند أول قدومه الا اذا فحصه الطبيب ووجده سالماً من الأمـراض المعديـة. ولم أُحجز في الردهة إلاّ بعد أن حُلِق شعر رأسـي بـالموس وبعـد أن أُلبسـتُ شـيئاً يشبه البيجاما مصنوعاً من قماش يشبه قماش الجنفاص (الكـواني)، ودخلـت الردهة عند أول وصولي السجن، وكان ذلك في يوم حرّ قائض قـد سـكن فيـه الهواء واشتدت الرطوبة وارتفعت درجات الحرارة حتـى كـان الانـسان يـشعر وكأنه يختنق. إنه اليوم الخامس من تموز من سنة ١٩٣٥ ميلادية. وكنت قـد ادخلت في مثل هذا اليوم الخانق في مثل هذه الردهة، منذ الظهر حتى ضحى اليوم الثاني، بما في ذلك الليل كله حتـى قـدم الطبيـب ووجـدني سـليماً مـن الأمراض المعدية وسمح لي بالاختلاط ببقية السجناء. ولم أنم تلـك الليلـة مـن شدة الحر بالرغم مما كنت أشعر به من تعب شديد، ولا ادري لماذا يحدث – في بعض الأحيان – ان تتوتر الأعصاب وتتنبه الحواس كلما اشتد التعب، ولا أدري لماذا لا يكون في مقدور الجسم وهو منهك أن يدعو الـنفس الى الراحـة أو الى الاغفـاءة؟ ولكـن ومـن أيـن لـي هـذه الاغفـاءة البـسيطة وقـد شـرد الـذهن وسيطرت الهواجس على مشاعري وتقاسمـت الخـواطر الـسود كـل تفكـيري، واذا كنت قد اشتهرت بسرعة النوم بمجرد أن أضع رأسي على الوسادة، وإن كان ذلك في أحرج الأوقات وأحلك الظروف، غير أنـني في بعـض الأحيـان لا أنام بيسر، وإذا ما نمت أو شُبِّه لي ذلك، فإن الأحلام المزعجة تقلق على هذا النوم وتفسده.

كانت والدتي وأخـواي الـصغيران قـد بقـوا في الناصـرية بعـد أن ركبـت الطائرة مخفوراً الى أور، وكنت قد كلّمت المتـصرف عـن هـذه العائلـة الـتي لا معين لها وهـي غريبـة في الناصـرية، وضـرورة اتخـاذ مـا يلـزم لتـسفيرها الى بغداد، وقد قام أخي الصغير صـاحب في اليـوم الثـاني مـن سـفري بمواجهـة

المتصرف فأوعده هذا خيراً، غير أنه طرده في اليوم الثالث ولم يهيئ أية وسيلة للسفر، وقد أخبرني أخي، وهوالذي كان لا يزال في الصف الثاني في المدرسة المتوسطة، بأنه قد اتفق مع صاحب أحد (المشاحيف)، وهو زورق ضيق لا يعرف ركوبه إلاّ من تَعوَّد عليه، لهذا الغرض. وهكذا ركبت هذه العائلة المنكوبة (المشحوف) وتركت وراءها البيت وما فيه من أثاث ومؤن وحاجيات، وكان أن استغرقت سفرتهم في هذه المياه التي أحاطت بالناصرية من كل حدب وصوب نحواً من خمسة ساعات قد أشرفوا فيها على الغرق مراراً.

وحينما وصلت هذه العائلة، وأنا في بغداد، كانت أشبه باللاجئين الهاربين، وما أن استقر بنا المقام في بغداد حتى أخذت ثانية الى الديوانية، ولما سافرت اليها سافرت ورائي هذه السيدة العجوز، هذه الوالدة المنكوبة في ابنها، ومعها ابنها الصغير. وما أن وصلت الديوانية حتى سمعت من يقول أنني سُجِنت في الديوانية، أو أنني عدت الى بغداد سجيناً أو أني عدت اليها طليقاً. وقد عرف أخي صاحب الخبر الصحيح ولكن أخفاه عنها حتى أخبرها به وهي تمر على جسر الديوانية أحد الشرطة، فأرادت أن ترمي بنفسها من على الجسر الى النهر، لولا صراخ هذا الصبي الصغير، ولولا تدخل بعض المارة ممن بقيت عنده بقية من نخوة وشهامة.

كان في القلعة الثالثة من السجن جماعة كنت أعرف عنهم بعض المعلومات، لأني كنت أسمع عنهم من الأخبار قليلاً. لقد وجدت في القلعة عواد الشبلاوي، وهو يمت بصلة القرابة البعيدة من جهة النساء الى زوجة أبي فهيمة والدة حسين ومحمد، وكان قد اتهِّم بقتل، وقد حكم عليه بعشرين سنة. كنت قد سمعت شيئاً عن قصته قبل أن أراه في السجن، وعرفت أنه مرَّ

على دارنا وقد شهر مسدسين في يديه يعقب أحد الأشقياء حتى ظفر به ورماه، وكنت قد سمعت أن أخاه سعدون اشترك معه في هذه الحادثة وأن الحكومة كانت تطلبه ولكنه هرب الى إيران، وأن أخي غني كان قد جازف بالشيء الكثير حتى لحق به واستقدمه من ايران ولكنه كان قد مرض، وما أن وصل بغداد وبقي فيها بعض الوقت حتى مات.

وكنت قد وجدت في هذه القلعة رجلاً يسمى الحاج عباس هدِيّة[٢٣٠]، وكنت قد سمعت أنه خطير، وأنه اذا ما سَكَر ينقلب الى ما يشبه المجنون، وانه قد قتل عدداً من الناس لشراسته ووحشيته، حتى قتل أخيراً أقرب أصدقائه وأخلصهم اليه بأن ذهبا سوية الى أحد البساتين وما أن سَكَرا حتى ثارت بينهما بعض المسائل التافهة وما هي إلاّ لحظات حتى أفرغ في قلبه رصاصات مسدسه، فحكم عليه بالسجن المؤبد. كان هذا الشخص من محلة الصدرية وهي ملاصقة لمحلتنا، وكان أخي غني يعطف عليه وينعم عليه وكثيراً ما كان يرسل اليه الهدايا والفلوس، ولا سيما في مناسبات الأعياد والجمع، ولهذه الأسباب ولغيرها فإنه اهتم بي كثيراً خلال مدة محكوميتي، وكان يقدم لي الماء البارد وربما كنس محلي أو فرش فراشي على بساطه، أو غسل ملابسي أو ما شابه ذلك من أمور السجن.

وفي القلعة وجدت معي في نفس القاووش الضابط الذي أتهم بمحاولة قتل حبزبوز نوري ثابت[٢٣١]، وقد أخطأه عندما رماه بالموسى وهما في أحد المطاعم في الميدان، كما أنه قتل شخصاً آخر. لقد وجدت هذا الضابط وديعاً لطيف المعشر كريم النفس، وقد دعاني - غير مرة- الى أكلة ثريد، كانت عنده

---

[٢٣٠] مات قتيلا على يد غني، الشقيق الأكبر لصاحب المذكرات، على ما سيأتي بيانه.

[٢٣١] سبق أن أشار الى أنه تتلمذ عليه أيام كان طالبا في المدرسة الثانوية ببغداد.

بعض معلبات اللحم و(قواطي) لحم وكان (يحمِّيها) ويثرد فيها بعض الصمون، وكانت هذه المُعلَّبات تُهرَّب إليه بين الحين والآخر. وكم كانت مفاجأة سارة عندما دق باب دائرتي وأنا في وزارة المالية، وإذا بالطارق صاحبي المتهم بمحاولة قتل حبزبوز. كان قد أنهى مدة محكوميته وكان أن خرج من السجن ولكنه مع الأسف لم يبق على قيد الحياة طويلاً. كنت قد وجدت في السجن عبد الغني حمادي رفيقي في سجن الناصرية، وكان قد أخبرني أن مدير المتوسطة مع بقية المعلمين قد حكم عليهم (العُرفي) أحكاماً مختلفة، وكانوا أن أُودِعوا سجون العراق المختلفة، وكان أن أُرسل عبد الوهاب الركابي، الذي من أجله حكمت في المرة الثانية، سجن السليمانية؛ وأن شاكر ناصر قد أودع سجن أربيل. وقد وجدت في السجن أيضاً جماعة من شيوخ الأكراد كان قد حكم عليهم بمدد مختلفة ولكنها لا تقل عشر سنوات، كانوا قد اتهموا باغتيال أحد الرؤساء المهمين عن منطقتهم. وكانت لهذه الجماعة تقاليدها الخاصة فلا تختلط إلاّ قليلاً بغيرها من الناس، كما وجدت عدداً من أبناء الكاظمية الذين اتهموا بحرق دائرة البريد. كانت الحكومة على ما أتذكر أرادت أن تبني في محل ما دائرة أو مستشفى، وقد مانع أهالي الكاظمية بذلك بحجة أن الأراضي التي يُراد البناء عليها هي مقبرة. كانت مظاهرات عنيفة وكان هنالك قائمقام يدعى شاكر سليم لم يعالج الأمر بحكمة، وقد كان على جانب كبير من التعصب فاستعمل الرشاش ولا أتذكر كم وقع من القتلى والجرحى[٢٣٢]، ولكن أتذكر أنها كانت حادثاً توقف فيه عدد من وجهاء الكاظمية وفي مقدمتهم عبد الهادي الجلبي وأبو شاكر الأسترابادي

---

[232] جاء في البيان الرسمي الصادر بشأن هذه الحادثة أن عدد القتلى والجرحى من المتجمهرين، بلغ سبعة قتلى، وتسعة جرحى، ومن الشرطة قتل شرطي واحد وجرح أربعة، ويذكر الحسني أن عدد القتلى بلغ الثلاثين، ولم يذكر مصدره في ذلك. تاريخ الوزارات ج٤ ص ٨٩.

وغيرهما. وكانت جماعة الجلبية قد أطلق سراحها بعد المحاكمة ولم يبقى أحداً منهم في السجن... وقد وجدت بين السجناء شاباً اسمه ابراهيم أحمد كان على وشك أن يؤدي امتحان البكلوريا للصف الخامس الثانوي.

لم يكن يسمح للسجين بفراش ووسادة ولا بأي أكل من خارج السجن ولا بسكاير أو قهوة أو شاي أو أي شيء آخر. غير أنه قد أعتيد على أن يحصل بعض هؤلاء السجناء بمختلف طرق التهريب على بعض المواد الغذائية وعلى بعض السكاير والقهوة والشاي، وكان التهريب يجري بين حين والآخر، ولاسيما في مناسبات المواجهة كالأعياد أو المواجهات الأسبوعية في كل جمعة.

كنت أنام على فراش السجن المُسمّى بـ (اليَطَغ) وهو عبارة عن شيء يشبه الفراش ولكنه صغير وخفيف بحيث إذا ما تمددتَ عليه شعرتَ بقساوة الأرض وصلابتها وتشعر وكأن لا شيء يفصل بينك وبينها وكأنك نائم على الأرض مباشرة، ولم تكن هنالك وسادة بل كنت ألف بعض المتاع على بعضه وأجعله على شكل وسادة أضعها تحت رأسي مهما كانت قاسية.

لقد رفضت وزارة العدلية الذي كان يشغلها وزير الداخلية رشيد عالي بالوكالة اعتباري سجيناً سياسياً لكي أتمتع ببعض الحقوق. لقد اعتبرتني مجرماً عادياً شأني شأن غيري من المجرمين العاديين كاللصوص والقتلة والسفاحين، أنام كما ينامون، وآكل كما يأكلون، وتطبق على كافة تعليمات السجن وأنظمته، فألبس كما يلبسون، وأن يحلق شعر رأسي بالموس وأن أضع عليه (الفِينة)، وأن ألبس شيئاً يشبه الجنفاص، وأن تقيد رجلاي بالسلاسل باستمرار، وأن أشتغل بالأشغال الشاقة لأني حكمت بها وأن أحضر(المَسْطَر) صباحاً ومساءً.

وقد ضايقني أكثر ما ضايقني هذا الغذاء الذي يعطى للسجين، وهو شوربة في الصباح الباكر. كان يوقظنا الحراس قبل شروق الشمس بأكثر من ساعة، وكان عليّ أن أصطف مع المساجين من أجل التعداد، وكان هذا التعداد (المَسْطَر) يتكرر ثلاث مرات في اليوم. وأكثر ما يضايقني وقت الظهيرة عندما أضطر على البقاء في شمس تموز المحرقة تحت العراء مدة من الزمن حتى ينتهي تعداد السجناء وهم بالمئات. ولم يكن الغداء أفضل من الفطور، إذ هو هذه الشوربة التي ليس لها غير الاسم، ولم يكن ليتجاوز تلك الصمونة التي لا شك وأنها لم تصنع من الحنطة بل كانت خليطاً من بعض الحنطة والشعير ولربما أشياء أخرى، وبعض التمر وقليلاً من الخيار، ولم يكن العشاء ليختلف كثيراً عن الغداء، ولربما كان يقدم شيئاً من الجبن والتمر بين حين وآخر. ولا أتذكر أنهم قدموا التمن مع المرق، ولا أتذكر أنني أكلت التمن مع المرق حتى إذا قُدِّم، لأن التمن لم يكن ليأكل والمرقة لاتطاق. كانت نفسي قد عافت هذا الأكل وما كنت أطلب أكلاً من البيت لأنه ممنوع، وكنت لا أجرؤ أن اطلب المنوع، ولم أكن أقبل أن أقوم بالتهريب، وماذا يكون حالي لو أُمسك بي بغدائي المهرب، وهل يليق هذا الأمر بمقامي وهل يتفق مع أخلاقي، حتى ولو تجاوزت ادارة السجن عن معاقبتي. كانت نفسي قد عافت هذا الأكل الذي تعافه حتى القطط والكلاب، ولولا مشاركتي للمتهم بقتل حيزبوز ببعض أكلات التشريب لساءت صحتي فوق ما ساءت وانحطت فوق انحطاطها.

كنت قد حكمت بالأشغال الشاقة، وكان لابد من العمل الشاق فكنت أذهب يومياً مع بقية السجناء الى معمل الزوالي.. ولكن والحق يقال لم أشتغل بشيء، وإنما كنت أدخل المعمل وأخرج منه وأتحدث مع هذا وذاك حتى

يحين موعد الغداء وما كنا لنشتغل بعد الظهر. وكم من مرة زار معمل السجن بعض طلبة المدارس مع مدرسهم، وكم مرة عرفني بعض هؤلاء المدرسين وأنا بلباس السجن وقد وضعت الكِفِّية فوق رأسي أحميه من وهج الشمس وهو بلا شعر. وأني لأتذكر احدى هذه الزيارات وكان فيها المرحوم الدكتور شريف عسيران[٢٣٣]، وما أن شاهدني حتى اغرورقت عيناه بالدموع بالرغم من تجلده. وكان يزورني في السجن كثير من الأصدقاء والأهل والأقارب، وفي مقدمتهم الدكتور فاضل الجمالي وعبد الكريم الأزري ومحمد حسن سلمان وأحمد سهيل وخالد أمين، وكان قد زارني السيد عبد المهدي أكثر من مرة. وكنت بالرغم من سروري بمثل هذه الزيارات التي تقطع عليّ ظلام السجن وحياته الرتيبة التي قد خلت من كل شيء إلاّ من المنغصات والمزعجات، والتي قد مُنع فيها عليّ القراءة والكتابة. ولم أكن أرغب كثيراً في أن ألقى أصدقائي وأنا في لباس السجن المزرية قد وضعت الكفية على رأسي وشددت سلسلة الحديد التي تكبل قدمي من حزامي، ما كان يعجبني أن ألقى هؤلاء الأصدقاء وأنا في حالة ضعف، وما كنت أريد أن تثير فيهم هذه الحالة شفقة عليّ أو رثاء لي. ما كنت أريد من أحد أن يأسف على حالي ويتألم لوضعي، فلا يثير الألم والأسى إلاّ من نزل الدهر به، وما كنت أريد من أحد أن يشعر أنني نزلت حتى اذا نزل بي الدهر أو خان، أو نكبتني الحوادث وعصفت بي الأهواء. وما أنا بضعيف اذا ما كنت مكبلاً بالحديد، ولا ألبس إلاّ الجنفاص، ولا أحمي رأسي الذي حلقته الموسى إلاّ بكفية، وما أنا بمجرم إذا كنت سجيناً، وهل تكون هذه الالبسة إلاّ رمز شرف وفخار، وهل لا يكون هذا السجن الا

---

[٢٣٣] طبيب، ولد في صيدا بلبنان، وتخرج في الجامعة الأمريكية في بيروت سنة ١٩١٨، استوطن العراق سنة ١٩٢٣، تدرج في المناصب الطبية، ثم عين استاذا للصحة والفسلجة في دار المعلمين العالية، وانتخب عضوا في المجمع العلمي العراقي، وتوفي سنة ١٩٥٤.

دليل الكرامة والبراءة؟ وما كنت أتردد في لقاء الأصدقاء لأنه لا يعجبني أن أظهر ضعيفاً فحسب، بل لأني لم أرد أن أكون سبباً في ازعاجهم وايلامهم، وهل لا يتألم من يراني من الناس ولا يقطر قلبه دماً فكيف بالصديق وهو يعرف سبب النكبة ودوافع المحنة، كم ترددت في لقاء الأصدقاء بل كم مرة أحجمت عن هذا اللقاء، ولولا شعوري بأن الزائر متلطف ومتفضل لما لقيت أحداً، ولولا شعوري أن من العيب أن يُرَد مثل هذا الزائر المتكرم لرفضت مواجهة أحد. وقد كان يهمني إذا ما عرفت بأن الوالدة هي الزائرة، وكم كنت أتمنى أن لا تزورني! وكم مرة رجوت منها وقبلت يدها أن تمتنع عن الزيارة، وكنت أحتج عليها بأن الوقت حار، وبأنها كبيرة في العمر فلا يصح أن تجهد نفسها، والحقيقة اني ما كنت أُريد أن أبعث الألم في قلبها والحزن في نفسها وأنا اعرف كم هي رقيقة وكم هي حنينة ومشفقة، وكم يؤلمها أن ترى ابنها البكر الذي هو رب العائلة، والذي هو بمثابة الابن والزوج في آن واحد، ابنها الذي درس في أرقى الجامعات، لا ليزج به في السجن كما يزج القتلة والمجرمون واللصوص والسفاكون، بل ليقوم بأود العائلة وليرفع رأسها عالياً بين الناس.

كانت للمواجهة مراسيم، وكانت كلها مزعجة، فهي تتطلب الأذن والانتظار، وكثيراً من المصاريف. وكثيراً ما كانت تتم المواجهة في غرفة مدير السجن، فلم يكن لدينا حرية كافية لتبادل الحديث وكم من فكرة كبتناها، أو من رأي أخفيناه، لوجود مدير السجن معنا. ومع هذا كله فقد كان يلقي إلينا بعض الأخوان وبعض الأصدقاء ببعض الأخبار التي تتعلق بالأحكام العُرفية وإلغائها، ثم بأخبار أخرى سارة تتعلق باصدار العفو العام عن السجناء (السياسيين) كافة.

كم كان في السجن من مناظر مؤذية مؤلمة. كانت النظافة تكاد تكون معدومة، بل كان السجن قذراً، فلم تكن هناك مراحيض إلاّ هذه الصفائح القذرة، ولم يكن هناك حمام إلاّ هذه الحنفية (الطُلُمبَة) الواقعة في منتصف ساحة القلعة، وشكراً للموسم إذ كان صيفاً ولا أدري ماذا كنا نعمل لو كان الموسم شتاءً. وكان يأتي بعض الصبية من السجناء كل يوم للقيام بالتنظيفات اللازمة وما كانوا ليقوموا بهذه إلاّ باعطائهم بعض الدراهم أو بعض السكاير أو ماشابه ذلك من الأجور. وكم كانت تؤلمني حالة بعض المرضى، أو حالة بعض من يشتغل بالأعمال الشاقة خارج السجن، كالأعمال المتعلقة بالحفر أوغير ذلك. وكم كان يؤلمني حال من يُسجن سجناً انفرادياً لسبب من الأسباب أو يضرب بالسياط لمخالفة ارتكبها، وكان هذا الضرب يجري بعصا من الخيزران على مقعد الرجل بعد أن تُمد يداه على جهتيه وتثبت أمامه، وكثيراً ما كانت تُكسر العصا، وكثيراً ما يُدمّى المقعد.

كنا قد حُرمنا من القراءة ومن الكتابة، فلا يجوز قراءة كتاب أو قصة أو مجلة ولا يجوز كتابة شيء من الأشياء فلا قلم ولا قرطاس، ومع هذا فقد كنت لولباً في حركة قمنا بها ونحن في السجن حيث كنت أكتب كل عرائض الشكوى والتظلم الى السلطات الخارجية. كنت أحرر مثل هذه العرائض للسلطات، وكنا نكتبها للنواب وللناس، حتى باتت هذه العرائض تقض مضاجع سلطات السجن التي تريد معرفة من يحررها ومن يرسلها.

كان همنا أن نتلقف الأخبار مادامت أسوار السجن العالية تعزلنا عن العالم الخارجي. كنا نود أن نعرف ما يحدث في بغداد وفي الديوانية، وقد عرفنا أن المجلس العرفي طغى وتكبر وعاث في الأرض فساداً، وتجاوز حده، فلم يتقيد بعُرف ولا قانون، ولم يقتصر بأعماله على منطقة الثورة، بل مد يده

الى أبعد من ذلك فوصلت الى أكثر ألوية العراق، والى أبعد الأماكن وأقصاها، وأضحى لا يتردد في توقيف أي شخص مهما كانت منزلته حيثما كان، في منطقة الثورة أو خارجها. لقد أرهب الناس وظلم الأبرياء ولا سيما بعد أن أخمدت الثورة وخلا الجو لروح الحقد والتعصب والبغضاء والانتقام. وقد كان عبد الرحمن خضر هو هذه الروح التي كانت تهيمن على هذه الأعمال. كان عبد الرحمن خضر ومن ورائه اسماعيل الأغا رئيس مجلس العرفي وعلى رأسهما بكر صدقي قد وجدوا في هذه الأحكام العرفية فرصة سانحة لتصفية العناصر المناوئة حسب مفهومهم، وما كان يريد بالدرجة الأولى إلاّ تصفية العناصر السياسية المتنفذة والشباب المثقف، وبعد أن صب جام غضبه وحقده على العناصر المثقفة أراد هذه المرة أن (يتناوش) رجال السياسة والمتنفذين وفي مقدمتهم السيد عبد المهدي عضو الهيئة العليا لحزب الاخاء الوطني وصديق ياسين الهاشمي ورشيد عالي الكيلاني. لقد حاكم هذا المخلوق وحكم على عدد غير قليل من شيوخ العشائر البارزين وعلى بعض النواب، ثم طلب - حسبما سمعنا - الموافقة على توقيف السيد عبد المهدي. وهكذا تجاوزت أعمال المجلس العرفي كل حد وعرف ومألوف فأفزعت الناس، وأضحى المجلس عاملاً سياسياً في اقلاق الناس وفي اضطراب الأمن ونشر الفوضى وعدم الطمأنينة، بدلاً من ان يكون عاملاً في الاستقرار واستتباب الأمن. وكان لابد من انهاء أعمال المجلس والغائه قبل أن يستفحل الأمر ويثور الناس مرة أخرى. ولقد سمعنا أن الغول قد جُندِل، وأن الكابوس المخيف قد رفع من على صدور الناس، وسمعنا أن المجلس العرفي قد أُلغي ووريت جثته النتنة التراب غير مأسوف عليها، تلاحقها لعنة الناس من كل فم. وكان يهمنا أن نسمع - نحن الذين ظلمنا وقُسي علينا هذا المجلس واضطهدنا، الذين كبلنا

في القيود والسلاسل وزجنا في غياهب السجون وظلماتها - أن نسمع ما عسى أن يكون مصيرنا وماذا سيتم من أمرنا. كنا نسمع أخباراً مطمئنة بل أخباراً سارة، منها أن الحكومة مهتمة بشأننا، وأن البلاط من ورائها يشجعها على ايجاد حل لمشكلتنا، ثم سمعنا أن الفكرة قد تبلورت وأن السيد رستم حيدر[٢٣٤] وزير البلاط قد تبناها، وأنه يحث الحكومة كل يوم على استصدار عفو عام يشمل كل هذه الجرائم السياسية واطلاق سراحنا. وكان قانون العفو العام قد قدم الى المجلس وأخذت أخباره وأخبار مناقشة النواب له تنقل الينا، وكم كنا نتأثر اذا ما طالت المناقشة وكثر الكلام وانفضت الجلسة وتأجلت المصادقة عليه. وقد استغرقت مناقشة القانون عدة جلسات، ثم رفع الى مجلس الأعيان بعد المصادقة عليه من قبل مجلس النواب وحينما انتهى الأعيان من مناقشته والمصادقة عليه رفع الى البلاط للمصادقة عليه. وكنا قد علمنا بأن القانون سيصبح نافذ المفعول اعتباراً من ٨ أيلول سنة ١٩٣٥ وهو يوم عيد تتويج الملك غازي، وأنه سيطلق سراحنا في هذا اليوم ابتهاجاً بهذه المناسبة السعيدة.

الحرية مرة أخرى

كان قد مضى على شهر حزيران بكامله تقريباً وأنا أنتقل بين الموقف في الناصرية وبين بغداد وبين الرجوع الى الديوانية حتى أُدخِلت سجن بغداد في ٥ تموز، وقد بقيت في هذا السجن حتى ٨ أيلول حيث أُطلق سراحنا،

---

[٢٣٤] لبناني الأصل، ولد سنة ١٨٨٩، ودرس القانون في فرنسا، وانضم الى جمعية العربية الفتاة، ثم التحق بالشريف حسين بالحجاز، ثم بالملك فيصل في سوريا، ثم في العراق، وتقلب في المناصب الإدارية حتى أختير وزيرا للمالية سنة ١٩٣٠ وما يذكره المؤلف هنا جرى يوم كان رئيسا للديوان الملكي، فقد تولاه في ٢٥ تشرين الثاني ١٩٣٤ ولبث فيه الى١٤ تشرين الثاني سنة ١٩٣٩.

وكانت طبقة الأصدقاء التي تزورني لا تزور غيري من السجناء، وإذا زارني صديق فلابد من أن يتصل كثير من السجناء - ولا سيما السياسي منهم - يسألونني متلهفين عن الأخبار، وكان أن زارني مرّة السيد عبد المهدي فأسَرَني بخبر اهتمام رستم حيدر ممثل البلاط في أمر اطلاق سراحنا، ثم أنه زارني مرة أخرى فأسرني بأنه سيُطلق سراحنا في ٨ أيلول. وما أن القيت بالخبر الى بعض الأصدقاء حتى انتشر بين السجناء.

ثم كان ٨ أيلول، وقد بلغنا بالخبر السار ونحن غير مصدقين من شدة الفرح والسرور. وساد القوم الهرج والمرج، فكان هذا يرقص وذاك يغني وآخر يصفق. كان الكل في حالة غير طبيعية وكان صياحهم قد ملأ الدنيا، ثم كان ازدحام وتسابق وتدافع كل يريد أن تكسر سلسلة يده قبل غيره. ولا اريد أن أقول بأنني لم أفرح عندما تلقيت الخبر بل فرحت به كما فرح غيري وابتهجت كما ابتهج الكل، غير أني لم انفعل كما انفعلوا ولم يظهر عليّ هذا الانفعال في حركاتي وتصرفاتي كما بدا على حركاتهم وتصرفاتهم، وإنما تلقيت الخبر برزانة وهدوء وإن كنت مبتهجاً مسروراً، بينما اندفع غيري يتصايح ويتدافع. لقد كنت بارداً هادئاً أتفرج على القوم كيف يتراكضون كأن الأمر لا يعنيني وكأنني غير مبالٍ بالزمن وهو ينتظرني. وما أن وقفت بعيداً عنهم بعض البعد وحيداً غير مكترث حتى تقدم مني الحاج عباس هدية، وصنعته في السجن حداد، متسائلا: ما هذا يا ابن العم؟ وقفتَ وكأن الأمر لا يعنيك! لله درك ما أشجعك وما أصبرك، هيا بنا! ثم أخذني قريباً من سِندانة ضخمة ثم هوى بمطرقته على هذا القيد الحديدي السميك الذي كان يطوق قدمي اليمين، ثم هوى به مرة أخرى على القيد الذي كان يقيد قدمي

اليسار، واذ كان يهوى بهذه المطرقة الجبارة خشيت أن تقع على ساقي فتهشمه ولا تكتفي بتهشيم الحديد.

كنا قد كسرنا الحديد ونبذنا الجنفاص ورمينا كفية الرأس ولبسنا البستنا العادية وحزمنا (أغراضنا) وتهيأنا للخروج واذا بهم يقولون لنا: لابد من الانتظار قليلاً فان وزير الداخلية رشيد عالي الكيلاني سيأتي الى للسجن ويريد أن يلقي فينا كلمة قبل أن نخرج من الظلمات الى النور، فانتظرنا ثم انتظرنا حتى طال بنا الانتظار، وساورنا الخوف والقلق، وصرنا نسأل أنفسنا ما الذي حدث؟ هل استجد شيء، هل غيَّرت الحكومة رأيها، هل نحن باقون في السجن؟ وبينما نحن في وسط هذه الهواجس وهي تتجاذبنا من كل جهة ومكان، سمعنا صوتا ينادينا بأن تهيأوا للخروج فلقد انشغل وزير الداخلية ولن يتمكن من الحضور. وما أن خرجنا حتى وجدنا الساحة التي تحيط بباب السجن قد ازدحمت بالأهل والأصدقاء، وكلٌ ينادي على صاحبه ويهجم عليه لثماً وتقبيلاً، والنساء يهلهلن ويزغردن، والخِراف تُنحر هنا وهناك. ولم يكن من الهيِّن أن أشق طريقي بين هذا الحشد المحتشد يحيط بي أهلي وأصدقائي وأخوتي يتقدمهم أخي غني حتى أصل الى السيارة، فركبت فيها وبعض اخوتي ووالدتي، واتبعتها سيارات أخرى انطلقت بنا حتى وصلنا الدار أو ما يقرب منها لأن الدار لم تكن على شارع عام، وأن الشارع الموصل كان ضيقاً.

ذهبت الى دار خالي لوجاهته، وهي نفس الدار الذي نزلت فيها بعد رجوعي من أمريكا، وقد استقبلت فيها كثيراً من الأصدقاء لمدة ثلاثة أيام وأكثر، فلقد أثارت قضية سجني كثيراً من اهتمام الناس، وصار الظلم الذي لحقني حديث المجالس. حيث عرف كثير من الناس ببراءتي وأنني ابعد

الناس عن الثورة والثوار، وأن ما أصابني كان اعتداء صارخاً على أبسط مفاهيم الحق والعدل، ولولا روح الشر التي كانت مسيطرة على رجال المجلس العرفي لما أصابني هذا الظلم، بل لما أصابني غير التقدير والتشجيع لما اسديته من خدمات جُلّى لهذا اللواء الفقير المتأخر. ولهذه الأسباب زارني كثير من الأحبة والأصدقاء من المعارف، بل كثير من الناس الذين لم تكن تربطني بهم إلاّ روابط بسيطة، ولم تكن تجمعني بهم إلاّ معرفة سطحية، وما كنت أعرف قبل هذا كيف يكون المظلوم محبوباً عند الناس، يقدره ويحترمه من يعرفه ومن لا يعرفه. كانت عواطف القوم وهم يزورونني تطفح على لسانهم ووجوههم وكنت أشعر بحبهم وبطيب نفوسهم وبدماثة خلقهم، وانهم وأن تألموا على ما أصابني من أذى غير أني ارتفعت في نظرهم وكبرت في نفوسهم. ولا أريد أن أقول بأني لم أحس بمن تنكر أو بمن نفر، فقد كان هناك اناس تغيروا وتبدلوا، وكانوا يتجنبون الاتصال بي، ولا يريدون أن يرونني، وإذا ما رأوني صدفة فلابد وأن يديروا رؤوسهم ويشيحوا بوجوههم. وكان هؤلاء الناس على ضربين، فأما أن يكونوا جبناء رعاديد لا يريدون أن تربطهم أية رابطة بمن سمّاه المجلس العرفي مجرماً وزج به في السجن، فإن مثل هذه الرابطة أو الزيارة أو السلام قد تسبب مشاكل والتباسات، وما شأنهم وهذه المشاكل؟ وهم الذين لا يعرفون من وراء مثل هذه الروابط غير المصلحة الذاتية فاذا ما انتهت هذه المصلحة فلماذا اذن هذه الرابطة؟ وعَلام هذا التزاور ولم هذا السلام؟ وكان هناك ضرب آخر من الناس مريض بأمراض نفسية كثيرة وتتسلط عليه عقد معقدة متنوعة. هؤلاء لايجدون راحة الاّ اذا وشوا بالغير، واذا كان مثل هؤلاء مرضى فلا ينظرون الى الغير إلاّ بنظر المريض نفسيا الحقود. فاذا ما أكل قلوبهم الحقد فلا بد وأن يحقدوا على الغير، فإذا ما

ظلمت فلا يهمهم بأنني ظلمت ولا يهز نفوسهم هذا الظلم ولا تدفعهم قلوبهم الى استنكاره والى رفع أصواتهم للاحتجاج ضده، واذا ما ظلمت فلا يهمهم غير السكوت عن هذا الظلم الذي داس كرامة الانسان وحريته المقدسة، ولسان حالهم يقول: ما دام قد حكم فلابد وأن يكون مجرماً! أما ان يكون هذا الحكم دليل ظلم واضطهاد ورمز البراءة فلا شأن لهم بذلك. وبالرغم من هذا كله فقد شعرت في هذه المحنة بطيبة النفس البشرية وبعنصر الخير فيها، وإذا ما شعرت بتنكر بعض النفوس وخبث سريرتها، فقد شعرت بأن أكثر من زارني وأتصل بي كان يتحرق شوقاً لملاقاتي ويتلهف لسماع أخباري، وعلمت بان عواطفه كانت عواطف صادقة نبيلة لا تكلف فيها ولا تصنع ولا نفاق ولا رياء.

لقد سرت إشاعة قوية، ولما يمضي على خروجي من السجن يوم أو يومان، مفادها أن الحكومة ألقت القبض عليَّ ثانية وزجت بي في السجن مرة أخرى، وكان كل من رآني تعجب مما سمع وعاد اليَّ واحتار كيف يوفق بين الأمرين إلاّ أن تكون الإشاعة كذباً، وقد سمعت بهذه الإشاعة وسخرت منها ولم أعرها أي اهتمام ولكنني أخفيتها عن أهلي وعن والدتي. وكنت قد ذهبت ذات مرة مع الدكتور الجمالي إلى داره إذ دعاني على الغداء ولم يكن في داره تلفون للاتصال بالأهل واخبارهم عن التأخير، وما كنت أدري وأنا أنعم بالرفقة اللطيفة وبالغداء اللذيذ ما سببته للأهل من كدر وإزعاج. فلقد فتشوا عني فلم يجدوني، وتأخرت ولم أخبرهم عن التأخير، فما كان منهم إلاّ أن صدقوا ما دار في أذهانهم من هذه الاشاعة التي وصلت الى كثير من الآذان بسرعة. ولم تكن الإشاعة محض افتراء فقد اكتشفت أخيراً أثناء اطلاعي على الكتاب الذي صدر في وزارة الدفاع بتوقيع ياسين الهاشمي وجواب وزارة

العدلية بتوقيع رشيد عالي الكيلاني، أن الكتاب يتضمن بأن قانون العفو العام لفقرة فيه من الفقرات لا يشملني أصلا، وان شمولي به كان خاطئاً. وكان كتاب وزارة العدلية يتضمن بأن قانون العفو العام يشملني وأنه لم يصدر إلاَ للفصل في مثل هذه القضايا وعَمَن حكم بها، وكان هذا الرأي مستنداً إلى رأي في ديوان التدوين القانوني.

كان الشيخ محمد رضا الشبيبي وزيراً في وزارة ياسين، وكان مسؤولاً عن أعمالها في الديوانية وفي لواء الناصرية، ولكنني سمعت أن الشيخ لم يكن مرتاحاً من كثير من تصرفات الوزارة ولا سيما تصرفات رشيد عالي، ولم يكن ليرضى عما حدث من مجازر في هذين اللوائين، وعما حدث من تخريب القرى وحرق البيوت وتشتيت الناس وشنقهم أو زجهم في السجون، وكان كثيراً ما اعترض على هذه التصرفات واحتج عليها، بل رفض اصدار أوامر بفصلنا من وظائفنا بعد أن حكم علينا المجلس العرفي وزج بنا في السجون، ثم أصر على هذا الرفض. وحتى بعد أن خرجنا من السجن وشملنا العفو العام، لم يكن الشيخ ليرضى أن يظلمنا كما ظلمنا المجلس العرفي، وأن يضطهدنا فوق ما اضطهدنا، فيكفي أننا أُهِنّا في كرامتنا وأننا نُكبنا في حريتنا وسُجِنّا على أقبح صورة وفي أقذر السجون، وعوملنا بأقسى معاملة، ألا يكفي هذا وغير هذا حتى يُطلب من الشيخ فصلنا من وظائفنا وقطع لقمة العيش عنا وهو الذي أراد مساعدتنا وسعى لتخفيف الظلم عنا. وفي الواقع فان علاقة الشيخ بالوزارة بدت متوترة، وكان هذا التوتر يزداد يوماً فيوماً حتى طُلِب إلى الشيخ فصلنا، ثم أُلحَّ على هذا الشيخ في هذا الطلب، فما كان منه إلاّ أن استقال[٢٣٥]،

[٢٣٥] وضح الشيخ الشبيبي أسباب استقالته في إفادته التي قدمها الى السيد عبد الرزاق الحسني، وأودعها هذا في كتابه تاريخ الوزرات العراقية ج٤ ص١٢٢ وأقصى ما جاء فيها أن رئيس الوزراء كان متأثرا

وما كان من ياسين إلا أن رحب بهذه الاستقالة، وعين صادق البصّام[٢٣٦] وزيراً للمعارف في نفس اليوم الذي قُبلت فيه استقالة الشيخ دون تباطؤ أو تأخير.

كان صادق البصام قد عُين حديثاً مديراً عاماً للأملاك براتب (٤٨) ديناراً شهرياً على ما أتذكر، وقد سبق له أن كان نائباً في المجلس مرة أو مرتين، وهو من أتباع ياسين الهاشمي ورشيد عالي الكيلاني ومن أعضاء حزبهما. كان في مقتبل العمر ولم يكن يتجاوز سنه ٣٥ سنة آنذاك. كان من شباب محلة (السُوَيْدان) وهي لا تبعد عن محلتنا الهيتاويين إلاّ عشرات الخطوات بل أنهما في الحقيقة محلة واحدة وان سميت وأطرافها باسماء مختلفة كصبابيغ الآل والقِشَل والصدرية. وكانت هذه المحلة بأطرافها تقع بين محلة أبي سيفين ويسكنها اليهود ومحلة عقد النصارى ويسكنها النصارى.

كان صادق البصام قد درس الحقوق، وبرز في المجلس النيابي بعض البروز، وكان لابد من مكافأته فعُيِّن نائبا[٢٣٧] ثم عين مديراً عاماً ثم استوزر في مدة قصيرة. وكان أن اشترط عليه أول ما اشترط أن يفصل فاضل الجمالي من المديرية العامة، وان يأتي بطه الهاشمي وكيلاً لمدير المعارف العام[٢٣٨] وهو رئيس لأركان الجيش، وأن يعيد ساطع الحصري الى الوزارة بوظيفة مدير التربية والتدريسات العام بعد أن خرج من المعارف او أخرج منها عدة سنوات. كما اشترطت عليه أشياء كثيرة، منها إصدار الأوامر بفصلي وفصل

بالدعاية التي قامت إذ ذاك ضد وزارة المعارف حتى أدى ذلك الى تأخير مقترحاته في ديوان مجلس الوزراء، هذا فضلا عن معارضته تعيين طه الهاشمي مديرا للمعارف على ما يذكر المؤلف هنا.

[٢٣٦] سياسي، انضم أولا الى حزب الاستقلال السري، وتخرج في كلية الحقوق، ثم تدرج في الوظائف حتى أختير وزيرا للمعارف في وزارة طه الهاشمي (٣١ كانون الثاني ١٩٤١– ١ نيسان ١٩٤١) على ما يذكر المؤلف هنا.

[٢٣٧] ربما أراد: فانتخب نائبا.

[٢٣٨] أي مديرا للمعارف بالوكالة وذلك بسبب إشغاله آنذاك رئاسة أركان الجيش.

جميع المعلمين ومدرسي المدارس الذين حكم عليهم المجلس العرفي والذين أمتنع الشيخ عن فصلهم. وهكذا فقد وقع أوامر الفصل هذه في أول يوم داوم فيه في ديوان الوزارة وهو يستقبل الزائرين والمهنئين بالمنصب الجديد. وكان أول عمل قام به وأول توقيع قام يتوقيعه هذا اصدار أوامر الفصل هذه! ثم قام على اثر ذلك بعملية تطهير واسعة تستند على اقتراح ونصائح ركن المعارف طه وساطع، فنقل الدكتور شريف عسيران من دار المعلمين وطبابة المعارف، وأخاه عبد الكريم عسيران مدير التربية الى الموصل، ونقل حسن صباغ مدير التربية من ديوان الوزارة الى عمل آخر، ونقل الدكتور فاضل الى وظيفة ثانوية، ثم اقترح اقتراحاً رسمياً الى مجلس الوزراء بضرورة فصله حسب المادة (١٥) المعدلة في قانون انضباط موظفي الدولة وهذه المادة لا يمكن الفصل بموجبها الا اذا كان الموظف سيء السلوك او ضعيف المقدرة! نعم لقد اقترح صادق البصام فصل فاضل الجمالي من الوظيفة وهو الذي يحمل شهادة الدكتوراه، شهادة الاختصاص في علم التربية. ولقد زعل ياسين من هذا الأقتراح وغضب رستم حيدر من سخافته فرمي في سلة المهملات.

فصل عن الوظيفة

فصلنا صادق البصام من وظائفنا وقطع لقمة العيش عنا، وكان الكثير منا ينوء تحت أعباء عائلية ثقيلة، ولم يكن له مورد غير الراتب، ولا يستطيع القيام بعمل أخر غير عمل الوظيفة. وإذا كانت أحكام المجلس العرفي فيها قطعية ولا يمكن استئنافها، فأن قرارات الوزير ليست كذلك، ولذا أقمتُ الدعوى لدى المجلس على وزير المعارف بالإضافة الى وظيفته، وطلبت اعتبار أمر الفصل خطأ ولا قيمة له من الوجهة القانونية، وقلت أن أمر الفصل قد

وقع في الوقت الذي كنت أتمتع فيه بكافة حقوقي القانونية ولم أكن فيه مضرباً ولم أرتكب جرماً. وكنت قد حكمت من قبل المجلس العرفي ولكن وزارة المعارف لم تصدر أمراً بالفصل، وكنت قد خرجت من السجن بعد أن شملني قانون العفو العام، ولما كان هذا القانون يلغي الجريمة من أساسها ويعتبرها كأن لم تقع ويلغي العقوبة من أساسها أيضاً ويعتبرها كأن لا وجود لها، وأن من شمله العفو العام يعتبر وكأنه لم يرتكب جرماً قط ولم يعاقب أبداً، فكيف يجوز - والحالة هذه - لوزارة المعارف بعد أن شملني العفو العام وأعفائي من الجريمة والعقوبة معاً أن تصدر أمراً بفصلي باعتبار أن المجلس العرفي حكم عليَّ وسجنني، إنما فصلني في الوقت الذي لم يعد الحكم العرفي ولا لعقوبته أي أثر قانوني، وعليه فانها فصلتني وأنا بريء من كل شئ، وما دامت لم تفصلني عندما كنت محكوماً فلا يحق لها فصلي وأنا قد شملني العفو العام وأصبحت بريئاً، ولا يجوز اصدار أمر الفصل لشمول ما قبله، وهي عندما فصلتني لم تفصلني لجرم جديد بل لجرم سابق كان قد الغي من أساسه واعتبر وكأن لم يكن. كانت هذه وغيرها هي الحجج التي تقدمت بها لمجلس الانضباط العام، ولا أريد أن أنال في هذه الكلمة من رجاله أو من أحكامه بشئ، ولكن يؤسفني أن أقول أن هذا المجلس كغيره من المؤسسات لابد وأن يقع تحت نفوذ الحكومة، فقد كان رشيد عالي هو وزير العدل، وكان مجلس الانضباط العام تابع لوزارة العدل ورجاله موظفون في وزارة العدلية، فهل يعقل أن يخرج المجلس على ارادة الحكومة؟ وهل أن القضية تتعلق بفرد واحد أم أنها تتعلق بالعشرات من الموظفين؟ وأنه إذا ما حكم لهذا الشخص ألا يُشكِّل الحكم سابقة يستفيد منها كل من تضرر وكل من حُكم من قبل المجلس العرفي؟

لم يكن من رأي الحكومة أن ينصف من حكم بالعرفي وأن يبقى موظفاً فيها، ولو كان هذا رأيها لما فصلته، ولما ألحّت على الشيخ رضا بالفصل، ولما استخدمت صادق البصام لأجراء هذا الفصل الكيفي بمثل هذه الرعونة والطيش التي امتاز بهما. لقد خسرت الدعوى ولم يجرؤ الانضباط العام على أن يخرج من تأثير الحكومة فلا يلبي رغبتها، وما كنت استبعد مثل هذه النتيجة، وما كانت بمفاجأة لي، ولكن أردت أن أقيم الدعوى وأردت أن أتحدى الحكومة الجائرة وأن أفضحها سواء أخسرت الدعوى أم ربحتها، فإن خسرتها فما أعطيت إلاّ برهاناً جديداً على تعسفها واستمرارها في طغيانها وضربها للعدالة في صميمها، وأنها لا يمكنها الا أن تظلم سواء أكان ذلك عن طريق المجلس العرفي أم عن طريق مجلس الانضباط العام، وأن ربحتها فلا يكون هذا الربح إلاّ إثبات جديد على أنه لم يكن لها الحق في اصدار أوامر الفصل وأنها خرقت القانون وداست على الضمير وتجنت على البراءة والأبرياء. لقد خسرت الدعوى ولكني ربحت عطف كثير من الناس وكسبت شطراً غير قليل من الرأي العام.

كانت الأسابيع تمضي سراعاً والأشهر تباعاً وأنا عاطل بغير عمل، أنا الذي أمضيت زهرة شبابي في الدرس والتحصيل غريباً عن الأهل والوطن، والذي حصلت من بين عدد قليل من العراقيين على شهادة (الماستر) من أحسن الجامعات وأرقاها في الولايات المتحدة. وإذا كنت وأنا شاب صغير فقد ترددت قليلاً مع بعض الأخوان على مقهى ناصر الأرمني في الصالحية أو كازينو عباس، فإني لم أعد أتردد، وخصوصاً بعد رجعت من الولايات المتحدة على أية مقهى وكازينو، وانما كنت أقضي أكثر الوقت في دارنا القديمة وهي دار والدي الذي ولدت فيها، وكانت دارنا قديمة لا تتوفر فيها

وسائل الراحة وليس فيه من متحدثات المدينة بشيء وكان يعج بالكبار ويضج بالصغار. وكنت أقضي معظم الوقت في هذه الدار أتلذذ بنعمة الباري عليَّ بأن وهبني نعمة القراءة والكتابة، فكم من كتاب قرأت لم يتسع وقتي السابق لقراءته وأنا مشغول بمهام الوظيفة، وكم من مقالة كتبت كنت اجد الحرج من ضيق الوقت لكتابتها، وكنت اذا ما ضجرت القراءة وسأمت الكتابة أذهب لزيارة بعض الأصدقاء في دوائرهم. وكنت ذات مرة أزور عبد الكريم الأزري في البلاط الملكي إذ كان قد عين معاوناً لرئيس الديوان الملكي بعد أن نقل من سكرتارية وزارة المعارف على أثر ضجة كبرى كانت قد أثيرت ضده تتهمه بالتخريب والانحياز، وما كان عبد الكريم غير شاب مثقف رأى كثيراً من الاعوجاج في سياسة المعارف فلم يرد إلاّ أن يعمل ولو قليلاً من أجل تسوية هذا الاعوجاج قدر المستطاع، وأن يضع بعض الخطوط التي من شأنها أن تؤمن بعض العدالة والأنصاف. وكانت وظيفته الجديدة التي لم تكن إلاّ اسماً ضخماً دون عمل عدا رفع بعض الأوراق والتقارير البسيطة الى رئيس الديوان، ولم يكن يشغله وهو في هذا المركز إلاّ قراءة بعض التقارير القديمة المهمة، واذا به يقول لي: أن رستم حيدر يرغب في مواجهتك! ثم خرج من غرفته الى غرفة رئيس الديوان، ثم رجع وقال: تفضل.

دخلت على رستم وقد تلقاني واقفاً، وصافحني بشيء من الحرارة وقد ارتسمت على محياه ابتسامة أو شيء يشبه الابتسامة الغامضة، ثم أشار إليَّ بالجلوس، وكنت قد رأيت رستم قبل هذه مرة أو مرتين، وفي كل مرة ألقاه بها كان يدهشني منظر رأسه الأصلع الذي بدا قد حلق بموس، ويعجبني أسلوبه الساحر ومنطقه العذب، ولم استعد لهذه المواجهة، وعرف هو بأني

فوجئت بمواجهته، وقد أعجبني أن أزوره دون موعد سابق وأن أتحدث اليه دون تهيئة ولا استعداد. وسألني عن قصتي في المنتفك.

ولا أتذكر كيف قصصت عليه القصة، وماذا سردت له من وقائع ومآس، ولكنني أتذكر أنها كانت قصة مختصرة ومركزة. قلت له: أنني أتكلم معك وأنا أعرف مدى عطفك عليّ ولذلك سوف أُصارحك ولا أكتم عنك شيئاً، وأرجو أن تطمئن باني صادق في كل حرف مما أقوله.

١ ـ لقد قلت له أنني بريء وانني لم أشترك في أي ثورة، ولم يكن لي أي يد فيها لا من قريب ولا من بعيد، وأنني لا أعرف الثوار ولا زعماءهم، وأنني فوق هذا كله لا أُحبِّذ الثورة ولا أرى فيها طريقا للاصلاح أو لتحقيق أي مطلب وأن كان عادلاً، بل أنني ضد الثورة وأنني قد استقبحتها واستنكرتها.

٢ ـ قلت له: أني يؤسفني أن أقول أن المجلس العرفي لم يكن عادلاً ولا منصفاً بل كان قاسياً ظالماً، ويؤسفني أن اقول أنه حاكم الناس بعقلية ضيقة وروحية مقيتة. كان قد فسَّر ثورة الناس حسبما اشتهى وليس حسب الدوافع الحقيقية. أن الثورة لم تقم لأن بعض أفندية بغداد أرادوها، لقد ذهب كثير من الناس ضحية المجلس العرفي وهم أبرياء.

٣ ـ أن السلطات كانت قاسية وأنها أُخمدت الثورة دون شفقة ولا هوادة فدمرت القرى وأحرقت البيوت وقد ذهب الأخضر بسعر اليابس.

٤ ـ لقد شعرت شعوراً قاسياً مؤلماً وخطراً في آن واحد إذ أحسست أن الحكومة في واد والناس في واد آخر وأن هناك حواجز تفصل بينهما وقد أصبحا وكأنهما بعيدان عن بعضهما، وكأن أحدهما أجنبي عن الأخر ولا تربط بينهما روابط الأخوة والوطن الواحد.

٥ ـ أكدت لرستم حيدر بأنني لم أبذل ما بذلت من نشاط في هذا اللواء لأنه لواء من الوية الجنوب ولأنني أحد أبناء هذا اللواء، بل ما عملت إلاّ واجبي، وما قمت إلاّ بجزء يسير مما يحتم علي هذا الواجب. ولو أنني في أحد الألوية الشمالية لما فترت عزيمتي وقل نشاطي بل كنت أعمل حسبما تدعو اليه الحاجة وليس لأي سبب أو اعتبار آخر.

٦ ـ لقد أكدت لرستم حيدر بأنني إذا ما تقبلت هذه التضحية، وإذا ما سكت على ما أصابني من اضطهاد وظلم، باعتبار أن ما حدث هو ثورة، وقد تقع في الثورات ضحايا وقد يظلم فيها أبرياء، ولكنه لا يصح السكوت على كل حال عن هذه الروح الضيقة التي كان يحملها بعض المسؤولين والتي رحت ضحيتها، هذه الروح التي تهدد كيان الأمة وتنذر مستقبلها بالخطر، واذا كان من الممكن أن نتسامح في شيء أو نتساهل في أمر فلا يمكن التساهل والتسامح في أمر هذه الروح الخبيثة التي هي أفضع من أي وباء آخر.

كنت أتكلم عن هذه الأمور وغيرها، وكان رستم ينصت إليّ باهتمام وهدوء، فنسيت نفسي وأنا أتكلم ونسيت ما لاقيته من محنة واضطهاد، وقلت: ما قيمة شخص إذا ما ذهب ضحية في سبيل مستقبل الأمة ووحدتها، وقلت فاذا ما تكلمت فلا أتكلم عن نفسي بل أتكلم عن مستقبل هذه الأمة ومصيرها. ولقد أُعجب رستم بحديثي، واعجب بأفكاري الواضحة وأهدافي العالية، وقدر فيّ تحمل التضحية الشخصية في سبيل الصالح العام. وما أن انتهيت حتى رفع سماعة التلفون قبل أن يكلمني وطلب شخصاً أخر، وكان هذا الشخص هو رئيس الوزراء ياسين الهاشمي، وقال له: باشا عندي عبد المجيد محمود مدير معارف لواء المنتفك وقد قص عليّ قصته، وكم كنت أتمنى لو كان فخامتكم يستمع الى هذا الحديث من وراء جدار أو ستار لتقدر

روحية هذا الشاب وتفكيره الطيب، فهل لي أن أرجوك أن تستدعيه لتسمع قصته أنت بنفسك؟ ثم وضع السماعة، ولم أدر ما دار بينهما من حديث غير أنه التفت اليّ وقال: اذهب فأن الباشا في انتظارك. لم أكن قبلاً قد دخلت مبنى رئاسة الوزراء، ولم أكن قد زرت رئيساً للوزراء وهو في مكتبه الرسمي. وما أن دخلت عليه ورآني إلاّ قام وخرج قليلاً من وراء منضدته الكبيرة، وقال: ها أنت مدير المعارف، أنت الذي حكمت من العُرفي؟، يشير إليّ أنه قد عرفني سابقاً وأنه قد نسي الاسم. وكنت قد اجتمعت مرتين أو ثلاث عندما طلبت رؤيتي والتعرف إليّ بمناسبة ما كنت أكتبه من بعض المقالات الافتتاحية في جريدة الحزب الذي كان يرأسه عن الوحدة العربية وعن نواحي هذه الوحدة الاقتصادية والسياسية وما شابه ذلك، وكان يشير إلى أني اجتمعت به أكثر من مرة عندما كان وزيراً للمالية. وكان أستاذ الاقتصاد الزراعي في جامعة كولومبيا قد طلب مني اخباره عما اذا كانت الحكومة العراقية ترغب في الاستفادة من خبرته لدراسة أحوال العراق الاقتصادية وبخاصة من نواحيها الزراعية، لاسيما وهو الذي استقدمته بعض أقطار شرق اوربا وقام بهذه الدراسات، ثم نشرها في كتاب وأهدى نسخة منه إليّ. وكنت قد ذهبت الى وزارة المالية وأردت مقابلة الوزير فحدد لي موعداً لمقابلته في عصر يوم من الأيام وربما كان ذلك في سنة ١٩٣٢ أو ١٩٣٣ وقدمت إليه رسالة الاستاذ وكذلك مؤلفه، ثم طلب مني أن أُواجهه بعد بضعة أيام لدراسة الرسالة والكتاب وتقديم الجواب اللازم ثم أواجهه من الموعد المضروب، ولكن الباشا لو يوافق على استقدام الاستاذ لأنه لم يقتنع بفوائد استقدام مثل هذا الخبير.

كان الباشا عندما بدت عليه الدهشة والاستغراب يشير إلى أنه قد عرفني سابقاً وأنه ما كان ينتظر لمثلي أن يسجن، ثم قال: قص علي قصتك، إن رستم قد أُعجب بذلك. فقصصت عليه ما قصصته على رستم، ثم رفع رأسه وقال: اسمع يا مجيد! أنني على علم تام بقصتك وأنا عندي كل الوثائق والمستمسكات التي تثبت براءتك، ولكنك تعلم كم تخطئ الثورة وكم تجور وكم يذهب ضحيتها من أبرياء، وأملي بثقافتك العالية واخلاصك للوطن أن تتحمل هذه التضحية الشخصية في سبيل الصالح العام وفي سبيل وحدة صفوف الأمة التي أنت تحرص كثيراً عليها. قلت: وأنا لا أتمالك نفسي من شدة الغبطة والفرح: باشا أن ما قلته لي هو خير شهادة على براءتي وما أتيت هنا لأي سبب إلاّ أن أسمعك صوت الحق وأسمع من فخامتكم صوت العدل والانصاف، وكل ما أرجوه من فخامتكم أن تسمح لي أن اسجل ما سمعته، وأن تسمح لي أن أنقل للناس هذا القول عن لسانكم، فابتسم وقام من على كرسيه وأمسكني من يدي، وأنا لا ادري ماذا يريد أن يعمل، ثم أخذني في سيارته الى وزارة المالية وأدخلني على وزير المالية، وقال: رؤوف[٢٣٩] أرجع مجيد إلى وظيفته في وزارة المالية.

كانت فترة البطالة قد طالت، وكنت قد قاسيت خلالها كثيراً، ولم أكن وحيداً ولكنني كنت رب عائلة ورائي والدتي وأخواي الصغيران، وإذا كان في مقدوري أن أتحمل قساوة الأعباء المالية بطريقة من الطرق فكيف بمقدوري أن أتحمل شعور والدتي وهي تتألم إذ تراني عاطلاً، وهي تشعر بخيبة أمل أن تراني مُجمَّداً، وكم كان يؤلمني أن أرى والدتي تمتد بها فترة الحرمان الطويلة

---

[٢٣٩] يريد: رؤوف البحراني، وكان قد تولى وزارة المالية في وزارة الهاشمي من ١٧ آذار ١٩٣٥ (الى ١٩ تشرين الأول سنة ١٩٣٦).

بعد أن انكسرت لمدة قصيرة، هل تُمسي من غير مورد تستطيع به تحمل أعباء الحياة المضنية ولا من مساعِد ولا مُعيل.

طالت فترة البطالة، وربما امتدت أكثر من سنة عندما عينني وزير المالية رؤوف البحراني ملاحظاً لشعبة الأجانب في مديرية المحاسبات العامة، ولم تكن هناك درجة شاغرة براتب ٢٥ دينار وهو راتبي السابق، فعينت براتب ٢١ دينار لمدة شهرين فقط، ثم عدل الراتب الى ٢٥ دينار. وكنت بهذا التعين الموظف الوحيد الذي أعيد تعينه من قبل نفس الحكومة التي حكمت عليه بالسجن وفصلته من الوظيفة، ألم يكن في هذا خير دليل وبرهان أن الحكومة اعترفت بخطئها من جهة وببراءتي من جهة أخرى.

وكنت على وشك أن أترفع درجتين عندما حدثت حوادث المنتفك، أسوة بكثير من رفاقي الذين حصلوا على مثل هذا الترفيع، ولكن هذه الحوادث لم تمنعني من الحصول على درجتين فحسب بل منعني حتى من الحصول على درجة واحدة في موعدها المضروب، وصرت بدلاً من أن أترفع درجتين في نهاية الثلاث سنوات لا أترفع الا درجة واحدة بعد مرور ستة سنوات تقريباً، وبذلك فقد حصلت خلال هذه المدة على درجة واحدة بينما حصل رفاقي رفاقي على ثلاثة درجات؟! واذا كان قد صدر قانون العفو العام الذي شملني وألغى الجريمة من أساسها والعقوبة من أصلها، واذا كانت الحكومة على لسان رئيس وزرائها قد اعترفت ببراءتي وبخطئها، وإذا كانت قد أعادت تعييني بنفس راتبي السابق، فإن النكبة لم تنته عند هذا الحد وتلغها من أساسها أو تعفي على أثارها، وانما تركت أثاراً غائرة وجروحاً عميقة لم تندمل، وأهم جرح تركته ينخر في قلبي هو هذه الدعاية الباطلة التي

نشرت والتي بقيت أقاسي منها زمناً طويلاً. ولعلني ما زلت لم أتخلص منها ومن خيوطها الكثيرة المعقدة التي إلتفّت حول سمعتي.

تأسيس نادي المثنى

كانت فكرة تراودني وأنا لا أزال طالباً في الجامعة ونفذتها وأنا في أمريكا، إذ كنا قد أسسنا ناد وجمعية للطلاب العرب، فلماذا لا نؤسس نادٍ قومي في بغداد وهي بأشد الحاجة إليه. وبدأت أتحدث بالفكرة مع بعض الأخوان منذ أن رجعت من أمريكا ولما يمضي على وجودي في بغداد إلاّ بضعة أسابيع أو بضعة أشهر. ثم كانت اتصالات مشاورات واجتماعات في بعض البيوت، وكنا نحرص أن تكون هذه الاجتماعات سرية، وأن تكون بين جماعة منتخبة قليلة، ولم يكن يهمنا كثرة العدد بقدر ما كان يهمنا نوعيته، ثم انقطعت هذه الاجتماعات بعد أن تعينت في الحلة وسافرت بعد شهر الى الناصرية، ثم استؤنفت على مقياس أوسع بعد أن رجعت من الناصرية وحكمت في المجلس العرفي. وكنت قد فاتحت بعض الأخوان بضرورة استئناف فكرة النادي وضرورة العمل من أجل تكوينه، ثم فاتحت الدكتور الجمالي بالأمر، فأخبرني بأنه يشتغل مع جماعة من أجل الفكرة نفسها، وأن هذه الجماعة تربطنا بهم روابط الصداقة والفكرة، فاجتمعت بهذه الجماعة مرات عديدة في بيت الدكتور الجمالي وبيت الدكتور صائب شوكت[٢٤٠]، ثم كانت اجتماعات ودية في بيوت كثيرة من بيوت هؤلاء الرفاق

---

[٢٤٠] طبيب شهير، اشتغل بالقضية العربية، ولد سنة ١٨٩٦ وتخرج من كلية الطب باستانبول سنة ١٩١٨، ثم واصل دراسته في ألمانيا، وحين عودته الى وطنه سنة ١٩٢٠ عمل في وظائف طبية مختلفة حتى صار عميدا للكلية الطبية، وأيد ثورة مايس ١٩٤١ ولم ينج من الاعتقال- بعد أن أحبطت الثورة- الا بهروبه الى تركيا. من أعماله مشاركته في تأسيس نادي المثنى الذي يشير اليه المؤلف.

وكان بيتي أحد هذه البيوت. وكنت قد اجتمعت بالدكتور صائب شوكت ومحمد مهدي كُبَّة[٢٤١] وأكرم زعيتر[٢٤٢] والدكتور أمين رويحة[٢٤٣].

لقد تكرر اجتماعنا عدة مرات، وتداولنا في أشياء كثيرة حول تأسيس النادي واسمه وأهدافه. وكنت قد لاحظت من مجرى المداولات بأن الأعضاء أو كثيراً منهم يحتاجون الى أن يتعرف بعضهم على بعض وأنه يعوزهم كثير من الانسجام، ومع هذا فإن هناك حماساً طاغياً للفكرة، وإن هذا الحماس يربط بين الكل. وكنا قد اتفقنا على أن يسمى النادي باسم نادي المثنى، والمثنى قائد مشهور من العراق أبلى بلاءً حسناً في احدى المعارك الحاسمة بين العرب والفرس مما كان له أبعد الأثر في التاريخ، وكنا قد سطَّرنا أهدافه وهي أهداف قومية تحررية تدعو إلى حرية البلاد العربية ووحدتها وإلى اقامة مجتمع عربي فاضل يتمتع فيه كل عربي بمستوى معين من العيش والصحة والتعليم. كنا نعرف أن الأمة العربية قد تخلَّفت وأنها مرت في قرون مظلمة

---

[٢٤١] سياسي قومي، ولد سنة ١٩٠٠ وشارك في ثورة ١٩٢٠،ثم أسهم في العمل السياسي الوطني بعدها، فكان واحدا من مؤسسي نادي المثنى سنة ١٩٣٥، وانتخب نائبا لرئيسه، وفي سنة ١٩٤٦ شارك في تأسيس حزب الاستقلال، وأختير عضوا في (مجلس السيادة) في العراق سنة ١٩٥٨، لكنه استقال بعد حين وآثر العزلة السياسية حتى وفاته سنة ١٩٨٤.

[٢٤٢] فلسطيني، رئيس اللجنة الملكية لشؤون القدس في عمان، شارك في المؤتمر التأسيسي السري لعصبة العمل القومي في (قرنايل) بجبل لبنان سنة ١٩٣٣ مع عراقيين، وجاء إلى العراق حيث أقام فيه عدة سنوات، وعمل مدرساً في بعض مدارسه، وشارك في تأسيس نادي المثنى وجمعية الجوال العربي، ثم شارك في أعمال المقاومة الفلسطينية فاعتقل، ثم شارك في ثورة ١٩٣٦، وشارك في مؤتمر بلودان سنة ١٩٣٧، وعمل مديراً لقسم الإعلام في مكتب القائد فخري البارودي، وشارك في حوادث ثورة العراق سنة ١٩٤١، وحينما أحبطت انتقل إلى شمالي العراق، ومنه إلى سوريا، وقد سبق للمؤلف أن ألمح إلى لقائه به فيما سبق من هذه المذكرات..

[٢٤٣] طبيب فلسطيني الأصل، استوطن العراق، وشارك في بعض النشاطات القومية، وله مؤلفات عدة في الطب.

حالكة، وأن هذه الفترة من تاريخها يجب أن تنتهي، وصفحة جديدة يجب أن تُفتح. وكنا نعرف أن الأمة ليست بأقلية مثقفة غنية بل هي مجموع الشعب، ولا خير في شعب إذا كانت أكثريته جاهلة، وكنا ننكر هذه الفروق الكبيرة بين أفراد المجتمع الواحد ونهدف الى تقليل هذه الفروقات عن طريقة إقامة نظام اقتصادي عادل.

لقد تأسس نادي المثنى وكان يضم النخبة الممتازة من شباب العراق ومن مثقفيه، سواء من درس منهم في الخارج أو في الداخل، وقد كانت الأغلبية ممن تلقى علومه في جامعات الغرب وأمريكا. وكان نادي المثنى أول مدرسة قومية من نوعها تأسست، ليس في العراق فحسب بل في العالم العربي قاطبة. وإذا كان العراق مريضا بالفردية، فإن النادي كان مركز الاشعاع القومي، وقد لبث فترة من الزمن يقود الحركة القومية لوحده في البلاد العربية جميعاً. كان النادي في ظاهره ناد ثقافي أدبي، ولم يكن يعنيه- من الوجهة القانونية - الاشتغال بالسياسة، غير أن النادي كان في حقيقة واقعه حزباً سياسياً لا يترك أمراً من الأمور القومية إلاّ وكان له فيه رأياً مسموعاً، وكان إذا تجنب التدخل في شؤون العراق الداخلية بقدر الامكان فلا يمكن أن يبتعد عن شؤون العراق القومية وعلاقته بالبلاد العربية، ولا يمكن له إلاّ أن يتدخل في القضايا القومية الرئيسية التي تهم العرب في مختلف أقطارهم. وإذا كان النادي يدعو الى بعض الاصلاحات الداخلية على مستواها القومي ولا يريد أن يزج بنفسه في الاختلافات الحزبية فما كان ذلك ناجم عن عدم اهتمام أو تقدير للوضع الداخلي، ولكنه كان منبعثاً عن حرصه على كيانه وعدم فسح المجال لتهديم هذا الكيان بسبب الاختلافات الداخلية. لم يقبل أن يسيره بعض رجال السياسة أو يكون لبعضهم أي تأثير عليه، وإنما أراد أن يكون مستقلاً عن

السياسة وعن رجال السياسة. ولم يشأ أن يتحزب لهؤلاء في هذا اليوم ثم لأولئك في اليوم الثاني، ولم يشأ أن يكون أُلعوبة بيد أية فئة أو أن يكون لقمة لأي طامع فقد كان مستقلاً في سياسته، معتداً بشخصيته، معتزاً برسالته.

كان النادي ينظم الحفلات والمسامرات والسفرات، ويهمه تثقيف أعضاء النادي وتوعية الناس بصورة عامة، وينظم لهذا الغرض اجتماعات لسماع المحاضرات. وكان يلقي هذه المحاضرات أعضاء النادي البارزون ورجال القومية سواء كانوا من العراق أو خارج العراق. كما أن النادي أصدر مجلة سُمِّيت باسمه، وعاشت ردحاً من الزمن. كان النادي يعقد الاجتماعات العامة في كل المناسبات القومية الهامة ويصدر بياناتٍ سياسيةٍ خطيرة كثيراً ما أقلقت الحكومة فاحتجت عليها باعتبار أن ذلك ليس من واجبات النادي، وأنها مخالفة لقانونه. وفي ذات مرة اجتمع النادي اجتماعاً خطيراً بمناسبة صدور الكتاب الأبيض عن فلسطين في سنة ١٩٣٩ وأُلقيت في هذا الاجتماع خطب سياسية كثيرة، ثم أصدرت هيئة النادي بياناً شجبت فيه فكرة الكتاب الأبيض، وقرر المؤتمرون القيام بمظاهرة سلمية احتجاجاً على سياسة بريطانيا الجائرة في فلسطين. كنت آنذاك مميزاً للخدمة والملاك في وزارة المالية، وإذا بالتلفون يرن واذا بالمتكلم سكرتير مجلس الوزراء، قال: أن رئيس الوزراء نوري السعيد يريد مواجهتك الآن. ذهبتُ إلى ديوان مجلس الوزراء ودخلت على رئيس الوزراء ورأيته متجهماً ومحتداً. قال: اجلس، ما هذا الذي أقرأه في الجرائد؟ ما هذا الاجتماع السياسي؟ وما هذا البيان السياسي؟ ثم ما هذا القرار الذي قررتم فيه القيام بمظاهرة؟ هل أنتم نادٍ أدبي أم حزب سياسي، وهل يجوز لكم عقد مثل هذه الاجتماعات واصدار مثل هذه البيانات، أنا لا أسمح بالقيام بمظاهرة وسأمنعها بالقوة، ولابد من أن

تصدر بياناً في الصحف بدون تأخير بصفتك سكرتير النادي تكذب فيه نشر مثل هذا الخبر. قلت: ولكن الخبر صحيح وأني وأن كنت سكرتيراً ولكن غير مخولٍ بتكذيب هذا الخبر، كما أنه لا يوجد شخص آخر، حتى ولا رئيس النادي ولا الهيئة الادارية، له الحق أن مثل هذا التكذيب، وأن الرجوع عن مثل هذا القرار هو من حق الهيئة العامة للنادي. قال: أنا لا اعرف شكليات النظام الذي تسيرون عليه ولكني كرئيس حكومة أطلب اليك تكذيب الخبر بأي شكل كان، والامتناع عن المظاهرة مهما كلف الأمر. ثم كان أخذ ورد وقد شعرت أن النقاش قد احتدم بيني (وأنا الموظف الصغير في وزارة المالية) وبين رئيس الوزراء، فما كان مني– منعاً لتفاقم الأمر – إلاّ أن قلت له: حسناً سأرجع الى الهيئة الإدارية وأعرض عليها ما طلبه فخامتكم لترى رأيها في الموضوع. اجتمعت الهيئة الادارية ولم تكذب الخبر ولكنها امتنعت عن القيام بمظاهرة قد تسفك فيها الدماء، ولقد بقي نوري السعيد يتذكر هذه الحادثة حتى بعد استيزاري معه، وكان كثيراً ما يعلق عليها (بأن مجيد دخل عليَّ دخول الفاتحين ولم يتفاوض إلاّ كما يتفاوض القائد المنتصر)، وواضح أن نوري السعيد تأثر في هذه المقابلة وزعل منها وقد أضمرها لي فانتقم مني بأشكال مختلفة وفي مناسبات عديدة.

كان نادي المثنى قد توطدت أركانه وامتدت جذوره، وأردنا أن نفتح له فروعاً في بعض الوية العراق ولا سيما البصرة والنجف والحلة ولكن الحكومة لم توافق. وانتشرت مبادئ النادي سريعاً في العراق وفي البلاد العربية أيضاً، وكان الناس يلتفون حول مبادئه وأن لم يكونوا أعضاء رسميين فيه. فلقد أصبح قوة جبارة تقويها عزائم الشباب وحماستهم، وتغذيها عقول المفكرين وإيمانهم، وما كانت هذه القوة الثابتة لترتاح اليها الحكومة أو بعض

الحكومات أو ترتاح إليها الشعوبية ومن لفَّ لفها، وكثيراً ما كانت تثار في وجهها العواصف، وفي طريقها الصعوبات والعقبات. ولعل أكبر أزمة مرّ بها النادي في حياته هي الأزمة التي خلقها له كامل الجادرجي وجماعته، تلك التي عُرفت بجماعة جمعية الاصلاح الشعبي.

انقلاب بكر صدقي

اتت وزارة ياسين الهاشمي الى الحكم عن طريق ثورة عبد الواحد الحاج سكر السلمية بعد أن أضرب الجيش عن طريق تدخل طه أخو ياسين للتدخل وضربها[٢٤٤]، وعن طريق تدخل العشائر والجيش في آن واحد في السياسة. وكانت هذه الوزارة قد انتحرت، أو نُحرِت، بنفس السلاح الذي ضُربت به وزارة علي جودت ووزارة جميل المدفعي، وذلك بأن ثارت عشائر السماوة بزعامة خوّام العباس فأخمدتها، ثم ثارت عشائر سوق الشيوخ برئاسة ريسان الكاصد وفرهود الفندي فأخمدتها أيضاً، ولكن لم تخمد هذه أو تلك إلاّ بعد تضحيات جسيمة في الأموال والأرواح تكبدها الطرفان: العشائر والجيش، أي لم يتكبدها إلاّ العراق في أمواله وبنيه. وإذا كانت الثورة قد أُخمدت هنا وهناك فأن النفوس لم تهدأ والأمن لم يستتب ووضع البلاد بقي مرتبكاً ومضطرباً. ولم تكن المعارضة بمَعزَل عما يدور في البلاد إذ أنها كانت ساكتة عما ترتكب من جرائم وآثام، ولا سيما أن زعيم المعارضة الوطني الصلب محمد جعفر أبو التمن كان قد اختلف مع ياسين ورشيد عالي حتى قبل تأليف الوزارة، وأن حكمت سليمان قد اختلف معهما بعد تأليفها، أما أن جعفر قد اختلف معهما فلم يكن بالأمر المستبعد وهو لم يتعاون معهما على

---

[٢٤٤] كذا في الأصل.

كل حال إلاّ فترة قصيرة من الزمن، فقد كان في اختلاف دائم معهما، وكان يرأس الحزب الوطني، وقد كان هذا الحزب معروفاً بصلابته الوطنية، أما ياسين فانه يرأس حزب الإخاء الوطني، وكان معروفاً باعتداله وعدم تطرفه، ولم يتفق الحزبان إلاّ فترة قصيرة من الزمن تطلبتها أحداث العراق آنذاك، وكان في مقدمة هذه الأحداث المعاهدة الانكليزية العراقية لسنة ١٩٣٠.

أما حكمت سليمان فقد كان دائماً من أعوان وأنصار ياسين الهاشمي، وكان عضواً في الهيئة العليا لحزبه ولم يختلفا إلاّ بعد تشكيل الوزارة. ويقال أن جوهر الاختلاف كان مرده الى أن حكمت أراد وزارة الداخلية فلم يظفر بها وقد فضل ياسين رشيد عالي عليه فيها. وسواء أصحت هذه الاشاعة أم لم تصح وسواء أكانت هذه هي السبب أم كانت هناك أسباب أخرى وهي الأرجح فإن حكمت قد اختلف مع ياسين ولم يدخل الوزارة كما كان معروفاً وأنظم الى صفوف المعارضة بزعامة زعيم الوطنية الفذ الحاج جعفر جلبي أبو التمن.

كانت المعارضة قد استاءت من موقف حكومة ياسين في احداث العراق، واستاءت بصورة خاصة من رشيد عالي وتصرفاته التي لم تعرف ليناً ولا هوادة، كما استاءت من المخالفات الدستورية ومن الاستهتار بالقوانين وبحريات الناس وكراماتهم، فضلاً عن استيائها من الدكتاتورية السافرة والمبطنة التي تركت العراق وأهل العراق في فزع وخوف. وكانت المعارضة قد أظهرت استياءها على صفحات جريدتها التي تنطق بلسانها. وأخذت هذه الجريدة تظهر كل يوم على الناس وهي تحمل فوق صفحاتها مقالات افتتاحية بقلم جعفر أبو التمن أو بقلم حكمت سليمان، وكلها أشبه بالحمم النارية اذ تدعو الى استقالة الحكومة وانسحابها من الميدان، وتدعو بصراحة

إلى ثورة الشعب للوقوف أمامها وضد طغيانها بل وأزاحتها من الوجود. ولم نكن ندري أن عمل هذه المعارضة كان في الخفاء أكثر مما يبدو في العلانية، ولم نكن ندري أنها كانت قد اتفقت أو تآمرت مع بكر صدقي رئيس أركان الجيش بالوكالة حينما كان طه الهاشمي رئيس أركان الجيش متغيباً في اجازة.

وفي ضحى أحد أيام تشرين الاول سنة ١٩٣٦ حلّقت طائرات في سماء بغداد ثم دارت حول بغداد وهي تهبط شيئاً فشيئاً حتى صارت فوق بناية مجلس الوزراء، واذا بها تُطلق بضعة قنابل سقطت واحدة منها بالقرب من هذه البناية وأخرى بالقرب من وزارة المعارف التي لا تبعد عنها إلاّ بضعة خطوات، وأخريات سقطن في النهر. ثم كانت أوراق تندفع من هذه الطائرة وتتطاير في السماء، ثم سقطت هذه الأوراق على الأرض، والناس يتراكضون ويتسابقون من أجل الحصول عليها، فإذا بها مناشير تتضمن ضرورة استقالة الوزارة دون تأخير، هذه الوزارة التي ظلمت العراقيين وخنقت حرياتهم وأشاعت القلق والاضطراب بين صفوفهم وأراقت دماءهم. كانت المناشير تدعو الى استقالة هذه الوزارة وضرورة تأليف وزارة برئاسة حكمت سليمان يشترك فيها الزعيم الوطني جعفر أبو التمن، كما تشير الى أن الجيش يزحف على بغداد، موقعة من قبل بكر صدقي العسكري.

كانت المعارضة على علم بهذا الانقلاب، وقد تآمرت مع بكر صدقي على تدخل الجيش في السياسة بعد أن شجبت هذا التدخل قبل فترة قصيرة من الزمن. وإذا كان بكر صدقي لم يقم بالانقلاب إلاّ بعد الاتفاق مع المعارضة حسب ظاهر المنشور فهل كان على اتفاق مع الملك غازي أيضاً؟ هل أن الانقلاب كان يستهدف الوزارة لاغير ولا يستهدف البلاط. لقد تساءل الناس

هل يمكن للمعارضة بالاتفاق مع بكر صدقي أن تطيح بالحكومة دون التفاهم مع الملك بأي شكلٍ كان؟ ألم يكن الملك نفسه ممتعضاً من الحكومة وأنه كان في قرارة قلبه يريد ازاحتها من الحكم. ألم تضيق الخناق على حريته وتضع بعض القيود على تصرفاته؟ ألم تمنعه من الاتصال بفلان وفلان من الضباط أو السهر والشرب مع فلان؟ ألم تحتم عليه تغير بعض أفراد حاشيته؟ لم يكن الملك مرتاحاً من الحكومة بل كان كثير من الناس يعلم بتوتر العلاقة بينهما فهل يستبعد والحالة هذه أن يكون هناك اتفاق أو شبه اتفاق بين الملك والانقلابين. ليس لدي حتى هذه اللحظة من البراهين ما يقطع بوجود مثل هذا الاتفاق غير أن القرائن التي رافقت الانقلاب والتي أعقبته كانت كلها تشير الى وجود مثل هذا الاتفاق، فالمنشور يطلب من الملك إقالة الوزارة، كما يطلب منه تأليف وزارة معينة برئاسة رئيس وزراء معين، وكان الملك لأول مرة في تاريخ العراق يخضع لمشيئة غير مشيئته ومشيئة البرلمان حسبما يقتضي العرف الدستوري، فهل أن هذا الطلب فرض عليه فرضاً وأنه قام بتنفيذه بالرغم منه أم أنه كان التماساً لم يفرض عليه انما وضع بعد الاتفاق معه. لقد قبل الملك بهذا الطلب أو الالتماس حالاً وقام بتنفيذه دون تردد. ألا يدل هذا على أن الأمر قد بُيِّت بليل؟ ولو كان الملك على غير وفاق مع الانقلابين أما كان من المنتظر أن لا يوافق أو أن يتردد أو أن يشكل وزارة حسب رغبته وليس حسب رغبتهم؟ لقد كانت القرائن تدل على أن الرغبة واحدة وأن الطلب الذي تضمنه المنشور لم يقدم إليه إلاّ بعد الاتفاق معه.

تشكلت حكومة الانقلاب برئاسة حكمت سليمان وتولي جعفر أبو التمن وزارة المالية وكامل الجادرجي وزارة المواصلات ويوسف ابراهيم وزارة المعارف وناجي الأصيل وزارة الخارجية، وكانت هذه زمرة الوزراء من الانتقاليين، أما

الوزراء الآخرون فقد استوزرا حسب مقتضيات المصلحة ولم يكن لهم دخل في الإنقلاب، ومن بين هؤلاء الوزراء صالح جبر لوزارة العدل وآخرون لا أتذكر أسماءهم الآن.

ولم يشترك بكر صدقي في الوزارة، وانما احتفظ برئاسة أركان الجيش،وأحيل رئيس اركان الجيش طه الهاشمي على التقاعد وهو خارج العراق. لقد فرح الناس كثيراً بحكومة المعارضة، وفرحوا بصورة خاصة لاشتراك الزعيم الوطني[٢٤٥] بالحكم بعد ان قاطعه مدة طويلة منذ سنة ١٩٢٢ حتى ١٩٣٦م. كان جعفر جلبي قد اشترك في وزارة الشعب وزيراً للاقتصاد ثم أصطدم بالإنكليز واستقال ولم يشترك في الحكم حتى وزارة الانقلاب وبقي طوال هذه المدة في رأس المعارضة لا يهادن ولا يلين، يدافع عن العراق واستقلاله بكل ما أوتي من صلابة وعزم. وكان ابتعاده عن الحكم ومعارضته للإنكليز ومقارعته للاستعمار ومواقفه الوطنية المشهورة كل ذلك قد حببه الى الناس كثيراً، وقد وثق الناس بإخلاصه كثيراً، وكان اشتراكه في حكومة الانقلاب جعل منها حكومة مخلصة وطنية لا غبار عليها.

لقد فرح الناس بهذه الحكومة، وفرحوا بعد ان أُزيل عنهم كابوس وزارة الهاشمي، وبينما كان الناس في فرحتهم، وإذا بنبأ مقتل جعفر العسكري يتسرَّب إلى الناس، فوجموا من هذا الخبر وفزعوا منه ولم يصدقه بعضهم وصدقه البعض الآخر، وذلك أن جعفر العسكري كان وزيراً للدفاع في وزارة ياسين وكان أباً للجيش، ومن أول العاملين على تأسيسه وتكوينه وتوسيعه، وكان محبوباً لدى الضباط صغيرهم وكبيرهم.

---

[٢٤٥] يريد جعفر أبي التمن كما سيأتي.

وما أن بدأت الطائرات تقذف قنابلها حتى اجتمع مجلس الوزراء على عجل، وكان قد تأخَّر العسكري عن الاجتماع قليلاً، وقيل أنه كان في المصرف الزراعي للعمل على أخذ سِلْفة زراعية. وما أن لحق بالاجتماع حتى تركزت العيون عليه، ولاسيما عيون رشيد عالي وكانت كأنها تقول له: كيف يقوم الجيش بهذه الحركة وأنتَ وزير للدفاع. هل يجوز أنك تدري؟ أو يجوز أنك لا تـدري؟ ما عذر وزير الدفاع إذا كان غافلاً وهو عين الحكومة ومصدر قوتها وملجأها عند الشدائد. وهكذا تركزت عيون الوزراء على جعفر العسكري وكأنها تناشده ما العمل؟ هل ستقف مكتوف الايدي؟ أم هل ستقوم بعمل لإنقاذ الحكومة وسمعتها ولإيقاف الجيش دون زحفه على العاصمة حقناً للدماء، ومنعاً لوقوع الفتنة بين صفوف الجيش، أو حرب أهلية بين الجيش والأهلين؟ ولم يطل الإجتماع كثيراً، وكان ياسين قد قرر الإستقالة، وكانت استقالة طويلة قوية تاريخية، أوحت بأن ياسين يتهم الملك بالتآمر مع سلطات الجيش، ولا أدري تماماً ما إذا كان جعفر قد عرف بقرار ياسين أم لم يعرف، غير أنه لم يلبث في الاجتماع طويلاً، وكان قد قرر ملاقاة الجيش في طريق بعقوبة، ومنعه من دخول العاصمة، على أن يتعهد باستقالة الوزراء.

ومهما يكن من أمر فإن المرجَّح عندي ان جعفراً لم يتخذ قراره بالإلتقاء بالجيش إلاّ بعد أن تأكد من استقالة الوزارة ان لم يكن قد حمل نسخة منها معه. ولم يرد جعفر لقاء الجيش ومنعه دخول العاصمة دخول الفاتحين محافظة على بقاء الحكومة في الحكم، بل منعاً لما قد يحدث عادة في مثل هذا الزحف من إراقة دماء رجال الحكم إن لم يكن دماء ابناء الشعب أيضاً، وكان

لا يريد ان يشترك الجيش في مذبحة مادام كان يستهدف سقوط الحكومة، وان الحكومة قد سقطت[٢٤٦].

مقتل جعفر العسكري

خرج جعفر للقاء بالجيش بعد أن مانع في ذلك بعض الوزراء ولاسيما نوري السعيد، وحذره من مَغبَّة العمل الذي يُقدِم عليه، فإنه كان يعرف أن الجيش ثائر، أو قل أن القيادة ثائرة، وأنها لا تتسامح مع أي كان أن يقف في طريقها أو يفسد عليها خطتها. وعلى أية حال خرج جعفر ولكنه لقي حتفه قبل أن يتصل بالجيش.

كنت في القاهرة في سنة ١٩٤٥ - ١٩٤٦ حيث التقيت بجواد حسين أحد الضباط الطيارين المتهمين بقتل جعفر العسكري، وجواد صديق قديم إذ كنت وإياه في مدرسة واحدة هي المدرسة الثانوية المركزية ببغداد، فقلت له ونحن نتناول طعام العشاء: كيف تجرؤ على الخيانة إلى هذه الدرجة؟ كيف تكون عاقاً وتقابل الإحسان بالإساءة. كيف تقتل او تشترك في قتل من أنشأك وربَّاك؟ كيف تقتل من كان بمثابة والدك؟ قال: ما هذا؟! قلت: ألم تسمع ما يذكره عنك آل العسكري، إنهم يقولون: كنت يتيماً فقيراً فعطف عليك جعفر وآواك ورعاك ونشأت مع أولاده كواحد منهم. قال: اما أني كنت فقيراً

---

[٢٤٦] ثمة آراء مختلفة في طبيعة الأسباب التي دفعت العسكري الى الذهاب بنفسه لمواجهة الجيش، خلاصتها أنه أراد إيقاف تقدم الجيش نحو بغداد، وأن ذلك جرى من تلقاء نفسه، أو بتحريض من الملك غازي، أو من بعض الوزراء (ينظر علاء جاسم الحربي: جعفر العسكري ودوره السياسي والعسكري في تاريخ العراق) وتذهب رواية الى أنه أراد القيام بلعبة ذات وجهين، أولها ما أعلن عنه، وثانيهما أنه "كان ينوي في الحقيقة أن يلتحق بالجيش ليتقلد قيادته ويدخل معه العاصمة، ويعمل ما يراه بعد ذلك" (توفيق السويدي: وجوه عراقية، لندن ١٩٨٧، ص٤٧) وأن ذهابه لم يكن بعلم رئيس الوزراء ياسين الهاشمي (حازم المفتي: العراق بين عهدين، ص٩٧).

فصحيح، ولكن لم يربني ويرعاني جعفر كأحد أولاده وإن كان يعطف عليّ بوصفي أحد أصدقائهم، وما تربيت إلاّ بجدي وتعبي. أنا لا أنكر أن لي صلة قوية بهم، وكنت صديقاً حميماً لصباح نوري السعيد عندما كنا في إنكلترا ندرس في مدرسة الطيران سوياً، ولكن يا مجيد لم أكن خائناً ولا سافلاً ولا عاقاً. لم تكن لنا يد في هذا الانقلاب ولكن شاءت الاقدار ان أكون معهم عند مقتل جعفر العسكري. قلت: وكيف كان ذلك؟ قال: كنت في بغداد عندما ألقت الطائرات قنابلها[٢٤٧] فما كان مني إلاّ أن طِرتُ بطائرتي لأستطلع الخبر، ثم نزلت في الطائرة بالقرب من الجيش، وكان يعسكر في نقطة بالقرب من خان بني سعد. وما أن هبطت حتى استقبلني بعض الضباط وكانوا على علم بأنني كنت نادماً على كثير من أوضاع الحكومة، وظنوا أنني التحقت بهم فأخذوني إلى خيمة، وما أن دخلتها حتى وجدت بكرصدقي يحيط به كثير من الضباط، فرحَّب بي ترحيباً فاتراً لأنه لم يكن يحبني ولم يكن على وفاق معي، ولعل صِلَتي بصباح[٢٤٨] لها علاقة كبيرة بذلك، وما أن تبادلنا بعض الأحاديث حتى دخل ضابط وهمس بأذن بكر فامتقع لونه، وتَجهَّم وجهه، وبدا غضبه، وما هي إلاّ هُنَيهة حتى قال: إن جعفر في طريقه إلى هنا، وقد قررت قتله! فخيَّم الوجوم وساد الصمت، ثم قال: من منكم مُستعد لقتله؟ فهلعت قلوب الحاضرين ولم يجب أحد منهم بشيء، ثم أردف

---

[٢٤٧] ألقت ثلاث طائرات عراقية في الساعة الحادية عشر والنصف صباحا، بقيادة محمد علي جواد آمر القوة الجوية العراقية، أربع قنابل سقطت احداها على بناية مجلس الوزراء (مديرية الآثار العامة حاليا)، والأخرى أمام البرلمان(بيت الحكمة حاليا)، والثالثة على دائرة البريد (مقابل الثانوية المركزية)، والرابعة في نهر دجلة، وعلى إثر عودة الطائرات الى قواعدها في بعقوبة، أبرق الفريق نوري عبد اللطيف يطلب إقالة الوزارة. المفتي: المصدر السابق ص ٩٥.

[٢٤٨] يريد: صباح نوري السعيد.

قائلاً دونما تباطؤ أو تردد والنار تتطاير من عيونه: أنتَ... أنتَ... وسَمّى خمسة من الضباط بأسمائهم، وكنت أنا واحداً منهم، أنا الذي لا أعرف أي شيء عن الحركة، والذي لم أصل إلى المعسكر إلاّ قبل نصف ساعة فقط! قال: أنتم الآن تركبون سيارة وتلتقون بجعفر وتقتلوه حينما تلاقونه. ركب الضباط، وهم جواد حسين وجمال جميل[٢٤٩] ولازار[٢٥٠] واثنان آخران لا أتذكر أسميهما[٢٥١]، سيارة، والتقوا بجعفر في محل ما على طريق بعقوبة، بالقرب من خان بني سعد على ما أتذكر، وهناك أوقفوا سيارته: تفضل باشا معنا فإن بكر صدقي يريد أن يواجهك. وبعد ان أوقفت سيارته قليلاً، ولم يكد يبتدئ بمداعبتنا على عادته، حتى انهال عليه الرصاص من كل الجهات، وهو يصيح أولادي.. أولادي.. وكان أاول من أطلق الرصاص عليه هو لازار ثم أعقبه جمال جميل[٢٥٢] والآخرون، أما أنا فلم اشترك باطلاق الرصاص عليه ولا

---

[٢٤٩] ضابط طموح كان يومذاك برتبة ملازم، ولد في الموصل سنة ١٩١١، وتخرج في الكلية العسكرية سنة ١٩٣١، شارك في إخماد تمرد الآثوريين سنة ١٩٣٢، وفي الحركات العسكرية في منطقة الديوانية والناصرية، وعين مرافقا لبكر صدقي بعيد الإنقلاب، سافر الى اليمن ضمن البعثة العسكرية العراقية ولبث هناك بعدعودة هذه البعثة، ثم شارك في قيادة ثورة ١٧ شباط سنة ١٩٤٨ ضد حكم الإمام يحيى حميد الدين، الا إن الثورة أحبطت وصدر الحكم بإعدامه فأعدم في حزيران ١٩٤٩.

[٢٥٠] واسمه الكامل: لازار أندروس، وهو ضابط يوناني عمل في الجيش العربي في الحجاز، ثم انتقل الى الجيش السوري، فالجيش العراقي.

[٢٥١] أي أن مجموع الضباط خمسة، وهي رواية جديدة، لأن معظم الروايات الأخرى، حتى ما نقله أخو جواد حسين عنه، تشير الى أن عددهم كان أربعة، وأن رابعهم هو المقدم جميل فتاح. ينظر الحربي: المصدر السابق ص١٩٨. على أن أحد المنفذين، وهو لازار، نوه بوجود ضابط آخر شارك في القتل، هو الرئيس إسماعيل عبادي.

[٢٥٢] تخالف هذه الرواية عما نقله ناصر حسين عن أخيه جواد هذا أن أول من أطلق النار على جعفر العسكري كان جمال جميل. ينظر: عبد الجبار العمر: روايات ووثائق جديدة عن عهد بكر صدقي، مجلة آفاق عربية، ع٦، مج٧، شباط ١٩٨٢، ص٢١.

برصاصة واحدة إلاّ أنني رأيت بعد ان انتهى لازار، وخشية من أن ينفضح أمري، أن أطلق رصاصة واحدة بعيدة عنه لتكون دليلاً على اشتراكي وشفيعي عند بكر صدقي الذي كان مستعداً لِقتل أي شخص في تلك اللحظة.

لقد قُتل جعفر في الحال ودفن في مكانه، ورجعنا ونحن نحمل مسدسه ونطاقه وما احتوته جيوبه من أوراق كأدلة ثبوتية على وقوع الجريمة، وما أن رآنا ورأى هذه الاشياء والأوراق حتى تهلل وجهه وانبسطت أساريره، فقد كان بكر يخشى جعفر كثيراً، وكان يعرف انه محبوب لدى الجيش، وكان في إمكانه لو التقى ببكر وضباطه إحداث الفوضى بين صفوفهم والبلبلة في آرائهم والإنقسام على بعضهم. لذا كان بكر يخشى مجيء جعفر كثيراً، وكان كأنه قد استعد لهذا إذا ما فوجئ بخبر المجيء، فالأمر في نظره لا يمكن التساهل به، فأما نجاح حركة الجيش أو فشلها، وأما هو وأما جعفر.

حزنت بغداد حينما سمعت الخبر، وهال الناس أن يروا الدم البريء يرافق هذا الانقلاب، فكأن هذا الدم كان نذير شؤم ونحس، وأهم مسمار دق في نعش الانقلاب. ولم تسمع بغداد بالخبر إلا في اليوم الثاني أو الثالث، ولم يسمع به إلا القليلون في اليوم الأول. وكانت قد خرجت مظاهرات كبيرة تؤيد الانقلاب، وتُعلن عن رفضها لياسين ورشيد عالي ونوري السعيد، وكانت هذه الأكف التي صفقت للإنقلاب هي بعينها التي صفقت بالأمس القريب لياسين ورشيد. وكانت هذه المظاهرات، التي يقودها بعض من اشتهر بالخسة والسفاهة والنذالة، قد ذهبت الى بيوت هؤلاء تلطخ أبوابها بالقاذورات وتطالب برؤوس أصحابها، وما كان من هؤلاء الأقطاب، أعني ياسين ورشيد ونوري، بما فيهم رستم حيدر وزير البلاط، إلاّ أن سافروا وهربوا ليلاً خارج العراق على عجل، وإلاّ لفتكت الجماهير بهم وبعائلاتهم.

كان رشيد عالي قد شكا عند ياسين صداعاً في رأسه، فاجابه: ياسين أنت يا رشيد تشكو الصداع منذ زمن بعيد! كان رشيد سبب النكبة.. ولم يكن في استطاعة ياسين أن يكبح جماح رشيد ويخفف في غلوائه، وكانت الناس تكره وزارة ياسين لا لأنها تكرهه بل لأنها تكره رشيد[٢٥٣].. لقد مات ياسين داهية العراق كمداً وقهراً وهو غريب عن بلاده، وبعيد عن أهله وخلانه، مات ولم يمض عليه في المنفى الا أمد قصير[٢٥٤] وقد رفضت الشام أن تُرسل جثمانه الى بغداد التي تنكرت له وطردته، ودفنته في المسجد الأُموي بجوار ضريح البطل صلاح الدين الأيوبي.

كان جواد حسين عندما التقيت به في القاهرة يشتغل في إحدى خطوط الطيران ثم قتل في حادثة سقوط طائرته. أما لازار فقد كان من أصل يوناني وقد ترك العراق وجنسيته العراقية وذهب إلى اليونان ولا أدري ما حل به. وأما جمال جميل فقد ذهب إلى اليمن وتوظف في جيش الحكومة اليمانية، ثم اشترك في المؤامرة الفاشلة التي دبرت ضد الإمام يحيى وقد قُتل بعد فشلها شر قتله. أهكذا يكون مصير المعتدي الاثيم؟ أهكذا تدور على الباغي الدوائر؟ أهكذا تنتقم العناية الالهية للمظلوم!

---

253 بالطبع فإن هذه وجهة نظر شخصية خاصة بصاحب المذكرات، إذ تصعب معرفة الرأي العام من الأحداث، عند وقوعها، دون وسائل تضمن ذلك.

٢٥٤ توفي إثر نوبة قلبية في يوم ٢١ كانون الثاني سنة ١٩٣٧.

مع أبي التمن

كنت بعد الإنقلاب بمدة قصيرة في أحد المخازن بالقرب من سينما الحمراء في شارع الرشيد[٢٥٥] وإذا بجعفر جلبي أبو التمن يدخل المخزن، وما ان رآني حتى رحب بي، وكنت أزوره بين حين وآخر عندما كان خارج الحكم، ثم انقطعت عن زيارته بعد الانقلاب وتوليه كرسي الوزارة فعاتبني قليلاً على هذا الإنقطاع، ثم قال: إنها صدفة حسنة إذ كنت أريد أن أراك، وقد رأيتك الآن، وأريد ان انقل خدماتك الى وظيفة مهمة في ديوان الوزارة، وهي مُمَيِّزَيّة الخدمة والملاك والذاتية والعقود. وكانت هذه الوظيفة من أهم وظائف الدولة وأكثرها جساسية لأنها تتعلق بذاتية الموظفين وملاكاتهم، ليس في وزارة المالية فحسب، بل في مختلف الوزارات والدوائر، بل بموظفي الدولة ومستخدميها قاطبة، وكان من يشغلها يتمتع بقوة ونفوذ، لكنه لا يُحسد عليها كثيراً، فالوزارات لا ترجع إليه إلاّ في قضايا الموظفين المعقدة، فإذا كانت هناك مخالفة قانونية في تعيين موظف أو ترفيعه او الاستغناء عنه، أو كان لابد من تعديل الملاك من أجل التعيين او الترفيع أو النقل أو ما شابه ذلك فلابد من الرجوع الى وزارة المالية، ولابد لهذه الوزارة أن تبت في الموضوع عن طريق هذه المميزية، وكثيراً ما ترفض وزارة المالية وجهة نظر الوزارات الأخرى، ولكن لا يقبل رأيها إلاّ على مضض وإن كانت على حق. لقد كان من يشغل هذه الوظيفة هدفاً للكثير من تقولات الموظفين وشغبهم ما دام ليس في مقدوره الاستجابة الى طلباتهم والتي تكون في أكثر الأحيان غير مشروعة، وهل يهم

---

[٢٥٥] قرب جامع السيد سلطان علي المطل على شارع الرشيد، وقد تحول مبناها إلى مسرح سمي بمسرح علاء الدين.

الموظف أن يكون مُنصِفاً وهو صاحب حاجة، أليس صاحب الحاجة أعمى لا يرى إلاّ قضاءها؟

عرض عليَّ الحاج جعفر هذه الوظيفة وكان يريد مني ان اشغلها، وكنت أعرف مقدار أهميتها، فأجبته: إن كانت هذه رغبتكم فليس لي إلاّ أن ألبِّي هذه الرغبة. انتقلت الى هذه الوظيفة فأتيحت لي فرصة الإتصال به في أكثر الأحيان. وقد كان يسرني أن أتصل بالزعيم الوطني الخطير، وأن أكون أحد أعوانه المقربين، وأن أُراقِبه عن كثب وهو يُصرِّف أمور الدولة، وبالرغم من ثقل أعباء هذه الوظيفة وما يحيط بها في تيارات قوية متضادة فقد وجدت الحاج جعفر مخلصاً نزيهاً في عمله، وإن كان بطيئاً في تسيير كثير من الأمور وحتى البسيطة منها. كان لا يقرر قراراً إلاّ بعد دراسة الموضوع دراسة دقيقة مستفيضة، وكانت مثل هذه الدراسة تستغرق وقتاً طويلاً، ولما كانت أعمال وزارة المالية كثيرة ومتنوعة فقد كانت تتأخر بعض المعاملات، ويتراكم في بعض الأحيان بعضها فوق بعض. ولما كان الحاج جعفر شخصية وطنية وزعيما شعبياً فلم يكن من عاداته أن يسد باب غرفته في وجوه المراجعين، بل كان باب الدائرة مفتوحاً في أغلب الأحيان، وكان بوسع أي مُراجِع أن يجيء إليه دون موعد، وهو ما أدى إلى كثرة المراجعين وإلى تأخر تمشية أعمال الوزارة.

وقد استدعاني الحاج ذات مرة فتأخرت قليلاً حتى واجهته، فقال ما هذا يا مجيد! لقد طلبتك منذ مدة فتأخرت في المجيئ. فابتسمت وقلت: لم أتأخر بل حاولت جهدي أن أسرع في المجيء ولكن ما العمل وقد أخرتني عن شق طريقي إليكم هذه الكثرة الكاثرة من المراجعين، ولكم عذرتني لو عرفت كم تؤخر هذه الجماعة جعفر أبوالتمن إذا ما أراد زيارة جعفر أبو التمن

الوزير. هاله كلامي كما أنه أعجبه، فهل من الصحيح أن تكون المراجعات فوضى بلا قيد أو شرط، وأن يكون المراجعون بهذه الكثرة تتدافع وتتسابق في الدخول؟ كان الحاج قد استوقفه كلامي، وكان على ما يظهر قد سمع بعض الانتقادات من قبل. وهو وان لم يسد بابه بوجه المراجعين لكنه أمر بتنظيم هذه المراجعات بحيث كانت تضمن مصالح المراجعين من جهة وتمشية أمور الناس من جهة أخرى دون تأخير كبير.

كنت قد استحققت الترفيع، وبدلاً من ان أترفع درجتين بعد مرور ثلاث سنوات كما ترفع كثيرون من رفاقي فإني لم اترفع وقد مرّ على وجودي في الخدمة نحواً من ستة سنوات. كان قانون الخدمة المدنية يجيز ترفيع الموظف درجتين في حالات خاصة، غير أنه ضيَّق هذا الحق القانوني بتعليمات تختص بوزير المالية، بعد أن كان من حق كل وزير من الوزراء، ثم ضيَّق أكثرمن ذلك فحُصِر بقرار من مجلس الوزراء. كان صالح جبر وزيراً للعدل فاستعمل حقه القانوني في ترفيع الشيخ علي الشرقي وموظف آخر، وادعى إن التعليمات مهما كانت قوتها فلا يمكن ان تُضيِّق هذا الحق وتسلبه من الوزير المختص وتنقله الى وزير المالية. اعترضت وزارة المالية على هذا الترفيع واشتد الأخذ والرد بين المالية والعدلية، وكنت أنا الموظف المسؤول عن إعداد الردود، ثم وجدت العلاقة قد توترت وأن أزمة من نوع ما كادت تنشب بين الوزيرين، فوجدت من الحكمة أن أقف موقفاً رصيناً هادئاً وأن أسعى جهدي لأكون عاملاً ملطفاً ومخففا من حدة التوتر. وكنت قد فاتحت الحاج جعفر بضرورة ترفيعي درجتين قبل حدوث هذه الأزمة، وبينت له الظروف المُجحِفة التي أحاطت بي، وكان أن وعدني بذلك غير أنه استدعاني مرة وقال لي: يا مجيد أما ترى كيف أُعارض أنا ترفيع الموظفين درجتين في

الوزارات الأخرى فكيف يمكن ان أرفع أحد موظفي وزارتي درجتين. أنت والله تستحق اكثر من درجتين، وإنني مهما أردت ان أمنحك من درجات فلا تكفي لرفع الظلم الذي أصابك ولا تعوض الخسارة التي لحقت بك. قلت: لك ما تشاء ولا أريد ان أحرج موقفك بأي شكل كان؟ لم أترفع درجتين، ولكن على الشرقي وآخرون غنموا الدرجتين بالرغم من اعتراض وزارة المالية.

حقيقة الانقلاب

لم يمّر على الانقلاب شهر او شهرين حتى شعرت أن الحاج لم يكن مرتاحاً ولم يكن راضياً، بل شعرت أنه يبدي بعض التذمر والشكوى. ولم يمر على الانقلاب زمن طويل حتى دَبَّ الاختلاف بين بعض الوزراء، إذ شعر الناس أن بكر صدقي، وإن لم يشغل مركزا وزارياً، فإنه الكل في الكل، فقد تجمعت في يديه السلطة من جميع أطرافها، وأن الوزارة بما فيها شخصية جعفر أبو التمن القوية كانت لا تملك شيئا من السلطات التي تتمتع بها الوزارة عادة. ولقد شعر الناس أن الذي يدير شؤون الدولة ويصرف أمور الناس هو بكر صدقي وليس حكمت سليمان وجعفر أبو التمن وبقية أعضاء مجلس الوزراء. كما أدركوا أن الانقلاب لم يكن له خطة واضحة وأهداف مرسومة، وأنه لم يكن يهدف إلاّ الإطاحة بالوزارة.

لقد فرح الناس بالإنقلاب لأنه أزاح عنهم كابوس الوزارة، ولكن لا يكفي أن يفرح الناس وأن يستمروا فرحين والانقلاب فشل في ان يحقق أي هدف من الأهداف التي كان يتطلع إليها الشعب بكل لهفة وحماسة، وقد تساءل الناس: ألم يكن للانقلاب هدف غير الإطاحة بالوزارة؟ ألم يفكر بخطة للعمل بعد الاطاحة بها؟ بماذا كان يفكر الانقلابيون ألم يعرفوا أمراض الشعب ألم

يتفقوا على علاجها؟ أما كان أقطاب الانقلاب يكتبون ويخطبون ويصرحون؟ ألم يُنَدِدوا بالدكتاتورية؟ ألم يطالبوا بالأستقرار واستباب الأمن؟ ألم ينادوا أن الشعب هو مصدر السلطات، وأنه لابد من أن يحكم نفسه بنفسه؟ بماذا كان يفكر الانقلابيون؟ ألا يعلمون أن الشعب جاهل ومريض وفقير وأن البلاد بحاجة الى العمران وأن الأوضاع الزراعية بحاجة إلى إصلاح وأن الصناعة تتطلب العناية؟ ألم يفكر الإنقلابيون إلاّ بالحكم وإلاّ بالكرسي. لقد فشل الإنقلاب إلاّ في الإطاحة بالوزارة، فقد كانت الدكتاتورية في ذروتها وعنفوانها، فالسلطة في يد شخص واحد غير مسؤول، ولم يكن في الوجه الرسمية بأكثر من موظف بوظيفة رئيس أركان الجيش. وكان تحيط بهذا الشخص زمرة من الضباط اشتهروا بالسكر والفساد وقد عاثت مع رئيسهم في الأرض فساداً، فاعتدت على ارواح الناس فقتلت ضياء يونس سكرتير مجلس الوزراء ومن أتباع ياسين الهاشمي[٢٥٦]، ورمت مولود مخلص بالرصاص وان لم تصبه[٢٥٧]،واعتدت على أعراض النساء ولا أريد ان أسجل هنا من دارت الإشاعات حولهن، واعتدت على أموال الناس وعلى حريات الناس وكراماتهم. لقد اضطرب المجتمع العراقي وساد الفزع بين أبنائه. كما اضطربت الحالة الاقتصادية وتوقفت الأعمال وانتشرت البطالة.

---

[٢٥٦] يذكر المفتي سبب قتله بأن حكمت سليمان رئيس الوزراء طلب منه أن يقدم اليه اضبارة بكر صدقي التي كانت محفوظة في صندوق رئيس الوزراء، فلما اعتذر يونس عن تلبية الطلب بحجة أنه لا علم له بها، أمر بكر صدقي أتباعه بقتله للتخلص مما كان يعلمه عنه، أي عن بكر، من أسرار وفضائح ارتكبها في أثناء القضاء على الحركات العشائرية في الجنوب، ويعلل المفتي سبب اهتمام حكمت سليمان بالإضبارة بأنها تضم أسرارا خطيرة عن علاقة بكر صدقي بالسفارة البريطانية وضباط الاستخبارات، وكان قتله في ليلة ٢١ كانون الثاني سنة ١٩٣٧(العراق بين عهدين ص١٠٦). وقيل أن قاتله هو اسماعيل توحله الموصلي (الحسني: تاريخ الوزارات ج٣ ص١٤٢).

[٢٥٧] جرت محاولة اغتياله في ليلة ١٠ شباط سنة ١٩٣٧.

لقد انفرد بكر في الحكم وعزل الحكم عن الوزارة، ولم تدر الوزارة أن بكراً قد ساق جيشاً وضرب بعض العشائر في الديوانية والناصرية ثانية. أما كان ضرب العشائر في هذين اللواءين من أهم الأسباب التي دعت إلى الانقلاب؟ ألم تبكِ المعارضة العشائر المنكوبة وتندب حظها التعس؟ ألم تقم الدنيا وتقعدها لأن وزارة ياسين ورشيد عالي خَرَّبت قراها وأحرقت بيوتها؟ فما الذي حدث حتى تقوم وزارة المعارضة نفسها بضرب الناس بنفس القسوة والأسلوب الذي أنكرته وصرخت في وجهه، وهي التي ادعت أنها وزارة وطنية قد انبثقت من إرادة الشعب ولم تأت إلى الحكم إلا لخدمة الشعب، وقد نسيت هذه الوزارة أنها إنما تعاونت وتآمرت مع نفس الشخص الذي كان قائداً للقوات العسكرية في زمن رشيد عالي والذي كان مسؤولاً بالدرجة الأولى عن أعمال التخريب والحرق والتدمير والخراب وقتل الناس جزافاً دون حساب، ولم تعرف انه إنما تآمر معها ليس حباً في الشعب ولا لخدمته، بل لتحقيق أطماعه الشخصية في الحكم والسيطرة.

وكانت الوزارة في معزل عن كثير من أعمال بكر صدقي وتصرفاته، وكان لا يطلعها إلاّ على القليل من أسرار الدولة وشؤونها ولا يخبرها بشيء عن ضرب العشائر، ولم يعلمها بأنه قد ساق إليها جيشاً ففتك فيها فتكاً ذريعاً، وفقاً لخططه الجهنمية التي اشتهر بها، وتنفيذاً لرغائبه المتعطشة لزهق الروح وسفك الدم. ثم كان أن سمعت الوزارة بهذا وبغير هذا، ووقفت على الشيء الكثير من عبث بكر صدقي وزمرته في أرواح الناس وأعراضهم وكراماتهم، كما أحست بتذمر الشعب وأنينه وشكواه، وكانت قد شعرت بان الانقلاب لم يحقق أية غاية من غاياته وأنه فشل في كل هدف من أهدافه، وأنه لم يحقق إلاّ هدفاً واحداً هو دكتاتورية بكر صدقي، فما كان من جعفر أبو التمن بعد أن

نفدت كل الطرق الأصولية للتفاهم مع بكر، إلاّ أن استقال استقالة جماعية مع أربعة من رفاقه هم كامل الجادرجي وناجي الأصيل ويوسف ابراهيم وصالح جبر، فهزَّت هذه الاستقالة الوزارة وهزَّت الشعب برمته.

استقالة جعفر أبي التمن

لم يستقل جعفر إلاّ بعد اجتماعات عديدة عقدها مع بكر ومع حكمت سليمان، فلقد أراد أن ينقذ الانقلاب من مصيره المحتوم، ولكن بكر كان قد ركبه الغرور واستبدت به روح الأنانية والديكتاتورية، فإذا ماوعد بالرجوع الى الطريق السوي، وإذا ما وعد بالابتعاد عن السياسة وعدم التدخل في شؤون الوزارة، وإذا ما وعد بأن يفسح المجال للوزارة لتدوير أمور الدولة وتصريف شؤونها دون عرقلتها، فلا يلبث أن ينقض الوعود، ولا يستطيع إلاّ أن يتدخل في كل صغيرة وكبيرة من شؤون البلاد. وقد أراد جعفر أن يتفاهم مع رئيس الوزراء حكمت سليمان ويذكره بالمباديء التي اتفقا عليها قبل الانقلاب، كما أراد منه أن يساعد بكر لكي لا يفشل الانقلاب في كل أهدافه، ولكن ما كان حكمت يرى ويسمع ما يراه ويسمعه جعفر، فأنه ربط مصيره ببكر صدقي وانشق على جماعته، فلاعجب إذا صمَّ أذنيه عن سماع أنين الناس وشكواهم وأغمض عينيه عن نجدتهم، فهل كان يطمح بأكثر من ان يكون رئيساً للوزراء؟! أنا لا أريد أن أبخس حق حكمت كل البخس وأنا أعرفه بعض المعرفة عن كثب، وأنا أدري أنه يحمل في رأسه بعض الأفكار الحسنة، وفي جنبيه بعض النوايا الطيبة، ولكن ما عسى أن أقول وقد وقف في هذه الأزمة الوزارية، بل المحنة الوطنية، بجانب بكر صدقي، وانشق عن جعفر وجماعته. ومن هو جعفر وجماعته؟ ألم يكونوا جماعة حكمت ولم تكن

لهم ببكر اية معرفة او معرفته بسيطة. من كان حكمت وما هو مصدر قوته؟ ألم يستند هو على هذه الجماعة؟ ألم يستغل جعفر ابو التمن وسمعته الوطنية التي ملأت العراق من أقصاه الى أدناه؟ فلماذا إذن أختار أن يكون مع بكر ولا يكون في صفوفهم. وهل لم يكن الحق واضحاً؟ هل كان بجانب بكر مع جعفر وجماعته! من حصر السلطة بيده؟ كم أساء استعمال السلطة فاعتدى على أرواح الناس وأعراضهم؟

استقال جعفر[٢٥٨]، وكانت استقالته وحدها تكفي لانهيار الوزارة وسقوطها فكيف به وقد استقال ومعه أقطاب الوزارة وهم كل جماعة حكمت، وهم كامل الجادرجي[٢٥٩] وناجي الأصيل[٢٦٠] ويوسف ابراهيم[٢٦١]، وغير جماعة حكمت وهو صالح جبر[٢٦٢]. لقد استقال خمسة وزراء من أصل ثمانية، أي استقالت الوزارة بأكثريتها، ولكن حكمت بقي مشدوداً إلى الكرسي ولم يستقل ولم يخرج في هذا عن العرف والتقاليد الدستورية فحسب بل خرج عن كل ما يكرم الحكم ويعززه. ولو لم يكن الحكم ديكتاتورياً والناس تخشى بطشه لمرت الوزارة في أزمة لا تنتهي إلا بسقوطها، ولكن الوزارة قد رفدت ببعض الوزراء وكان من بينهم بعض الانتهازيين. وكان قد استوزر محمد علي محمود للمالية، وعباس مهدي للمواصلات، وجعفر حمندي[٢٦٣]... ولا اتذكر الوزارة ولا بقية الوزراء[٢٦٤]. ومن غريب الصدف أن السيد جعفر كان يزورني في

---

[٢٥٨] في ١٩ حزيران ١٩٣٧.

[259] وكان وزيراً للاقتصاد.

[260] وكان وزيراً للخارجية.

[261] وكان وزيراً للمعارف.

[262] وكان وزيراً للعدلية.

[263] وزيراً للمعارف.

[264] علي محمود الشيخ علي وزيراً للمعارف، ومصطفى العمري وزيراً للداخلية.

دائرتي وكنا نتحدث عن الاستقالة وعن الأزمة الوزارية وعمن سيُقبل في الوزارة في مثل هذه الظروف قبل أن يستوزر بساعة او بساعتين.

لم أكن ازور جعفر أبو التمن في داره كثيراً قبل الاستيزار أو عندما كان وزيراً، ولكن أكثرت من هذه الزيارة بعد الاستقالة. كان يسكن في بيت قديم على النهر بالقرب من البلاط الملكي آنذاك، وكان هناك شارع ضيق غير مبلط يخترق البستان من الشارع العام حتى البيت، ولا يكفي لمرور سيارتين متقابلتين. وكنت أقطع هذا الطريق مشياً على الاقدام كلما أردت زيارة جعفر، وهي مرة في الأسبوع، وفي يوم (قَبوله)[٢٦٥]. ولما لم تكن عندي سيارة كنت أركب (الباص) وانزل بالقرب من فتحة الشارع، وكثيراً ما أصابني غبار بعض السيارات وهي تمر بجانبي صيفاً، أو بما قد ترشقه من طين شتاءً. ومع أننا كنا نخشى على حياة جعفر بعد أن استقال، إلاّ أننا اعتقدنا بأن بكر بالرغم مما اشتهر به من غدر وفتك فأنه لا يجرؤ على أن يسيء الى جعفر بأي شكل كان. وكنت لا أذهب الى بيت جعفر بعد استقالته إلاّ وأحمل مسدساً، وكم من مرة تصورت، وأنا أريد دخول هذا الممر الضيق المُترَب تارة والطيني تارة أخرى، أني سأضطر الى مواجهة خطر ما، ولا أدري لماذا كانت تقفز الى رأسي بعض هذه الأفكار السود والأخيلة الغريبة فلا أتمالك نفسي إلاّ أن اشهر مسدسي وأنا أقطع هذا الطريق وحيداً في ظلمة الليل الحالكة.

وحدث أن أقيمت حفلة في نادي الضباط ولم يمرّ على استقالة جعفر إلا بضعة ايام وقد نصحه كثير من الأصدقاء بعدم حضور هذه الحفلة، ولكنه أصر وأبى إلاّ أن يحضر. وما أن مرّ على بدء الحفلة إلاّ بعض الوقت حتى انطفأ

---

[265] القبول هو المجلس الأسبوعي الذي (يقبل) فيه الناس عامة، وكان أعيان الناس ووجهائهم قد اعتادوا عقد مثل هذه المجالس (القبولات) في أوقات مخصوصة من كل اسبوع.

الضياء وطمس النادي في ظلام دامس، فلم يخطر ببالنا الا أنها مؤامرة فقد دبرت لاغتيال جعفر وآخرين معه، فما كان مني ومن بعض الأخوان إلاّ أننا وضعنا أيدينا على زناد المسدسات وأحطنا بجعفر، وقلنا له: نحن هنا! فتمتم ببعض الكلمات، ولكن ما هي إلاّ لحظات حتى عاد الضياء كما كان فحمدنا الله وشكرناه. أرأيت كيف تتسع آفاق الخيال ويكبر الوهم ويتجسم الظن أذا اضطربت الأمور ولم تجر مجراها الطبيعي، أرأيت كيف يخلق المرء من الحبَّة قُبَة ومن اللاشيء أشياء. أرايت كيف يقيس الانسان الامور بمقياس المنطق اذا كان الوضع طبيعياً ويقيسها بغير المنطق اذا كانت الحالة غير اعتيادية.

كان قد حلّ السيد علي محمود المعروف (بالأسطى) وزيراً للمالية محل جعفر أبو التمن، وكان يستوزر لأول مرة في حياته، وقد استوزر في ظروف انقلابية شاذة وعقب أزمة وزارية حادة. ولم يكن ليغيب عن بال من يقبل الوزارة في مثل هذه الظروف أنه يقع تحت تأثير النفوذ العسكري، إن لم نقل إنه يخضع له الخضوع التام، فكيف بهذا الوزير وهو الذي عرف بالعجرفة والكبرياء؟ لم يكن محمد على محمود بشخصية وزارية قوية، وقد بدأ عهده بأن رفض تثبيتي في الدرجة التي رفعني إليها جعفر أبو التمن، وأصدر أمره بتمديد مدة التجربة إلى ستة أشهر أخرى، وهي مخالفة قانونية صريحة اعترض عليها مدير المالية العام السيد جلال بابان[٢٦٦] بمذكرة رسمية رفعها إليه. وفي الواقع فانه لم يفعل ما فعل إلاّ تنفيذاً لرغبات الآخرين.

---

[٢٦٦] ولد سنة ١٨٩٢، وشارك في الحركة الوطنية فنفي إلى هنجام سنة ١٩٢٠ حيث لبث هناك سنة واحدة، عاد بعدها للعمل في الوظائف الإدارية، وفي سنة ١٩٣٢ عين وزيراً للاقتصاد والمواصلات، ثم أصبح وزيراً للدفاع في وزارة رشيد عالي الكيلاني سنة ١٩٣٣، ووزيراً للمعارف في السنة التالية ثم استقال، فعين مديراً عاماً للمالية، واختير وزيراً للمالية في وزارة نوري السعيد السابعة في ٢٣ حزيران ١٩٣٤، واستقال منها في ٦ تشرين الأول من ذلك العام.

كانت وزارة الدفاع تصدر جريدة باسم الدفاع - على ما أتذكر - تنطق بلسان بكر صدقي وحاشيته التي لم تكن تختلف كثيراً عن العصابة[٢٦٧]. وكانت هذه الجريدة تحمل على جعفر من حين الى آخر، وتشجع بعض النواب مثل سلمان الشيخ للتطاول عليه وتشنّ حملات شعوذة على جماعته، وكانت أن نشرت على صفحاتها مقالات متسلسلة بعنوان الفرسان الثلاثة يحررها على ما قيل المرحوم خلف شوقي الداوودي[٢٦٨]، كلها طعن بي وبزميلين آخرين هما عبد الوهاب الركابي وسلمان الصفواني[٢٦٩]. ولم نكن نحن الثلاثة آنذاك إلاّ موظفين صغار،وإن كنت أعلاهم راتباً وأقدمهم درجة، وكان راتبي بعد الترفيع ٣٠ دينار شهرياً فقط. لكن الحقد الفائض هو الذي يأكل قلوب هؤلاء الناس وكان يفيض على اقلامهم وصفحات جرائدهم، وكانت هذه الصحائف مشحونة كلها بالأكاذيب والأباطيل، وهل يهمهم إن كذبوا وافتروا على الحقيقة والواقع؟

---

[267] كان صاحب امتياز (الدفاع) ورئيس تحريرها سركيس صوراني، وهو سوري آثوري، أما محررها الحقيقي فهو سركيس وفي، وقد توقفت الجريدة بعد نشرها نعي بكر صدقي مباشرة، أما سركيس صوراني فقد نزعت عنه الجنسية، وسفر إلى سوريا.

وصودرت ممتلكاتها، [٢٦٨] صحفي، ناقد، قاص، ولد سنة ١٨٩٨ وأصدر عددا من الصحف، ونشر مقالات عديدة في الصحف والمجلات العراقية، وله مؤلفات ومترجمات، توفي سنة ١٩٣٩.

[٢٦٩] صحفي رائد، قومي الفكر، ولد سنة ١٨٩٩، وبدأ عهده بالصحافة سنة ١٩٢٢ حين ساهم في تحرير مجلة (اليقين) لصاحبها محمد الهاشمي، وأصدر جريدة (اليقظة) سنة ١٩٢٤، ثم جريدة الرأي العام سنة ١٩٢٥، وصدر حكم بالسجن عليه سبع سنوات، لاتهامه بالمشاركة في حركات العشائر سنة ١٩٣٦، وفي سنة ١٩٤١ شارك في انتفاضة مايس، فأنيطت به مديرية الإذاعة، وفي سنة ١٩٤٦ كان من مؤسسي حزب الاستقلال، وأعاد اصدار جريدة اليقظة لتستمر حتى سنة ١٩٥٩، إذ دمر مكتبها الشيوعيون، لجأ بعدها إلى القاهرة، ثم استوزر لشؤون الصحافة سنة ١٩٦٥، وله مؤلفات في العمل القومي هاجم فيها الشيوعية، توفي سنة ١٩٨٨.

كان بكر صدقي عسكرياً ممتازاً بالمقاييس العراقية، وكان طموحاً وقد تعاظم طموحه منذ أن ظهر في معارك الآشوريين وسطع نجمه في ثورة العشائر، وقد اشتهر بكر في هذه المعارك بفضاضته وقساوته وعناده وصرامته واستهانته بالقوانين والأرواح، وهو لم يقض على الثورات إلاّ بالبطش والفتك، فقد أراق دماً زكياً وأرهق أرواحاً عديدة بريئة. وإذا كان بكر قد لمع نجمه العسكري، فإن اسمه كزعيم وطني له فلسفة في الحكم وآراء في السياسة لم يسطع، ولم يُعرف عنه بأن له مواقف مشهودة للدفاع عن حقوق الشعب وخدمته، والنضال في مقارعة الاستعمار من أجل حرية البلاد واستقلاله، فلذلك كان من الغريب جداً أن يكون هناك أي تفاهم بين زعيم شعبي ذي شخصية وطنية محبوبة مثل جعفر أبو التمن وبين هذا الرجل العسكري الذي لم يُعرف عنه إلاّ الفتك والبطش. ولا أدري في الحقيقة والواقع ما الذي جمع بينهما وكيف اتفق الاثنان وعلى أي شيءٍ اتفقا، وهل يجوز لمثل جعفر وقد بقي نظيفاً كوزير وبقي مناضلاً عنيداً وزعيماً مهاباً، قاطع الحكم والنيابة وزهد في الدنيا وبهرجتها وعارض في كل معاهدة يراد به تكبيل العراق،هل يجوز لمثل هذا الشخص ان يشترك في انقلاب مع شخص كبكر صدقي مهما كانت الدوافع والأسباب[270].

مقتل بكر صدقي

كان بكر صدقي بعد الانقلاب قد استأثر بالحكم وانفرد به، ولم يبق جعفر ابو التمن وزمرته إلاّ دُمى يلعب بها كيفما يشاء، كما كان شعوبياً قد

---

[270] حول الأسباب التي دفعت جعفر أبي التمن الى الاتفاق مع بكر صدقي في انقلاب ١٩٣٦ آراء عدة، ينظرعبد الرزاق الدراجي: جعفر أبو التمن ودوره في الحركة الوطنية في العراق، بغداد ١٩٧٨، ص٣٥٩-٤٧٤.

اختط سياسة في الجيش تقسم الجيش على نفسه، وقد ناوأ العنصر العربي، وهو الذي يمثل أكثرية البلاد الساحقة، وعادى القومية العربية وكل تفكير عربي، كما أهمل الشعب ومطاليبه، بل أنه استهتر بالشعب وبحريات الناس وأعراضهم وأرواحهم، وكان ان اشتهر بلياليه الحُمر وعُرف بالسكر والفساد، وما كانت حاشيته بأكثر من عصابة لسلب هذا الشعب، ولم يكن هم بكر إلاّ أن يرضي بعض الفئات القليلة المقربة اليه من الجيش واكثريتها من غير العنصر، فأغدق عليها الرُتَب والهدايا والأوسمة والفلوس وما شابه ذلك. وقد أراد من أجل تقوية مركزه في الجيش أن يسلح الجيش أو بعض وحداته وأن لا يشتري السلاح من بريطانيا فقط وإنما من إيطاليا أيضاً، مستهدفا تحسين سمعته بين الناس فلا يقول عنه الناس أنه صنيعة إنكليزية، وقد يقول عنه بعض الناس أنه وطني وإلاّ فكيف يشتري سلاحاً من غير بريطانيا!

لقد طغى بكر وتجبر، وكان حاكماً أبعد الشعب عن الحكومة، وتأزم الوضع واشتد الخطر، وكان مما لابد منه أن يكون، وحدث ما كان لابد أن يحدث، وما كان مصيره ليختلف عن مصير الكثيرين من أمثاله الطامحين المغامرين، وكان أن اختفى اسمه فجأة كما ارتفع فجأة، فلقد قُتِل في مطار الموصل! وكانت قد تألبّت على قتله عوامل كثيرة منها ديكتاتوريته واستهتاره، ودم جعفر العسكري، وشعوبيته على الأخص. فتآمر عليه بعض الضباط العرب وفي مقدمتهم العقداء الأربعة، وهم صلاح الدين الصباغ وفهمي سعيد ومحمود سلمان وكامل شبيب.

ولما كان بكر قد دُعي الى زيارة تركيا، فقد تقرر قتله قبل أن يترك العراق، أما في بغداد أو كركوك أو الموصل، وهي المحطات التي تقف طائرته فيها من بغداد إلى أنقرة. وقد فشلت المحاولة في بغداد، ثم فشلت في

كركوك، ولكنها لم تفشل في الموصل. كان بكر وصديقه وزميله الطيار محمد على جواد يجلسان لوحدهما في إحدى غُرف المطار العسكري، حيث كان بكر يشعر أنه في مأمن، وأنه ما أختار هذا المحل إلاّ لأنه أكثر أمناً من غيره، ولم يمر عليه وقت طويل وهو يتجاذب أطراف الحديث مع زميله حتى تقدم شخص من ورائه وأطلق عليه النار في رأسه فسقط صريعاً في الحال دون أن ينبس ببنت شفة. اما محمد على جواد فقد قام ليدافع عن صاحبه وأراد مسك الجاني، فنهره وصاح به: أن أقعد مكانك فأنت غير مقصود! ما أن همّ محمد علي بوضع يده على مسدسه حتى أطلق عليه الجاني رصاصة أخرى أردته قتيلاً في الحال. وكان الجاني رئيس عرفاء في الجيش من أهالي تلعفر[٢٧١]، وهي قرية تقع بالقرب من الموصل، وكان جريئاً وهدّافاً ماهراً. وكان عندما جاء المطار التحقت به زمرة من الضباط يتقدمهم محمود هندي[٢٧٢]، وما أن انتهى من عمله حتى كان معهم في إحدى السيارات التي أخذت تنهب بهم الأرض نهباً. وكان قد أشيع أن الجاني مجنون أو جُنّ، وأنه أدخِل مستشفى المجانين، ولكنه في الحقيقة كان سليماً معافى وليس فيه جنون أو حتى مَسّ من الجنون، وأنه اقتطع أرضاً في قضاء الشطرة من لواء الناصرية، وأنا لا أدري إذا كان لايزال حياً أم أنه قد مات، وإن كنت سمعت أنه مات أخيراً.

---

[٢٧١] هو محمد عبد الله التلعفري.

[272] الرئيس (النقيب) يومذاك، وكان صاحب السيارة التي أقلت كل من المقدم الخيال محمد خورشيد، ومحمد عبد الله التلعفري، والمقدم محمد فهمي سعيد، وهم الذين نفذوا عملية قتل بكر صدقي، وقد جرى اعتقال محمود هندي بعد تنفيذ العملية.

لقد قُتل بكر ولكن حكمت سليمان لم يستقل في الحال، بل بقي في الحكم مدة لم تكن إلاّ قصيرة، ثم استقال بعدها أو أُقيل،ثم انزوى حتى آخر لحظة في حياته.

نضال نادي المثنى

كان نادي المثنى شوكة في عيون الشعوبيين[٢٧٣]، وكان يهمّ الشعوبيين حصد هذه الشوكة وكسرها، فكيف بها وقد توهمت[٢٧٤] انها جاءت الحكم وسيطرت عليه، وإذا كان بكر شعوبياً فلا يَقِل عنه كامل الجادرجي شعوبية، وإذا كان بكر يمثل الناحية العسكرية فإن كامل يمثل الناحية المدنية. كان كامل قد ألّف ما أسماه بجمعية الاصلاح الشعبي ولم يسمها حزباً لكي لا يمنع الموظفين من دخولها، وهم يمنعهم القانون من دخول الأحزاب. وكان يريد أن ينضم إليها أكبر عدد ممكن من أبناء الشعب وموظفي الحكومة ليبني لحركته قاعدة شعبية واسعة. وكان يطمح إلى أن يكون يوماً زعيماً، ولابد للزعيم من أتباع، بل لابد من أن تلتف حواليه الأمة. وقد أراد أن يدعو إليها ما وسعته الدعوة فنشر على الناس منهج هذه الجمعية، وكان منهجاً خلاّباً برّاقاً. وكان عليه أن يبذل الجهود – هو وجماعته – لاقناع الحاج جعفر أبو التمن بدخول هذه الجمعية حتى نجح في مسعاه فظفر منه بتصريح يؤيد هذه

---

[٢٧٣] ينظر عن دور نادي المثنى في الحركة القومية: عماد الجواهري: من تاريخ الحركة العربية المعاصر،نادي المثنى وواجهات التجمع القومي في العراق، بغداد ١٩٨٤، و جعفر عباس حميدي: من وثائق النوادي القومية في العراق، المثنى بن حارثة الشيباني والبعث العربي، بغداد ١٩٩٨.

[٢٧٤] يريد: توهم الشعوبيون.

الجمعية ويرحب بمنهجها[٢٧٥]، ومع هذا فلم ينضم إليها إلا الشعوبيون والانتهازيون والشيوعيون، وكلهم كانوا بعد في أوائل مراحل تكوينهم، ولم ينضم إليها أحد من القوميين، وإذا انضم أحد فلم ينضم إلاّ لأنه كان هزيلاً تافهاً. ولقد هاجمت القومية بأساليبها الخبيثة وطرقها الملتوية، وأرادت أن تهاجمها في عقر دارها، وأن تنتقض على مربضها وحصنها وهو نادي المثنى.

كان كامل بصفته سكرتير جمعية الاصلاح الشعبي قد طلب من هيئة نادي المثنى الادارية انتداب ممثليها للإجتماع بممثلي هذه الجمعية، وهم كامل الجادرجي ومحمد حديد وحسين جميل. وقد انتدب نادي المثنى لمثل هذه الاجتماعات صائب شوكت[٢٧٦] وفاضل الجمالي ومحمد مهدي كبة[٢٧٧] وأنا، فاجتمعنا عدة اجتماعات، وكان الغرض منها أيجاد وسيلة للتفاهم وتنسيق العمل بين الجهتين، على أن هذا كان الغرض الظاهري، وما كنا نشك في أن كامل وجماعته لا تريد للفكر القومي أن ينتشر، ولا لنادي المثنى البقاء؛ وهكذا لم تثمر هذه الاجتماعات إلاّ شيئاً واحداً، وهو تمسك كل جماعة بأهدافها وطريقة تفكيرها، ولم تتنازل الواحدة للأخرى عن بعض هذه المفاهيم أو الأهداف. ولقد تضايق كامل من مثل هذه الاجتماعات وما كان يعجبه الاستمرار بها، وكان أن أشاع هو وجماعته بعض الاشاعات وأرجف بعض الاراجيف، وكلها تدور حول موقف بكر صدقي من هذه النادي ومن آرائه وأفكاره، وأنه لم يعد في إمكانه التسامح بصدد وجود مثل هذه المؤسسات، لاسيما وأنها تنبت روح التفرقة بين أبناء الشعب العراقي.

---

[٢٧٥] حول ظروف انضمام ابي التمن لجمعية الإصلاح الشعبي ينظر: كامل الجادرجي: مذكرات..، بيروت ١٩٧٠، ص٣٢.

[٢٧٦] معتمد النادي.

[٢٧٧] نائب المعتمد.

كانت الشعوبية تريد القضاء على النادي عن طريق بكر صدقي وديكتاتوريته العسكرية. وكان طبيعياً إلاّ يفكر العراق إلاّ تفكيراً قومياً وهو بلد العرب ومربض القومية، ولم يكن التفكير القومي يوماً ما لتقسيم العراق وأبنائه، أما الكرد فهم يقطنون مناطق الشمال ولا يكونون إلاّ ١/٨ من أبناء السكان، وهم بهذا كانوا جزءاً لا يتجزأ من أبناء العراق، وإن لهم ما لغيرهم من الحقوق وعليهم ما على غيرهم من الواجبات. ما كانت القومية العربية تنظر الى الأكراد إلاّ شركاء وأشقاء في وطن واحد، وما كانت إلاّ لتعترف بحقوقهم القومية المشروعة ضمن العراق والوطن العربي الكبير، وما كانت القومية لتستعلي على الأكراد، ولا تريد لهم العيش والازدهار، ولا تعترف لهم بقوميتهم، وما كانت القومية العربية لتعتقد بالرِّسِّية[٢٧٨] ولا بنقاوة الدم وصفاء العنصر، انما كانت تقوم على فكرة الأخلاص للوطن العربي والولاء للأمة العربية، ولا تذهب إلى أبعد من هذا، فلا يهمها أصل الانسان وما هي سلالته ومن أين تَحدَّر مادام هذا الانسان يتكلم اللغة العربية ويخلص لبلاد العرب ولا يمحض ولاءه إلاّ لأمة العرب، وكم من قادة الشباب وزعماء الأمة تحدروا من العنصر الكردي، فهل في هذا ضير مادام هذا القائد او ذاك الزعيم لا يعرف غير خدمة العرب ولايريد إلاّ خيرهم. أو ليس من السخف أن نتمسك بالدم كأساس للقومية، وهل نعرف كم اختلطت الأقوام ببعضها، وهل يستطيع أحد منا أن يجزم بنقاوة عنصر وصفاء دمه، وهل أحد نادى بالدم كأساس للقومية إلاّ هتلر، وهل لم يفشل هتلر في دعواه، وهل يستطيع هتلر نفسه أن يبرهن على أن دمه دم الماني نقي مائة بالمائة، لم يخالطه دم آخر؟

---

[٢٧٨] الرسية Racism نظرية تقوم على الاعتقاد بتفوق أحد الأجناس أو العناصر البشرية على غيره.

ما كان نادي المثنى يريد أن يُقَسِّم الأمة، وما كان يريد أن يفرق بين العرب والأكراد، وما كانت قوميته عنصرية تؤمن بالدم وصفائه، وماكانت اعتدائية لا تعترف بحقوق القوميات الأخرى ولا تريد إلاّ ابتلاعها، بل كانت قومية تنشد وحدة الأمة العربية وحريتها واستقلالها وتحضير المجتمع العربي وتطويره وفق أسس اجتماعية واقتصادية سليمة تتناسب ومقتضيات المدنية وتطورات العصر، فلا تقبل أن يبقى هذا المجتمع متأخراً تفتك فيه الأمية، ولا تقبل أن يكون جائعاً يفتك فيه المرض، بل لابد من مجتمع قد ضمن فيه الفرد مستويات معينة من العيش والتربية والصحة، ولا توجد فيه طبقات تنكر الواحدة الاخرى وتتناحر الواحدة مع الأخرى، بل لابد من مجتمع تقل فيه الفروق الطبقية ويتمتع الناس فيه بحرياتهم الأساسية ونظامهم الديمقراطي السليم.

هذا ما كان يريده نادي المثنى، ولكن هذا ما لم تكن تريده الشعوبية، فأشاعت بين الناس أن نادي المثنى في خطر، وان الحكومة ستلقي القبض على أعضائه وستودعهم السجون، فلم يكن من قسم غير قليل من أعضائه، وهم من الموظفين، إلا الانقطاع عن النادي وعدم حضور اجتماعاته وحفلاته، ولم ير النادي وهو يمر في مثل هذه الازمة الحادة وهذا الجو الارهابي الخانق إلاّ أن يحدد نشاطه ويقلص من أعماله، وإنني لأتذكر بأنه مرَّت علينا بعض أيام الأحد وفيها كانت تجتمع فيه الهيئات الادارية والمؤسسة فلم يحضر فيها إلاّ العدد القليل من أعضائها. لقد كانت محنة وكان لابد من أن تمرّ المحنة بسلام.

لم يكن للنادي بناية خاصة به فاستأجرنا أحد البيوت في (الصالحية) مقراً له، ثم انتقلنا إلى أحد البيوت في العيواضية، وقد كانت مالية النادي

ضعيفة تقوم على الاشتراكات التي يدفعها الأعضاء، ولم يكن كثير من الاعضاء حريصاً على دفع بدلات الاشتراك، وكم كنا نجابه صعوبات ولا سيما إذا ما استحق الأمر دفع بدلات الأيجار، وكم من مرة قام بهذا الدفع أعضاء الهيئة المؤسسة من جيوبهم الخاصة. كان النادي يشكو من بعض الأزمات المالية الحادة، ولاسيما ما تتطلبه بعض الحفلات من المصروفات. وكان لابد للنادي من بناية ولكن من أين لنا المال لشراء الأرض وتشييد البناء، وكان المرحوم رستم حيدر رئيساً للديوان الملكي عندما قام المرحوم الملك غازي بتوزيع أراضي محلة الوزيرية مجاناً على رؤساء الوزارات وبعض الوزراء وبعض الشخصيات المدنية والعسكرية، ولم يُفَوِّت رستم حيدر هذه الفرصة، فما أن فاتحته وبعض زملائي بالموضوع حتى أمر بتخصيص قطعة من الأرض في ركن من المنطقة، تبلغ مساحتها نحواً من ٥٠٠٠ آلاف متر مربع، تطل على حديقة عامة واسعة[٢٧٩]. وكانت هدية مَلَكية سخية، ولكن من أين المال للبناء. وحينما كان رستم حيدر وزيراً للمالية[٢٨٠] كنت مميزاً للخدمة والملاك، وقد قررت الهيئة الإدارية للنادي تكليفي بمفاتحة رستم للحصول على منحة مالية من وزارة المالية. وكنت على اتصال بالمرحوم رستم بحكم وظيفتي، وكان آنذاك مهتماً بتشريع بعض القوانين ومنها قانون الخدمة المدنية، وكنت أساهم في وضع مسودته، فاغتنمت إحدى الفرص المناسبة وفاتحته في الأمر، ولم يكن منه إلاّ أن استجاب للطلب في الحال دونما تأخير، وقال: هل تدري كم لدينا من مخصصات تحت مادة المنح؟

---

[٢٧٩] وهي الأرض التي شيدت عليها، في السبعينات، بناية الاتحاد الوطني لطلبة العراق سابقاً، ويشغل جانباً منها اليوم مسرح، بينما تحتل بعض المنظمات جانبها الآخر.

[٢٨٠] تولى وزارة المالية في وزارة نوري السعيد الرابعة، من ٦ نيسان ١٩٣٩ حتى اغتياله في مكتبه، على ما سيرويه المؤلف فيما يأتي، في ٢٢ كانون الثاني سنة ١٩٤٠.

قلت: نحواً من ألفي دنيار، قال: هي لكم وإن لم تسدّ الحاجة فسأخصص لكم مبلغاً آخر على أن لا تتأخروا في البناء، قلت: ولكن أسعار بعض المواد الأولية أخذت ترتفع، قال: ما عليكم بهذا فبناؤكم اليوم خير من بنائكم غداً. وما كانت الهيئة الأدارية لتصدق الخبر عندما زَفَفتُه لها في اليوم نفسه، وقد أدهشتها موافقة الرجل بمثل هذه السرعة، ثم كلفتني بقرار منها أن أقوم بالبناء وأن أُشرف عليه وأن أتصل بالمهندسين أولاً وأعرض عليها الخطط للموافقة عليه. وقد اخترت – بموافقة الهيئة الإدارية – أن يكون المهندس صلاح العيتاني، وهو شاب من بيروت وأخو فوزي العيتاني الذي كان يدرس معي في كورنيل، وقد وافقت الهيئة الادارية بعد عدة اجتماعات ومذاكرات على التصميم الذي وضعه مهندسنا هذا، ثم قام بالبناء المتعهد المعروف آنذاك عباس حلمي.

كنت متزوجاً حديثاً، وكان الوقت ضيقاً، ومع هذا فقد كنت أمضي الساعات وأنا أشرف على البناء حتى انتهى تماماً، ولكننا لم نُدَشّنه ولم نجتمع فيه إلاّ مرة واحدة، وقد قررت فيه الهيئة الادارية أو من حضرها تجميد أعمال النادي.

وكانت الحرب قد اندلعت بنيرانها وأوقف عدد كبيرمن أعضاء النادي، وكان النادي قد أصبح مؤسسة لا ترغب فيها الحكومة والسلطات البريطانية معاً، ولم تتردد الحكومة لحظة في استصدار قانون خاص خلافاً للدستور لمصادرة نادي المثنى[٢٨١]، وهكذا صودرت البناية وصودرت ممتلكات النادي من أثاث ونقد وما شابه ذلك، ولم تبق البناية معطلة فسرعان ما منحتها

---

[٢٨١] ألغت وزارة الداخلية إجازة نادي المثنى في كتابها المؤرخ في ٨ نيسان ١٩٤٣، تنظر وثائق الإلغاء في حميدي: المصدر السابق ص٤٠ ـ ٤٤.

الحكومة لتكون مركزاً لجمعية اخوان الحرية. وكانت هذه الجمعية من مبتكرات الإنكليز زمن الحرب، وقد أسسها في العراق كبار رجال الاستخبارات الإنكليز أمثال (سكيف) و(فِريا ستارك) ومن شابهما، واشترك معهما بعض رجال العراق وشبابه المثقف الذي يحتل اليوم مراكز وزارية وأخرى عالية. وكان لهذه الجمعية مركزها الرئيس في بغداد، وفروعها المنتشرة في كل لواء من الألوية حتى بدت وكأن العراق كله قد انتظم فيها.، بينما بقيت (أنا وأمثالي) بعيداً عن مثل هذه الجمعية، وبعيداً عن الإنتساب إليها، وبعيداً عن التعرف على رجالها وأعضائها، ولم أتعرف على (فريا ستارك)، بل لم أشاهدها حتى هذه اللحظة. وإذا كانت الشعوبية قد حاربت القومية ونادى المثنى في زمن بكر صدقي فقد حاربها الأنكليز زمن الحرب، بل تفنن الإنكليز في مثل المحاربة، ولم يتركوا سبيلاً إلاّ سلكوه حتى امتلأت المعتقلات بالقوميين وطُرِد قسم غير قليل من وظائفهم، وكانوا شبه محتجزين في دورهم، وحتى حُلَّ نادي المثنى وصودرت بنايته وممتلكاته. ولقد احتل الأنكليز وأذنابهم وجواسيسهم هذه البناية فأصبحت حكراً لنادي أخوان الحرية ولم يستحي (سكيف)، وهو يفتتح هذه البناية مزهواً بنشوة هذا الفتح، مغروراً بهذه الأنتصار، من أن يقول: نحن لسنا هنا اعتباطاً، نحن هنا لأمر ما، نحن هنا ندعو إلى الحرية في مقرّ نادي المثنى الذي كان بالأمس القريب بؤرة للفاشية. لم يكن الإنكليز يدعون إلى الحرية، ولم يفهم الإنكليز الحرية زمن الحرب إلاّ بقدر ما تخدم مصالح امبراطوريتهم، ولم يكونوا يدعون إلاّ إلى التفسخ الخلقي، ولم يكن النادي يتصل إلاّ بالانتهازيين والأذناب والجواسيس والشعوبيين، ولم يقصدوا بجمعية الحرية التي أسسوها وبالحفلات والدعوات والسهرات التي كانوا يقيمونها إلاّ إفساد بعض الضمائر

وشراء بعض النفوس الحائرة أو الميتة. ولقد حارب الأنكليز القومية والقوميين، وحاربوا كل ما هو رفيع ونبيل، ولم يدركوا أن مثل هذه الحرب لا يمكن أن تقضي على الروح القومية والنفوس الأبية، بل لا يمكن إلاّ أن تُذكي روح الكفاح والنضال، وتزيد من لهيب الوطنية واشتعال نار القومية. كانت إذن حرباً شعواء على القومية والقوميين، وكانت محنة عظمى لم يبق بيت إلاّ وأصابته بشكل من الأشكال، ولكن خرجت القومية منها بعد هذا الكفاح المرير ظافرة منتصرة قد أتَّسَع نطاقها وتقوت في اندفاعاتها.

لقد كانت فئة قليلة من أعضاء الهيئتين الإدارية والمؤسسة هي التي حافظت على نادي المثنى وسمعته وكيانه إبان الطغيان العسكري وتهديدات بكر صدقي، وكاد النادي أن يموت، فالحياة قد شُلَّت والاجتماعات توقفت وقد تجمد نشاطه وفعالياته. وكنا فئة قليلة لم يرهبنا ارهاب ولم تُخِفنا تهديدات أو وعيد، وكانت هذه الفئة حريصة على أن تحضر إلى النادي وتبعث بعض الحياة فيه، وأن تحضر بصورة خاصة أمسيات الآحاد حيث تجتمع فيها هيئتا النادي، ولم يكن يحصل النِصاب ولم تعقد هذه الاجتماعات إلاّ فيما ندر. وكنا نحن، أنا والدكتور فاضل الجمالي ومحمد مهدي كبة، أحرص الناس على التردد على النادي والاختلاف إليه آيام الأحد. أما الأعضاء الآخرون فلم يكن دوامهم منتظماً، ومنهم رئيس النادي الدكتور صائب شوكت. كان محمد مهدي كبة نائباً للرئيس والدكتور فاضل أحد اعضاء الهيئة المؤسسة والأدارية، وأنا سكرتيراً للنادي، وكانت الهيئة الأدارية يرأسها نائب رئيسها وأكثرية أعضائها ثابتون منذ أن تأسس النادي وحتى حله، وكانت الانتخابات تجري سنوياً فيعاد فيها انتخاب الهيئة نفسها. ولقد كنت سكرتيراً للنادي طوال حياته إلاّ فترة قصيرة عند أول

تأسيسه. واذا كان ثبات هذه الهيئة له بعض الفوائد فله بعض المضار أيضاً، فهو يكسبها خبرة في العمل وقدرة على تفهم مشاكل النادي وحلها، وعلى بث الفكرة القومية وخدمة اهدافها، لكنه في الجهة الثانية يثير الملل عند البعض والحسد أو الحقد عند البعض الآخر لا سيما إذا ما اقترن هذا الحسد بعوامل أخرى ودوافع قد تكون حقيقية تارة وظاهرة تارة أخرى. كان في مقدور الهيئة المؤسسة بحسب النظام أن تزيد في عدد اعضائها بأن تضم لها أعضاء جدد بأن تنتخبهم من بين أعضاء الهيئة العامة، ولا تنتخب إليها إلاّ من أدى خدمات بارزة إلى النادي، وقد مرت على إنشائه سنة في الأقل. وكان لا يجوز انتخاب الهيئة الإدارية إلاّ من بين أعضاء الهيئة المؤسسة. وصحيح أن الانتخابات حرّة ولكنها مقيدة بهذه القيود النظامية.

كانت الإنتخابات تجري كل سنة، ولم يجر تغير في أعضاء الهيئة الإدارية بل كانوا ينتخبون سنة بعد سنة، وكان الرئيس ونائب الرئيس يعادون الى مناصبهم حتى كانت انتخابات سنة ١٩٤٠. وقد حضر هذا الانتخاب أعضاء النادي على عادتهم، وجرت الإنتخابات وفازت الهيئة الإدارية السابقة كما حدث في السنوات الأخيرة. وكان قد حضر هذه الانتخابات درويش المِقدادي[٢٨٢] وصدِّيق شَنشَل[٢٨٣] وزمرة من الشباب الذين لم

---

[٢٨٢] كاتب، مؤرخ قومي، فلسطيني الأصل، ولد في فلسطين سنة ١٨٩٨وتخرج في الجامعة الامريكية ببيروت، قدم الى العراق وحصل على جنسيته، وعمل مدرسا في دار المعلمين العالية وفي المدرسة الثانوية المركزية. عرف بنزعته العربية التي تجلت في مؤلفاته ومنها (تاريخ الأمة العربية) و(المنهج القومي العربي)، وهو أحد المؤسسين الفعليين لنادي المثنى، توفي سنة ١٩٦١.

[٢٨٣] سياسي قومي، ولد في الموصل سنة ١٩١٠، التحق بكلية الحقوق ببغداد، ثم أكمل دراسته في معهد الحقوق بدمشق، وسافر الى باريس حيث حصل على دبلوم القانون العام ودبلوم الاقتصاد السياسي من جامعة باريس. وعين سنة ١٩٣٩ عين مشاورا للحقوق في وزارة الخارجية، وانتمى الى نادي المثنى على ما يذكره المؤلف هنا، ثم عين مديرا عاما للدعاية في حكومة الدفاع الوطني سنة ١٩٤١، ونفي

يكونوا يحضرون الانتخابات السابقة بصورة منتظمة، والذين اختفوا من النادي يوم كان يضايقه ويهدده بكر صدقي وكامل الجادرجي، وكانت قد ظهرت هذه الزمرة في مثل هذه الانتخابات ككتلة مستقلة متفقة فيما بينها. وما أن ظهرت نتائج الانتخابات حتى قام درويش المقدادي يعترض عليها. كان درويش رجلاً قومياً متين الخلق غزير العلم صلباً ولكنه كان مع هذا كله ساذجاً، بسيط القلب، لا يعرف اللؤم، ولهذا استغلت هذه الزمرة اخلاصه وطيبة قلبه، وكان أن سمَّمت افكاره مما دفعه إلى ذلك الموقف الذي وقفه أثناء الانتخابات. قام درويش يعترض على الانتخابات وقد تكلم بشدة وخشونة وهاجم النادي وهيئته الادارية، فوصفها بالانانية والأثرة والاحتكار، بل طالب بابطال هذه الانتخابات وتأجيلها إلى الاسبوع القادم، أما جماعته فقد ملأت النادي قياماً وقعوداً وتصفيقاً غير أنها فد فشلت في الانتخابات، وإنما أرادت التأجيل لتعبئ كل قواها ولتحضر في الانتخاب القادم بعض مؤازريها الذين تخلفوا على ما يظهر عن حضور الإجتماع.

لقد دهش أعضاء النادي من غير هذه الزمرة وهم الأكثرية الساحقة، ودهش أعضاء الهيئة الأدارية والمؤسسة من مثل هذه المفاجأة وهذا الموقف، ولاسيما من مثل درويش المقدادي، فما كان مني وقد رأيت الصمت قد ساد نوعاً، وأن الأخوان لم يفيقوا بعد من شدة الضربة المفاجئة، إلاَّ أن قمت غاضباً محتداً، وقد استطعت أن اسيطر على نفسي بعض السيطرة، وما أن قمت حتى أمسك فاضل الجمالي بذيل سترتي، ورجاني أن لا اتكلم، ولكنني تكلمت. وإن كنت قد نسيت كل ما تكلمته فلم أنسَ بعض ما تطرقت إليه،

بعد سقوطها الى جنوب افريقيا وسجن في وطنه مدة، وأطلق سراحه بعد الحرب العالمية الثانية واشترك في تأسيس حزب الاستقلال، ثم عين وزيرا لوزارة الإرشاد بعيد قيام ثورة تموز ١٩٥٨.

إذ قلت فيما قلت بأنني أستغرب من طلب التأجيل واعادة الإنتخاب، وقد جرت الإنتخابات واشترك فيها درويش وجماعته وكانت النتيجة كما ظهرت، أما إذا أراد درويش وجماعته السيطرة على النادي والحلول على الهيئة الأدارية فنحن لا مانع لدينا بالمرة، وإنني لأرحب بهم كل الترحيب غير أنه لابد من القول بأنني اسجل ألمي وأسفي على درويش وعلى تهجمه على الهيئة الادارية ووصفها بهذه النعوت النابية، هذه الهيئة التي كانت قد أبقت على كيان النادي، والتي قد جازفت وضحت في سبيل المحافظة عليه يوم تخلّى عنه الكثيرون، وما كنت أنتظر إلاّ أن تشكر هذه الهيئة لكل ما تقدمه للنادي من خدمات، أما أن يُساء إليها وينكر عليها جميلها، أو قُل يجحد عليها قيامها بواجبها فهذا ما لم أكن أنتظره من أحد بله درويش المقدادي! ثم أضفت قائلا: وإن أنا أسف على شيء فاني آسف على أموال الحكومة العراقية التي صرفتها على درويش للدراسة في ألمانيا غير أن درويش على ما يظهر لم يذهب إلى ألمانيا للدراسة ولكنه ذهب اليها ليتعلم من هتلر استعمال القوة والعنف لتحقيق ما يرغب في تحقيقه.

وما أن تفوهت بهذه العبارات الأخيرة حتى سار الهرج والمرج، وارتفعت بعض الكراسي، وكاد الأعضاء يضرب بعضهم بعضاً. ثم تركنا النادي وسط الفوضى والإرتباك، وقد انقطعت عن الذهاب إليه حتى قدم البيت صديق شنشل الذي كان وراء هذه الحركة من أولها إلى اخرها مع زمرة من الشباب يحمل غصن الزيتون، وكانت أحاديث واعتذار.

مقتل الملك غازي

كان قد دق جرس التلفون في الصباح الباكر من ٤ نيسان من سنة ١٩٣٩ فخفق قلبي ووجفت نفسي، فأنا لا أحب، بل أكره، أن اسمع صوت التلفون في ساعة متأخرة من الليل أو في ساعة مبكرة من الصباح لتوقعي أنه يحمل الي أنباء غير سارة. كان المتكلم صديقي ممتاز عارف قال: هل سمعت يا أبا الحارث؟ قلت: ماذا؟ قال وصوته يرتجف: لقد مات الملك غازي! قلت: ماذا تقول؟ هل أنت هازل أم جاد؟ هل نحن في أول نيسان أو في اربعة منه لا أدري، وهل يجوز المزاح في مثل هذه الأمور؟ قال: هي الحقيقة بعينها!

كان وقع الخبر عليّ وقع الصاعقة، ولم يكن وقعه على أهالي بغداد وعلى أهل العراق عامة بأقل من ذلك، فلم يكن أحد ينتظر مثل هذا الخبر المُفجع، وإذا كان الإنسان يؤخذ حين غرة عند مثل هذه الأخبار المفاجئة غير المنتظرة فلابد وأن تأخذه الحيرة والدهشة، ولابد أن تبعث فيه التساؤل والتشكك، بل شعوراً بعدم التصديق. وكيف مات الملك غازي بهذه السرعة وهو لا يشكو مرضاً بل كان على أشد ما يكون من الصحة والعافية؟ كيف مات وهو بالأمس معنا وكله حركة ونشاط وحياة. لقد مات الملك غازي ولم يكن أحد ليصدق أنه مات. وكان غازي حبيباً إلى القلوب ولاسيما في أواخر أيامه، وإذا كان قد بدأ الحكم وهو بعيد عن النفوس بعض البعد، فقد انتهى وهو أقرب ما يكون إلى الناس، وألصق ما يكون بنفوسهم وقلوبهم، كان حبيباً وكان موته خاطفاً، فماذا عسى ان يكون شعور الناس بهول الصدمة واختطاف الموت للملك المحبوب. ما رأيت بغداد بكت أحداً مثلما رأيتها وهي تبكي غازي، وما رأيت بغداد تخرج عن بَكرة أبيها مثلما رأيتها وهي تودع الراحل العزيز. لقد خرجت بغداد برجالها ونسائها وشيبها وشبابها،

بكبارها واطفالها، تشق الجيوب وتحثو التراب على الرؤوس وهي تنادي: واملكاه. وكانت كل محلة قد لبست السواد وخرجت بطبولها ودفوفها تهْوَسُ (الهوسات) وتهزج الأهازيج الحزينة الباكية. وكان تشييعه تشييعاً شعبياً ورسمياً منقطع النظير، بحيث لم يبق أحد إلاّ واشترك في هذا التشييع. واشترك نادي المثنى في هذا التشييع، وقد ذهب اعضاء النادي إلى المقبرة الملكية حيث رقد الراحل، وقد ألقيتُ خطاباً تأبينيا باسم النادي، وكان خطاباً رائعاً له رنَّة وحزن في مختلف الأوساط.

كان قد أُشيع ان الملك قد مات بعد أن اصطدمت سيارته هو يقودها بسرعة فائقة[٢٨٤] بأحد عواميد الكهرباء القائمة على جانبي مدخل قصر الزهور الخاص، وأن العمود سقط على أم رأسه فهشمه وأودى بحياته على الفور، ولم يكن أحد معه إلاّ عبده الخاص، وأن هذا العبد قد جُرِح بسبب هذا الاصطدام ونقل الى المستشفى. وقد أصدر عدد من الأطباء نشرة طبية تؤيد بأن الوفاة قد حدثت بسبب هذا الاصطدام، وتُرِكت السيارة المحطمة التي قتل فيها الملك بالقرب من العمود الذي اصطدمت به مدة من الزمن لمشاهدتها من قبل الناس للتأكد من وقوع الحادثة، ولئلا يتسرب الشك إلى النفوس.

كان الملك متهوراً بقيادته لطائرته الخاصة، كما كان متهوراً في قيادة سيارته بسرعة خارقة بل وجنونية. ولقد ذهب خلق كثير لمشاهدة السيارة، ولا أدري لماذا لم أذهب أنا، ولم أشاهد السيارة، ولا كيف اصطدمت وكيف تحطمت، وكيف سقط العمود الذي لم يسقط إلاّ على رأس الملك، والذي أبى إلاّ أن يهشمه.

---

[284] حدث المقدم سامي عبد القادر، المرافق الأقدم للملك غازي، في لقاء خاص بالمعني بإخراج هذه المذكرات، أن الملك أخبره بأنه لن يستطيع أن يتجاوزه في أثناء قيادته سيارته في ذلك اليوم الذي لقي مصرعه فيه، سرعة ٣٠كم في الساعة، وذلك بسبب جدة السيارة، إذ أنه تسلمها في اليوم نفسه.

واذا كانت بغداد لم تفق من هول الصدمة إلاّ بعد مدة، ولم تنهض من أثر الضربة القاضية إلاّ بعد زمن، فإن الموصل لم تصدق الخبر منذ اللحظة الأولى، وقامت بمظاهرة كبيرة اجتاحت المدينة من أولها إلى آخرها، وكان من نتيجة هذه المظاهرة أن قتل القنصل البريطاني[٢٨٥] بوصفه تعبيراً عن الاحتجاج على الإنكليز، وعن أن الملك غازي لم يُقتل إلاّ بمؤامرة إنكليزية.

لقد أفاقت بغداد من ذهولها، وآفاق الناس من دهشتهم وحيرتهم، وإذا بهم يتساءلون: كيف قتل الملك غازي؟ ولماذا اصطدمت سيارته؟ وهو وإن كان قد عرف بسرعته في السياقة فإنه عرف أيضا بمهارته، وكيف لم يصطدم إلاّ في طريق قصره الخاص وهو يعرفه حق المعرفة؟ وكيف لم يصطدم إلاّ بالعمود؟ وكيف لم يسقط العمود إلاّ على أم رأسه؟ وكيف يأبى إلاّ أن يهشمه تهشيماً؟ وكيف لم يكن معه إلاّ عبد واحد، وأين هو هذا العبد وماذا حلّ به؟ لقد قيل عنه أنه مجروح، ثم قيل عنه أنه اختفى، ثم قيل أنه اختفى لأنه هو الذي ضرب الملك وهو يسوق سيارته من ورائه "بجماخ" على أم رأسه. ثم قيل أنها مؤامرة قد دبرها الأنكليز مع رجل او رجلين من رجال العراق[٢٨٦]. واذا كان الملك فيصل الأول قد عرف بدماثة خلقه ولين عريكته وبمرونته ولباقته، وأن السنين قد غيَّرته والتجارب قد خبرته، فأن الملك غازي لم يكن على شيء من هذا كله، فلم يكن إلاّ شاباً تعوزه المرونة وتنقصه الخبرة، وقد كان على كل حال على شيء غير قليل من الصلابة، وقد عُرف بأنه ليس على وئام مع الأنكليز، بل عرف في أواخر أيامه بأنه على إختلاف معهم.

---

[285] هو مونك ميسن، وكان أحد المتظاهرين قد هاجمه وهوى على رأسه بفأس فقتله في الحال.

[٢٨٦] أثارت حادثة مصرع الملك غازي شكوكاً كثيرة، وأقوالاً مختلفة، لبعضها ما يبرره، تنظر الوثائق الخاصة بهذه الحادثة في: رجاء حسين الخطاب، المسؤولية التاريخية في مقتل الملك غازي، بغداد ١٩٨٥.

لقد كانت الحرب العالمية الثانية على الأبواب، وكان الإنكليز يعلمون ميول الملك، ويعلمون أنها إن لم تكن مع النازية فهي ليست معهم، ويعلمون أنه لم يكن ليستمع إلى نصائحهم ولا إلى ارشاداتهم في كثير من الأحيان. ولم يكن من السهل قيادة الملك، وإذا كان من الممكن احتماله في ظروف عادية فلايمكن احتماله والأمبراطورية والعالم على أبواب الحرب. ولم يقف الملك عند هذا الحد فقط بل نادى بضرورة ضم الكويت إلى العراق، بل اعتبار الكويت جزء من العراق، ولم يعرف الملك أن الكويت، هذه القطعة من الأرض الصغيرة الصحراوية، هي من أغنى بقاع العالم في النفط، ولم يدر أن الأنكليز كانوا على علم بهذا، وأن هذا النفط ثمين بالنسبة لهم ولحياة الإمبراطورية، وأنه أثمن من حياة أي شخص مهما كانت منزلته حتى وإن كان ملكاً.

لقد بقي مقتل الملك أو موته سراً من الأسرار حتى هذه اللحظة، وإن كنت أميل إلى الإعتقاد بأن الملك لم يمت موتاً طبيعياً، بل قُتِل بأمرٍ دُبِّر بليل فكانت المؤامرة. وكان لابد من التخلص من هذا الملك الشاب الذي كان جسوراً وطموحاً، وكان نوري السعيد على ما أظن هو الشخص الوحيد الذي يعرف بهذه المؤامرة، وان عبد الإله لم يعرف بها في بداية الأمر ولكنه قد علم بها فيما بعد. وكان ثمرة سكوته أن وُلِّي العرش وصياً. وكان للملك غازي عم هو الأمير زيد[٢٨٧]، وكان أقرب الناس الى العرش بعد مقتل الملك، ولكنه قد استُبعِد عنه بتمثيل رواية كانت بطلتها المرحومة الملكة عالية، فقد شهدت بأنها قد سمعت المرحوم زوجها يقول في بعض المناسبات بأنه إذا ما حدث له حادث فإنه يرغب أن يكون عبد الإله وصياً عل العرش، وعبد الإله هو أخ

---

[287] هو الأمير زيد بن الشريف حسين، وأمه تركية، ولد سنة ١٨٩٨ وتوفي سنة، ١٩٧١ وله ولد هو الأمير رعد.

الملكة عالية زوجة الملك غازي. وقد قرر مجلس الوزراء الذي كان يرأسه نوري السعيد أن يكون الأمير عبد الإله وصياً على العرش تنفيذاً لرغبة الملك الراحل لشهادة أخته فقط. وقد وصلت هذه الحادثة على ما أعتقد بين الرجلين عبدالإله ونوري السعيد حتى آخر لحظة من لحظات حياتهما. كان دم الملك غازي يربط بينهما، ومهما أختلفا وتنازعا وتحاسدا وتخاصما من أجل السلطة والنفوذ، فإنهما لم يفترقا ولم يتخل الواحد عن الآخر[٢٨٨]. وكان لهذه الحادثة على ما أعتقد اكبر الأثر في تاريخ العراق الحديث من حيث مجرى بعض الحوادث المهمة ومن حيث مصير العائلة المالكة نفسها. ولولا مقتل الملك غازي ما وُلِّي الأمير وصايته العرش، ولولا ولايته هذه الوصاية لما حدثت هذه الأحداث ولتغير مجرى البعض الآخر، ولولا حدثت هذه الأحداث وموقف الأمير منها لما حدث ما حدث بالنسبة للعائلة المالكة نفسها[٢٨٩].

حادث مؤلم

كان عمي يشكو المرض، فتارة تتحسن صحته وتارة أخرى يمرض، وكنت أعوده مع صديقي الدكتور محمد حسن سلمان وقد لازم الفراش، واقترح محمد حسن أن ينقل المريض إلى المستشفى لتُجرى له الفحوص الطبية اللازمة ويكون تحت العناية الطبية الصحيحة، وقد نقلناه إلى دار التمريض، حيث أشرف على تطبيبه زمرة من الأطباء يتقدمهم الدكتور سَندِرسِن باشا،

[288] يرتب عبد الجبار العمر الأحداث التي سبقت قيام ثورة ١٤ تموز بما يؤدي به إلى رأي جديد مفاده أن الأمير عبد الإله كان على علم بثورة ١٤ تموز، وأنه أرادها سبيلاً لتصفية نوري السعيد، وقد صاغ هذه النتيجة التي توصل إليها في السؤال الآتي(هل حاول العهد الملكي تفجير ثورة بيضاء في تموز ١٩٥٨ فارتدت عليه حمراء قانية)؟ ينظر كتابه (الكبار الثلاثة، ثورة ١٤ تموز في ١٤ ساعة، بغداد سنة ١٩٩٠).

[٢٨٩] يقصد مصرع هذه الأسرة في صبيحة يوم ١٤ تموز ١٩٥٨.

وهو طبيب بريطاني الجنسية مختص بالأمراض الباطنية، وكان طبيب العائلة الخاص، وقد منحه الأمير عبد الله أمير شرق الأردن آنذاك لقب باشا.

لم يمض على عمي، وهو مقيم في المستشفى، إلاّ بضعة أيام، وكنا نحسب أنها كافية ليخرج منه معافى، مُشافى، إذ لم يكن يبدو أنه كان مريضاً بمرض خطير سيقضي على حياته. لم نكن نحسب أن المرض سوف لا يمهله طويلاً وأن فيه ستكون نهايته. لم نكن نتصور إلاّ أنه مريض كغيره من المرضى وما هي إلاّ فحوص دقيقة وأدوية بسيطة حتى يشفى كما يشفى غيره. لم نكن ندري وهو لا يزال في مقتبل العمر ولا يتجاوز الـ ٤٥ في سن حياته أنه يعاني مرضاً لا يفيد معه نطس الأطباء ولا خير الدواء. ولم يمض عليه في المستشفى إلا بضعة أيام كنت أزوره فيها أكثر من مرة في اليوم الواحد، وكنت أحضر إلى غرفته عندما يقوم الأطباء بفحصه، حتى كان يوماً حضرت فيه إلى الغرفة في الصباح فوجدت عمي على غير عادته، وقد هدّه المرض وأنهك قواه، ولا يقوى على الحركة والكلام إلا قليلاً. وشحب لونه واصفر وجهه وهو مُلقى على الفراش يكاد لا يعي ولا يفتح عينيه إلاّ أحياناً. وبدا كأنه أغمي عليه، فوجلت واضطربت، وهرعت إلى الدكتور محمد حسن، وهرعنا إلى الدكتور سندرسن باشا وإلى توفيق رشدي[٢٩٠] وهاشم الوتري[٢٩١] ندعوهم إلى غرفة رقم ٧ في دار التمريض، ولم يكن اجتماع الأطباء ليزيل عنا الوجل ويسري فينا الهم، بل كانت فحوص وكلام وتهامس وهز الرؤوس ثم تعابير طبية تبادلها الأطباء لم أفقه لها حرفاً، وإن كنت قد فهمت لها مغزى، وهو

---

[٢٩٠] طبيب ولد سنة ١٨٩٩، وتخرج في الكلية الطبية باستانبول، ثم عمل في المستشفى العام ببغداد، وتوفي سنة ١٩٥١.

[٢٩١] من رواد الطب الباطني في العراق،ولد سنة ١٨٩٣ وتخرج في الكلية الطبية باستانبول سنة ١٩١٨، عاد الى وطنه حيث تقلب في المناصب العلمية حتى أختير عميدا للكلية الطبية، توفي سنة ١٩٦١.

أن المريض في خطر، ولا أدري إذا كان الكبد قد توقف عن العمل أم الكلى أم الاثنان معاً أم شيء آخر، وعرفت أن الدم قد تسمم. كان قد خرج الأطباء وأردت أن أكلم عمي، ولكنه كان قد غاب عني، وكانت زوجته وبعض أطفاله يَحفُّون به، ثم طلب أن يرى (محاسن)[٢٩٢] ثم أراد أن يكلمني، وكان صوته خافتاً وكلامه متقطعاً يطمس تارة ويظهر أخرى ضعيفاً، وكانت عباراته لا يربط بينها رابط ولا تصل بين معانيها صلة. ثم قال... «إنها أمانة في عنقك.. أوصيك بها خيراً... أرجو أن تكون سعيداً معها...».

كان عمي يعاني سكرات الموت، وفي النزع الأخير في حياته. وما أن فارقته بعض الوقت حتى استدعيت ثانية إلى المستشفى في نحو الساعة الثالثة بعد ظهر من يوم الأربعاء العاشر من شهر مايس سنة ١٩٣٩ وكان عمي قد فارق الحياة.

كانت سيارتي تسير وراء النعش تماماً، وكان معي في السيارة أخي غني وابني الكبير عبد الرزاق، وكانت وجهتنا النجف، وكان قد استقبلنا خلق كثير في الأماكن التي مررنا بها ولا سيما في المسيب وكربلاء. وما أن وصلنا النجف الأشرف حتى استقبلنا عدد كبير من الأصدقاء والمعارف، وبعد أن صلى عليه المصلون في حضرة الإمام علي ابن أبي طالب، ذهبنا به إلى الوادي، وأودعناه حفرته الأبدية في مقبرة العائلة الخاصة تشيعه الدموع والحسرات والأنين.

---

[٢٩٢] هي السيدة أم الحارث، زوج المرحوم عبد المجيد محمود.

خطبة نوري السعيد في نادي المثنى

لقد قُتل أو مات الملك فيصل الأول في أيلول من سنة ١٩٣٣، وما أن قُتل[٢٩٣] حتى أن شعر العراقيون أنهم فقدوا ربّان السفينة الماهر وأن من سوء حظهم أنه مات أو قُتل قبل أوانه بكثير. وتوتر العراق منذ وفاته بسلسلة من الهزّات والرجّات والانقلابات ولم يذق خلالها العراقيون طعم الراحة والاستقرار. وما أن قُتل بكر صدقي وفشل الانقلاب حتى عاد نوري السعيد إلى العراق من الخارج. ولم يكن نوري السعيد إلاّ مغرماً بالحكم، عاشقاً له، ولم يكن ليهدأ له بال وهو خارج الحكم ولم يكن ليرتاح إلاّ وهو في الحكم. وما أن رجع من منفاه حتى عاد إلى نشاطه ومناوراته واتصالاته بالناس وبالمنظمات وبالمجتمع. وقد أراد أن يتصل أول ما يتصل بنادي المثنى وأراد أن يُحَسِّن علاقته به وأن يستفيد من سمعته واسمه، وكانت له علاقة قوية بسامي شوكت[٢٩٤] الذي استوزره مرة لوزارة المعارف، وسامي عضو في نادي المثنى وأخ صائب شوكت رئيس النادي، وكان أن اقترح سامي على أخيه صائب أن يقيم النادي حفلة كبرى يخطب فيها نوري السعيد، ففاتح صائب الهيئة الإدارية في إحدى جلساتها، وقد استغربنا من ذلك، ورفضنا أن تكون لنوري أية علاقة بالنادي ولم نقبل يخطب باسمه وبدعوة منه. ولم نكن ندرِ أن الأمر بيّت بين نوري وسامي، وبين سامي وأخيه صائب. وكنا قد شعرنا

---

[٢٩٣] من الواضح أن المؤلف يذهب الى أن فيصل قتل غدرا، وهو في هذا يردد اشاعة عمت بعض الأوساط الوطنية التي كانت تعلن عدم ثقتها بالبريطانيين، ويرى بعض الباحثين أن هذه الاشاعة لها ما يبررها. ينظر محمد مظفر الأدهمي: الملك فيصل، دراسات وثائقية في حياته الخاصة وظروف مماته الغامضة، بغداد١٩٩١، ص١٠٧-١٤٢.

[٢٩٤] طبيب قومي النزعة، ولد سنة ١٨٩٣، درس الطب باستانبول، والتحق بالجيش العربي في سوريا سنة ١٩١٩ وعين معاونا لرئيس صحة بغداد، ثم مديرا عاما للمعارف في العراق، وفي سنة ١٩٣٦ عين مديرا عاما للصحة، من آثاره (فن القبالة) و(هذه أهدافنا) وغيرها.

أن سامي قد ورّط النادي قبل أن يفاتح حتى أخيه بالأمر. كان سامي قد أعطى كلاماً لنوري أن يخطب باسم النادي. لقد قدم صائب الاقتراح عدة مرات وكان يُرفض في كل مرة حتى سويت القضية ووافقت الهيئة على الاقتراح بشكل من الأشكال. كانت الدعوة كبيرة وكانت قد أقيمت في بهو أمانة العاصمة وكنت قد قدمت نوري إلى المدعوين بصفتي سكرتير النادي ببضعة كلمات كان فيها كثير من القسوة والجفاف.

خطب نوري، وهو وإن لم يكن خطيباً ولكنه كان قد ركّز أفكاره حول بضعة نقاط أساسية: فقد أظهر تمسكه بالقومية العربية، ودعا إلى استقلال البلاد العربية ووحدتها، وكان أن دافع عن سياسته في العراق واعترف بوجود بعض الأخطاء، وأظهر ندمه عليها وأنه قد أعتبر بالماضي، ودعا إلى لمّ الشمل ووحدة الصف. كان نوري في خطابه يرمي إلى تصحيح بعض الأفكار والآراء ويرمي إلى أن يتقرب من الناس ويزيل ما قد يوجد في قلوبهم من جفوة. وكنت قد علقت على خطاب نوري بعد الانتهاء فأشرت إلى أن الناس لا يأمنون نوري كثيراً، وأنهم يتمنون لو كان نوري صادقاً في كلامه، وأن لا يقول شيئاً لا يعنيه أو أنه يقول شيئاً ويعمل شيئاً آخر، وأن الناس يريدون من نوري أن يضع مصلحة الأمة العربية قبل كل شيء وفوق كل شيء. كان لتعليقي أثر كبير، وإذا كان قد أعجب به بعض الناس فأنه لم يعجب نوري ولا زمرته.

مقتل رُستم حيدر

كان نوري بعد أن عاد إلى العراق قد عاد أيضاً إلى مشاكله واتصالاته ومناوراته، وكان العراق يمر بفترة عصيبة وينتقل من أزمة وزارية إلى أزمة

أخرى، وكان الجو العالمي قد أربد واكفهر، والعالم قد اقترب من شفا الحرب، ثم كانت الحرب واندلعت نيرانها، وكان لا بد من تأليف وزارة قوية وأن يكون نوري رئيساً لها، وقد دخلها رستم حيدر وزيراً للمالية.

سمعت ذات يوم وأنا في دائرتي التي لا تبعد إلاَّ بضعة خطوات عن دائرة وزير المالية، بعض الأصوات التي تشبه أصوات طلقات نارية، فناديت على الفَرَّاش وقلت: ما هذا الذي أسمعه؟ قال: لا أدري، ولعله انفجار بعض الأسلاك الكهربائية، ولم يطل بي الوقت حتى خرجت من غرفتي وقد وضعتُ مسدساً في جيبي ويدي على الزناد، وما أن خرجت حتى رأيت رستم ملقى على الأرض بالقرب من باب غرفته مضرجاً بدمائه. وتدفق الموظفون والفراشون من حوله وما هي إلا بضعة صرخات أطلقتها حتى تعاونّا على حمله إلى إحدى السيارات ونقلناه إلى المستشفى. كنت قد احتفظت بهوياته التي وجدتها بجانبه، ولما طلبها بعد يومين أو ثلاثة من وقوع الكارثة، فرحت لهذا، وقلت: لا بد وأن صحته قد تحسنت، ولكن الفرحة لم تدم ولم يمر على إجراء عملية إخراج الرصاصة من بطنه إلاّ بضعة أيام حتى وافته المنيّة. لقد مات رستم حيدر وكان ضحيةً وشهيداً.

كان رستم من بعلبك في لبنان، وكان من أقرب المقربين إلى الملك فيصل الأول حين كان ملكاً على الشام، وكان قد اصطحب الملك في سفرته إلى أوربا بعد انهيار عرشه، وشاركه كفاحه ونضاله من أجل استقلال العرب ووحدتهم، سواء كان في لندن أو في باريس. وقد امتاز رستم بعمق تفكيره وسعة إطلاعه ودماثة خلقه وبثقافته الحديثة وبكونه سياسياً ودبلوماسياً وخطيباً وأديباً. وكان من أقرب المقربين إلى الملك، فهو مستشاره في المهمات، ووزيره في البلاد، حتى قيل أن رستم بدماغه الجبار هو اليد اليمنى للملك،

وانه وراء كثير من مشاريعه وخططه السياسية والعمرانية. وكان رستم في هذا المركز المرموق يثير حسد الحاسدين وتقولات المنافقين، ولا سيما وأنه ليس عراقياً بالأصل بل أنه عربي، وأن الثورة في بدايتها لم تفرق بين أبناء العروبة، بل جمعتهم على وحدة أسمى دون تمييز بين عراقي أو سوري أو مصري أو لبناني أو ما إلى ذلك.

كان رستم مثقفاً وقديراً وقطباً كبيراً بيد أنه لم يكن عراقياً، ولم تكن هذه الصفات والمزايا التي يحبها بعض محترفي السياسة من الأميين أو أشباه الأميين، ومع هذا فلم يكن أحد يتقرب إليه أو يعرفه عن كثب إلا وأحبه واحترمه لمرونته وتسامحه وخلقه الرضي. ولو كان رستم عراقياً للعب دوراً أهم وأكبر، ولما كان مصيره هذا المصير المؤلم المحزن المفجع. ما كان رستم لبنانياً إلا بالمولد، فقد كان من أبعد الناس عن الإقليمية، ولم يكن إلا عربياً في سياسته وأهدافه، وإذا ما دعى إلى التوازن في سياسة الدولة، وإذا ما عمل لإنصاف المظلومين، أو نادى بضرورة خدمة الشعب ورفع مستوى أكثرية أبنائه، فلم يكن في هذا أو ذاك إلا رجل دولة لا يفكر إلا بمجموع الناس ولا يعمل إلا من أجل البلاد برمتها، وإن كان ذلك لم يرق لبعض المرضى في قلوبهم، فهل ذهب رستم ضحية المحلية الضيقة؟! أم ضحية الجاسوسية الألمانية؟! أم ضحية كلا الأمرين معاً؟

كنت قد شاهدت زكي توفيق[٢٩٥] مرتين أو ثلاث واقفاً بالقرب من غرفة وزير المالية في الصباح الباكر كلما مررت بها في طريقي إلى غرفتي، وقد سألته مرّة أو مرتين عما إذا كانت لديه مراجعة، فكان جوابه أنه ينتظر صديقاً ولا مراجعة عنده. كنت أعرفه من الناصرية عندما كان موظفاً يشكو مدير الشرطة

[٢٩٥] اسمه الكامل: حسين فوزي توفيق.

من سوء أخلاقه ومشاكساته، وحينما يتعارك مع الطبيب البيطري آرثر كلود في ساحة النفس التابعة للنادي. وما كنت أدري أنه كان يتحين الفرصة ويضع الخطة لقتل الشهيد رستم حيدر، ولم يمض على آخر مرة رأيته فيها إلا بضعة أيام قبل ان يقوم بفعلته المنكرة الشنعاء. وما أن توقف - بعد أن طاردته الشرطة وأطلق عليها عدة طلقات نارية - حتى توقف على إثر ذلك عدد من رجال السياسة المغامرين في العراق، وكان في مقدمتهم صبيح نجيب[٢٩٦] ونجيب الراوي[٢٩٧] وإبراهيم كمال[٢٩٨].

كان رستم مدعواً إلى حفلة عشاء في بيت نوري فتّاح[٢٩٩]، وكان قد حضر الحفلة نوري السعيد ورهط كبير من رجال السياسة، من بينهم هؤلاء الذين أوقفتهم الحكومة وغيرهم. وقد أشيع في حينه أن مشادة كلامية عنيفة قد حدثت بين هؤلاء وبين رستم، وأنهم أسمعوه قارص القول وبذيء الكلام حتى اضطر إلى مغادرة الحفلة قبل أن يتعشى، ولقد قيل أن القضية بدأت حول تعديل قانون الخدمة الخارجية من أجل إطلاق بعض التعيينات ومنح بعض

---

[٢٩٦] ضابط ودبلوماسي عراقي، ولد سنة ١٨٩٢، والتحق بالجيش العثماني سنة ١٩١٢، ثم عاد إلى وطنه حيث التحق بالجيش العراقي سنة ١٩٢١، وتدرج في المناصب العسكرية حتى صار آمرا لكلية الأركان، ثم عين سنة ١٩٣١ مديرا عاما للشرطة، ثم مستشارا للمفوضية العراقية في برلين سنة ١٩٣٥، ومن ثم مندوبا للعراق في عصبة الأمم.

[٢٩٧] قانوني دبلوماسي، ولد سنة ١٩٠٣، وتخرج في كلية الحقوق سنة ١٩٢٣، وعمل في وزارة الخارجية،وعين وزيرا للمعارف، فوزيرا للعدلية، كما انتخب نائبا في مجلس النواب لدورات متعددة.

[٢٩٨] سياسي، ولد سنة ١٨٦٥والتحق بالجيش العربي في الحجاز والشام، وعمل في الحكومة العربية في سوريا، ثم عاد إلى وطنه حيث تقلب في المناصب الإدارية حتى أصبح وزيرا في عدة وزارات ورئيسا للديوان الملكي، توفي سنة ١٩٤٧.

[٢٩٩] ذكر ناجي شوكت (سيرة وذكريات ص ٣٨٣) وحازم المفتي(العراق بين عهدين ص٢٥٦) أن المأدبة أولمت في دار حمدي الباجه جي بدعوة منه.

الرواتب والزيادات لذوي الحظوظ من أبناء الطبقة المترفة، وهو ما لم يوافق عليه رستم بوصفه وزيراً للمالية، وكان أن تطور الموضوع حتى تكهرب الجو وكاد يحدث ما لا يحمد عُقباه في تلك الليلة نفسها. وأشيع أن هذا الشاب كان صديق عارف عانة[٣٠٠]، وأنه اتصل بهذه الكتلة عن طريقه، وأنه اشترى سيارة، وتحسنت حالته المالية بين عشية وضحاها، وأنه قد اجتمع بهذه الكتلة لتدبير المؤامرة في مزرعة صبيح نجيب الواقعة على طريق المحمودية. وكان قد أشيع أيضاً أن هذا الشاب لم تتحسن حالته المادية إلاّ بعد أن سافر إلى ألمانيا ورجع منها، وأنه كان على اتصال بالمفوضية الألمانية ببغداد وبوزيرها المفوض (الهر كروبة).

لقد حوكم صبيح نجيب ونجيب الراوي وإبراهيم كمال وعارف عانة وغيرهم[٣٠١] محاكمة سرية، فأطلق سراح الكل عدا صبيح نجيب، إذ حكم بالحبس سنة واحدة ثم أطلق سراحه قبل أن يتم مدة محكوميته. كما حوكم هذا الشاب القاتل محاكمة سرية، ولم تنشر كلمة واحدة عن محاكمته أو محاكمة الآخرين، وكان قد حُكم بالإعدام، فأعدم[٣٠٢] وعلقت جثته أمام مبنى وزارة الدفاع. وكم يؤسفني أنني لم أطلع حتى هذه اللحظة على سير التحقيق وحيثيات المحاكمة ولا أعرف بالضبط ما كانت علاقة صبيح نجيب وكتلته بمقتل رستم، وهل ثبت شيء يدينهم بوجود أي نوع من أنواع المؤامرة واشتراكهم فيها بالتحريض على مقتله. وأتساءل: هل يجوز أن هذه الكتلة بعد تلك الحادثة التي حدثت في بيت نوري فتّاح قد تآمرت على مقتل

---

[٣٠٠] هو أحمد عارف قفطان، وقد شغل منصب (متصرف) في بعض الألوية.

[٣٠١] والآخرون الذين حوكموا هم: محمد صالح الجعفري، وكان تاجرا، وعبد بن عباس، وهو فلاح يسكن اليوسفية ويعمل عند شقيق صبيح نجيب. ينظر: مذكرات رستم حيدر، مقدمة المحقق ص٩٤.

[٣٠٢] نفذ حكم الإعدام في ٢٧ آذار سنة ١٩٤٠.

رستم؟ هل يجوز أن تتآمر جماعة على مقتل شخص مثل رستم حيدر لمجرد وقوع مشادة كلامية مهما كانت عنيفة، خاصة وأن لرستم فضل على هذه الجماعة وعلاقة صداقة وود؟ هل وصلت الروح الإقليمية الخبيثة إلى هذه الدرجة بحيث تدفع هذه الجماعة إلى قتل رجل خدم هذه البلاد بكل إخلاص وكفاءة وأمانة؟ هل يجوز أنه قُتل بتدبير من الجاسوسية الألمانية وهو قد عرف بصداقته للإنكليز وموالاته لهم، لا سيما وقد أشيع أنها قد قتلت قبل مدة قصيرة المجاهد عبد الرحمن الشابندر[٣٠٣] لصداقته للإنكليز أيضاً؟ وإذا كانت الجاسوسية الألمانية تسعى لاغتيال أصدقاء الإنكليز ليصفى الجو لها، فلماذا لا تقتل نوري السعيد وهو رئيس للوزراء، وهو كبير أصدقاء الإنكليز وأكثرهم اتصالاً بهم وموالاة لهم؟ لقد أشيع أن القاتل وهو يصعد على المشنقة قال أن نوري السعيد هو الذي حرضني على القتل، فهل تُصدَّق هذه الإشاعة؟ ولماذا يقدم نوري على مقتل رستم وهما من مدرسة واحدة ولا يختلفان في السياسة الخارجية الموالية للغرب والإنكليز. ولقد أشيع أن مقتل رستم لم يكن إلاً انتقاماً شخصياً، وأن القاتل كان قد فُصل من الشرطة وأراد أن يعين في وزارة المالية، وأنه راجع رستم عدة مرات ولكنه لم يعين فأراد الانتقام. وهل يمكن تصديق هذه الإشاعة وقد ثبت أن القاتل لم يقدم إلى وزارة المالية أية عريضة حول إعادته للخدمة، وما شأن وزارة المالية في هذه الإعادة، ولماذا لم يراجع وزارة الداخلية وهي الوزارة المختصة.؟ لقد ثبت أن القاتل لم يراجع الوزارة حول إعادة تعيينه ولم يراجع رستم بالذات حول

---

[٣٠٣] سياسي سوري، ولد سنة ١٨٨٠ وأسس حزب (الوحدة السوري) في القاهرة سنة ١٩١٨، ثم التحق بالحكومة العربية في سوريا حيث أصبح وزيرا للخارجية سنة ١٩٢٠، شارك في الثورة السورية ١٩٢٥-١٩٢٧، واضطر الى اللجوء الى مصر الى أن صدر حكم بالعفو عنه سنة ١٩٣٧، وعرف بتأييده للسياسة الهاشمية، وقد أغتيل في تموز سنة ١٩٤٠.

طلبه أية وظيفة ولم يراجعه إلا هذه المرة التي سمح له فيها بمواجهته، والتي دخل فيها عليه وهو بحالة غير طبيعية، والتي لم يقل فيها إلا بضعة كلمات قاسية نابية شعر فيها رستم ان هذا المراجع ينوي شيئاً فأراد أن يتفاداه، فاتجه إلى باب الغرفة ليخرج منها، فعاجله بعدة طلقات من الخلف أردته على الأرض مضرجاً بدمائه. فإذا لم تكن هنالك عوامل شخصية دفعت القاتل على القتل فهل كان من باب الصدفة ألاّ يختار القاتل إلا رستم ولا يختار غيره، أم كانت هنالك خطة مسبقة ومؤامرة مدبرة؟ وإذا كانت هنالك مؤامرة، كما نظن أو نكاد نعتقد، فمن دبرّها؟ فهل دبرتها الإقليمية والحقد على الثقافة العالية والخلق الرصين، أم هل دبرتها الجاسوسية النازية، أم كانت هذه المؤامرة ثمرة للتعاون بين الجهتين فقد استغلت الجاسوسية هذه الكتلة، كما استفادت هذه الكتلة من الجاسوسية، فكانت هذه الجريمة النكراء التي أودت بحياة رجل لم يمنح هذه الدولة إلا خير ما علمه العقل المفكر المدبر.

لقد بقي مقتل رستم حتى هذه اللحظة طلسماً بالنسبة لي على الأقل[٣٠٤].

وحدث حينما كنت مديراً عاماً ورئيساً لمجلس إدارة المصرف الزراعي أن راجعني صبيح نجيب من أجل سِلفة زراعية، ثم تكررت هذه المراجعة وتوطدت بعض أواصر المعرفة، وإن كنت أعرفه من قبل بعض المعرفة، فقال لي مرة: أبا الحارث أراكَ منكمشاً عني بالرغم من زيارتي لك، وقد يكون لك بعض الحق، وربما كنت متأثراً مني، وربما ظننت كما ظن كثير من الشباب أمثالك إني بطل المؤامرة على رستم، فاسمع! أنا لا أقول لك إلا الحقيقة، وقد أصبح الآن كل شيء في ذمة التاريخ وقد يكشف التاريخ حقيقة ما وقع،

---

[٣٠٤] ثمة أقاويل كثيرة قيلت في مقتل رستم حيدر، ينظر عباس فرحان: رستم حيدر ودوره السياسي، رسالة ماجستير مقدمة الى كلية التربية أبن رشد سنة ١٩٩٧، ص٢٣٠-٢٤٦.

ولا أريد أن أقول لك إلا بأنني بريء مما نُسبَ إلي، ولا علاقة لي بمقتل رستم بأي شكل كان. قلت: ولكن رستم قد قُتل ولا يمكن أن يكون قتله جرى عفواً. قال: هذا صحيح، ولكن لا عِلم لي ولا علاقة لي بما حدث لرستم، وليس لدي ما أضيفه على هذا في الوقت الحاضر. لم أستطع أن أحصل على شيء من صبيح نجيب يكشف لي السر ويظهر الحقيقة. ولم تمهل الحياة صبيح نجيب ولا إبراهيم كمال طويلاً، فقد تمرضا على إثر الحادثة وبقيا مريضين لبضعة سنوات وتوفيا وهما في سن الكهولة.

مقتل عبد القادر السِّنَوي

كنت قد شاهدت قبل هذا دماً آخر يتفجر ويسيل، هو دم المرحوم عبد القادر السنوي[٣٠٥] مدير الأملاك والأراضي الأميرية العام في وزارة المالية. فقد شاهدته ملقى على درج وزارة المالية قبل أن يصل مدخل الوزارة مضرجاً بدمائه وهو يئن وليس حوله من أحد، وما أن شاهدته وأنا أصعد السلم في طريقي إلى مدخل الوزارة في الصباح الباكر حتى ناديت الموظفين والفراشين، وكانوا قد فرّوا من أصوات الطلقات النارية. كان هناك فراش للوزير يلقب بالحاج ضخم الجثة طويل القامة قوي البنية، فقلت: أين أنت يا حاج؟! وما هي إلا لحظة حتى حمله ونهض به إلى إحدى السيارات. فركبت معه في السيارة وأوصلته المستشفى، ولكنه كان قد فارق الحياة[٣٠٦]، ولما أُمسك

---

[٣٠٥] هو عبد القادر بن عبد المجيد السنوي، تخرج في كلية الحقوق في استانبول، وتقلب في الوظائف، ثم أختير عضوا في محكمة التمييز في العراق، فضلا عن قيامه بالتدريس في كلية الحقوق، وعين مديرا عاما للأملاك الأميرية في وزارة المالية على ما يذكر صاحب المذكرات.

[٣٠٦] دفن في مقبرة الشيخ معروف الكرخي، في قبة جده الشيخ أحمد السننذجي (السنوي) المتوفى سنة ١٢٧٢هـ/١٨٥٦م.

بالقاتل[٣٠٧]، وجد انه أحد المراجعين من أجل قضية تتعلق بملك أو أرض لم تنتهي حسب ما يرغب ويشاء، وحوكم فحُكم عليه بالإعدام. لقد شنق قاتل عبد القادر السنوي[٣٠٨] مثلما شُنق أيضاً قاتل الشهيد رستم حيدر، ولكن ما قيمة من شُنق وما قدره؟ وهل يعوض بهذه الأرواح الخبيثة الشريرة عن تلك الأرواح الطاهرة الزكية؟ وهل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون؟ وهل يقاس العالم الفاضل بالأمي الجاهل؟ وهل تقاس الفضيلة بالرذيلة؟

متاعب المهنة

كان نوري السعيد رئيساً للوزارة، وكان رشيد عالي الكيلاني رئيساً للديوان الملكي بعد أن رجع من منفاه[٣٠٩]، إذ كان قد نُفي، أو هرب من العراق على أثر انقلاب بكر صدقي. وما كان كثير في الناس قد ارتاحوا لرجوع رشيد عالي إلى السياسة، وإذا كان الناس قد رحبوا في حينه بانقلاب بكر فلأنه أزاح رشيد عالي من الحكم. لقد اشتد النزاع بين نوري رئيساً للوزراء وبين رشيد عالي رئيساً للديوان الملكي، ولكن رشيد لم يكن يمثل آراء البلاط في نزاعه، بل كان يعمل على العكس من آراء البلاط التي لم تكن تختلف عن آراء نوري السعيد في السياسة الخارجية. وقد نشأ الاختلاف بسبب الحرب وموقف العراق من هذه الحرب، فهل يؤيد العراق الحلفاء وهو على كل حال مرتبط بإنكلترا بمعاهدة صداقة أم يقف مع ألمانيا أم يقف على الحياد، واشتد الخلاف حتى استقال نوري من الوزارة، فألفها رشيد عالي، وكان ناجي

---

[٣٠٧] هو الضابط المتقاعد محمود جودت.

[٣٠٨] قيل أن قاتله كان من أتباع بكر صدقي.لونكريك: العراق الحديث، ترجمة سليم طه التكريتي، بغداد ١٩٨٨، ج٢ ص٤٠٦.

[٣٠٩] أقام الكيلاني في بيروت وعاد منها الى وطنه في تشرين الثاني سنة ١٩٣٧.

السويدي وزيراً للمالية[310]. وكنت أعرف ناجي من قبل إذ اشتغلت معه كعضو فعال في اللجنة التي كانت مؤلفة برئاسته وعضوية مستشار وزارة المالية آنذاك المستر هوك وإبراهيم الكبير[311] مدير المالية العام، وكانت هذه اللجنة مكلفة بإعادة النظر في كثير من قوانين وزارة المالية، لا سيما قوانين الخدمة والتقاعد والملاك وما شابه ذلك. وكان لناجي السويدي قريب من بيت الخضيري وهو موظف في وزارة الخارجية، كان قد رُفِّع درجتين خلافاً للقانون، فلما اعترضت على ذلك وزارة المالية حسبما تتطلبه نصوص القانون، استدعاني ناجي السويدي حول هذه القضية وسألني عما إذا كان في الإمكان غض النظر عنها، وكان الجواب بطبيعة الحال أنه لا يمكن غض النظر ونصوص القانون صريحة. ثم أتاني بعد فترة عارف السويدي وهو أخ ناجي السويدي، وكان عضواً في محكمة التمييز، وبحث الموضوع معي من جديد، فأطلعته على النصوص القانونية والتعليمات الصادرة بشأنها، وطلبت منه لو كان هو في مكاني فهل في مقدوره أن يعالج قضية هذا الموظف بغير الشكل الذي عولجت به قضيته؟ فقال: إن موقفكم القانوني لا غبار عليه، وأني قد اقتنعت بصحة المعاملة وموقفكم منها، وقد ظننت أن القضية قد انتهت عند هذا الحد بشهادة قريب الموظف وأخ وزير المالية وعضو محكمة التمييز، غير أنه لم تمر على هذه الحادثة إلاّ بضعة أيام حتى فوجئت بقرار رئيس الوزراء المستند

---

[310] ولد سنة ١٨٨٣، وتخرج في كلية الحقوق باستانبول، عمل في اليمن مدة، ثم عاد الى وطنه وتولى مناصب قضائية مختلفة، وانضم الى فيصل في الشام، وعاد الى العراق ليتولى وزارة العدل فوزارة الداخلية وتكرر استيزاره، وتولى رئاسة الوزراء، ثم آزر انتفاضة مايس سنة ١٩٤١ فألقي القبض عليه، إثر فشلها، ونفي الى سالسبوري في جنوب افريقيا، حيث توفي هناك سنة ١٩٤٢.

[311] خبير مالي يهودي، ولد سنة ١٨٨٥ تخرج في كلية الحقوق وعمل في بعض المصارف الأجنبية، ثم تقلب في الوظائف المالية حتى أصبح مديرا عاما للحسابات، ثم مديرا عاما لوزارة المالية، وكان له قسط وافر في إعداد أسس العملة العراقية.

على كتاب سري من وزير المالية لم أطلع عليه وأنا مميز الذاتية، يقضي بنقلي إلى وظيفة مفتش ضريبة الدخل في مديرية الواردات العامة. وهكذا نقلت من وظيفة مميز الذاتية والخدمة والملاك بعد أن أمضيت فيها مدة تنوف على الأربع سنوات، وهي مدة تزيد على مدة شغل أي موظف آخر لها سواء من قبل أو من بعد، ولم أنقل - وقد شغلتها بكفاءة وإخلاص - إلاّ لهذا السبب الشخصي، وإلاّ لموقفي الذي كنت فيه حريصاً على تطبيق القانون. وما كنت أظن أن الحرص على القانون يورث المشاكل، وما كنت أتصور أن وزير المالية وهو المسؤول عن تطبيق القانون ينتقم ممن يحرص على تطبيقه، وهل يخطر على بال أحد لا سيما في الغرب بأن القيام بالواجب يؤدي إلى العقاب بدلاً من الثواب.

كانت ضريبة الدخل قسماً من أقسام مديرية الواردات العامة، التي كان يرأسها مدير عام وهو علي ممتاز[٣١٢]، وكان هذا القسم ينقسم إلى قسمين: مميزية ويرأسها علي جعفر، ومفتشية وقد رأستها أنا، وكنت بذلك مربوطاً بالمدير العام. كان علي ممتاز قد تفاهم مع المدير حول نقلي إلى هذه الوظيفة لأنه لم يكن مرتاحاً مني أيضاً بسبب وظيفة تعود إلى طه صبيح الذي كان محاسبنا في وزارة المالية. ولا أتذكر قضية صبيح الآن ولكن قد يكون لها علاقة بتبديل الملاك، وكان قد رجاني علي ممتاز في حينه على الموافقة وإن كان في ذلك مخالفة، ولما رفضت أضمرها في قلبه وانتقم مني عندما سنحت الفرصة.

---

[٣١٢] هو علي ممتاز بن رشيد الدفتري، ولد سنة ١٩٠١، وتولى وزارة المالية في وزارة نوري السعيد السادسة سنة ١٩٤١ ثم في وزارته الثامنة سنة ١٩٤٤، صاهر ياسين الهاشمي، وكان وكيلا لورثته بعد وفاة الهاشمي سنة ١٩٣٧.

كنت مفتشاً لضريبة الدخل، وكانت دائرتي في مديرية الواردات العامة، وما كان لديَّ من الوقت ما يكفي للذهاب إلى البيت للغداء، فكنت أتغدى في الدائرة، وكان يتغدى معي الدكتور محمد حسن سلمان في أكثر الأوقات، وكان آنذاك رئيساً لصحة المعارف، ودائرته قريبة مني. وفي كثير من الأحيان كان يمر عليه وهو يتغدى معي، صديق شنشل، ويونس السبعاوي في بعض الأحيان، وكانت تجري أحاديث سياسية بل ثورية، وكنت كثيراً ما أمزح مع صديق ويونس وأقول لهما: ما خبأتما لمحمد، وماذا تقصدان من هذه الأحاديث ولماذا تريدان توريطه؟ كان محمد حتى ذلك التأريخ بعيداً نوعاً ما عن الطموح السياسي ومن الاشتغال في السياسة.

ألف رشيد الوزارة بقوة الجيش، وكان الجيش يتدخل في تأليف الوزارات وإسقاطها منذ أوائل الحرب. وكان في هذه المرة قد أسقط الرجل الذي أتى به من الجيش وهو طه الهاشمي. وكان رشيد عالي قد ألَّف الوزارات بالرغم من إرادة الوصي، وأدخل فيها عناصر لم يكن يرتضيها الوصي، بل أجبره رشيد عالي، بتهديد ضباط الجيش الأربعة، على الموافقة باستصدار أوامر ملكية بتعيين بعض الوزراء، ومن بينهم يونس السبعاوي وعلي محمود الشيخ علي. فإذا ما تألفت الوزارة بالرغم من إرادة البلاط فهل يكتب لهذه الوزارة الاستمرار بالعمل؟ وهل يمكن ان يحل التفاهم محل عدم التفاهم؟ وهل يمكن أن يكون الانسجام بين البلاط والوزارة؟ كان لابد اذن من الاحتكاك والاصطدام، وما أن حدث هذا الاصطدام وتأزم الوضع حتى فوجئ الشعب بخبر سفر الأمير، أو قل هروبه ليلاً من بغداد إلى الديوانية. وفي الأخيرة اعتصم الأمير تحيط به بعض قطعات الجيش التي كانت مرابطة

هناك، وتوقف عن العمل، وامتنع عن تصديق مقررات مجلس الوزراء أو الإطلاع عليها، فتوقفت أعمال الوزارة وتكهرب الجو وبات الناس في هلع وقلق، حتى اضطر رشيد عالي على الاستقالة، ورجع الأمير من الديوانية إلى بغداد، وما هي إلا بضعة أيام حتى عاد رشيد عالي إلى رئاسة الوزارة خلافاً للدستور والقوانين، وإنما بقوة الجيش. كانت ثورة تستهدف نظام الحكم، وكان السيد عبد الرزاق الحسني مؤلف كتاب(الوزارات في العراق)[٣١٣] من المقربين إلى رشيد عالي، وكان يوفده بمهمات خاصة ولا سيما إلى لبنان وسوريا. فحدث أن زارني مرة وقال لي[٣١٤]: أن رشيد عالي ينوي توقيفك! قلت: ولماذا؟ وكيف علمت؟ قال أما كيف علمت فهذا أمر متروك لي، وأما لماذا فلأنه قد وصلت أنباء بموقفك ضد هذه الثورة. قلت: إنها أنباء مغلوطة. قال: ولابد من تصحيح رأي رشيد عالي. قلت: لا مانع لدي، ولكن كيف السبيل؟ قال: أنا آخذك معي إلى دائرته في وزارة الداخلية مساء. وفي المساء ذهبنا سوية وجلسنا في غرفة الانتظار، وأرسل السيد عبد الرزاق إلى رشيد عالي ورقة لا أدري ماذا كتب فيها، وما هي إلا لحظات حتى استدعاني إلى ديوانه بالرغم من كثرة المراجعين والمنتظرين. دخلت على رشيد فرحب بي بعض الترحيب، وكانت على وجهه ابتسامة يخالطها خبث غير قليل، فقال: نحن في ثورة، ولا نريد أحداً يخرج عن خططها، بل إني أريد أن أجند لها كل القابليات والكفاءات. قلت: أنا لا أريد أن أروح ضحيتها كما رحت في ثورة المُنتِفك! وما أن ذكرت هذه الكلمة حتى ثارت ثورته وامتقع وجهه وتغيرت نبرات صوته. ثم قال: إنني لا أزال أسمع أنباء عنف، وها

---

313 هو تاريخ الوزارات العراقية، ومؤلفه السيد عبد الرزاق مهدي الحسني.

٣١٤ كان الحسني يعمل يومذاك مديرا لحسابات مديرية البريد والبرق العامة في بغداد، ويظهر أن تعرف المؤلف به جرى أيام كان الحسني يعمل مديرا لخزينة لواء الحلة.

أنت تعيد دائماً قضية المنتفك، وأنت تحدث دائماً بأنك ظلمت، وأنك تنتقدني وتنتقد إجراءات الحكومة في وقته، وأنا أريد أن أقول لك الآن: كفى ما تتحدث به عن هذا الظلم المزعوم، وإني أود أن أقول لك بأني كنت أتخذ نفس الإجراءات بحق أخي كامل[٣١٥] لو كان في محلك. قلت: مهلاً، ولعل سوء حظي هو الذي يدفعك إلى أن ترتاب مني وتظن أنني ضدك وضد حكومتك، ولعلك لا تدري إنني كنت ولا أزال أخدم هذه الدولة بكل أمانة وإخلاص، وإنني لو كنت في غير هذه البلاد لكنت في مقدمة من يعتمد عليهم بعلمهم وثقافتهم وكفاءتهم. ثم قلت: لعلك لا تدرك أن الإخلاص مجبول في دمي، وأنني من عائلة أقل ما يقال فيها إنها قد ضحت بأخوين لي وخالَين في الحرب العالمية الأولى. إن دمي معجون بهذه التُربة، ومن اختلط دمه بها لابد أن يخلص لها. وبعد حديث ومشادة خرجت وأنا أشعر انه لم يستدعيني إلاّ لغرض تهديدي وإخافتي لئلا أقف ضد ثورتهم، أو لعله أراد أن يغريني ببعض تلميحاته بمنصب من المناصب فيما إذا سكت ولم أعارض. لماذا أوفد رشيد عالي السيد عبد الرزاق إليّ، وماذا كان يريد من وراء استدعائي؟ هل حقيقة قد وصلته بعض الأشياء عن نشاطي وأنا لم أبدِ أي نشاط يُذكر إلاّ ما كنت أتحدث به عنه سوء الحالة إلى بعض الأصدقاء والأخوان. هل أن رشيد عالي أراد أن يتغدّى بي قبل أن أتعشى به؟ هل أراد أن يشل حركتي ونشاطي مقدماً قبل أن تحدثني نفسي في العمل جهاراً ضده. لم اعرف حقيقة هذه الحادثة حتى هذه اللحظة، ولم أعرف الأسباب الحقيقية التي حملت رشيد عالي على مواجهتي عن طريق عبد الرزاق الحسني وليس عن طريق استدعائي مباشرة.

---

[٣١٥] هو الأخ الأصغر لرشيد عالي، وقد أصبح وزيرا مفوضا للعراق في أنقره.

كان محمد حسن خلال الذي لازمني في أغلب الأوقات، قد استقال من رئاسة الصحة هذه الفترة، وأخذ يزورني في الدائرة أو في البيت، وكان مرة قد فاتحني قائلا: ما رأيك لو دعاك رشيد عالي إلى العشاء في داره؟ قلت: أرفض! قال: ولماذا؟ قلت: لا أستطيع أن أصافح الشخص الذي أساء إلي بل ظلمني وأنا بريء. قال: هذه قضية قد انتهت وأصبحت في ذمة التأريخ. قلت: ولكني لا أثق به، ثم قلت: لو رأيت الجنّة بأم عيني ورأيت رشيد عالي هو الذي يقودني إليها لما قبلت أن أسير وراءه.

كانت الحالة قد تأزمت، والجو قد اكفهر، وبات الناس في هلع وجزع، والبلاد على وشك الانفجار، وكنا ذات ليلة أنا ومحمد حسن في بيتنا على عادتنا بالقرب من الراديو نبحث الوضع ونقلب الرأي، وإذا بنا تأخذنا الدهشة بهذه السلسلة من الأخبار التي يذيعها علينا الراديو، وهي أن الأمير ترك البلاد، وقد تألفت حكومة عسكرية مؤقتة برئاسة رشيد عالي تدير شؤون الدولة إلى أن يتم خلع الوصي وتأليف حكومة جديدة. لقد امتقع لون محمد حسن وحار واندهش وقال: إنها لورطة كبيرة، لم تكن هذه هي الخطة، ولم يكن أحداً يستهدف الأمير وخلعه. ولا أدري إذا كان محمد حسن يعرف حقيقة شيئاً عن الخطة، وما كنت أشعر إلا أنه على الهامش بالرغم من أن له بعض الصلة مع بعض القائمين بها، ولا سيما صديق شَنشَل ويونس سَبعاوي[٣١٦].

---

[٣١٦] تطابق هذه الرواية ما وضحه الدكتور محمد حسن سلمان عن بداية صلته بالسبعاوي والصباغ في حديث أدلى به الى محمد حسين الزبيدي قبل وفاته (جريدة الاتحاد، العدد ٢٤ في ١ حزيران ١٩٨٦) فقال" عندما شكلت الصحة المدرسية عينت مديرا لها، وكان مقر الوظيفة في وزارة المعارف، وكان مكتبي مجاورا تماما لمكتب المرحوم صلاح الدين الصباغ مدير الرياضة والفتوة في وزارة المعارف، فتعارفنا وصرت أزوره في مكتبه المجاور كل يوم، وكان المرحوم يونس السبعاوي يزور صلاح الدين في

كنت قد حضرت بصفتي أحد المتفرجين الجلسة المشتركة التي عقدها مجلس الأمة بمجلسي الأعيان والنواب، وقد ترأسها السيد علوان الياسري[٣١٧] بصفته أكبر الأعضاء سناً. وشاهدت رشيد عالي كيف يصول ويجول في المجلس، وكنت قد استمعت إلى خطابه الذي ألقاه، والذي بين فيه ان الوصي على العرش قد ترك البلاد وأنه بذلك قد خالف واجباته الدستورية، فضلاً عن انه لم يلتزم بقواعد الدستور طيلة وصايته، وانه تجاوز سلطاته الدستورية في عرقلة أعمال الوزارة وتسيير شؤون الدولة، ولذلك فقد أصبح من الواجب خلعه وتعيين وصي آخر بدلاً منه. وقد اقترح أن يكون الوصي هو الشريف شرف[٣١٨]، من الأسرة الهاشمية وأحد أقرباء الملك. والشريف شرف كان رجلاً مُسِناً، يسكن أحد البيوت المتواضعة في الأعظمية، ولم يكن قد سَمع بأسمه إلا القليل من الناس.، ولم يظهر رشيد عالي في هذه الجلسة التاريخية إلا بمظهر المدافع عن الدستور والحريص على تطبيق مواده وبنوده، وإن ما يقوم به ليس إلا من أجل حماية الدستور، ولم يجارِه في الحرص على الدستور في هذه الجلسة إلاّ مفتي الدستور المرحوم ناجي السويدي. ولقد سمعته يتكلم ويُعلِّق على خطاب وكلمات رشيد عالي أكثر من مرة، وكان أن أشار في إحدى كلماته إلى أن رشيد عالي لم يلتزم ببعض أحكام الدستور، ثم خاطب رشيد عالي ودعاه إلى أن يتعهد أمام المجلس في أن تكون هذه آخر

الوزارة كل يوم، فصرنا نجتمع نحن الثلاثة في غرفة صلاح الدين وكان حديثنا شيقا حيث يتناول القضايا العربية والسياسية العراقية ومشاكل الأمة العربية والقضية القومية وغيرها، وكنا في كل هذا متطابقين في الفكر والهدف والمصير، وكان هذا التطابق هو حجر الأساس في علاقتنا التي أخذت تنمو وتترسخ على مر الأيام، وعقدنا العزم على العمل في سبيل الوطن والوحدة العربية وعقيدتنا القومية وأن نبذل كل شيء في سبيلها".

[٣١٧] زعيم وطني، كان مقربا من الملك فيصل الأول، ولد سنة ١٨٦٩ وتوفي سنة ١٩٥١.

[٣١٨] توفي في عمان في ٢٢ كانون الأول سنة ١٩٥٤.

مخالفاته وأن لا تبدر منه أي مخالفة في المستقبل. فما كان من رشيد عالي إلا أن قام ونفى عن نفسه مهمة مخالفة أي مادة من مواد الدستور، وإن ما قام به من إجراءات كان يفرضه الواقع، ومع هذا فانه يتعهد أمام المجلس، نزولاً عند طلب ناجي السويدي، أن يتمسك بأحكام الدستور، وأن لا يفسح المجال له ولأي شخص في مخالفته[٣١٩].

لقد كانت هذه الجلسة تمثيلية أُعِدَّت من قبل، وبالرغم من إحكام إعدادها فلم تكن أكثر من مهزلة، ولم يكن المجلس اكثر من ألعوبة بيد رشيد عالي. كان المجلس هذا هو الذي نصب عبد الإله وصياً على العرش، وكان هو نفسه الذي خلعه ونصب الشريف شرف وصياً، وكان هو نفسه الذي اعتبر تنصيب الشريف شرف وصيا باطلاً من أساسه، وعاد واعترف بوصاية عبد الإله لكونها هي الوصاية الشرعية، ثم كان هذا المجلس من بين المجالس القليلة التي أكملت دورتها النيابية وهي أربع سنوات.

قصة هروب عبد الإله

كنت في سنة ١٩٥٢ وزيراً للاقتصاد في وزارة نوري باشا، وكنت أقضي بعض الوقت في مصيف سرسنك حيث كان الأمير يصطاف، وكان في المصيف أيضاً نوري وجميل المدفعي وعلي جودت وفاضل الجمالي وتوفيق السويدي، فاجتمعنا بالأمير ذات ليلة على سبيل الصدفة حيث كنا نجتمع به ما دمنا في المصيف، وسهرنا معه حتى ساعة متأخرة من الليل، وكان الأمير يشرب، وكان نوري السعيد قد شرب قليلاً ثم ترك الجلسة قبيل منتصف الليل، وفتح

---

[٣١٩] أوضح السيد عبد الرزاق الحسني تفاصيل ما جرى في هذه الجلسة التاريخية وأدرج نصوص خطاب السيد رشيد عالي الكيلاني وخطاب ناجي السويدي وليس فيهما ما يشير إليه المؤلف هنا. ينظر: الأسرار الخفية في حركة السنة ١٩٤١ التحررية، الطبعة٣، صيدا ١٩٧١، ص ١٣٣- ١٣٧.

جميل المدفعي بعد أن شرب موضوع رشيد عالي مع الأمير، وكان أن رجاه أن يوافق على أن يتطبَّب رشيد عالي وهو مريض خارج المملكة السعودية ولا سيما في مصر[٣٢٠]، ولم تكن على ما يظهر هذه بأول مفاتحة، وكان الأمير على ما يظهر قد سبق أن فوتح بهذا الموضوع من قبل أناس مختلفين. ولم يكن الأمير مرتاحاً لمثل هذه المفاتحة لا سيما وأن جميل قد ألح عليه بعض الإلحاح، ولا أتذكر كيف تطور الحديث ولكني أتذكر أن الأمير كان متألماً جداً من رشيد عالي، وكان متألماً على الأخص من موقف رشيد من الملك ومما روجه من إشاعات حول الأمير. وإني لأتذكر الأمير يقول في تلك الجلسة: كيف تريدون مني أن أنسى هذا الرجل، وإذا كان بإمكاني أن أنسى كل ما ارتكبه من جناية وما فعله من إساءة، ولكن كيف يمكنني أن أنسى قوله بأنني أردت اغتيال الملك لأغتصب العرش منه. ثم كيف أنسى مثل هذا الرجل الذي يدوس على ضميره ويختلق مثل هذه الإشاعة وهو يعلم أن حياة الملك عندي أغلى من حياتي، وإنني لا أعيش إلاّ من أجل الملك؟ ثم قال: ولو إنني التقيت برشيد عالي بشكل من الأشكال فلا أسأله عن أي قضية إلا هذه الفِرية، وكيف تجرأ على أن يتقوَّل عليَّ مثل هذا القول.

لم أر الأمير منفعلاً مثلما رأيته في تلك الليلة، فلقد اغرورقت عيناه بالدموع وهو يتحدث إلينا، بل لقد بكى وهو يسرد القصة. كنا قد سألنا الأمير وهو يتحدث إلينا عن هذا وغيره،: كيف كانت قضية هروبه، وكنا قد سمعنا بعض الإشاعات عن هذه القصة، ولم تكن هذه الإشاعات لتختلف كثيراً عما رواه الأمير إلينا تلك الليلة. قال الأمير: كنت نائماً وقد أيقظني من

---

[٣٢٠] التجأ الكيلاني إلي السعودية، ثم غادرها إلي مصر سنة ١٩٥٤حيث أقام فيها إلي حين عودته إلى العراق بعيد قيام ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨، فيظهر أن ما يتحدث عنه المؤلف هنا هو زيارة قام بها الكيلاني الى مصر لغرض العلاج وليس لغرض الإقامة الدائمة.

النوم في نحو الساعة الرابعة صباحاً حارسي الخاص على خلاف المعتاد.

قلت: ما الخبر؟ قال: إن هناك حركة غير اعتيادية خارج القصر، وإن بعض المصفحات وبعض الدبابات تتحرك باتجاه القصر، ثم قال: وما هي لحظات حتى كنت في إحدى السيارات القديمة التي لا تحمل أية إشارة من إشارات القصر، بلباس النساء - وما أن ذكر هذه الكلمة حتى تنهّد تنهداً عميقاً وامتقع لونه، وكانت إمارات الحدة والغضب قد علت كل بقعة من بقاع وجهه -وتوجهت رأساً إلى قصر الأميرة صالحة[٣٢١] الواقع على شارع أبي نؤاس ولم أبق في هذا القصر إلاّ يوماً أو يومين حتى شعرنا بحركة غير اعتيادية من حول القصر، وما كان مني إلا أهرب إلى السفارة الأميركية وأنا متنكر بلباس النساء أيضاً[٣٢٢]. ثم هربت من هناك إلى الحبانية ولكن أتدرون كيف هربت؟ لقد دفنت في الزهور والرياحين! فلقد تمددت في القسم الخلفي من سيارة البيك آب، وغطيت من قمة رأسي إلى أخمص قدمي بالزهور والرياحين والأوراق الخضراء حتى بدت السيارة وكأن ليس فيها شيء إلا هذا الحمل الجميل وهي في طريقها إلى الحبانية، ثم ذهبت من الحبانية إلى البصرة، ومن هناك إلى شرق الأردن.

كان قد تقرر خلع الأمير عبد الإله من الوصاية، وقد نصب الرجل المسن الشريف شرف وصياً على العرش[٣٢٣]، وكان أن تألفت الوزارة برئاسة رشيد عالي الكيلاني وقد دخلها الدكتور محمد حسن سلمان وزيراً

---

[٣٢١] هي صالحة بنت الشريف حسين من زوجته عبدية، وزوجها عبد الله المصري.

[٣٢٢] ذكرالدكتور سندرسن انه هو الذي أعد خطة الهروب هذه. تنظر مذكراته، ترجمة سليم طه التكريتي، ص ٢٦٨.

[٣٢٣] انتخبه المجلس النيابي بالإجماع وصيا على العرش في ١٠ نيسان ١٩٤٠.

للمعارف[٣٢٤]، وكان أن دخلها رؤوف البحراني[٣٢٥] وزيراً للشؤون الاجتماعية بعد أن أجبر على قبول الوزارة، ولم يفد تهربه من قبولها، وقيامه بجولة تفتيشية خارج بغداد، وقد كان مديراً عاماً للمالية فلم يداوم في الوزارة أكثر من بضعة أيام حتى تمرض ونقلناه إلى المستشفى، ثم تطلبت حالته الصحية -بعد أن اشتدت عليه وطأة المرض- نقله إلى بيروت.

قادة الانتفاضة

كان قد سيطر على الجيش، ولا سيما بعد مقتل بكر صدقي، عقداء أربعة عرفوا بالمربع الذهبي، وهم: صلاح الدين الصباغ، وفهمي سعيد آمر المدرعات، ومحمد سلمان آمر الطيران، وكامل شبيب. وليس لدي من شك في أن هؤلاء الأربعة من الشباب الضباط كانوا من أكثر الناس إخلاصاً لهذا الوطن وأكثرهم إيماناً بمستقبل هذه الأمة، وكانوا لا يفكرون إلا تفكيراً قومياً، ولا

---

[٣٢٤] يذكر محمد سلمان حسن قصة استيزاره للمعارف في حديثه الذي أشرنا إليه من قبل فيقول" كنت في داري وجاءني المرحوم يونس السبعاوي في عصر يوم ١١ نيسان ١٩٤١ وطلب الي أن أصحبه الى دار السيد رشيد عالي الكيلاني في الصليخ وقال لي أنك سوف تكون وزيرا للصحة في وزارته، وذهبت معه إلى هناك وقد وجدت مائدة العشاء معدة، وكان الحديث وديا، وكانت هذه المقابلة أول مقابلة لي مع المرحوم رشيد عالي، وفي ١٢ نيسان أجريت حفلة الاستيزار".

[٣٢٥] سياسي وطني، ولد سنة ١٨٩٧ والتحق بالجيش العثماني فالجيش العربي سنة ١٩١٨، وعاد إلى العراق حيث تخرج في كلية الحقوق سنة ١٩٢٢، وتقلب في الوظائف الرسمية حتى اختير وزيرا للمالية في وزارة ياسين الهاشمي الثانية ١٩٣٥، ثم في وزارة نوري السعيد الخامسة ١٩٤٠، ووزيرا =للشؤون الاجتماعية في وزارة رشيد عالي الثالثة في السنة ذاتها، وفي ١٢ حزيران ١٩٤١ اختير وزيرا للشؤون الاجتماعية أيضا في وزارة رشيد عالي الرابعة، وهي التي يذكرها المؤلف هنا، ولبث فيها إلى أن سقطت الوزارة باحباط انتفاضة مايس ١٩٤١، فقضى السنين التالية معتقلا منفيا، حتى أعيد إلى الخدمة موظفا سنة ١٩٥٠، وتوفي سنة ١٩٦٣. تنظر مذكراته، بتحقيق السيد جواد الحسيني، بغداد١٩٩٣، ص١٩-٢٠.

يعتبرون العراق إلا جزءاً من الأمة العربية، ولا يناضلون إلا في سبيل حرية العرب واستقلالهم ووحدتهم. وكانوا على اتصال كُلّي بمفتي فلسطين الحاج أمين الحسيني الذي كان يقيم في بغداد آنذاك [٣٢٦]، وكانت له بينهم منزلة مرموقة وكلمة مسموعة، بل كانوا يصفونه بالمجاهد الأكبر وزعيم الوطنية وقائد القومية. ولم يكن هؤلاء على وفاق مع الإنكليز، ولم يكن هذا بأمر غريب وبين الإنكليز والأمة العربية قضايا ومسائل، فلقد ابتليت الأمة العربية بالاستعمار البريطاني في أكثر أقطارها، وهي مصر وفلسطين وشرق الأردن والعراق ناهيك عن الجنوب العربي بمحمياته وإماراته ومشايخه وما إلى ذلك، ولم يكن لهذا الاستعمار في بلادنا إلا سجل أسود فلم يكن يرعى إلا حقوقه ومصالحه، ولم يكن من مصلحته أن يرى أمة عربية متحدة مستقلة قوية، بل كان يرى في هذه الأمة خطراً على مصالحه الاقتصادية والاستراتيجية. ولعل أفظع ما ابتلاها به هذا الاستعمار، هو موقفه من العرب بعد الحرب العالمية الأولى، ونكثه لكافة العهود والوعود التي أعطيت للعرب على لسان مكماهون للشريف حسين فيما يتعلق باستقلال العرب ووحدتهم، ثم موقف الحكومة البريطانية من فلسطين العربية، ثم ما كان من وعد بلفور المشئوم الذي تطور إلى أن تسلخ فلسطين من قلب الأمة العربية لتكون وطناً للصهيونية. فهل كان من الغريب بعد هذا كله ألا يقف العراق موقف الصديق من بريطانيا، لم يترك الاستعمار الإنكليزي مجالاً للشعور بالصداقة، وقد كبل البلاد العربية بمختلف المعاهدات الجائرة التي لا تنتهي، والتي تثلم من سيادتها وتحد من سلطانها بالرغم من إنها خاضت ثورات دموية من أجل استكمال هذه

---

[٣٢٦] قدم الحاج أمين الحسيني الى العراق قبيل نشوب الحرب العالمية الثانية حيث أدى دورا مهما في انتفاضة مايس سنة ١٩٤١، ولكنه أضطر بعد فشلها الى الفرار الى روما وبرلين أثناء الحرب المذكورة، وأخيراً جرى اعتقاله من قبل جيوش الحلفاء بيد أنه تمكن من الهرب الى مصر ثم الى لبنان.

السيادة، فإذا لم يقف العراق موقف الصديق من بريطانيا فلا يقع اللوم عليه، بل يقع على سياسة بريطانيا الاستعمارية الخاطئة التي وقفت ضد حرية هذه البلاد واستقلالها ووحدتها، والتي قضت على الكيان العربي في فلسطين.

لقد نشبت الحرب العالمية الثانية ولم يكن نوري السعيد هو الذي يسيطر على سياسة البلاد، بل كان الذي يسيطر عليها هم هؤلاء العقداء الأربعة بزعامة مفتي فلسطين. ولو كان الأمر قد ترك لنوري السعيد لما خرجت سياستنا الخارجية عن سياسة بريطانيا ولسرنا في عجلتها كيفما شاءت. ولا أريد أن أقول انه كان من الخطأ أن نسير مع بريطانيا، ولكنه من الخطأ أن نسير دون أن نضمن مصلحة الأمة العربية قبل كل شيء. ولا أريد أن أقول إنه إذا كان لبريطانيا سجل استعماري أسوأ فلا يعالج إلا بأن نقف ضدها ونحن في كنفها، بل لا بد من أن ننتهز هذه الفرصة لتسوية مشاكلنا وقضايانا بما يضمن مصلحة الأمة.

الصدام العسكري مع البريطانيين

كانت بريطانيا تخوض حرباً هي بالنسبة لها حربُ حياة أو ممات. فالامبراطورية في خطر، بل كان كيان بريطانيا نفسها في خطر. وكان بينها وبين العراق معاهدة سنة ١٩٣٠، وهي تجيز لبريطانيا في زمن الحرب، وبموافقة العراق، أن تمرر جيوشها في العراق، على أن يقيد هذا المرور بقيدين، أولاً أن لا يزيد عدد الجيوش المارة عن عدد معين، وأن لا يبقى في العراق إلا مدة معينة، فلما أرادت بريطانيا أن تمرر جيوشها دون أن تتقيد بهذين القيدين اعترض عليها العراق. ولو كان في الحكم نوري السعيد لما اعترض عليها، ولكن كان في الحكم رشيد عالي الكيلاني، ومن ورائه العقداء

الأربعة الذين أتوا به إلى الحكم، وكان الوصي الشرعي قد فرّ من البلاد، وتأزم الوضع بين العراق والإنكليز، ولم يقر الإنكليز بحكومة رشيد عالي، ولم يقدم السير كنهان كورنوواليس الذي عُين حديثاً سفيراً لبريطانيا في العراق أوراق اعتماده إلى الشريف شرف. وكان العراقيون يعرفون السير كنهان من قبل، فقد خدم في الحكومة العراقية كمستشار لوزارة الداخلية مدة طويلة، وكان من أقرب المقربين إلى الملك فيصل الأول، بل كان هو الذي أوفده السير ونستن تشرشل لعرض عرش العراق على الملك فيصل حسبما سجله فيليب آيرلند في كتابه عن العراق[٣٢٧].

لقد تأزم الوضع بين العراق وبريطانيا، فقد قبل العراق أن يلتزم بنصوص المعاهدة وإن كانت جائرة، ولكن بريطانيا لم تقبل الالتزام بها إذ أرادت أن تمرر جيوشها بالأعداد التي تقررها هي، وأن تُبقي هذه الجيوش في العراق دون أن تتقيد بزمان. وإذ كان لا بد من الاصطدام فكان أن حدث ما عرف بثورة رشيد عالي.

وقع الصدام المسلح بين القوات البريطانية في الحبانية وبين الجيش العراقي، ثم جاءت الإمدادات البريطانية، ولا سيما من شرق الأردن، فكانت جيشاً عربياً يقوده قائد بريطاني اسمه كلوب باشا[٣٢٨] أو أبو حنيك، وكان أن حلت الكارثة فقد دخل الإنكليز بغداد دخول الفاتحين. وكان احتلالاً ثانياً

---

[٣٢٧] كان كنهان كورنوالس يومذاك ملحقا بوزارة الخارجية البريطانية، وكان الذي أوفده هو اللورد كرزن بصفته وزيرا للخارجية ورئيسا للجنة المشتركة الخاصة بشؤون الشرق الأوسط، وقد جرى العرض في ١٧ كانون الأول سنة ١٩٢٠، أما تشرتشل فقد كان في ذلك الوقت وزيرا للحرب ولم ينقل وزيرا للمستعمرات الا في ١٤ شباط سنة ١٩٢١. ينظر: آيرلند: العراق دراسة في تطوره السياسي، ترجمة جعفر خياط، بيروت ١٩٤٩، ص٨٣.

[٣٢٨] John Bagot Glubb ضابط بريطاني تولى قيادة الجيش الأردني من ١٩٣٠ الى ١٩٥٦.

سيطر الإنكليز فيه على شئون البلاد، وهيمنوا على كل صغيرة وكبيرة. وبهذا خسر العراق كثيراً من الأرواح والأموال، بل قد أضاع هويته واستقلاله، فهل كان من الوطنية في شيء أن تحدث مثل هذه المجزرة، ويعاد احتلال العراق ليفقد حريته واستقلاله؟

كان لا بد من تفجير الدُّمُلة كما عبر عن ذلك المستر تشرشل، وهو يشير إلى قضية العراق في البرلمان الإنكليزي. ولكن من جعل العراق دُملة حتى يضطر الإنكليز إلى تفجيرها؟ ألم تكن سياسته الوطنية المثالية من جهة، وتطرف الإنكليز وتعنتهم في مطالبهم من جهة أخرى، هي التي جعلت من العراق دملة؟ وإذا لم يكن يهم الإنكليز ما إذا فجروا الدملة، ألم يكن يهم العراق أن لا يُمهِّد لتكوين هذه الدملة؟ إن من الجميل ومن الصواب، أن يحافظ العراق على حقوقه وأن لا يفرط فيها، ولكن أليس الأجمل والأصوب أن لا يخسر العراق أكثر مما يربح بدافع من هذه القضية، ألم يكن مرور الجيوش البريطانية أو بقائها في العراق أيسر في احتلال العراق ثانية وضياع حريته واستقلاله. وإذا كان لا بد من المحافظة على حقوق العراق، وهي حقوق شَكلية في زمن مثل زمن الحرب، وإن أدى ذلك إلى التصادم، ألم يكن من أوجب واجبات الوطنية أن يُعِد العراق عدته لمثل هذا التصادم، وأن لا يأخذ على حين غرة فتقع الكارثة وتحل الفاجعة.

لم يكن من المعقول، لو كان العراق قد أعد العدة أن ينخذل كما انخذل بمثل هذه المدة القصيرة، صحيح انه لم يكن إنسان يشك في وطنية العقداء الأربعة وإخلاصهم لبلادهم، ولكن هل تكفي الوطنية والإخلاص وحدهما لدفع الكارثة. هل تكفي الوطنية والصلابة والموقف الصارم لتحقيق الأمنية ونيل الحقوق؟ ألا تكون المرونة الوطنية في بعض الأحيان هي الدواء الناجع

والسبيل الأمثل لتحقيق الهدف. لم يكن العراق مستعداً لحرب رشيد عالي، بل لم يكن هنالك ما يبرر هذه الحرب في نظرنا، ولعل انتصارات النازيين الخاطفة هنا وهناك شجع على أن يخطئ العقداء الأربعة الحساب ومن ورائهم المفتي ورشيد عالي وغيرهما. ولا بد لمثل هذه الحركات أن تقاس بنتائجها، ولم تكن هذه النتائج أننا لم نضمن حقوق فلسطين ولامستقبل أبنائها فحسب، بل أُخِذ منا حتى استقلال العراق وحريته أيضاً، فهل لا ننظر بعد هذا إلى حركة رشيد عالي بأنها أكبر انتكاسة أصابت العراق في تأريخه الحديث؟ غير أنه لا بد لي من أن أقول بأنه لم يدفع العقداء الأربعة وبعض رجال السياسة المخلصين كيونس سبعاوي إلى أن يقفوا ذلك الموقف من حقوق العراق المشروعة إلا أنبل الدوافع وأسمى العواطف، ولو أنهم نجحوا في مسعاهم لكانوا من الأبطال الخالدين، وهم على كل حال من الأبطال حتماً وإن فشلوا في حركتهم التي فرضت عليهم فرضاً، وإذا كان هناك من لوم يقع عليهم فلأنهم فسحوا المجال لأن يُجَرُّوا إلى ذلك الموقف، ولم تكن لديهم من الواقعية والمرونة السياسية ما يكفي لإبعاد المحنة عنهم وعن بلادهم، ولم يستمعوا حتى إلى ما أُسدِي إليهم من نصائح حملها إليهم السيد ناجي شوكت وزير داخلية رشيد عالي على لسان (فون بابن) سفير ألمانيا في تركيا، فلقد أشيع في حينه أن هذا السفير قد نصح العراق عندما واجه ناجي شوكت، وهو موفد من قبل حكومة رشيد عالي، أن لا يستعجل الأمور ويزج بنفسه في حرب مع بريطانيا، وإن ألمانيا ليست بوضع تستطيع مساعدة العراق مساعدة فعالة[٣٢٩].

---

[٣٢٩] يظهر أن هذا هو رأي فون بابن الشخصي، وهو الذي سجله في مذكراته حيث: لم يكن بمقدورنا الإسراع في تقديم أية معاونة جدية للثوار العراقيين (مذكرات فرانز فون بابن، ترجمة فاروق الحريري ص٦٧٩)، ولكن ناجي شوكت سجل في مذكراته تفاصيل حديث السفير الألماني في انقره الفون بابن

كان أن فرّ الوصي من بغداد إلى الحبانية ومنها إلى البصرة ثم إلى عمان لاجئاً عند عمه الملك عبد الله الذي كان يؤيد الإنكليز ويؤيدونه من دون قيد أو شرط، وكان قد رافقه في هذه الهزيمة نوري السعيد وجميل المدفعي وعلي جودت وغيرهم. وكان أن وقع الاصطدام المسلح وانخذل الجيش العراقي ودخل الامير بغداد على حراب الإنكليز. ولم يكن هذا ليشرف الأمير ولا زمرته، ولم يكن هذا ما يتمناه العراقيون للأمير ولا لزمرته. لقد فرَّ رشيد عالي مع المفتي والعقداء الأربعة والوزراء وغيرهم من رجال السياسة وضباط الجيش، وكان لا بد من حكومة ولا بد من محاكمات. وكان أن أسر الإنكليز بعض الوزراء وأرسلوهم إلى جنوب أفريقيا، ومن بينهم ناجي السويدي، الذي توفي في المنفى هناك، ورؤوف البحراني وموسى الشابندر ومحمد علي محمود، وكان أن أسر الإنكليز يونس السبعاوي وعلي محمود الشيخ علي وثلاثة من العقداء وهم في طهران، أما العقيد صلاح الدين الصباغ فقد فر من طهران إلى تركيا وبقي فيها بين مسجون وطليق نحواً من سنين ثم سلم إلى الحكومة العراقية ونُفذ فيه حكم الإعدام الذي كان قد حكم به غيابياً، وعلقت جثته أمام مبنى وزارة الدفاع. كما حوكم يونس السبعاوي وعلي محمود الشيخ علي والعقداء فهمي سعيد ومحمود سلمان وكامل شبيب من قبل مجلس عُرفي وحكم عليهم بالإعدام، ونفذ حكم الإعدام فيهم، ما عدا علي محمود الشيخ علي حيث استبدلت عقوبة الإعدام بعقوبة السجن لمدة سبعة سنوات.

(بغداد ١٩٧٧، ص٤٧٢) وفيه أن المساعدات الألمانية الحربية للعراق ستكون جاهزة وواصلة العراق بعد اسبوعين، وأن المساعدات الألمانية من الطائرات سيكون أقل عدد لها ثلاثون طائرة، وأن إيطاليا ستشارك ألمانيا في تقديم المساعدات ولا سيما الطائرات.

لم أطلع حتى هذه اللحظة على وقائع المجلس العرفي وعلى سير المحاكمات فيه، كما لم أطلع بشكل رسمي على التهم التي وجهت إليهم، ولا كيف حوكموا، ولا كيف حُكِموا بالإعدام، ولكن مما لا شك فيه أنهم أُتُهِموا بالقيام بثورة مسلحة لتغيير نظام الحكم في البلاد، وعقوبة هذه التهمة وحدها هي الإعدام. فهل قام العقداء الأربعة بثورة؟ وهل كانوا يقصدون بها تغيير نظام الحكم؟ ألم تُفرض الحرب عليهم فرضاً؟ وعلى فرض أنهم قاموا بثورة، ألم تكن ضد الإنكليز؟ إنها لم تهدف إلى تغيير نظام الحكم بأي شكل كان، وهل لو وقف البلاط غير الموقف الذي وقفه، أكان قد أصابه ما أصابه؟ أم أن ما أصاب البلاد كان بسبب موقف تأييده لموقف بريطانيا، وإن كان البلاط يزعم أنه لم يقف ذلك الموقف إلا خدمة لمصالح البلاد، وقد يكون البلاط على حق في موقفه، ولكنني لا أستنتج أن العقداء الأربعة كانوا يستهدفون البلاط من وراء حركتهم بأي شكل كان. إنما كانت معركتهم ضد الاستعمار البريطاني، وكل معركة ضد الاستعمار هي معركة وطنية مشرفة بشرط أن يدرس الموقف من كل نواحيه وأن لا تكون خسارة هذه المعركة أكثر من ربحها. وكنا قد سمعنا أن موقف يونس السبعاوي في المحاكمة كان موقفاً جريئاً مشرفاً، وإنه لم يَستخذي أو يتخاذل بالرغم من مثول شبح الموت أمام عينيه؛ وهكذا كان موقف كل من فهمي سعيد ومحمود سلمان. وكان يونس قد دافع بأنه لم يحارب إلاّ الاستعمار وطُغاته، وإنه لم يستهدف القصر وليس له مصلحة في ذلك.

لم يكن في رأيي أن من المصلحة أن يقف البلاط ذلك الموقف من الحركة الوطنية التي لم تكن مدروسة من كل نواحيها، لم يكن من المصلحة أن يقترن اسم البلاط بالإنكليز ليبدو أنه ليس بأكثر من ألعوبة في أيديهم، وإنه لا

يتصرف إلاّ حسب مشيئتهم. كما لم يكن من المصلحة أن يقال أن البلاط لم يقف ذلك الموقف إلاّ خدمة للاستعمار وتنفيذاً لإرادة أسيادهم الإنكليز. وليس من شك من أن البلاط لم يقف ذلك الموقف إلا عن اقتناع بأن من مصلحة العراق تأييد البريطانيين في حربهم ضد النازية، إن مسايرة الغرب وموالاته هي السياسة التي درج عليها نوري السعيد من أول حياته حتى آخر مماته. ولم يكن في رأيي إعدام الشهداء ولا سيما وقد رافقت هذا الإعدام روحية انتقام بغيضة. وإذا كان لا بد من محاكمة رؤوس الثورة، ولابد من صدور الحكم عليهم بالإعدام، فلم يكن هناك ما يبرر الإصرار على إعدامهم، وهل لا يكون الإنسان الذي حكم عليه بالإعدام وقَبَع في ظُلمات السجون كأنه قد مات بالفعل، وما تأثيره وما نفوذه وهو وراء القضبان الحديدية قد عُزِل من كل تأثير ونفوذ. هل كانت هناك ضرورة لسفك دماء هؤلاء الشهداء الطاهرة الزكية وهم لم يقوموا على كل حال إلاّ بثورة ضد الاستعمار؟ ولماذا ظهر الأمير بذلك المظهر الحاقد المنتقم الذي لا يشفي غليله إلاّ الدم؟ لقد كان موقف الأمير من الثورة، وكونه لم يدخل العراق إلا على حراب الإنكليز أولاً، وموقفه من الشهداء، وإصراره على إعدامهم ثانياً، هو الذي لم ينساه العراقيون، وهو الذي جرَّ عليه وعلى عائلته إلى حد كبير ذلك المصير المشؤوم.

لقد كنت ربما من بين القلائل الذين لم يكن من رأيهم قيام هذه الثورة، ولا أدري لماذا كنت أشعر أنها ثورة مُبتَسرة، وأنها قد انبعثت من العاطفة قبل العقل، ولم يكن من رأيي أن أشترك فيها بأي شكل كان، بالرغم من بعض المحاولات التي بذلت لإشراكي فيها، ولعل أهم سبب منعني من المساهمة هو وجود رشيد عالي على رأس الحركة، ولم أكن أثق به ولا أعتقد

بإخلاصه بل لم أكن أرى فيه إلاً رجلاً متعصباً ضيق العقل، طموحاً لا تهمه مصلحة البلاد بقدر ما يهمه إشباع غروره وطموحه وأنانيته التي لا حد لها.

إجراءات الحكومة المالية

كان قد استدعاني إبراهيم الكبير مدير المالية العام عند أول نشوب الحرب وقال: إن وزير المالية ناجي السويدي يريد مقابلتي ولكن ليس في الوزارة. ذهبت أنا وإبراهيم الكبير وواجهنا وزير المالية في غرفة في بناية تقع في شارع السموءل، ولا أدري لماذا واجهنا في هذه الغرفة، ولعله كان يخشى الدوام في غرفته بالوزارة لئلا تُقصف أو لأي سبب آخر. وقال: لقد سيطرنا على البنوك ولا بد من- وكان يوجه الكلام لي- أن استلم إدارتها. وهكذا تسلمت إدارة البنك الشرقي، وكنت بالاتفاق مع إبراهيم الكبير قد عيَنّا محمد علي الجلبي لإدارة البنك العثماني، وموظف آخر من موظفي ضريبة الدخل، ولربما كان مفتشاً فيها، نسيت اسمه، لإدارة البنك البريطاني. وكانت قد توقفت أعمال البنوك إلى حد كبير خلال مدة الثورة وهي مدة شهر[٣٣٠]، ومع هذا فقد بذلنا الجهد كله في المحافظة على أموال الناس وأموال الحكومة التي كانت تودع لدى البنك الشرقي. وكان يونس السبعاوي يتصل بي بين حين وآخر مستفسراً عن موجودات البنك إذ كانت لديه نية السيطرة على موجوداته النقدية لتموين الثورة الشعبية فيما إذا فشلت الثورة الرسمية. وكان

---

[٣٣٠] هذا ما يصرح به المؤلف هنا، ولكن يذكر علي محمود الشيخ علي، وكان وزيرا للعدل في وزارة الكيلاني أنه اقترح على وزير المالية ورئيس الوزراء أن تضع الحكومة رقابة على المصارف لئلا تتصرف في الثروة العراقية المودعة فيها تصرفا يحدث أزمة ويؤدي الى كارثة، الا ان المسؤلين المذكورين امتنعا خشية أن يؤدي ذلك الى إزعاج الانكليز. (من وحي سجن أبي غريب، بغداد ١٩٦٦، ج١ ص٧٢).

في نيته أن ينسحب نحو الجنوب ويستعين بالعشائر للاستمرار في المقاومة ضد الإنكليز. وكنت مرة وأنا أنزل الدرج المؤدي إلى الخزانة للتفتيش، وإذا بالشرطة المسلحة والتي تحرسها قد شهرت سلاحها بوجهي وصرخت بكلمة: قف! ولم أكن أدري أن ما حدث لم يكن إلا عملاً روتينياً لا بد منه حتى إذا كان النازل إلى الخزانة هو المدير.

سافر الدكتور محمد حسن سلمان وزير المعارف إلى لبنان وهو مريض قبل أن يقع الاصطدام[٣٣١]، ولكني استلمت راتبه كوزير في الشهر الذي فشلت فيه الثورة، ولما أردت استلامه نصحني إبراهيم الكبير بعدم الاستلام، وقال: مالك وهذا الراتب، قد يجر البلاء علينا! قلت: ألم يستلم غيره في الوزارة رواتبهم؟ قال: لا، قلت: أليس من حقي تسلم هذا الراتب فسكت. وكان محمد حسن بأمس الحاجة إلى المال، فاستلمت راتبه، واستلمت بعض ديونه الطفيفة التي كانت على بعض الأصدقاء، وسلّمتُها له. وكان قد ترك داره بأثاثها عندما سافر، ولما سمعنا أن الحكومة ستصادر الدار والأثاث كان لا بد لي من أن أذهب إلى الدار وانقل متاعه وأثاثه الى بيوت بعض أقاربه. ولم

---

[٣٣١] يذكر محمد حسن سلمان تفاصيل مرضه وسفره الى خارج العراق في تلك الأيام العصيبة فيقول في حديثه الذي أشرنا اليه من قبل"بقيت في الوزارة أسبوعين تقريبا بعدها أصبت بمرض خطير نقلت إثره الى المستشفى، وبعد مدة من الزمن اقترح سندرسن أن أعالج في خارج العراق، وطلب الى رشيد عالي أن أسافر للعلاج في الخارج، وقررت الذهاب الى بيروت وقد اصطحبت معي زوجتي وسافرنا الى الموصل ثم الى حلب.. ثم نقلت الى بيروت ودخلت المستشفى الأمريكاني.. وبقيت في المستشفى الى يوم ٢٥ حزيران ١٩٤١ حيث وصلتني الأنباء بسقوط بغداد وجاءني المرحوم عبد الحميد كرامي والد السيد رشيد كرامي والأمير عادل أرسلان والسيد عبد الحميد الهلالي وطلبوا مني مغادرة لبنان حالا لأن الإنكليز على وشك دخول لبنان واحتلالها ولابد أنهم سوف يقبضون عليك، وهيأوا لي سيارة الزعيم عبد الحميد كرامي وقد نقلتني الى طرابلس وعائلتي معي ثم منها الى حلب ومن حلب الى تركيا وبقيت بها عدة أشهر حتى جاء رشيد عالي الكيلاني وبعدها ذهب رشيد إلى ألمانيا وطلب منا أن نلحق به فذهبنا إلى هناك، وقد خصصت الحكومة الألمانية فيلا خاصة لي ولعائلتي".

يساهم أحد معي في هذه العملية إلاّ صديق آخر، ولم نُخبر أحدا من أقاربه خشية تدخلهم في مثل هذه الأمور التي قد تسيء إليهم إذا ما قد سمعت الحكومة بها. ثم كان أن أجّرتُ الدار إلى أحد المستأجرين بمبلغ معين، وبَيَّنت في ورقة الإيجار بأنني غير مخول بالتأجير. ثم كان أن ارتفعت الإيجارات فيما بعد فأقامت زوجة الدكتور بعد رجوعها من ألمانيا الدعوة في المحاكم تطالب بإيجار المثل، واستدعيت إلى المحكمة شاهداً، وبينت حقيقة الوضع، مما حمل المحكمة على أن تحكم لصالح الدكتور. وقد قبضت عائلته الإيجارات المتراكمة لبضعة سنوات وكان مبلغاً لا يستهان به. وكان أن ترك الدكتور سيارته في كراج أحد معارفه، فاتصل بي صاحب الكراج يشتكي من أن السيارة تستعمل من قبل نسيبه محمد البحراني، ولما كنت أعرف أن الدكتور بحاجة ماسة إلى المال، رأيت أنه من المناسب بيع السيارة، فاشتراها السيد عبد الأمير الأسدي، ولكني كتبت في ورقة البيع بأنني غير مخول في هذا البيع. ولما ارتفعت أثمان السيارات في زمن الحرب ارتفاعاً فاحشاً، وعند رجوع زوجة الدكتور من ألمانيا، أقامت زوجة الدكتور الدعوى على عبد الأمير الأسدي واسترجعت السيارة التي كانت تساوي أضعاف قيمتها عند الشراء، كنت قد قمت بهذا وبغير هذا نزولا لواقع الصداقة والأخوة.

وحكم على الدكتور محمد حسن لمدة سنة واحدة غيابياً، وكان أن حُبس في معتقل «أبو غريب» مع الشريف شرف مع بقية الوزراء وهم ناجي شوكت وعلي محمود الشيخ ومحمد علي محمود ورؤوف البحراني وموسى الشابندر، وكنت أزوره بين آن وآخر، مرة أزوره أنا ومرة أخي عبد الصاحب الذي كان ضابطاً في الجيش، مع انه كان ممنوعاً على الضباط زيارة السجناء السياسيين.

كان السيد عبد المهدي في وزارة نوري السعيد وزيراً للاقتصاد[٣٣٢]، وكان ذلك ربما في أواخر سنة ١٩٤٢، وكان عبد الكريم الأزري مديراً عاماً للاقتصاد[٣٣٣]، ويعد التموين مرتبطاً بهذه الوزارة، ولقد استقال عبد الكريم من منصبه بسبب بعض الاختلافات التي نشأت بينه وبين لجنة التموين. وكنت مفتشاً لضريبة الدخل، فاستدعاني السيد عبد المهدي لأشغل منصب عبد الكريم بعد استقالته. وكان راتبي آنذاك ٣٥ ديناراً شهرياً وبما ان الحد الأدنى لراتب المدير العام هو٤٠ ديناراً شهرياً، ولما كنت على وشك أن أستحق الترفيع، ولم يبق على انتهاء المدة للترفيع إلاّ بضعة أشهر، جرى الاتفاق أن أنقل إلى الوزارة بوظيفة سكرتير للوزارة بعد أن يغير نظام الوزارة بكلمة واحدة، وهي أن تحل كلمة سكرتير محل المدير العام، أي لم يكن التغيير إلا شكلياً، لأن الصلاحيات التي كانت للمدير العام أنيطت بكاملها إلى السكرتير، وقد صدر- بالإضافة إلى هذا القرار- قرار من مجلس الوزراء يقضي بمنح صلاحيات مدير عام كاملة إلى السكرتير. وبهذا أصبحت أكبر موظف في الوزارة بعد الوزير وتمتعت بصلاحيات المدير العام وهو رئيس دائرة بصورة كاملة. ولم يكن يُكدِّر عليَّ هذا النقل في بادئ الأمر إلاّ موقف الدكتور نديم الباجه جي الذي كان مديراً للنفط، مرتبطاً بمدير الاقتصاد العام، وكان راتبه إذ ذاك ٣٥ دينار، ولكنه ترفَّع حديثاً بهذا الراتب بينما كان قد مرَّ علي وأنا في هذا الراتب نحواً من ثلاث سنوات إلاّ بضعة أشهر، بمعنى أني كنت أقدم منه بكثير. كان الدكتور نديم قد قدم استقالته وبذا فلابد من أن

---

[٣٣٢] تكونت في ٩ تشرين الأول ١٩٤١ ولبثت الى ٣ تشرين الأول سنة ١٩٤٢.

[٣٣٣] اقتصادي، ولد سنة ١٩٠٨ ونال شهادة الليسانس في الاقتصاد والعلوم السياسية من جامعة لندن، وشغل مناصب عدة في السلك الخارجي، ثم تقلب في المناصب الأخرى حتى صار رئيسا للتشريفات الملكية، فمديرا عاما للواردات، فمديرا للتجارة.

ينقل من السكرتارية ويرتبط بالوزير رأساً، وكان أن سُوِّيت الوظيفة على هذه الصورة. ولم أمانع في هذا الترتيب، لا سيما أن أمر إعادة تعديل النظام وتعين مديراً عاماً سوف لا يستغرق إلا بضعة أشهر. كان حمدي اليازجي صديقاً حميماً للسيد عبد المهدي فهو الذي أثر عليه كثيراً ووافق على فصل مديرية النفط عن سكرتاريتها.

لم يكن نقلي إلى وزارة الاقتصاد بالأمر اليسير. لقد تقدم السيد عبد المهدي إلى مجلس الوزراء بتعديل النظام واقترح تعييني سكرتيراً بعد أن فاتحني وأخذ موافقتي، ولكن ما إن قدم الاقتراح إلاّ ونام على منضدة نوري السعيد. لم يكن نوري يرغب في أن أتسنَّم مركزاً مهماً وهو لا يحمل تجاهي شعوراً طيباً، ولا سيما وهو يعرف إنني كنت سكرتيراً لنادي المثنى، ولم يكن قد نسي مقابلته لي عندما طلب من أن أنشر في الصحف بياناً أنفي فيه إعتزام النادي على التظاهر. كنت قد رفضت أن أنشر مثل هذا البيان وكان قد ألح وأصر على نشره. كنت قومياً وكان كل قومي في نظر الإنكليز ونوري السعيد نازياً ولابد من عقوبته لا مكافأته، ولم يكن القومي نازياً ولكنه كان وطنياً.

لم يشأ نوري السعيد أن أنقل من ضريبة الدخل إلى مركز مدير عام في وزارة الاقتصاد وهو مركز هام وحساس، ولاسيما زمن الحرب، ولا أدري إذا كان قد فاتح نوري السعيد بأمر يعنيني قبل أن يتقدم بالاقتراح أم لا، وإذا كان قد فاتحه فلماذا لم يرفض الطلب قبل رفع الاقتراح، وهل وافق سيدنا ثم أراد بعد أن رفع الاقتراح أن يعينه محفوظاً على المنضدة. لقد نام الاقتراح وقد انتظرت وانتظر السيد عبد المهدي طويلاً حتى تأزمت العلاقة بينه وبين رئيس الوزراء من أجل هذه القضية ومن أجل قضايا أخرى على ما يظهر.

لقد راوحت في وزارة الاقتصاد بعد أن مشى الاقتراح، ولكن لم يطل اشتغالي مع السيد عبد المهدي كثيراً، فلقد استقال وقُبلت استقالته. لقد استوزر نوري السعيد في الحال الحاج محسن شلاش[٣٣٤] وزيراً للاقتصاد. كان رجلاً مُسِناً وكان قد أدى دوراً في الحياة السياسية في العشرينات، إلاّ أن دوره هذا انتهى. كان رجلاً وجيهاً وثريا في النجف الأشرف ولم تكن عنده ثقافة عصرية أو حتى ثقافة عميقة من ثقافة ذلك الزمن، كان قد استوزر قبلاً لوزارة المالية لأنه كان تاجراً مشهوراً وثرياً كبيراً. كان الرجل مسناً ومريضاً وكان يعرف أن دوره قد انتهى، فلما استوزر -وكان على الرغم منه على ما يظهر- امتعض شديداً. لم يداوم في الوزارة إلا بضعة أيام حتى نُقل إلى المستشفى لشدة مرضه. لقد تعطلت أعمال الوزارة أو كادت فلم يكن في استطاعة الوزير توقيع المعاملات حتى التي يجب أن ترسل إلى مجلس الوزراء والتي لا يمكن أن يوقع عليها غير الوزير. لقد وجهت كتاباً إلى الوزير وصورة منه إلى سكرتارية مجلس الوزراء شرحت فيها الوضع على ما هو وطلبت فيه تخويلي بعض الصلاحيات فأجاب الوزير بالموافقة وصرت أوقع لأول مرة في الكتب التي تبعث إلى مجلس الوزراء، ولكن لم يكن من الإمكان عرضها على مجلس الوزراء واتخاذ قرارات بشأنها لغياب الوزير وتبنيها والدفاع عنها إلاّ القضايا المستحيلة التي لا يمكن تأخيرها. لم يدم هذا الحال طويلاً حتى قبلت استقالة الحاج محسن شلاش وعين بدلاً عنه سلمان البرّاك.

لقد استوزر هذا الرجل أيضاً في بداية الحكم الوطني، ولم نكن نتصور أن في زمن الحرب يعمل نوري على نبش القبور ونفخ الروح في الأموات. وإذا كان الحاج محسن على شيء غير قليل من الثقافة العربية وعلى شيء من الدراية

---

[٣٣٤] هو عبد المحسن شلاش، ولد في سنة ١٨٨٢ وتوفي سنة ١٩٤٨.

المالية وعلى شيء من الخلق الطيب، فإن سلمان البراك لم يكن إلا أمياً. لم يكن يعرف إلا القليل من القراءة ولم يكن يعرف إلاّ الشيء الأقل من الكتابة. لم يكن يقدر على كتابة سطر واحد دون أغلاط لغوية وإملائية. لقد كتب مرةً (أوافق على منح هل الأيجازة) بدلاً من أن يقول (أوافق على منح هذه الإجازة). ولم يعرف بأن ليس له أية ميزة غير كونه من شيوخ البو سلطان ومن جواسيس الإنكليز. وإذا كان هناك ما يبرر استيزار مثل هذا الرجل عند أول الحكم الوطني فما هو المبرر لاستزاره في سنة ١٩٤٣ وقد امتلأت البلاد بالشباب الوطني المثقف الذي درس في أحسن الجامعات الأجنبية والمحلية. لماذا لم يكن في سياسة نوري السعيد الاستعانة بالعناصر الطيبة المثقفة.

كان قد عين سلمان البراك وزيراً، قد ترفعت إلى راتب ٤٠ ديناراً، وكان لا بد من تعديل النظام وإعادته على ما كان عليه سابقاً بأن توضع كلمة مدير عام محل كلمة سكرتير أينما وجدت في نظام وزارة الاقتصاد. كنت قد فاتحت الوزير الخطير بالموضوع وقصصت عليه القصة من أولها إلى آخرها. ثم سألته هل ترى مانعاً في هذا التعديل، وإن كنت ترى مثل هذا المانع فلا حاجة به وأنا أتمتع على كل حال بصلاحيات رئيس الدائرة كاملة، ووافق المدير العام بالفعل. ثم طلبت منه أن لا يتقدم باقتراح التعديل إلاً بعد أخذ موافقة رئيس الوزراء. فطلب مني بعد مدة أن أكتب الاقتراح وأن أبعث به إلى مجلس الوزراء، فقلت له: هل فاتحت رئيس مجلس الوزراء حول الاقتراح؟ قال: نعم ولو لم يوافق لما تقدمت به. تقدمنا باقتراح التعديل إلى مجلس الوزراء ثم انتظرنا وانتظرنا، وكلما سألته: ماذا حل بالاقتراح، يجيب بالتريث قليلاً. لم أكن أعرف ما يدور في الخفاء ولم يكن عندنا من موظفي مجلس الوزراء من يستطيع إخباري عما كان يدور حول الاقتراح. لم يكن

عندي في هذه الدائرة أو في غيرها من الدوائر من صلة صداقة أو قرابة ليطلعني على حقيقة الأمر. لم أكن أعرف أن هناك مؤامرة في الوزارة نفسها وكان بطلها نديم الباجه جي ومحمد الراضي وباقر الحسني.

كان نديم لا يقبل أن يُغيِّر النظام، وكان يخشى إذا ما عُدِّل وأصبحت مديراً عاماً فأن دائرة النفط سيعود ارتباطها بي. وأما محمد الراضي فقد كان مديراً عاماً للزراعة وكنت له بالمرصاد، كان يرأس زمرة من الموظفين لا هم لهم إلا سوء الاستعمال، فلما بدأت بالحساب العسير، كان ذلك سبباً من أسباب توتر العلاقة وكان لابد من الانتقام وقد حانت الفرصة. وأما الحسني فقد كان سكرتيراً لمكتب الوزير ولكنه لم يتقيد بنظام ولا بدوام. كان مديراً وقد ساءه عندما أردت منه أن يتصرف كبقية الموظفين. وكان قد تأخر الاقتراح ولم يوافق عليه مجلس الوزراء وقد مرت عليه مدة طويلة فخامرني الشك وقلت في نفسي لابد من مفاجأة وأنا أعرف موقف نوري السعيد مني عندما تقدم الاقتراح بصفتي سكرتيراً فكيف سيكون موقفه وقد تقدم الاقتراح هذه المرة بصفتي مديراً عاماً. لم أكلف نفسي عناء البحث والاستفسار ولم أحملها أن تذهب إلى مجلس الوزراء للوقوف على الأمر، وقد أهملت القضية ولم أعقبها، وقلت: إني باق سكرتير للوزارة، وإن لم يوافق مجلس الوزراء على تعديل النظام وتعييني مديراً عاماً فلماذا الاهتمام ولماذا السؤال والرجاء، وقد كنت ولا أزال أرى في الرجاء إذا كانت القضية تعود للشخص نفسه ضعفاً وذلاً.

دعوى على وزير الاقتصاد

وكنت ذات يوم من سنة ١٩٤٣ قد تأخرت في الدوام وما أن هممت بالخروج حتى وضع فرّاشي الخاص أمامي على المنضدة مكتوباً كُتب على

ظرفه «سري» وما أن فتحته حتى رأيت أمراً وزارياً موقعاً من قبل الوزير سليمان البراك يبلغني فيه بإنهاء خدماتي بناءً على تبديل النظام إلى مديرية عامة وإلغاء السكرتارية. وما أن قرأته حتى ابتسمت وجمعت أوراقي وكتبي ووضعتها في تاكسي ولم يكن عندي سيارة آنذاك وأتيت البيت. لقد ألغيت وظيفتي وأصبحت الدولة لا تحتاج إلى خدمات موظف كان قد اختص في أحسن الجامعات الأمريكية، وكان قد خدمها مدة تبلغ نحواً من ١٢ عاماً، ولكن هذه الدولة نفسها بحاجة ماسة إلى خدمات شخص أمي يستغل فيها منصباً من أسمى المناصب وأعلاها شأناً، وهو منصب الوزارة. هل من السهل أن تعرف والدتي وزوجتي وأخوتي خبر إلغاء وظيفتي وأنني قد قُذِفت خارج ملاك الدولة؟ هل كان يعقل أن أكون عاطلاً بطالاً ولقد كنت سكرتيراً عاماً للوزارة، وقد كنت مديراً عاماً بالفعل، وقد كان الأهم والقاسي بنظري تعديل النظام لأشغل فيه منصب المدير العام. لقد عُدِّل النظام لا لأكون مديراً عاماً، بل لأخرج من الوظيفة وليشغل هذا المنصب بالوكالة نديم الباجه جي الذي لم يكن راتبه يساعده على إشغاله بالأصالة.. فهل رأيت كلاماً موثوقاً مثل كلام الوزير. هذا الوزير الذي وعد بشرفه أن يعدل النظام لأشغل فيه منصب المدير العام، هو نفسه وقع أمر إلغاء الوظيفة وإخراجي منها وقطع رزقي الذي لم يكن أستلمه إلاّ من راتب الوظيفة.

لم يكن نوري السعيد ليجعل مني مديراً عاماً، ولكن لماذا هذه القسوة حتى دفعته إلى اعتبار وظيفتي ملغاة وإخراجي من ملاك الدولة؟ لماذا لم يكتب بعدم تعديل النظام وإبقائي على ما كنت عليه سكرتيراً للوزارة؟ هل كان المجهود الحربي البريطاني يقتضي اتخاذ مثل هذا الإجراء، وهل كان

لابد من معاقبتي بشكل من الأشكال، فأن فَلِتُّ من الاعتقال فلا يمكن أن أفلت من حرمان لقمة العيش.

كان نوري السعيد قد أغار على وزارة المعارف، وملأها بالإنكليز وبالشعوبيين أمثال عبد الفتاح إبراهيم[٣٣٥]. وكان قد أغار على الدكتور الجمالي ونقله مستشاراً من المفوضية في واشنطن، ولكن الجمالي رفض هذا النقل ورفض الذهاب إلى واشنطن، وقد ساعده عل ذلك عدم وجود واسطة لنقله ووسائط النقل مشغولة بالمجهود الحربي. وكان فاضل وهو يمنح الإجازة يزورني في دائرتي في وزارة الاقتصاد في كل يوم تقريباً، وكان كلما زارني أقول له: يا فاضل أنني سوف لا أبقى في هذه الوظيفة، وأن دوري سيأتي بعد دورك، ولكن لم اكن أتصور أن أنقل إلى وظيفة أخرى اقل شأناً، إذ كنت استبعد أن تُلغى وظيفتي وأن أرمى خارج الملاك.

أقمت الدعوى لدى مجلس الانضباط العام على سلمان البراك بوصفه وزيرا للاقتصاد، وبينت أن الإلغاء غير قانوني، وأن تعديل النظام لم يلغ وظيفة السكرتير ولم يحدث وظيفة جديدة باسم مدير عام، بل كان التعديل منصباً على تغيير عنوان الوظيفة فحسب، إذ أن واجبات الوظيفة مع درجتها باقية هي هي لم تتغير. كانت مؤامرة قد اشتركت فيها وزارة المالية، إذ أن وزارة الاقتصاد طلبت من وزارة المالية بعد أن أقمت الدعوى عليها إبداء رأيها في الموضوع، فكانت أن أيَّدَت ما قامت به وزارة الاقتصاد بإلغاء وظيفة السكرتير. وكان الموظف المختص الذي يشغل مُمَيِّزية الخدمة والملاك والذي

---

[٣٣٥] سياسي يساري، ولد سنة ١٩٠٤ وتخرج في الجامعة الأمريكية ببيروت، والتحق بجامعة كولومبيا في أمريكا لدراسة أعلى، ولكنه عاد سنة ١٩٣٠ الى بغداد لأسباب عائلية قبل أن يكمل دراسته العليا فيها، شارك في العمل السياسي، فكان أحد المؤسسين لـ (جماعة الأهالي) و(جمعية الإصلاح الشعبي)، وأصدر كتبا عدة، من أهمها(على طريق الهند) و(معنى الثورة) و(قصة النفط).

أبدى هذا الرأي هو عزيز سامي، وكان يشغل وظيفة الخدمة والملاك قبل أن أشغلها،ولكن لم يكن لي يد فيما حدث بل سهلت معاملة نقله إلى التفتيش المالي عندما طلب ذلك طه الهاشمي بوصفه وكيلاً لوزير المالية. لقد أحسنت إليه فما كان جزاء الإحسان إلا الإساءة! وقد كان جلال بابان وزيرا للمالية وهو الذي وقع المكتوب الذي أعده عزيز سامي بتأييد وزارة الاقتصاد بجريمتها وعبثها بالقوانين، وقد استغربت أن يصدر مثل هذا العمل من جلال بابان، ولم تكن علاقتنا سيئة، وهو الذي لن أنس موقفه الطيب من عبث محمد علي محمود عندما كان وزيرا للمالية واشتهى تمديد مدة تجريبي عند الترفيع، غير أنني اكتشفت في الأخير أن جلال بابان كان تحت تأثير نوري السعيد!

استعنت بصديقي عبود الشالجي محامياً، وقد حضر معي أول جلسة من جلسات الانضباط العام، ثم قال لي: يا أبا الحارث! أنا مستعد لأدافع عن قضيتك حتى النهاية، وأن احضر معك جلسات المحاكمة بكاملها، ولكن لا أرى فائدة في ذلك. أنت لا تحتاجني وأنت الخبير في الشوؤن المالية وفي قضايا الملاك والذاتية، وان المذكرة التي أحضرتَها لإيضاح قضيتك والدفاع عنها لم يكن بوسعي ولا بوسع أي محام أن يعد واحدة مثلها، فشكرته على كل حال، وواظبت على حضور جلسات المحاكمة، وكان يحضرها عن وزارة الاقتصاد الدكتور نديم الباجه جي، وقد شكرت الله أن يحضرها هو وليس أحد غيره لأنه لم يكن يملك شيئا من لباقة الكلام أو قدرة على إيضاح المرام، ووجدت فيه خصماً يسهل عليّ كسر شوكته وإن كان مُغرضاً ومتحيزاً، والقضية تهمه شخصياً وقد لعب فيها دوراً سيئاً. وكان نديم هو الوحيد الذي استفاد من هذه المؤامرة فقد تلقف مطب المدير العام واشغله بالوكالة، فكيف لا يكون حريصا عليه ولا يفسح المجال لان تفلت اللقمة من يديه. وكانت

وزارة الاقتصاد تؤيده برمتها، فوزيرها آنذاك حمدي الباجه جي، وكان حريصاً على أن يصير ابن عمه نديم مديراً عاماً، بينما كانت وزارة المالية تؤيده ولاسيما عزيز سامي الموظف المختص في مثل هذه القضايا. وحدث أن طلب السيد علي ممتاز- وهو وزير مالية سابق- تلفونيا أكثر من مرة، ثم ذهبت لمواجهته في مكتبه للمحاماة، ثم أن مجلس الانضباط العام استدعاه، واستطلع رأيه بوصفه خبيراً مالياً في هذه القضية، فأيَّد رأي وزارة المالية القائل بأن تعديل النظام لم يؤد إلى الإلغاء.

لم تكن العلاقة حسنة بيني وبين علي ممتاز منذ أن رجا مني التوسط في قضية أخيه صبيح في وزارة العدلية، ومنذ أن تآمر مع ناجي السويدي على نقلي من الخدمة والملاك إلى مفتشية ضريبة الدخل، ذلك النقل الذي جرى بصورة سرية وكأنه كان يقصد فيه العقاب وليس أي شيء آخر. ولقد شكرته على موقفه هذا إذ كان موقفاً جديراً بالشكر.

كان مجلس الانضباط العام يتكون من شمّاس[٣٣٦] رئيساً وعضوية كل من عبد القادر جميل[٣٣٧] وإبراهيم الشابندر[٣٣٨]، وكان نوري القاضي[٣٣٩] رئيسا

---

[٣٣٦] هو أنطوان شماس، أحد كبار القانونيين في العراق، كان قاضيا في محكمة استئناف العراق، وأستاذا في القانون التجاري، توفي سنة ١٩٥٨.

[٣٣٧] قانوني معروف، تولى القضاء في عدد من المحاكم، حتى أصبح رئيسا للإدعاء العام، فرئيسا لمحكمة استئناف التسوية الأولى في بغداد، وتقلب في المناصب القضائية حتى أصبح عضوا في محكمة تمييز العراق.

[٣٣٨] هو ابراهيم محمود الشابندر، عين وزيرا للمالية في وزارة مصطفى العمري سنة ١٩٥٢، وتوفي سنة ١٩٥٧.

[٣٣٩] قانوني مشرع، تقلب في المناصب القضائية، حتى عين رئيسا لمحكمة استئناف تسوية حقوق الأراضي، ورئيسا لديوان التدوين القانوني، ثم أختير سكرتيرا عاما لمجلس الوزراء سنة ١٩٤٢، فوزيرا للمعارف سنة ١٩٤٦.

لمجلس الانضباط العام. ترددت كثيراً في إقامة الدعوى، ولم يشجعني على إقامة الدعوى لدى الانضباط إلا كون رئيسه مسيحياً، فلا يقع تحت ما يقع فيه نوري القاضي من تأثير نوري السعيد. وكان إبراهيم الشابندر قريباً لمحمد الراضي ولابد وانه يتأثر به، وكان الراضي يلاحق القضية من مكان إلى آخر، في وزارة المالية وفي مجلس الانضباط العام. وكان أن ضمن أن يكون الشابندر بجانبه ولو كان على باطل. وكان عبد القادر جميل قد اعتقل زمن الحرب فذاق مرارة الظلم ولم يخرج من المعتقل إلا وهو ثائر على الظلم والظالمين[٣٤٠].

كنت أشعر من سير المحاكمة التي استغرقت عدة جلسات في مدة غير قصيرة من الزمن أن الرئيس وعبد القادر جميل قد تفهما الموضوع بتجرد وأنهما يميلان إلى الأخذ بوجهة نظري وهي النظرة القانونية الصحيحة، غير أن الشابندر لم يكن معنا في ذهنه أثناء المحاكمة وان كان حاضرا بجسمه. لم يحاول التجدد ولم يقدر عليه فقد اغلق ذهنه دون جوهر الموضوع وحقيقته، والتزم بالعهد الذي قطعه لمحمد الراضي، لاسيما وانه فهم أن عمله وموقفه هذا كان يرضي نوري السعيد، وهل هنالك شيء أهم من إرضاء نوري السعيد بالنسبة إلى أمثال هؤلاء الرجال. لقد كان هذا الرجل حاكماً، ولكن ما قيمة العدالة وما قيمة طهارة الذمة وما معنى الوجدان والضمير ما دام مثل هذا الرجل لا يهمه إلا إرضاء نوري السعيد.

اقترب يوم إصدار القرار، وكنت أحس حِسّاً داخلياً بأن القرار سيكون في صالحي، ولقد ذهبت في الصباح الباكر في ذلك اليوم إلى وزارة العدلية، وزرت عبد القادر جميل في دائرته، ويا ليتني لم أفعل. كنت قد دخلت على عبد

---

[٣٤٠] اعتقل عبد القادر جميل إثر إحباط انتفاضة مايس سنة ١٩٤١، وقضى نحو سنة ونصف في سجن العمارة معتقلا.

القادر وأنا اطمح أن اسمع منه ما يؤكد حِسّي، وأنا كُلّي ثقة في أنه لن يقضي إلا بما يزيد بهجتي وسروري، وما كان أشد ألمي وعمق حزني وأنا أتلقى منه ضربة قاصمة مميتة، وهو يقول: إني آسف يا عبد المجيد لا أستطيع أن أكون مخالفا وحدي. لقد اتفق الرئيس مع الشابندر أن يكون القرار ضدك ولا يَسَعني في هذه الحالة إلا أن اتفق معهم، ولا أرى فائدة في المحاكمة، ولو كانت فيها أية فائدة لخالفتُ. قلت: ولكنك وعدتَ بعد أن تبيِّن لك الباطل من الحق. قال: هذا صحيح، ولكن تجري الأمور على غير ما تشتهي السفن! لقد خرجت من غرفته لا أقوى على شيء، متأثر غاية التأثر ومتألم غاية الألم، لا لأنني إذا ما خسرت الدعوى فسأخسر رواتبها المتراكمة، بل لشعوري بأنني سأظلَم مرتين: ظلم الوزارة وظلم الانضباط العام وشعوري الأول بهذا المجلس وهو أعلى سلطة قضائية في القضايا الإدارية، الذي أردت أن ألوذ به لتحقيق العدالة، وإذا به يؤيد الإجحاف ويسند الظلم. لم أكن متألماً إلاّ لأن الباطل سينتصر، وأن الأعداء سيَشمَتون، لم أكن متألما إلاّ لأنني شعرت بأنه من السهل على المغرضين الذين ماتت ضمائرهم وباعوا ذممهم الدس على القانون والكيد للعدالة، وأن من السهل عليهم تلفيق الأباطيل وحبك الأقاويل حتى انخَذَلت الحقيقة وانهزم العدل وظفر الباطل وانتصر الظلم.

وما أن خرجت من غرفة عبد القادر جميل وأنا في هذه الحالة، حتى رأيت أخي محمد ينتظرني خارج الغرفة وقد اغرورقت عيناه بالدموع، فاضطربت وجَفِلت، وقلت: ما الخبر؟ قال: لقد امتلأت عينا عبد الوهاب ابن أخي حسين ببرادة الحديد وانه عَمِي أو كاد! قلت: أين هو؟ قال: مع أهله في المستشفى. فما كان مني إلا أن اهرع إلى المستشفى لأتصل بأصدقائي من أطباء العيون؛ وما أن وصلت المستشفى حتى رأيت صديقي الطبيب في

العمليات، فانتظرت مدة من الزمن وأنا على اشد حالة من الاستعجال، ولما خرج قصصت عليه القصة، فادخل عبد الوهاب حالاً إلى غرفة العلميات، وبعد أن طمأنني على حاله، وأن كل شيء يسير على ما يرام، خرجتُ أهيمُ على وجهي، ثم فكرت أن أذهب إلى علي ممتاز لعل في وسعه أن يعمل شيئاً. ذهبت إلى مكتبه وقصصت عليه قصة عبد القادر جميل، وطلبت منه أن يتصل برئيس الانضباط العام يرجو منه تأجيل النظر في القضية إلى يوم آخر. لقد اعتذر علي ممتاز، وكان لديه بعض المراجعين، من الاتصال برئيس الانضباط والتدخل في الموضوع، وقال أنه لا يستطيع أن يفعل أكثر مما أدلى به في تلك الشهادة التي أدلى بها بناء على طلب المجلس نفسه. لقد شعرت بأنه أسقط في يديَّ، وأن الدنيا أظلمت في عيني، فما كان مني إلا أن رفعت سماعة التلفون واتصلت برئيس مجلس الانضباط العام ورجوته تأجيل النظر في القضية إلى يوم آخر بناء على مرضي وعدم استطاعتي الحضور. فأجابني الرئيس بأن المجلس قد انعقد وانه يأسف لعدم تمكنه من تأجيل النظر في القضية، وأنه لا حاجة لحضوري ما دامت هذه الجلسة لإصدار القرار وليست للاستمرار في المحاكمة. لقد ألححت في طلب التأجيل وأصر الرئيس على النظر في القضية في ذلك اليوم وعدم تمكنه من التأجيل. وما أن وضعت سماعة التلفون وأنا أغلي غضباً وأتميز غيضاً وألما، ولا ادري ماذا اصنع وكيف أتقي هذه البلوى، وأفكر في الظلم كيف ينتصر في الأجواء الموبوءة والمجتمعات الفاسدة وأفكر في هذا المجلس الذي غدر بي وخانني في قضيتي الأولى التي كان قد فصلني فيها وزير المعارف آنذاك صادق البصَّام بعد أن حُكم عليَّ في المجلس العرفي في قضية الناصرية، وبعد أن شملني قانون العفو العام. وما أن وضعت سماعة التلفون وأنا أفكر في هذا وفي غيره حتى قلت في نفسي: لماذا لا أتصل بسكرتير

مجلس الانضباط العام اسأله القرار؟ وما أن اتصلت حتى سمعت صوته عالياً وهو يقول لي بحماس وانفعال: أين أنت؟ لقد اتصلنا بك في كل محل فلم نجدك، أين أنت؟ لقد صدر القرار لصالحك! صدر بالأكثرية، ولم يخالف غير إبراهيم الشابندر!. هل رأيت كيف يكون بعد العسر يسراً. هل رأيت كيف تضيق الدنيا بالإنسان وتظلم الدنيا في عينيه ثم لا يلبث وهو في اشد حالات الضيق أن ترتفع الغشاوة وتنفرج الأزمة. هل رأيت كيف يكون الإنسان في محنة، وكيف تسد عليه هذه المحنة كل المنافذ والطرق ولا يشعر إلا وأنه حبيس لا يحيط به إلا الهم والغم وإذا بحاله هذه تتغير في طَرفة عين إلى حال أخرى، وإذا بنور السعادة يغمر نفسه فلا يبعث فيها إلا الراحة والطمأنينة والشعور بالخلاص والنجاة.

لقد انتصرت وربحت الدعوى وحكم مجلس الانضباط العام بصرف الرواتب المتراكمة وكانت لمدة ستة اشهر، بعد أن طالت المعركة مدة ستة اشهر، وكان أن اندَسَّت فيها عناصر كثيرة وتآمرت ودَسَّت، ولكن الحق قد انتصر في النهاية، وما كان لينتصر الحق لو لم يجد له سَنَداً من القوة، وهذا السَّنَد كان رئيس مجلس الانضباط العام الذي لم يتأثر بالمؤثرات الطائفية ولا السياسية فحكم بما يمليه عليه وجدانه بالرغم من موقف حمدي الباجه جي الذي لم يرد أن يكون الحُكم بجانبي، والذي صرَّح لرئيس المجلس مراراً بأن رئيس الوزراء نوري السعيد لا يرغب في أن يكون القرار بجانبي، كما أخبرني بذلك الرئيس الفاضل فيما بعد.

انتصرت إذن، ولكن حمدي الباجه جي، كان وزيراً للاقتصاد، أصر على عدم رجوعي إلى الوزارة بأي شكل كان، وان كان لا بد من رجوعي إلى منصب المدير العام حسب منطوق قرار مجلس الانضباط العام. وكيف أعود إلى

الوزارة بهذا المنصب وكان يشغله نديم الباجه جي ابن عمه أو ابن أخيه – لا ادري– بالوكالة، وكان ينتظر أن يكون عند استحقاقه للترفيع.

كان علي ممتاز[٣٤١] وزيراً للمالية عندما كسبت الدعوى، فاستدعاني وهو يعرف موقف حمدي الباجه جي مني، وعرض علي منصب معاون مدير المحاسبات العام الذي كان شاغراً آنذاك. كنت مديراً عاماً بالفعل في وزارة الاقتصاد ورئيساً لديوان وزارة الاقتصاد، وكنت اكبر موظف بعد الوزير، وقد كِدتُ أن اصبح مديراً عاماً بالاسم أيضاً، فكيف أقبل بوظيفة أقل مركزاً من تلك الوظيفة. هذا ما قُلتُه لعلي ممتاز، ولكن الظروف لم تكن مواتية ولم تكن بجانبي، فما كان مني بعد انتظار ليس بالقصير إلا أن اقبل بهذه الوظيفة، وكان مدير المحاسبات العام آنذاك السيد إبراهيم الكبير، وقد سبق لي أن اشتغلت معه كمدير للمالية العام. وكنت اعرفه وكان يعرفني ويقدرني.

مقتل عباس هَدِيّة

كانت قضية إلغاء وظيفتي لا تزال معلقة أمام مجلس الانضباط العام، وكنت جليس الدار، ولا سيما في النهار في أغلب الأحيان، لأنني لم أعتد أن أقضي أوقاتي في مقهى أو كازينو أو أوتيل أو التسكع هنا وهناك، كنت وأنا في هذه الحالة أو المحنة قد رجعت إلى البيت في ليلة من ليالي الصيف، وكان لابد لي من أن أمر وأنا في طريق العودة بهذه المقهى الواقعة في شارع غازي أمام شارع بني سعيد، وبالقرب من فتحة الطريق المؤدي إلى الدار، وما أن مررت بهذه المقهى، وكان ذلك نحو الساعة الحادية عشرا ليلاً إلا

---

[٣٤١] وكان وزير المالية إذ ذاك صالح جبر، فقد تولى منصبه ضمن وزارة حمدي الباجه جي الأولى في ٣ حزيران سنة ١٩٤٤، واستمر يتولاه في وزارة الباجه جي الثانية حتى ٣٠ كانون الثاني سنة ١٩٤٦.

ولمحت فيها بعض أبناء المحلة مثل مجيد البياع وعبد الهادي[٣٤٢] والحاج عباس هدية وغيرهم من لم أنظر إليهم إلا نظرة خاطفة فسلّمت عليهم وردوا السلام. وما أن وصلت الدار وهممت أن اخلع ملابسي، كان أخي رشيد كان قد وصلها قبل بضعة دقائق وسبقني في الصعود إلى السطح، حتى سمعت صوت اطلاقات نارية، فجزعت واضطربت، وسألت رشيد، وكأن الأمر يعنيني: هل سمعت هذه الأصوات؟ وهل هي طلقات نارية؟ قال: نعم. وما أن أتممنا الحديث حتى دقت الباب بسرعة وقوة وعنف، وما أن أسرعتُ لفتحها، وقد حللت رباط حذائي، حتى وجدت أحد أبناء الطَرَف وهو عبد الأمير كبة[٣٤٣] يصرخ بوجهي مشدوهاً: هيا إن أخاك غني في محنة! قلت: هل هذه الطلقات؟ قال: نعم! قلت: هل قُتِل؟ قال: كلا إنه ضرب الحاج عباس! ولم يخطر ببالي عند ذكر هذا الاسم إلا الحاج عباس الديك، وكان بينهما ما صنع الحداد. وشكرت الله على كل حال أن يكون أخي الضارب وليس المضروب. ثم أنى هرعت وبعض اخوتي وأولاده إلى مركز الشرطة في البتّاويين، فرأيت أخي غني هناك، فتقدمت منه وضممته إلى صدري وقلت: ما الخبر؟ قال: إنه الحاج عباس هدية، أراد قتلي فما كان مني إلا أن أطلقت عليه بعض الطلقات دفاعاً عن نفسي وتخويفاً له، ولا أدري ما إذا كانت قد أصابته أم لا. ثم طلب إلينا أن ننتقل من هذا المركز إلى مركز العَبَّخانة، وما أن وصلناه حتى أُخبرنا بأن الحاج عباس قد فارق الحياة، وأن رصاصة من الرصاصات كانت قد استقرت في قلبه.

---

[٣٤٢] هو عبد الهادي حمزة على ما سيرد اسمه فيما يأتي.

[٣٤٣] هو عبد الأمير قاسم كبة، وقد أصبح مديرا لقسم الأمور الاقتصادية في وزارة الاقتصاد.

لم يكن أخي يتوقع أن يموت الحاج عباس، ولم يكن يقصد قتله، فما أن سمع الخبر حتى تأثر وانفعل، ولم يتمالك نفسه حتى بكى، وما كان مني ومن اخوتي إلا أن بكينا معه؛ ثم تقدمت منه وواسيته وضممته إلى صدري، وقلت: لا تيأس! لقد أردت شيئاً وأراد الله شيئاً آخر ولا رادَّ لمشيئة الله. لقد دافعت عن نفسك دفاعاً شرعياً وإلاَّ لكان قد قتلك ومت شر ميتة. وما أن سمع أخي هذا الكلام حتى تمالك نفسه واشتد عزمه، ثم نظر إلى أولاده، وقال: وهذا الجيش! قلت: في كَنَف الله ورعايته. لقد بقيت العائلة برمتها في مركز العَبَّخانة حتى الصباح عدا بعض الصغار والمرضى. وسهرت بالقرب منه وكان لا يقوى على مفارقتي ولا لحظة، وكنت كلما ابتعدت عنه قليلاً لسببٍ من الأسباب ناداني قائلا: لا تبتعد، فإنني اشعر براحة وطمأنينة لوجودك معي. وهكذا كنت معه في غرفة المعاون وهو يُحقِّق معه ساعات وساعات، وما أن أصبح الصبح حتى نُقِل أخي إلى المَوقِف في السجن المركزي.

كانت إفادة أخي غني أمام المعاون وأمام حاكم التحقيق، الذي ضبطها من جديد، وكان أحد أبناء صفي في الثانوية، هي إفادة واحدة لا تغيير فيها ولا تحريف، إفادة بسيطة سردت الحادث كما وقع. قال أخي: إنني كنت في المقهى على عادتي مع بعض الأصدقاء وكان الحاج عباس هدية يتردد على هذا المقهى بين حين وآخر، وكان أن أتى إليَّ وهو سكران، ولم يأخذ محله حتى لاحظت عليه انه لم يكن على حالته الطبيعية ووضعه الاعتيادي، بل رأيته منفعلاً متجهم الوجه عصبياً، فلما سلَّمتُ عليه لم يرد السلام على غير عادته المألوفة، وما أن سألته: لماذا لم يرد السلام؟ أجاب جواباً مهيناً قاسياً، فقال: من أنت حتى أرد عليك السلام. أنت ما تسوى السلام! فاستغربت حتى ظننت أنه يمزح، وإن لم يكن قد اعتاد مثل هذا المزاح معي أو كان له

ما يبرره فسكت. وما أن مرت لحظات حتى رأيته يتحرش بي ببعض الكلمات النابية القاسية، وشعرت بأن الرجل قد نوى شيئاً، ومع هذا فقد لاطفته وسايرته وأمرت له بالشاي. وما أن قَرَّب منه استكان الشاي قليلاً حتى سكبه عليَّ ولم يكن متعمدا في ذلك، فما أردت أن اجعل من هذه القضية مشكلة، فقلت: ما هذا، ما تدير بالك؟؟ قال بدلاً من أن يعتذر: اسكت، إن أعجبك هذا أم لم يعجبك، والآن قُم من هنا واذهب إلى بيتك. فقلت له: لقد غاليتَ كثيراً وجاوزت الحد كثيراً، فما كان منه إلاّ وَهَمَّ بضربي، ولكنني دفعته، فما كان منه إلاّ أن ضربني، ونزع عِقاله من رأسه ليضعه في رقبتي ويخنقني، فتراجعت عنه ثم أسرعت في المشي، فلحق بي وقد شهر خنجره، وكنت امشي إلى الوراء ووجهي يقابل وجهه خشية من أن يطعنني، ثم رأيته يتقرب مني كثيراً، فركضت ولكنني لا أستطيع أن أسرع وأنا اركض إلى الوراء، فصرخت وقلت: يا هذا لا تتقرب مني، لا تُيتِّم أطفالي، لا ترمِني في التهلكة! فلم يَفِده هذا النداء أو الاستعطاف، بل استمر في الركض نحوي، فما كان مني إلا أن أطلقت عياراً نارياً في الهواء قصد التخويف وتحذيره وأردفته بثانٍ، فلم يتراجع ولم يرتد، وكنت قد عَثَرت وأنا أركض إلى الوراء وسقطت على الأرض على ظهري، فما رأيته إلاّ قد تقرب مني جداً، وقد رفع يده وشهر خنجره وهو يكاد يهوى عليّ، فما كان مني إلاّ أن أطلقت رصاصة أخرى أو رصاصتين، ولا أتذكر ما فعلت وإنما أتذكر أنني رأيته يتوقف ثم يتراجع، وما كان مني إلاّ أن أهرب، وأن أتوجَّه إليكم رأساً ومباشرة. هذا هو مسدسي وهو مُجاز، وهذه هي قصتي، وإنا لله وإنا إليه لراجعون.

لقد طالت محاكمة أخي نحواً من أربعة اشهر بقي خلالها في الموقف، فكنت أزوره في الموقف كل يوم تقريباً، وكان يزوره الأهل وبعض الأصدقاء، وكانت تُقلِقه بعض الزيارات ويقلقه بعض الزوار بما يحملونه معهم من أخبار غير سارة عن سير محاكمته. وكان الحاج عباس على الأخص لا يذهب إلا ويتعمد ان يسمعه ما يزعجه ويقلقه. وقد كان أخي يتأثر بأخبار هذا الصديق، لا سيما وانه على اتصال بالشرطة، وله بعض الأصدقاء من المفوضين والمعاونين. وكان لا يرتاح إلاّ إذا زرته، وإلا إذا أسمعته بعض الأخبار السارة، وما كنت اخبره بشيء إلاّ إذا كنت متيقناً وواثقاً. وكنت اتصل ببعض الأصدقاء وبعض الزعماء من أمثال جعفر أبو التمن والسيد محمد الصدر. كما كنت قد اتصلت ببعض الحكام ممن كنت اعرفهم، واتصلت بأنور النَّقِشلي[٣٤٤] سكرتير مجلس النواب آنذاك، وله صلة وثيقة ببعض الحُكّام. وكنت قد وكّلتُ بعض المحامين، وعلى رأسهم نَصرَة الفارسي[٣٤٥]،ولم ندع وسيلة مشروعة إلا وسلكناها لإظهار الحق.

كان أخي في الموقف قد نَمَت لِحيته أكثر من المعتاد فبدت كثة سوداء قد خالطها كثير من الشيب، وكان كلما أخذناه من الموقف إلى المحاكمة يبدو بـ(كشيدته) ولباسه الأنيق الفاخر وبوجهه الأسمر وعينيه الواسعتين البراقتين ولحيته الكثة كأنه نبيل من النبلاء، ولا يمكن أن يخطر على بال أي شخص لا يعرفه أن يكون مثل هذا الرجل متهماً بالقتل. لقد كان أخي من ابعد

---

[٣٤٤] من أعضاء جمعية العهد السرية في أواخر العهد العثماني، وعضو الهيئة الإدارية لحزب الاستقلال السري في ١٩٢٠، وله نشاط وطني مناهض للإحتلال البريطاني.ينظر: طالب مشتاق، أوراق أيامي، بغداد ١٩٨٩، ص١٠٩.

[345] ولد سنة ١٨٩٠ وتخرج في كلية الحقوق، وانتخب نائباً في المجلس النيابي، وأصبح وزيراً للمالية سنة ١٩٣٢، ومديراً عاماً لوزارة الخارجية، ثم وزيراً للخارجية سنة ١٩٥٨.

الناس عن ارتكاب أية جريمة قتل. كان شجاعاً كريماً أبياً، ولكن لم تكن هذه الصفات لتدفع صاحبها على اقتراف المنكر وارتكاب الإثم، بل لم تكن إلاّ لتدفع صاحبها إلى الإحسان والمروءة وعمل الخير. ولم يكن أخي إلا صاحب إحسان ومروءة على الكثيرين، ولم يكن المقتول إلا أحد الذين قد غمرهم بإحسان كلما عضه الزمن حتى انه وعده بان يزوجه في القريب وان يتحمل تكاليف الزواج.

ذاق أخي في مدة التوقيف الأمرين، فقد توقف لأول مرة في حياته، ولم يكن توقيفه من اجل قضية يسيرة بل من أجل قتل شخص، ولم تكن حياة الموقف سهلة. فلقد كان رب عائلة كبيرة يبلغ عددها عشرة أطفال وزوجة. وكان قلقاً لا يدري ما هو مصيره، مُعلّقاً بين السماء والأرض تعبث به الأخبار وتزيد في قلقه، ومع هذا كله كان مُسلِماً لم يترك الصلاة ولا وقتاً واحداً من أوقاتها، وكان مؤمناً بالله وبقدرته، وبالحياة وأقدارها، ولذلك كان رابط الجأش جلداً. وكنت قد زرته مرة فوجدته هائجاً على غير طبيعته، فقلت: ما الخبر؟ قال: أردت أن (أبتِلي) بأحد الموقوفين! قلت: ولماذا؟ قال: إنه شيوعي! وإنه يكفر بالله وباليوم الآخر، وانه لم يكتف بهذا بل أراد تلقيني مبادئ الشيوعية، مبادئ الكفر والإلحاد. وهو يعترض عليّ لأنني أقيم الصلاة في أوقاتها المعينة ولأني أومن بالله وباليوم الآخر ولأنني أؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ورسالته، وقد منعته بالحسنى فلم يبال مما أغضبني حتى كدت استعمل معه القوة. قلت: من هو؟ قال: شخص يدعى يوسف عوني،

وهو أحد شباب الأكراد، وكان حاكماً وقد أوقِف لنشاطه الشيوعي. لقد اصبح يوسف عوني وزيراً إبان المد الشيوعي بعد ثورة ١٤ تموز سنة١٩٥٨[٣٤٦].

لقد طالت محاكمة أخي، وأطالتها بصورة خاصة كثرة شهود الإثبات الذين شهدوا ضد أخي، ولم يكن أكثرهم حاضراً بقرب الحادث، بل لم يكن بعضهم حاضراً حتى إلى المقهى، فمَن بَعَث بهؤلاء وقد مات القتيل ولم يكن بالشخص المحبوب، ولم يترك في الدنيا بعده إلاّ أخوين وأخت، كان أحدهما سجيناً لسرقة، والآخر قد خرج من السجن منذ مدة قريبة بعد أن أنهى محكوميته بسبب شجار وطعنه آخر بسكين. لقد مات القتيل وكاد يكون وحيداً مُعدَماً فمن أين هذه الكثرة من الشهود. وقد أنكر هؤلاء الشهود وجود الخنجر عند القتيل، وكان الخنجر قد فُقِد على إثر الحادث، ولم نعثر عليه بالرغم من الجهود التي بُذِلَت. وكان موضوع الخنجر هو المحور الذي دارت حوله القضية برمتها. فوجود الخنجر أو عدمه هو الذي يجعل من القضية قضية دفاع شرعي أو قتل عادي، وهو الذي يجعل من المتهم بريئاً فلا يحكم ولا بيوم واحد أو مجرماً قد يحكم عليه ١٥مدة سنة أو ٢٠ سنة.

لقد سمعت المحامين يناقشون الشهود حول الحادثة بصورة عامة، وحول وجود الخنجر أو عدمه بصورة خاصة، كما سمعت دفاع المحامي الذي أعدَّه وألقاه نصرة الفارسي، والذي ركز فيه على أن القضية لا تخرج عن أن تكون دفاعاً شرعياً، وأن أركان الدفاع الشرعي متوفرة برمتها فيها، ولكني لم

---

[٣٤٦] تخرج في كلية الحقوق، وتولى رئاسة محكمة الاستئناف في كركوك، انتمى الى الحزب الشيوعي العراقي وكان له دور فيه، وبخاصة بعد قيام ثورة تموز ١٩٥٨وحضر إعدام رفعت الحاج سري وناظم الطبقجلي. وعين وزيرا للإسكان سنة ١٩٦٠، ثم استقال وعمل في الحركة الكردية، من خلال انضمامه إلي الجناح اليساري في الحزب الوطني الكردستاني الذي كان يقوده حمزة عبد الله، ثم عمل محامياً، وتوفي في الثمانينات.

أسمع مناقشة بسيطة سليمة واقعية كتلك التي ناقشها أخي. لقد ناقش أخي أكثر من شاهد واحد وقد انقلب هؤلاء من الوجهة القانونية من شهود إثبات يدافعون عن القتيل إلى شهود دفاع يؤيدون المتهم. لقد سأل أخي الشهود: ألم يكن القتيل الحاج عباس هَدِيّة يسكن بالقرب من باب الشيخ، وأنها تقع في طريقه إذا ما أراد المجيء إلى المقهى التي وقعت فيها الحادثة؟ قالوا: نعم. قال: ألم يكن (مطلوباً)؟، ألم يَقتل غدراً أحد شباب هذه المحلة وهو صديق له، وأنه قد حُكم عليه بسبب ذلك مدة ٢٠ سنة؟ ألا يوجد إذن ثأر بينه وبين أهل القتيل من هذه المحلة؟ قالوا: نعم! قال: هل يُعقَل أن يمر على هذه المحلة وهو مطلوب ولا يحمل سلاحاً مثل خنجر مثلا؟ ألم يسبق لكم أن شاهدتموه وهو يحمل سلاحاً كلما أتى هذا المقهى؟ قالوا: نعم! حتى إن أحدهم أو اكثر من واحد قال: لم أشاهده مرة إلاّ وهو يحمل سلاحاً. ثم وجه كلامه إلى رئيس المحكمة وكان إنكليزياً، وإلى عضوي المحكمة وقال: إن القتيل كان شَقِيّاً خطراً معروفاً ارتكب عدة جرائم سرقة وجرح، بل وقتل، كان آخرها قتل صديقه غدراً، ولم يخرج من السجن إلاّ منذ بضعه أشهر، وأن هذا الشقي لم يخلو من حمل السلاح ولا لحظة، بل كان هو يفخر بملاحقة الناس بالسلاح الذي يحمله، وكان يحمل في كثير من الأحيان مسدساً وخنجراً، ولعله كان بهذا يريد إرهاب أهل القتيل ومنعهم من الثأر لقتيلهم. ثم قال: أنها مؤامرة سَخَّرت هذا الرجل لقتلي، وأنها نفس الأيدي المتآمرة التي أخفت الخنجر.

سألت أخي أكثر من مرة، قبل أن يشير إلى وجود مؤامرة، فقلت: ألا تُخبرني كيف تجرأ هذا (الصعلوك) على إيذائك وهو مغمور بإحسانك؟ ثم من هؤلاء الشهود وأكثرهم شهود زور، ومن بعث بهم، ومن يمدهم بالمال، وهم لا

يشهدون إلاّ إذا قبضوا المال الحرام مقدماً؟ قال: قد ضمنت بستاناً مع مجيد البياع وهادي حمزة، ولكننا اختلفنا على الربح فأرادا أن يأكلاني فلم أفسح المجال لهما، وتبادلنا الكلام القارص، وتوترت العلاقة بيننا، وقد لاحظت منذ مدة أنهما يُقرِّبان هذا المجرم ويتصدقان عليه، ولم يخطر على بالي أن يصل الأمر بهما إلى درجة التآمر. أرادا أن ينتقما مني، وإذا لم يقصدا قتلي فقد قصدا إهانتي و(بَهذَلَتي) ولكن الأمر قد أفلت من يد هذا المجرم، ولا سيما بعد أن سكر. وقد عُرِف أنه إذا ما سكر يفقد وعيه ويرتكب ابشع الجرائم ولم يرتكب جريمة القتل مع صديقه إلا بعد أن سكر. لقد أراد قتلي، وخفت يا مجيد إذ شهر خنجره وهمَّ بذبحي. لقد اختفى الخنجر ولم تُخفِه إلاّ هذه الأيدي اللئيمة الخبيثة المجرمة. وإذا لم يكن في استطاعتي أن أقتص منهم، فلا شك أن عدالة الرحمن ستقتص منهم.

وجرى تعيين أحد أيام شهر مارس ١٩٤٢ لتكون موعداً لآخر جلسة من جلسات المحكمة الكبرى للاستماع إلى دفاع المحامين ولإصدار الحكم. وكنت قد سهرت في تلك الليلة سهرة دامت حتى الصباح إذ كان طفلي علي مريضاً منذ بضعة أيام، وكان أن اشتد المرض عليه تلك الليلة حتى استدعينا صديقنا الدكتور عبد الأمير علاّوي[٣٤٧] في نحو الساعة الثانية بعد منتصف الليل في لباس النوم وهو لا يزال في أول أسبوع من أسابيع عرسه. كنت مع طفلي في غرفته، وهو بين يدي قد جحظت عيناه وثقل نَفَسه، وشعرنا كأنه كان يلفظ أنفاسه، فناولته إلى أمه ودموعي تنهمر، وهي تحيط بها والدتي ووالدتها

---

[٣٤٧] طبيب أطفال نابه، ولد سنة ١٩١٢، وتخرج في الكلية الطبية سنة ١٩٣٣، وسافر الى المملكة المتحدة حيث تخصص بطب الأطفال، وعاد الى وطنه وساهم، مساهمة فعالة، في تطوير طب الأطفال، وعين وزيرا للصحة بين سنتي ١٩٥٣و١٩٥٨. عرف باتجاهه القومي العربي، وكان من مؤسسي (نادي المثنى).

واخوتي واخوتها، ثم نزلت إلى الطابق الأسفل، وما أن وضعت جسدي على الكرسي - وأنا لم أذق النوم منذ بضعة ليالي إلاّ لماماً - حتى أخذتني سِنَة من النوم سمعت في أثنائها صراخاً أو ما يشبه الصراخ، فقفزت من مكاني فزعاً وصرخت وأنا لا أدري: هل مات؟ وما أن أكملت كلامي حتى دخل الدكتور وصعدنا سوية إلى الغرفة، وما أن فحصه حتى طمأنني، وقال: أن صحته جيدة وأن الحُقنة التي كانت أمه قد حقنته بها قبل برهة قد أنقذت حياته. كانت الصرخة التي سمعتها هي صرخة الفرح لأن الطفل قد فتح عينيه بعد الحقنة. وكنت قد ذهبت إلى المحكمة وأنا سهران وتعبان ولكن مستبشر فرح فدخلنا غرفة المحكمة وقد ضاقت على رحبها حتى أن الكثيرين وقفوا في خارجها، وجلست في الصف الأول بالقرب من المحامين، وبالقرب من أخي بحيث يستطيع أن ينظر إليّ بين حين وآخر، وكان كلما تلاقت النظرات أحس بأنه يشعر بثقة واطمئنان.

كان أخي في قفص الاتهام بوجهه المهاب وهندامه اللائق المقبول يستمع إلى دفاع المحامين ويناقش الشهود، رابط الجأش، قوياً يستمد قوته من إيمانه بالله وعدالته وبالأقدار وحتميتها. وما أن انتهت المناقشة حتى تأجلت الجلسة لبعض الوقت اختلت فيه لإصدار حكمها، ثم التأمت ثانية وقُرئ القرار، وكان قراراً بالإفراج لأن القتل لم يكن إلاّ دفاعاً عن النفس ولم تكن القضية إلاّ دفاعاً شرعياً. لقد علا التصفيق، وعلت الأصوات بالتهليل والتكبير. وكان أعلاها صوتاً صوت أخي الذي ارتفع بالتكبير وبشُكر المحكمة على عدالتها والقضاء على نزاهته. ثم تقدم مني وقبلني وركبنا السيارة ووراءنا قطار من السيارات تقل الأهل والأصدقاء، وكان أحدهم "يَطِشّ الفلوس" على رؤوس الناس. وما أن وصلنا البيت حتى نُحِرت الخِراف

وأقيمت الولائم واستقبلنا المهنئين، وكان من بينهم أبطال المؤامرة من المُخنثين الرعاديد.

كانت الفرحة شديدة والسرور عظيماً، ولم يكن أكثرنا تفاؤلاً لينتظر مثل هذه البهجة السارة. ألم يكن من نِعم الباري - عزّ وجل- أن لا تنتهي قضية أخي إلاّ بانتصار الحق؟ وما كان حالنا لو أن الحق لم يظهر ولم ينبلج؟ وما كان حالة أخي لو أنه سُجِن؟ وما كان مصير عائلته وأطفاله العشرة؟ وما كان أحد في العائلة بعد أخي ينهض بهذه العبء غيري، ولكن هل هناك من ينهض بالعبء مثل صاحبه؟ ألم يكن من نِعَم الباري أن يعود طفلي علي إلى الحياة بعد أن يئسنا من حياته. ألم يكن في آخر رمق ليلة المحاكمة؟ ألم أسهر معه حتى الصباح وأنا ارقبه وهو في النزع الأخير، وما هي إلاّ لحظات حتى كان النزع ليس إلى الموت ولكن إلى الحياة. ألم يكن من نعم الباري التي لا تُعد ولا تحصى أن انتصر في معركة مع وزارة الاقتصاد وأن اكسبها بقرار من مجلس الانضباط بنفس الأسبوع الذي تمت فيه هاتان النعمتان. ما كان لو حُبس أخي وتوفي ولدي وخسرت الدعوى؟ ولكن أُفرج عن أخي وتعافى ولدي وربحت الدعوى في أسبوع واحد. لقد ضاقت بي الدنيا واشتد ضيقها أظلمت بي واشتدت ظلما حتى كدت أسير فيها على غير هدى، وما هي إلا برهة من الزمن حتى أشرقت الشمس فانبثق الأمل وانشرحت النفس. هل كانت هنالك حكمة أن تكون وظيفتي قد ألغيت وان تستغني الدولة عن خدماتي قبل أن تقع حادثة القتل بعدة أيام؟ هل ألغيت وظيفتي ليتوفر لي الوقت من اجل قضية أخي، فلم يكن عندي عندما وقعت حادثة القتل أي وظيفة أو شغل يشغلني عن قضية أخي، ولذا كرست كل أوقاتي وكل جهودي من اجلها،

وما عملت ما عملت إلا في سبيل إظهار الحق الذي لا يمكن أن يظهر لوحده إن لم تسنده قوة مشروعة.

لم تنتهِ قضية أخي بانتهاء المحاكمة والإفراج عنه، فلقد أصبح حراً طليقاً، ولكن كان ينبغي عليه أن يكون حذراً أو محتاطاً، إذ من الممكن أن يثأر منه في أية لحظة، وكان من الممكن أن يُقتل أخي، ولاسيما وأن الأيدي المتآمرة بقيت تلاحقه ولا تريد إلاّ إشغاله بدم القتيل خشية من أن يجد لديه الوقت الكافي فيفكر بالمتآمرين، وقد يدفعه هذا التفكير إلى الانتقام منهم. لقد ترك الحاج عباس هدية وَلَدَي أخت عُرِفا بالشقاوة وشراسة الخُلق، وعندما حدثت الحادثة كان أحدهما مسجونا ولكن أُطلِق سراحه فيما بعد. وكان المتآمرون يغذون هذين الأخوين بالمال والسلاح من أجل الثأر والانتقام، وكم مرة تعرضا لأخي بالشر ولكن كان على حذر فلم يؤخذ على حين غفلة. وكان أخي قد اشتكى عليهما، وربطهما بكفالة حسن السلوك، ولكن لا يكفي مثل هذا الإجراء مع هذا النوع من البشر. وكان إذا حبس أحدهما خرج الآخر من السجن. ولقد بقيا مدة طويلة مصدر قلق واضطراب لأخي وللعائلة برمتها. وكنت مرة نائماً وإذا بي استيقظ بعد منتصف الليل على صراخ وجلبة وضوضاء، فإذا بأخي غني يتخاصم مع أحدهما الذي كان قد اختفى في إحدى المنعطفات، ثم سار وراء أخي وهَمَّ بطعنه بخنجر وهو يروم دخول البيت، وما كان من أخي (صاحب) – وهو ضابط – وقد سمع هذه الأصوات حتى هبط من السطح بسرعة البرق ولكم ابن أخت عباس هدية عدة لكمات ثم رفعه وضرب به الأرض وأخذ منه الخنجر. وما كانت هذه الحادثة إلاّ واحدة من حوادث عديدة.

وذات مرة أرادت والدتي السفر، وكانت الدار تعج بالزائرين والزائرات، وقد سهرنا ليلتنا تلك مع الأهل والجيران، وكان الوقت صيفاً، وصعدنا إلى السطح بعد منتصف الليل. وفي نحو الساعة الواحدة والنصف سمعت أصوات طلقات نارية وصوت أخي غني أو ما يشبهه، ثم خَفَت الصوت فهب من النوم كل من في الدار وتراكض الاخوة والأولاد والأهل ونزلوا من السطح إلي الطابق الأسفل مسرعين قد طووا السلم طيّاً. ولم يكن قد مضى عليّ من الوقت وأنا مستغرق في النوم إلا قليلاً، حتى سمعت صوت أخي غني يخالطه صوت طلقات نارية، فتصورت أن القوم قد ثأروا لأنفسهم، وما كان مني وأنا على حالتي من النعاس والإنهاك إلا أن سحبت مسدسي، ولا ادري كيف نزلت الدرج، غير أنني وجدت نفسي أول من نزل وأول من خرج إلى الطريق لاستطلع الخبر، وإذا باخوتي وأولاده يحيطون بي وأنا اصرخ: هل قُتِل؟

كان أخي غني قد اختفى ولم نجد له أثراً. وقال لنا بعض الناس أنه راح يركض وراء بعض الأشباح، ولكنه لم يتركنا فريسة للظنون والهواجس طويلا، وما هي إلا برهة حتى رجع ومعه مأمور المركز، وما أن رأيته سالماً حتى فرحت وقلت: ما الخبر؟ قال: لصوص كانوا في دارك. لقد طرقتُ باب داري أروم الدخول وما أن سمع هؤلاء اللصوص هذا الطرق حتى ظنوا أني اطرق باب دارك إذ كانت الداران متلاصقتين، وعرفت انهم ثلاثة، فركضت وراءهم، بينما استقلوا السيارة التي كانت في انتظارهم، ولكن أين يذهبون وإني لآت بهم إلى مركز الشرطة هذه الليلة. لقد ذهب أخي ومعه مفوض من الشرطة إلى دار كل من هؤلاء اللصوص، وكانوا من الأكراد الفيلية الذين يسكنون (عقد الكُرد) والذي لا يبعد عن محلتنا كثيرا، وبالفعل تمكن أخي غني في تلك الليلة نفسها من أن يأتي بهؤلاء اللصوص الثلاثة من بيوتهم إلى

مركز الشرطة. ومع أن اللصوص أنكروا الحادثة من أولها إلى آخرها عند الشرطة، ولكن لم يمر يوم أو يومان حتى سعى إلى أخي بعض وجهاء (محلة الفيلية) من أجل الصلح وعدم تعقيب القضية في الشرطة والمحاكم. وهكذا اعترف اللصوص بالجريمة وردُّوا إلينا ما سُلب وهي بضعة دنانير من جيب أخوي رشيد وصاحب ومفتاح الدار. لقد باغتهم أخي غني، ولم يكن لديهم من الوقت متسعاً لإتمام السرقة، واعتذر هؤلاء اللصوص بأنهم لم يعرفوا الدار، ولم يعرفوا صاحبها، إنما وجدوها مضاءة وأبوابها مفتوحة، ولم يَروا صعوبة في دخولها والاختفاء في السرداب حيث كانت الدار مضاءة ومفتوحة بمناسبة سفر والدتي إلى زيارة الإمام الرضا في إيران. ولقد ذهل اللصوص عندما وجدوا أنفسهم وجها لوجه مع أخي غني، وزادت دهشتهم حين شَخَّصَهم وعرف حقيقتهم وهم كانوا ملثمين. ولم يكن يخطر على بالهم أن في استطاعة أي شخص معرفتهم وهم على حالتهم هذه من التنكر وإخفاء الذات. وكنا كثيراً ما نترك الدار غير مقفلة حتى الصباح، أما دار أبي التي عشنا فيها مدة طويلة فقد كانت لا تقفل إلاّ نادراً، ولم يجرؤ أحد من الأشقياء أو اللصوص على دخولها أو محاولة سرقة أي شيء منها. كانت هذه الحادثة هي الأولى والأخيرة من نوعها. ولعل هؤلاء اللصوص في أغلب الظن قد عرفوا الدار بل ظنوا أنها دار أخي غني، وانهم تعمدوا سرقها ليفتخروا أمام اللصوص بأنهم قاموا بأكبر مغامرة في تاريخ السرقة، وأنهم استطاعوا سرقة دار غني. ولكن العناية الإلهية أرادت أن تحفظ الدار وتحفظ غني من هذا العار، فقد هيأته في الوقت المناسب، وقُضي على هذه المحاولة الجريئة أو المغامرة الرعناء. ولو عرفت أن الأمر لم يخرج عن كونه سرقة لما فزعت ولما نزلت من السطح ولما حملت مسدسي، ولتركت الأمر إلى غيري إذ ما شأني

واللصوص وأنا لا أنوي أن اهتم بهم بأي شكل كان ولا أن أقابلهم بأية صورة كانت، فهم أحقر وأخس من أن يقابلهم شخص مثلي، أو أن يدخل معركة معهم.

كلية الحقوق

كنت قد دخلت كلية الحقوق مرتين، إحداهما على اثر أزمة المنتفك في سنة ١٩٣٦، وثانيهما على اثر أزمة مديرية الاقتصاد في سنة ١٩٤٣، ولم أداوم طويلا في المرة الأولى إلا بضعة اشهر، ثم عافتها نفسي إذ لم يعجبني اكثر الأساتذة لا في معلوماتهم ولا في طريقة تدريسهم، ولم اقبل لنفسي أن أداوم في مثل هذه الكلية، وان استمع لمثل هؤلاء الأساتذة، وأنا حديث عهد بحياتي الجامعية في أمريكا. لقد آلمني كثيرا انحطاط المستوى الدراسي وفقدان الحياة الجامعية، فما كان مني إلا أن اهرب من هذا الذي يسمونه كلية والتي قد تكون أي شيء ولكنها ليست بكلية على كل حال.

كانت كلية الحقوق أمنية من أماني الصبا، وكثيراً ما كانت تراودني هذه الأمنية وكثيراً ما فكرت في تحقيقها، فما أن سنحت الفرصة هذه المرة في سنة ١٩٤٣ على اثر إلغاء وظيفتي، وأنا المرشح لمديرية الاقتصاد العامة، حتى أخذت للأمر أُهبته، فدخلت الحقوق، وأنا أحب الثقافة الحقوقية لما لها من صلة وثقى بدراساتي الاجتماعية والسياسية، وفي دراستي الجامعية واختصاصي بالشؤون الاقتصادية والمالية، كما كان لابد لي من مهنة حرة أستعين بها على الحياة إذا ما خرجت من الوظيفة، إذ كنت أرى خروجي من الوظيفة أمر لابد منه إذ لم أُخلق لأبقى في الوظيفة واستمر فيها، بل لابد من الخروج إلى الحياة العامة والاشتغال في السياسة. وهل يمكن أن أكون

سياسياً ولا مورد لي إلا راتب التقاعد وهو قليل، وإلاّ بعض واردات خاصة من الوقف وأملاك والدي، وهي ضئيلة لا تغني ولا تسمن من جوع.

وهكذا دخلت الحقوق، ولم تكن افضل بكثير مما كانت عليه في سنة١٩٣٦ ولكن هذه المرة كنت قد وطّنتُ النفس على البقاء فيها مهما كلف الأمر، فلم يهمني كثيراً إذا ما فقدت الكلية جوها الدراسي الجامعي، ولم أحفل كثيراً إذ لم يعجبني بعض الأساتذة في معلوماتهم أو أصول تدريسهم، فإني قبلت بكل شيء وأقنعت نفسي بالرضى بكل شيء. لم يكن همي هذه المرة إلا أن استمر في الدراسة وان أتوسع بها بجهودي الذاتية وأتعمق ما شاء لي التعمق، وأن أُنهي هذه السنوات الأربع للحصول على شهادة المحاماة. وهكذا دخلت الحقوق بعد أن كنت سكرتيراً لوزارة الاقتصاد، وكانت هذه السكرتارية بمثابة مديرية عامة، وكنت اشغلها بالفعل وداومت فيها وأنا معاون مدير المحاسبات العام، وأنهيت الدراسة وأنا مدير عام ورئيس مجلس إدارة البنك الزراعي ووكيل مدير التموين العام. وكان دخولي لكلية الحقوق وأنا اشغل هذه المناصب الهامة أمراً استغرب منه الكثيرون وقدره الكثيرون أيضا. ولم تكن كلية الحقوق من قبل تعرف هذا النوع من الطلاب، لم تكن تعرف أن مديرا عاما يداوم فيها رغم كونه درس في أمريكا وحصل على أرقى الشهادات من احسن الجامعات، وهي شهادة بكالوريوس علوم من جامعة كاليفورنيا في ٢٥كانون الاول ١٩٣٠، وعلى أستاذ علوم من جامعة كورنيل.

لقد شجع دخولي كلية الحقوق الكثيرين من كبار الموظفين فيما بعد، فدخلها بعض النُواب وبعض المُدراء العامين، وكنتُ قدوة حسنة لهم إذ فتحت الباب وشققت الطريق وقضيت على هذه الخرافة التي تقول أن الدراسة لا تلتئم مع كبر المركز والسن، ولاسيما إذا كان الإنسان قد درس في

الخارج وحصل على أرقى الشهادات. لقد برهنت عملياً على أن القدرة العالية يجب أن لا يحددها السن المتقدم ولا المركز العالي ولا الشهادات العالية. فإن الإنسان تلميذ في الحياة ويجب أن يبقى تلميذاً فيها مهما كان عالماً واختصاصياً، ولا يمكن أن يختص الإنسان وأن يكون عالماً حقاً إلاّ إذا شعر انه تلميذ للحياة وتلميذ للحقيقة يهيم بها ويبحث عنها ويتفانى في سبيلها مادام حياً. ولا أنكر أن الدراسة لم تكن سهلة لمن كبرت مسؤولياته وكثرت مشاغله وتشعبت واجباته وضاقت به أوقاته.

كنت اسكن في محلتنا القديمة، وفي دارنا التي لم تكن عصرية، ولم تتوفر فيها كل أسباب الراحة، وكانت هذه الدار ملاصقة لدار أخي غني، وكان لأخي "جيش من الاطفال" الذين لا يعرفون للراحة طعماً ولا يتركون غيرهم يجد للراحة طعماً. وكنت رب عائلة أعيل والدتي واخوتي رشيد وعبد الصاحب وزوجتي، وكان لديَّ عندما دخلت الكلية ثلاثة أطفال وأربعة عندما تخرجت منها، وكم كنت احتاج إلى نوم الظهيرة لاستعد للدراسة في المساء، وكم من مرة أخذت زوجتي وأطفالي إلى بيت أحد الأقارب لتوفر لي الراحة والهدوء، وكم مرة لم تَنَم زوجتي حتى ترعى هؤلاء الأطفال، وتبذل جهدها لكي يناموا أو يهدأوا طالما كنت نائماً. وكان لابد لي من الاضطلاع بمهام الوظيفة، وكان لابد من أن أداوم في الوظيفة صباحاً وفي الكلية مساء، ولم يكن عندي سيارة خاصة وما كانت وسائط النقل الحكومية بمتيسرة. وما كانت حياتي لتشغلني في الوظيفة وفي الكلية فحسب، بل كانت تتطلب نشاطا اجتماعياً وثقافياً بل وسياسياً في بعض الأحيان. وكان لابد من الانقطاع عن مثل هذا النشاط ولاسيما قبيل الامتحانات النهائية، فكنت كثيراً ما أرحم

نفسي وعائلتي من حضور بعض الحفلات وتلبية بعض الدعوات، وكثيراً ما كنا نعتذر عن قبول (الخُطّار) والزائرين.

وانتهت السنة الأولى من كلية الحقوق بجد ونجحت فيها نجاحا باهراً، وقد حصلت في امتحان آخر السنة على معدل جيد جدا وهو معدل A أو معدل فوق الخمسة والتسعين بالمائة. وفي السنة الثانية أُصِبتُ بزكام في شهر كانون الثاني واستمر إلى شباط، ثم مرضت بالنيمونيا[٣٤٨] وكان طبيبي صديقي المرحوم الدكتور شريف عسيران، ولم يكن الطب يعرف بعد البنسلين حتى ١٩٣٦. كانت المعالجة على الطريقة القديمة، وكان إن طال بي المرض حتى اشتد إلى اكثر من ثلاثة أسابيع ذقت خلالها الأمرَّين، وما أن شفيت أو كنت في دور النقاهة حتى كان الامتحان في انتظاري.

عالم الغد

كنت أشعر أن الشعوبية قد تَفَشّت، والانتهازية قد طغت، وأن السلطات الاستعمارية التي اعتقلت اكثر القوميين والأحرار المفكرين أخذت تتعاون مع هذه العناصر الفاسدة الهزيلة. لقد كان الاستعمار بالتعاون مع هذه العناصر يحارب القوميين والتفكير القومي في كل مكان، ولقد شنها حرباً شعواء للدس عليها ولتشويه مفاهيمها وتحوير مقاييسها. كانت حرباً للتضليل ووصم القومية بالأكاذيب والأباطيل وبكل ما هي براء منه، وكنت أرى انه لابد من عمل شيء، وأنه لابد من لسان ينطق بالحق ويدافع عن القومية وينشر بين الناس حقائقها ومفاهيمها. وهل يمكن أن أعمل غير هذا في مثل تلك الظروف القائمة الحرجة؟ وكان لابد أن أفاتح بعض الأصدقاء من

---

348 Pneumonia المرض المعروف بذات الرئة.

القوميين، والذين شاءت الظروف والصدف أن يكونوا خارج المعتقلات، فأعددت قائمة بنحو ٢٠ أو ٢٥ اسماً من أسماء أحسن الشباب خُلقاً وثقافة وتفكيراً، وفي مقدمتهم الدكتور فاضل الجمالي وحسن الدجيلي[٣٤٩] وهاشم الحلي[٣٥٠]. وكنت قد فاتحتهم في مشروع إصدار مجلة باسم مجلة (عالم الغد)، ولم يكن في الإمكان إصدار جريدة سياسية أو مجلة سياسية ونحن كلنا موظفون، والموظف ممنوع من الوجهة القانونية الاشتغال بالسياسة أو في العمل الصحفي السياسي، وان كان يجوز له إصدار مجلة أدبية، فكان لابد من رأسمال، ولذا اقترحت أن يتبرع كل عضو في هذه الجماعة بما لا يقل عن دينارين شهرياً. وهكذا جمعت بعض المال، ولكني احترت فيمن سيكون صاحب المجلة ومديرها المسؤول بشرط أن لا يكون موظفاً. وتذكرت أني كنت ذات مرة أزور السيد عبد المهدي، فرأيت رفيق السيد عيسى[٣٥١] جالساً في الحديقة. وكان رفيق قد تخرج حديثاً من الحقوق، وهو ابن أخت السيد عبد المهدي، فقلت في نفسي: ولماذا لا يكون رفيق هو الشخص الذي أفتش عنه.

---

[٣٤٩] أديب، مثقف، مترجم، حصل على شهادة البكالوريوس من جامعة أكستر في بريطانيا سنة ١٩٣٨ وعلى الماجستير في التربية وعلم النفس من جامعة كولومبيا سنة ١٩٤٤، عني بشؤون التعليم في العراق، فعين أستاذا مساعداً في كلية التربية، ومديراً لإذاعة بغداد سنة ١٩٥٠ ثم سفيراً في وزارة الخارجية، من مؤلفاته (أصول التربية الثانوية) و(التعلم والتعليم، مقدمة في التربية وعلم النفس) و(تقدم التعليم العالي في العراق) و(الدولة والتعليم) و(مشكلات التعليم الثانوي) وغيرها.

[٣٥٠] كاتب، مترجم، شارك حسن الدجيلي في ترجمة كتاب(توجيه العقل الروسي)، كما شارك في ترجمة كتاب (روسيا والصهيونية).

[٣٥١] صحفي، ولد سنة ١٩١٨ في الشطرة، والتحق بكلية الحقوق فتخرج فيها سنة ١٩٤٤، سافر في بعثة الى مصر للحصول على الدكتوراه، الا انه عاد لأسباب عائلية، فكان أن كلف بأن يكون صاحب امتياز (عالم الغد)، ثم انتخب نائبا في المجلس النيابي سنة ١٩٤٩، وأصدر جريدة لتكون اللسان لحزب الأمة الاشتراكي، وفي ١٩٥٩ عين مديرا لشركة الجوت العراقية، ثم عين في شركة نفط العراق سنة ١٩٦١، وتوفي سنة ١٩٩٤.

لقد فاتحت السيد بالفكرة قبل أن أفاتح رفيق، فوافق عليها قبل أن يوافق رفيق، وهكذا اخترت رفيقاً أن يكون صاحب المجلة ومديرها المسؤول، وهو لا يعرف عن المشروع شيئا! ولم يكن أحد الشباب الذين ضمتهم القائمة والذين ساهموا بالتبرع. ولم يكن رفيق على بال أحد، حتى ولا على بالي، ولذا قلت للأصدقاء وقد فاجأتهم، لقد لقيت لكم شاباً خريج مدرسة عالية وهو غير موظف، قالوا من هو؟ قلت رفيق السيد عيسى، فلم يمانع أحد في هذا الاختيار.

كان صالح جبر وزير الداخلية، وكانت علاقتي معه حسنة للغاية، ولا ادري إذا كان قد اعتبر اختيار رفيق السيد عيسى مديراً مسؤولا للمجلة فيه أي معنى من معاني التقرب له، فهو صديق السيد عبد المهدي الحميم، ولكن أقولها للحقيقة وهي أنى عندما أخذت رفيق للمجلة لم يخطر على بالي أي معنى من هذه المعاني، ولم يكن الاختيار إلا من باب الصدفة، وإذا كان هنالك شيء قد نؤاخذ عليه هو أننا أخذنا شخصاً قريباً للسيد عبد المهدي، وقد يُفسَّر هذا الاختيار بأن للمجلة صلة بكُتلة صالح جبر والسيد عبد المهدي، الأمر الذي كنا نحرص على تجنبه والابتعاد عنه. وكنا نحرص على أن لا تكون للمجلة صلة بأية كتلة سياسية، وان تمثل كتلة الشباب القومي المثقف ولا تنطق إلاً بلسانه الذي لا يخضع لأحد ولا يتأثر بأحد.

كان صالح جبر وزيراً للداخلية، وكان لابد من موافقته لإصدار المجلة، وقد وافق على إجازتها بيسر، ولم اشعر انه أراد عرقلتها أو وضع أية صعوبة في طريقها، ولم يكن يخطر على بالي أن تُجاز مثل هذه المجلة بمثل هذه السهولة في زمن مثل زمن الحرب ومن قبل شخص كانت واجباته الوزارية تفرض عليه أن يلعب دوراً أساسياً في اعتقال الشباب القومي وملء المعتقلات

بهم. وهل أراد صالح جبر بإجازة هذه المجلة القومية أن يُكفِّر بعض التكفير عن سيئاته، وأن يعدها خطوة في سبيل التقرب من القومية والقوميين، أم انه طمح في تسخيرها لأغراضه ومآربه. لم أشعر أن صالح جبر كان قد تدخل في شؤون هذه المجلة سواء كان في المسؤولية أو خارجها بأي شكل كان، بطريق مباشر أو غير مباشر، فهو لم يُحدِّثني عن خطتها ولا عن أهدافها، ولم يطلب ولا مرة واحدة نشر شيء أو الامتناع عن نشر شيء، ولم اشعر أنه كان يريد أن يوجهها وجهة دون أخرى. كانت المجلة حرة مستقلة لا تهيمن عليها إلا هيئة التحرير، وقد بقيت كذلك حتى أن ماتت. وكانت هيئة التحرير تتكون بالدرجة الأولى مني وحسن الدجيلي وهاشم الحلي. ولقد لاحظت أن صالح جبر كان يعطف عليها عندما سَهَّل أمر إجازتها، وعندما سألني في بداية الأمر إذا كنا بحاجة إلى بعض المال. وكنا بحاجة إلى بعض المال الذي تحتاج عادة صدور مجلة راقية مثل مجلة (عالم الغد) فالمال الذي جمعناه من المشتركين قليل[٣٥٢]، ومع هذا فقد ترددت في قبول أية مساعدة مالية. ولما اشتدت الحاجة إلى المال عرضت ما قاله لي صالح جبر حول المساعدة المالية فوافقت الجماعة القائمة على شؤون المجلة على أن نقبل المال بشكل قرض. وكان أن أقرضنا عبد الهادي الجلبي مبلغ ٢٥٠ دينار بإشارة من صالح جبر. وكان حسن الدجيلي أميناً للصندوق وهو المهيمن على شؤون المجلة المالية،

---

[٣٥٢] ورد في ورقة منفصلة بخط صاحب هذه المذكرات مودعة في أوراقه الشخصية قائمة بأسماء المساهمين في المجلة والمبلغ المدفوع أزاء كل منهم، وبموجب هذه القائمة فقد بلغ عدد المساهمين في المجلة ١٨ ساهما، هم: عبد المجيد محمود وحسن الصباغ وحسن الدجيلي ومحمد حسين آل ياسين والدكتور محمد فاضل الجمالي وعبد الرزاق محيي الدين ومجيد الجوهر وحاتم عبد الصاحب وإبراهيم شوكت وجعفر خياط وكاظم السعيدي وعبد الكريم الأزري وباقر الدجيلي وتوفيق علاوي ورفيق السيد عيسى وهادي السيد صالح وحسن الثامر وهاشم الحلي. وبلغت المبالغ المدفوعة ١٢٢ دينارا.

ولا أظن أننا رددنا القرض لسوء حالة المجلة المالية ولا أظن أن المُقرِض طالبنا بالدين، وان كنت دائماً أُذكِّر أصحابي في المجلة بهذا القرض. وكنت بموافقة الأخوان قد أقرضت سلمان الصفواني مبلغ ١٠٠ دينار من أموال المجلة أو من قرض الجلبي، ولا زال هذا القرض بذمة الصفواني ولم يُسدد إلى المجلة.

صدرت مجلة (عالم الغد) في نهاية سنة ١٩٤٤[٣٥٣]، وشقَّت طريقها سريعاً عند القراء. وكنت قد حررت أكثر من ٩٥٪ من افتتاحياتها ولاسيما في السنة الأولى، ولم تحمل هذه الافتتاحيات اسمي بل كانت تحمل اسم مجلة (عالم الغد). وقد استهدفت منها شرح العقيدة القومية التي حاول الشعوبيون والانتهازيون تشويهها والدس عليها. كانت القومية تدعو إلى مكافحة الاستعمار والى مكافحة الاستغلال، وكانت تدعو إلى بلاد عربية حرة مستقلة ومتحدة، وتدعو إلى إقامة نظام ديمقراطي صحيح، وأن تكون السلطة بيد الشعب، وأن تكون الحكومة من الشعب والى الشعب. كانت تدعو إلى إطلاق الحريات السياسية التي يجب أن يتمتع بها كل مواطن إلاَّ إذا كان عدواً للحرية. كما كانت تدعو إلى القضاء على الاستغلال والاحتكار والإقطاع، والى إيجاد مستويات معينة من التعليم والصحة ومستوى المعيشة يتمتع بها كل مواطن دون ان ينخفض دونها. وكنا ندعو إلى اشتراكية معتدلة، والى ضرورة تدخل الدولة في تصنيع البلاد والقيام بالمشاريع الكبرى، والدعوة إلى الملكية الصغيرة في الزراعة، وتحديد الحد الأعلى من هذه الملكية. كما كنا ندعو إلى اعتبار الفلاح هو المحور الاقتصادي، وأن الأرض يجب أن تملك له وليس للشيخ أو السركال، ونرد التهم الباطلة عن القومية، مبينين أنها لم تكن

[٣٥٣] صدر العدد الأول من (عالم الغد) في يوم الجمعة ١ كانون الأول سنة ١٩٤٤ وكتب على العدد أنها (تصدر مؤقتا في الشهر مرتين) وأن إدارتها في محلة جديد حسن باشا، قرب فندق البرلمان.

اعتدائية ولا عنصرية، وأنها لا تعتدي على غيرها من القوميات، وأنها تحترم القومية الكردية، ولكنها لا تقبل بالانفصال، وأنها ليست عنصرية تتعصب للدم، بل القومية عندها فكرة وعقيدة وولاء وإخلاص بغض النظر عن اصل الإنسان ونقاوة دمه، وهل لم تكن نظرية نقاوة الدم إلاّ خرافة، وهل هناك دم، أي دم، نقي في العالم. كنا ندعو في قوميتنا إلى تكوين المجتمع التقدمي الحديث، المجتمع الدينامي المتطور المتحرك النامي، المجتمع الذي لا يعرف الجمود ولا الركود ولا الرجعية، المجتمع الذي يقدر العلم ويشغف بالصناعة وبالتثقيف الصناعي ويعمل على استغلال خيرات البلاد وكنوزها في سبيل منفعة المجموع، المجتمع الذي يعرف كيف يتفاعل مع المحيط ويسيطر عليه من اجل منفعته وفائدته من حيث المجموع وليس من اجل منفعة حفنة من الرجال او طبقة معينة من الناس،المجتمع الذي يؤمن بالعدالة الاجتماعية وبالعدالة الاقتصادية، المجتمع الذي يعتز بتراثنا العربي والإسلامي ويجعل منه نقطة انطلاق لا توقف في سبيل بناء مجتمع افضل ومستقبل افضل، هو مجتمع عالم الغد.

ولم أختَر اسم (عالم الغد) لهذه المجلة إلا بعد أن كانت هذه الأفكار وغيرها تسيطر عليّ منذ البداية، إذ كنت أحلم بالمجتمع العربي الحديث، وكنت أرى أن لابد من الدعوة إليه والتبشير به. كانت قوميتنا منذ البداية تحرر وانطلاق ووحدة وتقدم. كنت أدعو إلى هذا وغير هذا في هذه المقالات الافتتاحية التي لازالت حية موجودة في أعداد مجلة عالم الغد للسنة الأولى. وكانت المجلة تحتوي على كثير من أبواب العلوم والفنون والآداب والسياسة وما إلى ذلك، وكانت حسنة الإخراج والطبع والتوبيب، ولذا قد استطاعت أن

تشق طريقها بسرعة وتمثل مركزاً سامياً في قلوب القراء والمعجبين بها. وقد استمرت على الصدور مدة ثلاث سنوات وكنا نقدر لها أن تستمر مدة أطول.

كنا قد اختلفنا - مع الأسف- مع الدكتور الجمالي، والمجلة لم تقطع مرحلة طويلة من مراحل حياتها. فكان الجمالي يصر على التفريق بين اليهودية والصهيونية، وكنا نصر على عدم التفريق بينهما. وكنا نرى مع الجمالي انه قد يكون من المفيد الى العرب من الوجهة الدولية أن نُفرِّق بين الصهيونية واليهودية، لعل بعض العناصر اليهودية تؤازر العرب وتناصرهم، ولكنا كنا نرى من الوجهة الفعلية أن مثل هذه العناصر هزيلة وان الصهيونية قد تغلغلت في قلب كل يهودي إلاّ عدداً قليلاً يكاد لا يُؤبَه له. لقد كانت من وجهة نظرنا - ولاسيما بالنسبة إلى قلب العالم العربي- أن الصهيونية واليهودية اسمان مترادفان لشيء واحد، وقد كنا نرى كل صهيوني يهودياً وكل يهودي صهيونياٍ. وقد أثبتت الوقائع صحة ما ذهبنا إليه إلى حد كبير.

لم يكن اختلافنا هذا مع الدكتور الجمالي هو الاختلاف الوحيد، وان كان الأساس والأهم. كان بعض الشبان، ولاسيما حسن الدجيلي، لا يعجبه أسلوب الدكتور فاضل في الكتابة، وكثيراً ما حاول تغيير الأسلوب في بعض الافتتاحيات مما غاض الدكتور واعترض عليه بشدة، ثم انسحب فاضل من المجلة، فأسفت كثيراً على انسحابه، إذ خسرنا مفكراً عميق النظرة وبعيد النظر. وكنا قد اجتمعنا للمداولة في قضية انسحاب الدكتور والبحث في بعض شؤون المجلة وخطها الذي تسير عليه، وقد حضر الدكتور هذا الاجتماع، وأراد بعض الشبان، ومنهم باقر الدجيلي، مهاجمة الدكتور، ولكن لم اسمح بمثل هذا الهجوم ووقفت موقفاً صارماً ضده.

لقد استمرت المجلة على الصدور نحواً من ثلاث سنوات، وأدت دورا مهماً في التبشير بفكرة القومية يوم أن كان يحيط بالعراق، بل وبالأمة العربية، ظلام الحرب الدامس، حتى رأيت من الضروري عدم إصدارها، وقد كان السبب المباشر في هذا هو رفيق السيد عيسى الذي كسب شهرة واسعة وجاه عريض من ورائها مع أنه لم يكن له أي شيء فيها، ولم يكن يدري ماذا يُنشر في المجلة، ولم يكن هو نفسه قد نشر فيها أية مقالة أو كلمة. وكنت قد كتبت مقالة على اثر معاهدة بورتسموث الذي عقدها صالح جبر يوم كان رئيساً للوزارة دعوت فيها إلى عدم ضرورة المعاهدات مادامت هذه المعاهدات لا تؤدي إلاّ لتوتر شعور الناس وإثارة الكراهية والبغضاء، وما قيمة مثل هذه المعاهدات التي لا تستند على قناعة الناس وحبهم للحكومة المتعاهدة. كما دعوت بريطانيا إلى إعادة النظر في سياسة المعاهدات في العراق وان تصرف النظر عنها وهي تضر بمصالحها، وأن تبني صداقتها في العراق لا على المعاهدة، بل على شعور الناس الودي. لم اكن أشعر بوجود هذا الذي يسمى بصاحب المجلة ومديرها المسؤول، ولم يكن له أي نشاط أو مجهود فيها. بل لم أكن اشعر بوجوده إلاّ هذه المرة عندما كتبت الافتتاحية حول المعاهدات، فقد وقف ضدها وضد نشرها. ولا أدري ما إذا كان موقفه هذا منبثقا من نفسه أم كان قد أملاه عليه الغير؟ هل أملاه صالح جبر أم السيد عبد المهدي أم كلاهما، أم لم يُملِه عليه أحد؟ ولا أدري ما إذا كان هذا الموقف هو المسؤول وحده عن موت المجلة أم كان السبب المباشر؟ هل كانت الجماعة مستعدة للسير ام أنها أرادت مثل هذا السبب لتقف عن العمل؟ هل كانت الجماعة قد أنهكها السير وأنها أرادت أن تستريح، وما أن وقفت مثل هذه العقبة في طريقها حتى ألقت عصا الترحال؟

كنا قد زَعَلنا على رفيق، وزعلنا على المجلة، وتوقفنا عن العمل، وإذا ما توقفنا فليس في مقدور رفيق ومن كان على شاكلته النهوض بالعبء، فتوقفت المجلة نفسها عن الصدور بطبيعة الحال، ولو كان في إمكانه ذلك لاستمر على العمل من دوننا. وهكذا مات هذا المولود الحي الفعال، هذا المولود الذي نما وترعرع واشتد ساعده، هذه المجلة التي صارت في مقدمة المجلات، وباتت تضاهي أحسن المجلات وأرقاها.

أخبرني صالح جبر في داره بعد أن استدعاني تلفونياً على ما أتذكر، بأن هناك جماعة على رأسهم صدر الدين شرف الدين[٣٥٤] سيصدرون جريدة يومية سياسية[٣٥٥]، وطلب مني مساعدة هذه الجماعة والإشراف على مسير الجريدة. لم اعرف بالضبط مدى صلة الجريدة وجماعتها بصالح جبر، وإن كنت اعرف أن صاحبها قد انقلب ضده شر انقلاب على اثر معاهدة بورتسموث وكتب عنه أسوء الكتابات. وقد ساهمت في هذه الجريدة بان حررت افتتاحياتها لبضعة اشهر، وكانت لي افتتاحية فيها كل يوم بتوقيع (أبو الحارث)، وهي افتتاحيات قومية وسياسية واجتماعية واقتصادية، وكنت قد جعلت من هذه الجريدة قومية راقية تفكر تفكيراً حديثاً في أمور البلاد وشؤونها المختلفة. ولا ادري ماذا حل بأعداد هذه الجريدة التي نشرت مقالاتي الافتتاحية التي كنت قد احتفظت بها. لقد فقدتها، وكم بودي لو أعثر عليها.

---

[٣٥٤] أديب، كاتب سياسي، عرف بمواقفه الوطنية، من مؤلفاته (سحابة بورتسموث) و(صورة العراق الحاضرة) و(محنة العراق) و(حليف مخزوم).

[٣٥٥] هي جريدة (الساعة).

مدير البنك الزراعي الصناعي

لا أتذكر كم بقيت في منصب معاون مدير المحاسبات العام، وقد تكون المدة نحوا من سنة أو اكثر بقليل، ولكنني كنت كثير النشاط والفعاليات فقد دخلت الحقوق وأصدرت مجلة(عالم الغد) وحررت جريدة (الساعة)، وكنت معاوناً لمدير المحاسبات العام ولكنني في الواقع كنت مديراً عاماً بالفعل، ذلك أن المدير العام إبراهيم الكبير كان قد سافر إلى أمريكا مع إبراهيم كمال وزير المالية[٣٥٦] لبضعة اشهر لحضور المؤتمر[٣٥٧] الذي انبثقت عنه مؤسستان خطيرتان هما البنك الدولي ومؤسسة النقد الدولية، وكلاهما يستهدف رعاية الشؤون المالية والنقدية لمختلف بلاد العالم، فيقوم البنك بالقروض اللازمة لإعمار البلاد المتخلفة اقتصاديا، وتقوم مؤسسة النقد بما يلزم لتثبيت العملات المالية وعدم السماح لان تكون العملة عرضة للصعود أو الهبوط كما حدث بالنسبة للكثير من عملات العالم على اثر الحرب العالمية الأولى.

كان ذلك في أوائل سنة ١٩٤٥ عندما استدعاني صالح جبر - وهو وزير للمالية - وفاتحني حول تعييني مديراً عاماً ورئيساً لمجلس إدارة البنك الزراعي الصناعي العراقي الذي كانت قد صدرت إرادة ملكية بفصله إلى بَنكَين زراعي وصناعي، والتي كان أمر تنفيذها متوقف على نشرها في الجريدة الرسمية، وقد نشرت بعد سنة من تعييني في هذا المنصب، فأصبحت مديراً عاماً ورئيساً لمجلس إدارة البنك الزراعي فقط، وقد كان هذا المركز مرموقاً، وقد أشغله لأول مرة

---

[٣٥٦] كان ابراهيم كمال عضوا في مجلس الأعيان، أما وزير المالية فكان يوم ذاك صالح جبر.

[٣٥٧] هو مؤتمر النقد الدولي المنعقد في الولايات المتحدة في الأسبوع الأول من شهر تموز سنة ١٩٤٤.

يوسف غنيمة وهو وزير مالية سابق[358] وقد عين حسن الحكيم وهو سوري الجنسية معاونا له، وقد اصبح فيما بعد رئيسا للوزارة في الشام. كان هذا المصرف أول مصرف حكومي في البلاد، وغايته الأساسية تسليف المزارعين والعمل على تصنيع البلاد.

كنت أعرف هذا البنك الذي تأسس في سنة ١٩٣٧[359] من قبل، فقد عينني المرحوم رستم حيدر يوم كان وزيراً للمالية ١٩٣٩ ممثلا للوزارة في مجلس إدارة البنك على اثر تعيين ممثلها السابق مدير الواردات العام عمر نظمي[360] وزيراً للداخلية. ولم اكن آنذاك اكثر من مميز للخدمة والملاك والذاتية والعقود، ولم اكن مديرا أو مديراً عاماً، ولم يكن هذا التعيين ليُرحِّب به كبار موظفي الوزارة ومدراؤها العامون، بل كان التعيين طفرة بالنسبة لأطماعهم ولتفكيرهم الضيق، ولكن رستم إذا كان قد خرج عن المألوف فلم يخرج عن المصلحة ولا المنطق، بل كان في صميمها. فقد كنت من كبار الموظفين، وإن لم أكن مديراً عاماً، ثم كنت الموظف الوحيد بين موظفي وزارة المالية له الاختصاص في مثل هذه القضايا، فلقد تخرجت من جامعة كورنيل

---

[358] ولد سنة ١٨٨٥ وتولى وزارة المالية عدة مرات، أولها سنة ١٩٢٨، ووزارة التموين سنة ١٩٤٤، وله مؤلفات مهمة في تاريخ العراق، وتوفي سنة ١٩٥٠.

[359] كان هذا المصرف قد أسس بموجب (قانون المصرف الزراعي والصناعي) الصادر سنة ١٩٣٥(ينظر مجموعة القوانين والأنظمة للسنة المذكورة، قانون رقم ١٥ ص ٢٠٩-٢١٤)، وقد قرر مجلس الوزراء في ١٣ آذار سنة ١٩٣٦ تعيين مجلس إدارته.

[360] حقوقي، ولد سنة ١٨٩٠ وتخرج في كلية الحقوق، وتقلب في المناصب الإدارية حتى أصبح متصرفا لعدد من الألوية، وفي سنة ١٩٣٧ عين مديرا للواردات العام، ثم أختير وزيرا للاقتصاد والمواصلات =سنة ١٩٣٨ ثم وزيرا للداخلية سنة ١٩٤٠، ثم نائبا لرئيس الوزراء سنة ١٩٤٩، فعضوا في مجلس الأعيان، توفي سنة ١٩٧٨.

الشهيرة، وحصلت على شهادة أستاذ علوم في علم الاقتصاد الزراعي، فهل لا يخولني هذا الاختصاص مثل هذا التمثيل ولم يكن لغيري من ممثلي وزارة المالية مثل هذا الاختصاص، عدا كونهم من المدراء العامين؟ لم يكن رستم لِيَأبه بما اعتادت عليه وزارة المالية في ارسال ممثليها وأَلِفَته في أن يكونوا من المدراء العامين للواردات فحسب. وكنت اعرف هذا المصرف من قبل إذن، وكنت قد ساهمت في مجلس إدارته، ثم ساهمت بصورة فعّالة في تأسيس شركة الزيوت النباتية[٣٦١]. وكان المصرف قد ساهم في هذه الشركة بنسبة ٥٪ من أسهمها، وكان قبل هذه المساهمة قد درس قانون الشركة ونظامها وغاياتها وأهدافها وما إلى ذلك من الأمور في جلسات كان يعقدها مجلس إدارة البنك الذي كنت أنا أحد أعضائه المهمين، بوصفي ممثلاً لوزارة المالية صاحبة رأس المال، وكان يحضرها من الشركة المرحوم جعفر جلبي أبو التمن[٣٦٢] ومحمد حديد[٣٦٣]، وقد انتُدِبتُ بعد تأسيس الشركة عضواً في مجلس إدارتها ممثلاً عن البنك لمدة من الزمن.

صدرت الإدارة الملكية بتعييني في منصب مدير عام ورئيساً على إدارة البنك، وكانت التقاليد تقتضي في هذه المناسبات زيارة رئيس الدولة الأعلى وشكره على هذا التعيين. وكانت هذه أول مرة أزور فيها الأمير عبد الإله عندما كان وصياً على العرش. وقد صدر بيان رسمي في التشريفات الملكية بهذه الزيارة حسب الأصول، ولما نُشر هذا البيان

---

[٣٦١] هي شركة استخراج الزيوت النباتية المحدودة.

[٣٦٢] وكان يرأس مجلس إدارتها.

[٣٦٣] نائب الموصل في المجلس النيابي العراقي وأحد مؤسسي (جماعة الأهالي) ونائب رئيس الحزب الوطني الديمقراطي. توفي سنة ١٩٩٩.

هنأني أحد الأصدقاء بقوله "لقد سررت أن تكون أنت أولنا في تسلمك هذا المنصب، وإنه لشرف عظيم!"

كنت قد نهضت بالمصرف نهضة عظيمة دفعت به إلى الأمام دفعات قوية. فطالبت بزيادة رأسماله فَزِيد[٣٦٤]، وضوعفت أعمال التسليف وشملت كل ألوية العراق، ولا سيما زُرّاع التبغ في السليمانية، وكنا نسلفهم بطريقة الكفالة المتسلسلة فضلا عن أن الحاصل كان في الواقع هو الضمان. كان الحاصل تشتريه الحكومة، وكان فرع المصرف في السليمانية هو الذي يقوم بدفع أثمان التبوغ المشتراة ولا يدفعها للمستلفين إلا بعد استقطاع السلفة. ولقد عدلت قانون المصرف ونظامه بما يتناسب وتطور الوضع الزراعي والاقتصادي في البلاد فقضيت على الكثير من أعمال الروتين التي كانت تعرقل سير المعاملات بالسرعة المعقولة له. وأصبحت هذه المؤسسة في خدمة الزراع ولاسيما صغارهم في كل ألوية العراق حسب الحاجة وحسب توفر الضمان الذي كان في اغلب الأحيان الأرض الزراعية نفسها أو غيرها من المُسقّفات.

القاهرة، اقتصاد وأسرار سياسية

استدعاني وأنا منهمك في مثل هذه الأعمال وغيرها،ولما تمر علي وأنا في المصرف فترة طويلة من الزمن، أحد وزراء المالية، وأظنه علي ممتاز، وطلب مني الاشتراك في الجامعة العربية في مؤتمرها الاقتصادي، وذلك في سنة ١٩٤٥. وكان هذا أول مؤتمر اقتصادي تعقده الجامعة العربية ولم يمر على

[٣٦٤] كان رأس مال البنك نصف مليون دينار فزيد الى مليون دينار.

تأسيسها إلا بضعة اشهر، واشتركت فيه الدول العربية كافة، وكان الوفد الذي مثل العراق يتكون من رئيس وهو توفيق السويدي[٣٦٥] وعضو واحد هو أنا وسكرتير للوفد هو المرحوم أحمد عزة محمد، أحد موظفي وزارة الخارجية.

كانت هذه ثاني مرة أركب فيها الطائرة في حياتي، فقد كانت المرة الأولى تلك السفرة القصيرة التي قمت بها مرغماً بطيارة عسكرية صغيرة من الناصرية إلى أور إبان ثورة سوق الشيوخ، عند ما كانت الناصرية محاطة بالمياه من كل جوانبها. وكانت هذه السفرة إلى القاهرة بطائرة مائية ركبتها في بحيرة الحبانية وحططت بها في نهر النيل. وكانت سفرة مزعجة للغاية بالنسبة لي. إذ أصابني الطيران (بدوخة)، وشعرت وكأنني على وشك أن أقذف بـ(مَصاريني) إلي الخارج.ولم أكن قد رأيت القاهرة ولا الإسكندرية من قبل إلا لمدة يومين أو ثلاث في طريق عودتي من أمريكا إلى العراق.

سررت جداً بزيارة القاهرة وزيارة آثارها ومعالمها، وقد وجدت فيها مدينة كبيرة ضخمة عصرية تماماً في بعض أقسامها وقديمة تماماً في أقسامها الأخرى. لقد راعني فيها كثرة شوارعها وسعتها وكثرة بناياتها وضخامتها وحدائقها ومساجدها وجوامعها وما إلى ذلك. وقد سرني أن أجد القاهرة، وهي في زمن حرب، قد توفرت فيها كل حاجيات الغذاء والملبس وبأسعار معتدلة بعد أن كانت بغداد قد خلت من أغلب هذه المواد. وسرني أن أنزل

---

[٣٦٥] رئيس الوزراء في أكثر من وزارة عراقية، ولد سنة ١٨٩٢، وتخرج في كلية الحقوق باستانبول سنة ١٩١٢، وأكمل دراسته القانون في باريس، وعاد الى وطنه ليصبح مديرا لكلية الحقوق فيه، وعين وزيرا للمعارف سنة ١٩٢٧، ثم أختير رئيسا للوزراء سنة ١٩٢٨، وسنة ١٩٤٦ و١٩٥٠ وصار أول ممثل للعراق في عصبة الأمم سنة ١٩٣٢، وتعددت المناصب الوزارية التي شغلها، رئيسا للوزارة أو وزيرا، حتى اعتزل العمل السياسي نهائيا إثر ثورة ١٩٥٨ توفي سنة ١٩٦٨.

في اوتيل كونتيننتال[٣٦٦] وكان أضخم اوتيل نزلته حتى ذلك التاريخ. وقد سرني أن أجد في القاهرة كثيراً من الطلاب العراقيين الذين أعرف بعضهم من بغداد، وكانوا يفرحون بي ويزورونني كل يوم عصراً في الأوتيل. كما تعرفت في هذا الاوتيل على بعض رجالات مصر وشبابها، وزرت بعض أدبائها، ومنهم طه حسين بعد أن ضرب لي وعداً معه محمد ناصر ملحقنا في القاهرة. ولم أستطع زيارة العقاد[٣٦٧] لأنه لم يكن موجوداً فيها. لقد سررت بزيارتي لطه كثيراً، إذ رحب بي أجمل ترحيب، ووجدته كما يتحدث عنه الكثيرون متحدثاً بارعاً ساحر البيان والمنطق والأسلوب. فتحدثنا في أشياء كثيرة، في الأدب القديم والحديث، وتحدثنا عن الأديب وما يجب أن يؤديه من دور في نهضتنا الجديدة، ثم تحدثت له عن مجلة عالم الغد وأهدافها وطلبت منه أن يكتب لنا فيها. وقد حدثني عن مشروع مجلة (الكاتب) التي سيقوم برئاسة تحريرها، وطلب مني أن أكتب له فيها. وتحدثنا في السياسة، وكان طه وزيراً للمعارف[٣٦٨] في وزارة النحّاس[٣٦٩] التي استلمت الحكم بعد تدخل الإنكليز المباشر وإجبار الملك على تكليف النحاس بتشكيل الوزارة وان لم يرغب الملك بذلك.

كان السير مايلز لامبسون سفيراً لبريطانيا في القاهرة، وكان جيش الاحتلال في الرابع من شباط في ليلة من لياليه السوداء القارصة قد حاصر القصر الملكي،ثم دخله لامبسون عنوة وبالرغم من الحرس، ودخل على الملك

---

[٣٦٦] فندق كان في ميدان الأوبرا مقابلا لتمثال إبراهيم باشا بن محمد علي.

[٣٦٧] يريد: الأديب عباس محمود العقاد (١٨٨٩– ١٩٦٤).

[٣٦٨] اختير طه حسين وزيرا للمعارف سنة ١٩٥٠لا سنة ١٩٤١.

[٣٦٩] مصطفى النحاس: زعيم حزب الوفد، ورئيس عدة وزارات بمصر، ولد سنة ١٨٧٩ وتوفي سنة ١٩٦٥.

دون استئذان، ثم وجه له إنذاراً ملخصه: أما العرش وأما الموافقة على تكليف النحاس بتأليف الوزارة. ورضخ الملك لهذا التهديد فألف النحاس الوزارة.

قلت لطه: هذا ما سمعته، وهذا ما يدور على ألسنة الناس في بلادكم وفي بلادنا، فهل هذا صحيح؟ كيف وافق النحاس على رئاسة الوزارة بطلب من الإنكليز؟ متى أصبح صديقاً للإنكليز وهو الذي خاصمهم منذ بداية تشكيله حتى اللحظات الأخيرة؟ قال طه: إن هذه القضية لم تكشف إلى الرأي العام ومن حقه وهو غير مطلع أن تذهب به الظنون وتأخذ به التأويلات المختلفة والتقارير المتنوعة، وقد حرص النحاس على أن لا يَطَّلِع الرأي العام عليها في مثل هذه الظروف، وان كان في ذلك الزمن تضحية كبيرة بالنسبة لسمعته وسمعة الوفد. وأراني مضطراً أن أبوح لك بالسر بالرغم إرادة النحاس، وأني لمتيقن بأنه لا يوافق لو علم بذلك.

إن النحاس لم يقبل بالحكم إلا محافظة على الملك وعلى عرشه، وانه قبل رئاسة الوزارة، ولو كان الناس يتقولون بأنه لم يأت إليها إلا على حراب الإنكليز ودباباتهم. إن الناس علموا بأن الإنكليز قد حاصروا القصر وانهم طلبوا إلى الملك تكليف النحاس بالوزارة، غير انهم لا يعرفون أنهم هددوا الملك بخلعه إذا لم يُكلِّف النحاس، فهل كان في مقدور النحاس أن يرفض في مثل هذه الظروف؟[٣٧٠]. أما لماذا

---

[٣٧٠] ادعى النحاس أن اختيار البريطانيين له رئيسا للوزراء، وتهديد الملك فاروق بالقبول به، لم يكن برضاه. فقد صرح في خطبة له بتاريخ ١٣ تشرين الأول سنة ١٩٤٥ انه احتج لدى السفير البريطاني بشدة وصاح فيه: (أنت أسأت اليَّ في غيابي(يشير الى أنه كان آنذاك خارج القاهرة) وما كان يصح أن تفعل ذلك. وانه سأله: كيف تصر على أن أشكل الوزارة دون إذن مني أو برضائي؟ وماذا يضمن لك موافقتي على ذلك؟ وقد برر أنصار حزبه قبوله بالمنصب بأنه كان عملا وطنيا جليلا قصد به رئيس الوفد إنقاذ عرش مصر، بل انقاذ استقلالها (محمد حسين هيكل، مذكرات في السياسة المصرية ج٢ ص٢٤٧) بل بلغ الأمر بالنحاس نفسه أن يذكر بأن قبوله برئاسة الوزراء كان بأمر من الملك.

طلب الإنكليز تكليف النحاس بالوزارة فهل كان ذلك حباً بالنحاس وبسواد عينيه؟ والجواب: كان ذلك ما تقتضيه مصلحة مصر في وجهة النظر البريطانية. كانت إنكلترا ترى أن مصر على وشك الانفجار، وكان لابد من حكومة شعبية تحكمها وليس هناك مثل النحاس ولا مثل حزب الوفد تريده الأمة وتلتف حوله الصفوف. وكان لابد من حكومة قوية تحقق الاطمئنان والاستقرار في البلاد، وكان على فاروق أن يدرك هذه الحقيقة ويقوم هو بتكليف النحاس بالوزارة، ولما لم يتم هو بذلك، ولم يستمع إلى النصائح والإرشادات كلها بسبب كرهه الشديد الذي يحمله على النحاس والوفد، كان لابد من هذا التدخل الشائن الفظيع. كانت لطخة عار، ولكننا قبلنا وعلى مضض تجنباً لخلع الملك واحتلال مصر ثانية. فهل إذا ما عرفت هذه الحقائق سيُنصِفنا الرأي العام وينصفنا التاريخ؟

زارني في الاوتيل في أمسية أحد الأيام الأديب المعروف الدكتور زكي مبارك[٣٧١]، وكنت قد عرفته في بغداد يوم كان أستاذ الأدب العربي في دار المعلمين العالية. قال: جئت لا لأقبل الجلوس هنا في هذا الأوتيل الأجنبي، انك لست في القاهرة وما هذا الذي أنت فيه ليُمثِّل القاهرة! قلت: حسناً، هيا بنا حيثما شئت، وكان بودي أن

(ينظر: عبد العظيم رمضان، تطور الحركة الوطنية في مصر ١٩٣٧-١٩٤٨، ص٢١٧-٢١٨ وفي الواقع فإن الوثائق البريطانية نفسها تظهر عدم معرفة النحاس المسبقة بنية البريطانيين هذه. ينظرصلاح عيسى، البرجوازية المصرية ولعبة الطرد خارج الجلسة، مجلة آفاق عربية،السنة ٧ العدد ٥، ١٩٨٢، ص٢-٢٧.

[٣٧١] أديب مصري، ولد سنة ١٨٩٣ وعرف بحصوله على ثلاث درجات دكتوراه بين ١٩٢٤ و١٩٣٧، عمل أستاذا في الجامعة المصرية، وانتدب للعمل في دار المعلمين العالية في بغداد، حيث كانت له علاقات أدبية وطيدة مع مثقفي العراق وأدبائه، له مؤلفات جمة. توفي سنة ١٩٥٣.

أطلع على القاهرة التي يعرفها الدكتور زكي. ولقد تنقل في اكثر محلات القاهرة القديمة ودرابينها وأزقتها. وكان يتنقل من دكان إلى آخر، وكان يشرب في كل منها، وكان رواد هذه الدكاكين من عامة الناس، ولا أدري إذا كانوا يقتصرون على شرب الكحول في مثل هذه (الدكاكين) الحقيرة المظلمة أم يشربون شيئاً آخر. وكان قد أخذني في آخر الليل في نحو الساعة الرابعة منه إلى مقهى كأن جلساؤه ليسوا من البشر، بل من الحيوانات أيضاً،ولاسيما الحمير والبغال و(الكِدِش) التي كانت مربوطة في قسم من المقهى على مقربة من أصحابها، وربما كانت مقهى (المِجاريَّة) على حد تعبير أهل بغداد.

كنت قد عرفت هذا الأديب في بغداد. وكان متحدثاً لبقاً مؤنساً قد ألف وهو فيها كتاب (ليلى المريضة في بغداد)[٣٧٢] و(الشريف الرضي) وكنت اعرف أنه قد اعتاد الشرب ولكن ليس إلى حد السكر، وقيل عنه أنه يصوم شهر رمضان المبارك ولكنه لا يفطر إلا على الخمر. لم أكن اعرف أن عادة الشرب في هذا الأديب الموهوب قد أصبحت عادة سُكر وإدمان، بل أصبح لا يطيق إلا الشرب، ولا يمكن إلاَّ أن يشرب في كل وقت من أوقات النهار أو الليل. لقد أصبح مُدمناً، حتى أنه فقد وعيه اكثر من مرة وهو يحاضر من محطة إذاعة القاهرة، وبهذا قتله الكحول ومات قبل أوانه.

كانت الجامعة العربية قد افتتحت مؤتمرها الاقتصادي الأول في القاهرة، وكنا قد عقدنا فيها عدة جلسات، ثم انتقلنا لحرارة الجو إلى

---

[372] عنوان الكتاب (ليلى المريضة في العراق) وهو في أصله مقالات نشرها تباعاً في مجلة الرسالة القاهرية التي كان يصدرها الأديب أحمد حسن الزيات، ثم جمعها في كتاب بثلاثة أجزاء.

الإسكندرية. وكنت نزلت في شقة بالقرب من بلاج ستانلي، حتى أني كنت أخرج منها بلباس البحر ملتفاً بالروب حيث البلاج والاستحمام. ولقد أعجبتني الإسكندرية وكورنيشها وبلاجاتها، كما أعجبتني المرأة المصرية في حينه، كيف تطورت وأسفرت بل وفي بعض الأحيان تبرجت. وقد سكن توفيق السويدي رئيس الوفد في فيلاّ ليست بعيدة عني، ولم أكن اعرف توفيق من قبل وأن كنت قد سمعت عنه أشياء وأشياء. وكنت قد سمعت عنه أيضاً أنه بخيل وأنه متكبر إلى حد كبير، وأنه قد تثقف في استانبول وفي باريس، وانه يُعد من المثقفين بالنسبة لزملائه في الوزارة. كما سمعت عنه انه كان شاباً وربما لم يتجاوز الثلاثين عندما تَسنَّم منصب رئاسة الوزارة،[٣٧٣] وانه قد اصطدم بالملك فيصل الأول بحدة، وانه اتهم بفضيحة السكر، وخلاصة هذه الفضيحة أن توفيق السويدي كان قد اشترى كميات السكر الموجودة في السوق بعد أن عرف–بصفته رئيساً للوزارة –بنية وزير المالية في وزارته برفع الرسوم الكمركية المفروضة عليه. فطلب الملك فيصل الأول منه أن يتنحى عن الحكم ولكنه أصر على البقاء، ولم يكن في الدستور ما يخول الملك إقالة الوزارة،ومع هذا فلم تدم وزارته طويلاً.

كان لا يعجبني أن أتصل بتوفيق السويدي كثيراً، وقد سمعت عنه هذا وغير هذا، ولذا فلم أتصل به إلا عند ضرورة العمل الذي كنا نشترك فيه سوية. وكنت منكمشاً تجاهه بعض الانكماش، وربما لاحظ هو ذلك، غير أنني لاحظت انه أراد أن يزيل هذا الانكماش ويرفع هذا الستار الذي أسدلته أنا بيني وبينه. وقد رأيته يتردد بعض

---

[٣٧٣] بل كان إذ ذاك في السادسة والثلاثين من عمره.

التردد، ويتقرب بعض التقرب، حتى دعاني إلى زيارته في بيته، ثم تكررت دعواته حتى دعاني إلي الغداء والى العشاء اكثر من مرة، وكانت دعوة عائلية متكونة منه ومن زوجته وأطفاله، وهم بنتان وولد ولم يكن فيها غريب غيري. وكانت الكُلفة ارتفعت، وأخذ توفيق يتبسط معي في الحديث حتى دخل الحديث في القضايا السياسية، وكان توفيق حتى ذلك التاريخ من المغضوب عليهم منذ أن حدث التصادم بينه وبين الملك فيصل الأول. ووجدت توفيق يحمل آنذاك حملات سود قاسية على العائلة المالكة ويصفها بالخيانة. والملك في نظره لم يكن إلاً عبداً للإنكليز. وقد استغربت صراحة السويدي، واستغربت أن يجري هذا الحديث مع شخص لم يعرفه من قبل، لذا كنت حريصاً على أن يبقى ما دار من حديث سر بينناً، غير أنني اكتشفت فيما بعد أن السويدي لم يكن يتحرج من مثل هذا الحديث أمام الكثيرين من الناس.

وكان أن اجتمع المجلس الاقتصادي اجتماعات عديدة وطويلة استغرقت نحواً من شهرين. وقد بحثنا في هذا الاجتماع عدة مواضيع اقتصادية ومالية وصناعية وزراعية وما شابه ذلك، وألّفنا عدة لجان لدراسة هذه المواضيع الكثيرة بفروعها العديدة. ثم بحثنا في اعتبار الوطن العربي باختلاف أقطاره وأمصاره وحدة اقتصادية يكمل بعضها البعض. فبحثنا في النظام المالي لهذه البلاد والنظام النقدي، وبحثنا في تنسيق أجزاء هذا النظام ووسائل توحيد النقد بحثاً طويلاً، وفي الرسوم الكمركية وإزالتها عن بعض المواد وتخفيفها بالنسبة للبعض الآخر، كما بحثنا في النظام المصرفي وضرورة تأسيس بنك مركزي

عربي، ولاسيما من أجل الإعمار والإنماء. وأني أتذكر ونحن نبحث في مثل هذه المؤسسة وإذا بالمندوب السوري الشيخ يوسف الياسين يعترض على بعض الأمور ويتحرج من بعض الأمور الأخرى، ثم صرَّح بأن بلاده لا يسعها أن تشترك في مثل هذه المؤسسة، وقد هدد بانسحابه فيما إذا أصرت اللجنة على الموافقة على تأسيس مثل هذا العمل. ولقد استغربت من موقف المندوب السوري وهاجمته بشدة ولكن بأدب. وأتذكر أنني قلت: إننا هنا لنتفاهم على حل مشاكلنا، ونتعاون على أيجاد افضل السبل لتحقيق أهدافنا. نحن لسنا هنا لنهدد بعضنا بعضاً. وقلت: ما كنت أظن أن رجلاً مثل الشيخ يوسف الياسين وهو الخبير المجرب يقف مثل هذا الموقف الذي هو أبعد ما يكون عن روح الجامعة الأخوية.

لقد رد الشيخ يوسف على هذا رداً رقيقاً، ولكن ما أن انتهت الجلسة حتى أتاني الشيخ يوسف وانفرد بي واعتذر عن موقفه، وقال انه لم يكن فيه إلاّ مُسيَّراً، ثم قال: أنت لا تدري ما هي الأحوال في بلادنا، وكيف يمكن أن لا أقف مثل هذا الموقف، وأنتم تريدونني أن اشترك في مؤسسة تتعاطى الفائض والربا. وأجبت مبتسماً: وهل يجوز في الدين الإسلامي أن نُحرِّف الكَلِم فيه؟ وهل يجوز أن نأتي بالخبائث ما دام ذلك في الخفاء ونتحرج بالاشتراك في مؤسسة مالية تخدم الملايين من العرب بحجة أنها تتعاطى الربا. وأي ربا في البنوك؟ وهل هذا هو الربا الذي حرَّمه القرآن الكريم؟ كلا لا يمكن أن يحول الأمر دون تأسيس المصارف، بل نحن نرى العكس من هذا فأن الإسلام يوجب تأسيس مثل هذه المؤسسات منعاً للربا الذي يتعاطاه

الصيارفة أو غيرهم من التجار سواء من اليهود أو غيرهم. هل يجوز أن نتمسك بالقشور ونترك لُب الإسلام.

لجنة أراضي فلسطين

كانت قد تشكلت لجنة للنظر في قضية أراضي فلسطين، من حيث المحافظة عليها ومنع اليهود من شرائها. وكنت قد انتخبت رئيساً لهذه اللجنة، وقد سمعت أن حمدي الباجه جي رئيس الوزراء آنذاك قد قدم الإسكندرية مع عائلته مُصطافاً. ولم أعرف حمدي من قبل معرفة شخصية، وإنما عرفته من بُعد عندما كان نائباً في المجلس، وعندما اشغل وزارة الأوقاف مرة، ثم عرفته من بعد أيضاً عندما كان وزيراً للاقتصاد، وقد عاتب رئيس مجلس الانضباط العام لصدور الحكم بصالحي، ومانع في إعادتي إلى الوظيفة في وزارته. وكان لابد من زيارته زيارة مجاملة بوصفه رئيساً لحكومتنا، وكانت الزيارة ودية فقد استقبلني استقبالاً طيباً ورحب ترحيباً حاراً، ثم سألني عن أعمال المجلس الاقتصادي، فأعطيته ملخصاً وقع منه موقفاً حسناً، ثم أوضحت له كيف انتخبت رئيساً للجنة أراضي فلسطين وهي لجنة مهمة جداً. وكان حمدي مهتماً بقضية فلسطين وهو من المشتغلين بها سواء كان في الحكم أو في خارجه، وقد كان عضواً في جمعية إنقاذ فلسطين. فطلب مني المزيد من الإيضاحات عن هذه اللجنة وأعمالها ومهمتها، وقال: أريد منك أن تطلعني على أعمال هذه اللجنة لأنها تهمني. ثم قال: إنني وإن كنت هنا لست بصفتي الرسمية ولكن أفكر لو اشترك في هذا اللجنة أحد أبناء فلسطين البارزين ولو بصفة

استشارية، قلت: إنها لفكرة صائبة، قال: ومن عسى أن يكون هذا الشخص؟ قلت: وهل هناك أجود من موسى العلمي[٣٧٤] في هذه المهمة. قال: هذا ما كنت أفكر به.

كان موسى العلمي قد زار العراق مراراً بشأن أراضي فلسطين والمحافظة عليها وإنقاذ ما يمكن إنقاذه منها واستغلال ما يمكن استغلاله واستصلاح ما يمكن استصلاحه، وكان بحاجة إلى المال، ولذا فقد كان على اتصال بالجامعة بصورة عامة وبالحكومات أعضاء هذه الجامعة بصورة خاصة. ولقد اتصل بها مجتمعة ومنفردة واتصل بالعراق اكثر من غيره لأنه وجد فيها حماسا للفكرة وإيماناً بنجاحها.

كنت اعرف موسى بعض المعرفة من زيارته للعراق حول الموضوع، فأبرقت إليه وطلبت حضوره إلى الإسكندرية لمواجهة رئيس وزراء العراق ومجلس الجامعة، والمذاكرة ومعه حول موضوع الأراضي. ولقد أجاب موسى بأنه مستعد للحضور في أية لحظة إذا كان لحضوره فائدة، ثم أراد إيضاحاً عن بعض النقاط قبل حضوره، فأبرقت له ثانية بضرورة الحضور بعد أن أعطيته بعض الإيضاحات. وبالفعل حضر موسى إلى الإسكندرية فاستقبلته، ثم اجتمعنا بحمدي الباجه جي أكثر من مرة، واجتمعنا بالأمين العام للجامعة العربية، وكان عبد الرحمن عزام[٣٧٥]، مراراً. وقال لي موسى ذات يوم: ألم ترَ أنني كنت متردداً في المجيء الى الإسكندرية؟ قلت: بلى. قال: وهل تصور أنني كنت أتردد لحظة لو كنت اعرف بوجود فائدة في هذا الحضور،

---

[٣٧٤] رئيس لجنة الأحزاب الفلسطينية آنذاك.

[٣٧٥] تولى منصب الأمين العام للجامعة العربية من سنة ١٩٤٥ الى ١٩٥٢، وتوفي سنة ١٩٧٦.

فلقد حضرت كثيراً من مثل هذه الاجتماعات، ولقد مللتها وسئمتها. إنها اجتماعات فارغة وغير مجدية!. هل رأيت كيف نقتل الوقت ونتكلم الساعة تلو الساعة فهل وصلنا إلى نتيجة عملية؟ هل قررنا شيئاً نافعاً؟ وهل ستُنقَذ أراضي فلسطين بمجرد الكلام والتمنيات. كنت متحمساً لحضور موسى إلى الإسكندرية ولكني أسفت وخجلت.

مباذل الملك فاروق

كان الشهر شهر رمضان المبارك، وكنا قد دعينا إلى دعوة إفطار من قبل الملك فاروق في واحد من قصوره الملكية الكبيرة في الإسكندرية. وكنت قد رأيت فاروق من قبل وعن كثب إذ حضرت بعض الملاهي الليلية، وكنت كلما ذهبت إلى ملهى وجدت في صدر الملهى منضدة بكراسيها فارغة لا يشغلها أحد. وقد استغربت ذلك، حتى رأيت في بعض المرات الملك فاروق يدخل مع بعض حاشيته كما يدخل غيره من الزوار ليشغل هذه المنضدة والكراسي الفارغة. كان كل ملهى مضطرا إلى الاحتفاظ بمثل هذا المحل في كل ليلة، حتى إذا ما غَشي الملك الملهى وجده جاهزاً.

لم يكن يخطر ببالي أن يذهب الملك إلى مثل هذه المحلات، فللملكية قيودها وأصولها، فضلاً عن أن الملك مسلم وكان الشهر شهر رمضان. وقد زاد في استغرابي أن ألقى مرة في هذه الملاهي الملكية أم فاروق[٣٧٦] وقد تقدم بها السن، وحفَّت بها حفنة من الرجال يتقدمهم

---

[٣٧٦] هي الملكة نازلي، الزوجة الثانية للملك فؤاد الأول.

حسنين باشا رئيس الديوان الملكي آنذاك[٣٧٧]، ولم أجدها تغشى هذه المحلات للفُرجة فحسب، بل رأيتها تراقص حسنين باشا على ملأ من الناس[٣٧٨]. فقلت في نفسي ما هذا الذي أراه؟ هل هو من التقاليد الإسلامية أم هو من التقاليد الملكية، وهذا الملكيات في أوربا هل يوجد مثل هذا أو بعضه لدى العائلة المالكة في انكلترة أم في السويد أم في هولندا أم في أية عائلة مالكة أخرى مع أنها مسيحية وأوربية، وتختلف تقاليدها عن تقاليدنا الإسلامية كل الاختلاف؟ لم يكن ما رأيته في العائلة المالكة المصرية ديمقراطية أو تقدمية او شعبية بل كان انحطاطاً في الروح وتفسخاً في الخلق.

كان الملك قد دعانا إلى مأدبة إفطار، وكان علينا أن نحضر بلباسنا الرسمي، وكنت قد اصطحبته معي. وعندما هممت بدخول القصر اعترضني أحد التشريفاتية لأني كنت حاسر الرأس، فقلت: أنني أحد الضيوف وهذا هو زينا في الحفلات الرسمية، وعلامة الاحترام عندنا أن نرفع لباس الرأس ونكون حاسرين. دخلنا صالة الطعام وكانت فسيحة فخمة أنيقة، وقد نثرت فيها الموائد بتنظيم بديع، فجلست على واحدة منها مع ثلاثة آخرين وكانوا من المصريين، ولم تكن مائدة الملك ببعيدة عنا، وكثيراً ما كنت أختلس النظر إليه وهو يأكل وقد أكل كثيراً. وكنت قد ذقت لأول مرة (المانكو) الطازجة، فاحترت في كيفية أكلها في أول الأمر، ثم نظرت إلى من حولي فكان الأمر سهلاً. وقد كتب عليها أنها من المزارع

---

[٣٧٧] ولد سنة ١٨٨٩ وتوفي سنة ١٩٤٦.

[٣٧٨] تزوجت نازلي من أحمد حسنين باشا زواجا عرفيا، فأصدر ولدها الملك فاروق أمرا بتجريدها من لقب الملكة، ثم سافرت الى أوربا واستقرت في أمريكا.

الملكيـة. كانـت لذيـذة جـداً، ولعلـني لا أزال أعـد المنـاكو ألـذ فاكهـة علـى الإطلاق.

ذهبنـا بعـد الفطـور، يتقـدمنا الملـك، إلى الجـامع، ومـا أن هممـت بـدخول الجـامع حتـى اعترضـني أحـد التشريفاتية أيـضاً بـسبب لبـاس الـرأس. وقـد استمعنا في الجـامع إلى خطبـة شـيخ الجـامع الأزهـر مـصطفى المراغـي[٣٧٩]، فأعجبـت بخطبتـه كـثيراً، وكنـت ذهبـت إليـه مـن قبـل أن ننـصرف مـن الجـامع وقـدَّمت لـه نفـسي، وتبادلـت الحـديث معـه بـصورة مختـصرة عـن بعـض مـا ورد في خطبتـه، ثـم قلـت لـه: إنـني أرغـب في زيارتـك وارغـب في أن ابحـث معـك حاضـر العـالم الإسـلامي ومـستقبله، وأن أبحـث بـصورة خاصـة ضـرورة القـضاء علـى الفـروق المذهبيـة. وكـان لحـديثي المختـصر وقـع طيـب في نفـس الـشيخ وقـال: كـم يهمـني أن أبحـث هـذه المواضيع! ثـم قـال: أرجـو ألا تتـأخر في الزيـارة. ولم يمـر إلا نحـو أسـبوع علـى هـذه المواجهـة حتـى قـرأت في الـصحف نعـي الأسـتاذ الأكـبر شـيخ الجـامع الأزهـر، فقلـت: سـبحان الله لقـد اسـتعجلني في الزيارة وطلب مني إلاّ أتأخر فيها!

أخبار من بغداد

لقـد آلمـني وأنـا في مـصر، في وسـط هـذه الزحمـة مـن العمـل الاقتـصادي والاجتمـاعي أمـران، أولهمـا أن أتـسلم رسـالة مـن صـديقي خالد أمـين الحِشمة[٣٨٠] فيهـا نبـأ فـصله مـن الوظيفـة مـن قبـل وزيـر الماليـة

---

[٣٧٩] ولد سنة ١٨٨١ وتولى مشيخة الأزهر مرتين، الأولى سنة ١٩٢٨ ولمدة عام، والأخرى عام ١٩٣٥ وحتى وفاته سنة ١٩٤٥.

[٣٨٠] تقدمت الاشارة اليه في هذه المذكرات.

صالح جبر، ويطلب مني معالجة الموضوع وإرجاعه إلى الوظيفة باعتبار أن صالح صديق لي. وآلمني فصل هذا الموظف وهو كغيره من موظفي الدَّخَل عُرضة إلى الإشاعات الكثيرة. إن مركز هذه الوظيفة حسَّاس له كل العلاقة والتَّماس بالناس ومصالحهم، ولا يمكن لمن يشغل مثل هذه الوظيفة إرضاء الناس كلهم ولابد من التقولات والإشاعات والمبالغة أو الاختلاف في هذه أو تلك. وكان صالح جبر معروفاً بالاستقامة وبالصلابة بل وبالقسوة في بعض الأحيان فما كان منه وقد سمع بعض الإشاعات إلا أن فصل مرة واحدة أربعة من خمسة من مُخَمِّني ضريبة الدخل. ولكن كيف يمكن معالجة الموضوع؟ وكيف يمكن إرجاع خالد إلى الوظيفة وقد صدر أمر الفصل ولا يمكن من الوجهة القانونية النظر في إعادة الموظف المفصول إلاّ بعد انتهاء مدة الفصل المنصوص عليها بقرار مجلس الوزراء. لم يكن خالد- وهو صاحب حاجة- يرى مثل هذه الأمور بسهولة. وكاد في حينه يَزعَل عليّ لأنني لم أقم -كصديق- بما يُحتِّمه واجب الصداقة، ولكن خالد وهو يحمل قلباً طيباً لم تمر عليه مدة طويلة حتى أدرك ملابسات القضية والصعوبات القانونية إلى تقف في الطريق. وثانيهما ثورة البَرَزانيين في الشمال، إذ كان أخي الصغير صاحب قد أصرّ زمن بكر صدقي على الدخول إلى سلك الجيش رغم معارضتي وعدم موافقتي. كنت أراه ذكياً وموهوباً وبوسعه أن يؤدي دوراً مهماً في المجتمع إذا ما تثقَّف ثقافة عالية. كان عبد الصاحب قد أصر على دخول الجيش ولم يستمع إلى نصيحتي ولم يرضخ لمعارضتي، وإن كان قد ندم في الأخير، فأضطر إلى الاستقالة بعد خدمة ناهزت نحواً من ١٨ سنة. وكانت استقالته بسبب عدم

ترفيعه في اغلب الأحيان بصورة اعتيادية بل لابد من تأخير الترفيع. وكان قد رفض قبوله في كلية الأركان بالرغم من توسطي شخصياً لدى وزير الدفاع ورئيس أركان الجيش. وكان إذ يحرم من المغانم لابد أن ينهض بكل المغارم، كان لابد من إرساله إلى كل الحركات واشراكه في كل المعارك، وكان هو وأمثاله من أولاد (الخايبة) في ساحة القتال، بينما غيره من أبناء الضباط الكبار وأولاد الذوات ينعمون بأحسن المراكز والرُتب.

كنت في مصر حينما اشترك في حركة البارزانيين، وكنت قد سمعت الشيء الكثير عن الخسائر الكبيرة التي لحقت بالجيش العراقي في الذي كان يحارب في مناطق جبلية وعرة لم يعتد عليها ولا على حرب العصابات فيها. ولم تكن هذه أول حادثة أو ثورة يشترك فيها أخي بل كان قد اشترك في عدد منها ولاسيما ثورة رشيد عالي الكيلاني في ثورة مايس ١٩٤١. وكان أخي في هذه الثورة قد التقى بالموت اكثر من مرة، ولاسيما وهو في طريقه إلى الحبانية مع بقية القوة التي أرسلت تعزيزاً للجيش المرابط حول معسكر الحبانية. وكانت القوة الجوية البريطانية قد استكشفت مسيرة هذه القوة وقد ظفرت بها وهي في الطريق ولم يكن شيء يحميها من مدافع ضبط الطائرات او طائرات مقاتلة، فسلطت عليها مدافع الرشاشات وأصلتها ناراً حامية وهي تطير على ارتفاع قليل. وكانت إحدى هذه الطائرات قد انقضت على السيارة التي كانت تُقِل أخي وغيره من الضباط والجنود فأمطرتها وابلاً من رشاشاتها، ثم بقيت تلاحقها وتستمر في قصفها حتى أحرقت السيارة ومن فيها. وان أخي كلما ذكر

هذه الحادثة انهمرت الدموع من عينيه لأنه فقد فيها بعض أصدقائه وإخوانه، ولاسيما صديقاً منهم رآه كيف تشتعل النار فيه وكيف تلتهمه وهو يصرخ ويستغيث. وكان أخي وقلة معه قد نجوا ولكن بأعجوبة.

وإذا كان وجود أخي في المعركة يقلقني ويفزعني فقد كنت اكثر قلقاً وألماً على والدتي التي كانت لا تنام الليل من أجل (صغيرها) الذي هو في ساحة القتال. وكانت كلما حدثت مثل هذه الحوادث لعنت الساعة التي دخل فيها أخي إلى الجيش ولعنت الساعة التي لم يستمع فيها إلى نصيحتي، وقد كنت له بمثابة الأب، وكنت مستعداً لأنفق عليه حتى الانتهاء من الدراسة العالية، ولكن عَنَت الشباب وغروره يحول دون تفهم النصيحة وإدراك قيمتها إلاَّ بعد فوات الأوان. كان أخي قد سبب لي قلقاً مستمراً واضطرابا وألماً لا ينقطعان حتى كان مما ليس له بُد، واستقال من الجيش، وبذلت أنا جهوداً شخصية لقبول استقالته، وهو برتبة رئيس أول مستحق الترفيع إلى رتبة مقدم، وكان ذلك في سنة ١٩٥٤.

مؤتمر مقاطعة إسرائيل

ما كدت أعود من مصر إلى بغداد، وقد مضى عليّ مدة من الزمن لم تتجاوز بضعة اشهر، حتى استُدعيت من قبل وزير المالية صالح جبر، وقال لي: هل لك أن تسافر إلى القاهرة، فقد أنعقد مؤتمر اقتصادي آخر، أو هو على وشك الانعقاد. وأعمال المؤتمر هذه المرة تتعلق بمقاطعة (إسرائيل) اقتصادياً. قلت: إنه عمل جليل. وما هي إلا بضعة أيام حتى طرت إلى

القاهرة، واشتركت في هذا المؤتمر مع ممثلي باقي الدول العربية. لقد درسنا موضوع المقاطعة، أهدافها، وما هي السبل لتحقيق هذه الأهداف. فقررنا المقاطعة وقبلنا الفكرة من حيث الأساس، وذلك أن تقاطع البلاد العربية قاطبة (إسرائيل) فلا نصدر إليها شيئاً ولا نستورد منها شيئاً مهما كان لديها من فائض يمكن تصديره إلينا، أو مهما كنا بحاجة إلى استيراد بعض مصنوعات إسرائيل. وكان لابد من المقاطعة الشاملة مهما كلف من تضحيات البلاد العربية في سبيل ذلك فإننا نعرف أن البلاد العربية مهما تضررت فإن ضرر إسرائيل اشد واكبر. وكنا نعرف أن إسرائيل تريد تصنيع بلادها وتريد مع أسواقاً لصناعتها، وكنا نعرف أنها تهدف إلى أن تكون البلاد العربية السوق الرئيس لهذه الصناعة كما أنها السوق الرئيس للمواد الأولية. ونعرف انه لا يمكن (لإسرائيل) أن تعيش وحدها، ولا يمكن لها أن تبني اقتصادها على أساس الاكتفاء الذاتي، وإنما لابد لها من التبادل التجاري. لقد علمنا منذ البداية أن ازدهار إسرائيل الصناعي والتجاري وحتى الزراعي لا يمكن أن يكون إلا على حساب البلاد العربية، فإذا ما انتعشت صناعة إسرائيل فلابد من أن تنكمش وتضمر صناعة البلاد العربية. فإذا كانت المقاطعة من ناحية سلاح هجوم فأنها في الحقيقة والواقع سلاح دفاع[٣٨١].

---

[٣٨١] في ٢ كانون الأول سنة ١٩٤٥ أصدر مجلس الجامعة قرارا بمقاطعة البضائع الصهيونية، كما نص على أن تؤلف لجنة من الدول الممثلة في الجامعة للتنسيق والإشراف على تنفيذ هذا القرار، وهي اللجنة التي تحولت فيما بعد الى لجنة دائمة تضع مقترحاتها وتوصياتها لتعرض على مجلس الجامعة لإقرارها.

لقد شهرت البلاد العربية هذه السلاح للدفاع عن مقوماتها وكيانها، ولحماية زراعتها وصناعتها وتجارتها، ولا يمكن إنجاح مثل هذه الحماية إلاّ إذا سُدَّت الأبواب بوجه غزو إسرائيل الاقتصادي[٣٨٢].

[٣٨٢] توقف المرحوم عبد المجيد محمود هنا عن كتابة مذكراته.

المحتويات



الأمير عبد الاله، تحسين قدري،
عبد المجيد محمود أثناء حضور
مباراة لكرة القدم في ساحة الكشافة
ببغداد سنة ١٩٥٣



صورة ببدلة التخرج
جامعة كورنيل
١٩٣٢



في توديعه قبيل سفره الى بيروت للدراسة في احدى حافلات شركة نيرن



حفلة في السفارة الايطالية ببغداد سنة ١٩٥٤
من اليمين: السفير الايطالي، عبد المجيد محمود، د. عبد الأمير علاوي، زوجة عبد المجيد محمود



في حفلة سفارة أندونيسيا ببغداد بمناسبة العيد الوطني الأندونيسي ١٩٥١
من اليمين: زوجة عبد المجيد محمود، د. فاضل الجمالي، زوجته، عبد المجيد محمود، السفير الأندونيسي



في تشييع جثمان الملكة عالية ١٩٥٠
يظهر في الصورة من اليمين: د. نديم الباچه چي، الأمير عبد الاله، تحسين قدري ومجموعة من رجالات الدولة



جلسة تضم (من اليمين) د. علي كمال، عبد المجيد محمود، د. محمد حسن سلمان



مع لفيف من أعضاء نادي المثنى ببغداد ١٩٢٧
ويبدو عبد المجيد محمود الآخر من اليسار



في افتتاح الدورة النيابية في مدخل المجلس النيابي العراقي
(مبنى بيت الحكمة حالياً) ـ ١٦ آب ١٩٥٤

حقوق الطبع محفوظة

- مذكرات عبد المجيد محمود

  الوزير في العهد الملكي في العراق
- المؤلف : الدكتور عماد عبد السلام رؤوف
- الطبعة الأولى ٢٠٠٦.
- الناشر : دار الحكمة ـ لندن

ISBN 1 90492317 8

88 Chalton Street, London, NW1 1HJ
Tel: 44 (0) 20 7383 4037 Fax: 44 (0) 20 7383 0116
E-Mail: al_hikma_uk@yahoo.co.uk

DAR ALHIKMA
Publishing and Distribution



88 Chalton Street, London NW1 1HJ Tel: 44 (0) 20 7383 4037 Fax: 44 (0) 20 7383 0116

E-Mail: al_hikma_uk@yahoo.co.uk Website: www.hikma.co.uk



كتب عبد المجيد محمود هذه المذكرات ليسجل فيها تفاصيل ما سمعه ورآه وشارك به من أحداث خلال حقبة مهمة من تاريخ وطنه، تمتد منذ مولده سنة ١٩٠٩ وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية، وإذا كان قد توقف عن التسجيل عند سنة ١٩٤٥، ولم يستمر ليغطي الجزء الأكثر احتداماً بالأحداث من حياته السياسية - وهي المدة التي شغل فيها مناصبه الوزارية- فإن هذا التوقف لا يقلل من أهمية المذكرات في شيء، ذلك أنها ليست من النوع التي يكتبه السياسيون المحترفون عادة، فلا يدرجون فيها غير ذكرياتهم السياسية فحسب، وإنما هي تمثل نوعاً آخر، يتضمن تفاصيل الحياة الاجتماعية والثقافية أيضاً، فالحياة - كما تبدو من خلالها - نسيج واحد، تمتزج فيه مختلف التفاصيل لتؤلف لوحة خلابة واحدة، ولا عجب في ذلك فعبد المجيد محمود كان كاتباً باحثاً، له العديد من البحوث والمقالات، ومن ثم فهو يمتلك القدرة على تصوير أدق جزئيات الحياة على نحو يحمل قارئه على أن يشاركه إياها بحلوها ومرها، وكانما يعيشها معه يوماً فيوم.

DAR ALHIKMA

Publishing and Distribution



88 Chalton Street, London NW1 1HJ Tel: 44 (0) 20 7383 4037 Fax: 44 (0) 20 7383 0116

Email: al_hikma_uk@yahoo.co.uk

Web site: www.hikma.co.uk